

مكتبة 527

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سْكُوتْ تُورُو

SCOTT TUROW

المؤلف الذي احتلت كتبه المرتبة الأولى على قائمة «نيويورك تايمز»

البْرِيْك

INNOCENT

رواية

تنمية رواية «البريء المفترض»

تحولت هذه الرواية إلى فيلم تلفزيوني مشوق

وبيع منها أكثر من مليون نسخة في أميركا ثم ترجمت ونشرت في 20 بلداً

«عمل يسلب الألباب... عمل روائي كبير... يصف بدقة نظام العدالة الجنائية في الولايات المتحدة».
صحيفة «سان فرانسيسكو غرونيكل»

البريء

t.me/t_pdf

٥٢٧ | مكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

INNOCENT

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Grand Central Publishing

بعمقضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش.م.ل.

Copyright © 2010 by Scott Turow

All rights reserved

Arabic Copyright © 2011 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.I.

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ - 2012 م

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠١٩١١٧

ردمك 9-614-01-0454-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ر
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.I



عين الباية، شارع المفتى توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: +961-786233 - 785108 - 785107

ص.ب: 1102-2050-786230 - شوران - لبنان

فاكس: +961-786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

البريك

رواية

سکوت تورو

ترجمة

بسام شيحا

مكتبة | 527

مراجعة وتحرير

مركز التعریف والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون شمل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

تمهيد

نات ، 30 أيلول ، 2008

رجل جالس على طرف سرير . إنه أبي .
جثة امرأة راقدة تحت الأغطية . إنها أمي .

لا تبدأ القصة هنا ، في الواقع ، ولا تنتهي على هذا النحو . لكنها اللحظة التي يرجع إليها ذهني باستمرار . على هذه الحال أراهما دائماً .
بقي أبي هناك ، في تلك الغرفة - بحسب ما سيقوله لي في اليوم التالي - لنحو ثلاثة وعشرين ساعة متواصلة ، باستثناء فترات الذهاب إلى الحمام . استيقظ أبي البارحة ، كما يفعل في معظم أيام الأسبوع . وفي السادسة والنصف صباحاً ، استطاع من نظرة واحدة إلى الخلف - حالما وجدت قدماه خفيه - أن يرى علامات الموت على ملامح أمي . هزَّ كتفها ولمس شفتيها . وجسَّ براحة يده رقبتها بضع مرات لكن جلدها كان بارداً . وكانت أطرافها تتحرك كقطعة واحدة ، مثل تمثال عرض على واجهة أحد متاجر الألبسة .

قال لي إنه جلس بعد ذلك على كرسي قبالة أمي . لم يبكْ قطَّ ، بل كان يفكر ، هذا ما قاله لي . لا يعرف كم من الوقت بقي جالساً ، غير أن الشمس عبرت الغرفة من أولها إلى آخرها ، قبل أن يقف أخيراً ويبدأ بترتيب الغرفة بصورة غريبة .

قال إنه أعاد وضع الكتب الثلاثة أو الأربع التي كانت تطالعها دائماً على الرف . وعلق الثياب التي كانت معنادلة على وضعها فوق بعضها على الكرسي الموجود أمام تبرُّجها ، ثم رتب السرير حولها ، حيث

شد الشراشف وطوى غطاء السرير بشكل متواز ، قبل أن يضع ذراعيها خارجاً مثل ذراعي دمية على الحواف الحريرية للبطانية . رمى وردتين أو ثلاثة من الورود الذابلة في الزهرية الموضوعة على طاولة السرير ، ورثب الجرائد والمجلات على مكتبه .

أخبرني أنه لم يتصل بأي شخص ؛ حتى المسعفين ، لأنه كان واثقاً من أنها كانت ميتة ، لكنه أرسل بريداً إلكترونياً من سطر واحد إلى مساعدته يخبرها فيه بأنه لن يأتي إلى العمل . لم يجب على الهاتف بالرغم من أنه رنَّ عدة مرات . ومرَّ يوم بأكمله تقريباً قبل أن يفطن إلى وجوب الاتصال بي .

لكن ، كيف يمكن لها أن تموت ؟ سأله . كانت على خير ما يرام قبل ليلتين عندما كنا معاً . ثم أضفت : إنها لم تقتل نفسها . لا ، قال على الفور .

لم تكن في ذلك النوع من المزاج . إنه قلبها ، هذا ما قاله لي تالياً . لا بد أنه قلبها ، وضغط دمها . فجذك مات بالطريقة ذاتها .

هل ستتصل بالشرطة ؟

الشرطة ! قال بعد فترة صمت : ولماذا أتصل بالشرطة ؟ آه ، أبي ! أنت قاض . أليس هذا ما يفعل عندما يموت شخص ما بصورة مفاجئة ؟ كنت أبكي في هذه اللحظات ، ولا أعرف متى بدأت . كنت سأتصل بخدمة ترتيب مراسم الدفن ، هذا ما قاله لي حينئذ ، لكنني تذكرت أنك قد ترغب برؤيتها قبل أن أقوم بذلك . آه ، صحيح ، أجل ، أريد أن أراها .

كما يحدث في العادة ، طلبت منا خدمة ترتيب مراسم الدفن الاتصال بطبيب العائلة ، الذي استدعى بدوره محققاً في الوفيات الغامضة ، وهذا الأخير قام بإرسال الشرطة . مرت ساعات الصباح بصعوبة ، وساعات بعد الظهر بصعوبة أكبر ، مع دخول وخروج عشرات الأشخاص من وإلى بيتنا . لم يصل المحقق إلا بعد ست ساعات . وبقي مع أمي لدقائق

واحدة فقط قبل أن يطلب من والدي الإذن بكتابة لائحة بكل الأدوية التي كانت تتناولها. وبعد ساعة، مررت بجانب حمام والدي ورأيت شرطياً يقف مشدوهاً أمام خزانة الأدوية المفتوحة، حاملاً بيده قلماً ودفتراً.
يا الله! قال وعلام الدهشة باديه على محياه.

اضطراب المزاج ثانى القطب، قلت له عندما لا حظني أخيراً. إنها كانت مضطراً لتناول الكثير من الأدوية. وعندئذ، قام بإفراج الرفوف من جميع محتوياتها في كيس، وذهب حاملاً معه كيساً مليئاً بالأدوية. في تلك الأثناء، كان رجال الشرطة يأتون إلى أبي بين الحين والأخر ويسألونه عما حصل. وكان أبي يخبرهم بالقصة ذاتها مرة بعد مرأة، ودائماً بالطريقة نفسها.

بماذا كنت تفكر طوال ذلك الوقت؟ قال له أحدهم.
أيها الشرطي، هل أنت متزوج؟
أجل أيها القاضي.

إذاً، فأنت تعرف بماذا كنت أفكـر. بالحياة. بالزواج. وبها كنت أفكـر.

طلبت منه الشرطة أن يقص روايته ثلاثة أو أربع مرات؛ كيف جلس هناك؟ ولماذا؟ فلم يتغير جوابه قـطـ. أجاب على كل سؤال بأسلوبه الهدى الاعتيادي، إنه رجل القانون الجدى الذى ينظر إلى الحياة كما لو كان ينظر إلى بحر بلا نهاية.

أخبرهم كيف حرـك كل قطعة بقطعتها.
وأخبرهم أين أمضى كل ساعة من تلك الساعات.
لكنه لم يخبر أحداً بخصوص الفتاة.

الباب الأول

القسم الأول

الفصل الأول

راستي، 19 آذار، 2007، قبل ثمانية عشر شهراً
[اضغط هنا](https://t.me/t_pdfs)

من المقعد جوزي اللون المرتفع عن منصة المحامين بنحو المتر والنصف، أضرب بالمطرقة وأمر ببدء المرافعات الشفهية لآخر قضية في ذلك الصباح .
الشعب ضد جبون هارناسون" ، أقول ، "خمس عشرة دقيقة لكل فريق" .

قاعة محكمة الاستئناف المهيّبة ، بأعمدتها البنيّة التي تصل إلى سقف ذهبي اللون بعلو طابقين ، مزخرف على الطراز الروكوكى (*) ، خالية تقريباً من الحضور ، باستثناء مولي سينغ ، كاتبة المحكمة ، وعدة مدعين عاميين مساعدين شبان دفعتهم القضية الشائكة للحضور ، إضافة إلى حقيقة أن رئيسهم ، المدعي العام المؤقت ، تومي مولتو ، سيصعد شخصياً إلى هنا من أجل المرافعة ممثلاً الدولة . يجلس مولتو ، الذي يبدو مثل حصان خاص حرباً طاحنة ، مع اثنين من مساعديه وراء واحدة من الطاولات جوزية اللون اللامعة الموضوعة أمام مقعد المحامين . وفي الجانب الآخر ، ينتظر المتهم ، جون هارناسون ، المدان بقتل صديقه وشريكه في السكن بالرسم . يسمع الجدل الفاصل حول مصيره ، بينما يتقدّم محامييه ، ميل تولولي ، نحو المنصة . وبجانب الجدار البعيد ، يجلس عدة

(*) أسلوب في الفن والعمارة نشأ في باريس في مطلع القرن الثامن عشر ، وراج في فرنسا وأوروبا الوسطى خلال النصف الثاني منه وذلك بعد انتهاء عصر الباروك . يتميز بالمالحة في الزخرفة .

موظفين قانونيين، بينهم أنا فوستيك، كبيرة موظفي، التي ستترك العمل يوم الجمعة. وستشعل أنا، بتوجيهه مني، الأضواء الصغيرة المثبتة فوق منصة المستشار، أحضر وأصفر وأحمر، للدلالة على الوظائف نفسها التي تؤديها هذه الأضواء في حركة المرور.

"نرجو أن يرضي القاضي عما سأقدمه". يقدم ميل تحية المحامين المعتمادة لقضاء الاستئناف. ويصرّ ميل، الذي يكتسب في هذه الأيام وزناً إضافياً لا يقل عن ثلاثين كيلوغراماً، على ارتداء بذلات مقلمة ضيقه مثل أغلفة النفاقة - ما يكفي لتشعرك بالدوار - والشعر المستعار البشع نفسه الذي يبدو معه كما لو أنه قام بسلخ جلد كلب من فصيلة بوودل. يبدأ مرافعته بابتسامة عريضة متملقة، وكأنني والقاضيين الآخرين اللذين يجلسان إلى جنبي، مارفينا هاملين وجورج ماسون؛ اللذين يشكلان معى لجنة من ثلاثة قضاة ستبُت بأمر الاستئناف أصدقاء مقربون له. لم أكثرت يوماً لميل، الذي لا يعدو كونه أفعى أكبر من العادة في وكر الأفاعي الذي يمثله محامو الدفاع الجنائيون.

"أولاً"، يقول ميل، "لا يسعني البدء قبل أن أتمنى لسيدي رئيس المحكمة، القاضي سابيتش، ذكرى ميلاد سعيدة في هذا اليوم الشخصي الهام".

بلغت اليوم الستين من عمري، وهي مناسبة أنظر إليها بكآبة. ولا شك أن ميل حصل على هذه المعلومة من عمود الشائعات في الصفحة الثانية من صحيفة تربيبون هذا اليوم، وهي صفحة يومية تحفل بالتسريبات والإساءات المبطنة. وتنتهي عادة بتقديم التهاني بمناسبة ذكرى ميلاد عدد من المشاهير والشخصيات المحلية البارزة؛ والتي شملتني في هذا الصباح: "رasti سابيتش، كبير قضاة محكمة الاستئناف المحلية التابعة لمنطقة الاستئناف الثالثة، ومرشح لمحكمة العليا في الولاية، 60 عاماً". ورؤية هذه التهنئة بالخط العريض كانت أشبه بتلقى رصاصة.

"كنت أمل أن لا يلاحظها أحد يا سيد تولي". فيضحك جميع الموجودين في القاعة. واكتشفت منذ فترة طويلة أن مجرد كوني

قاضياً، يجعل كل نكتة ألقها، حتى أسمجها، مضحكة جداً. أشير إلى تولى كي بتابعه.

يتمثل عمل محكمة الاستئناف، بأبسط التعبير، في التأكيد من أن الشخص المستأنف حصل على محاكمة عادلة. تعكس لائحة دعاوينا صورة العدالة على الطريقة الأمريكية؛ مقسمة بالتساوي بين الأغنياء الذين يطعنون عادةً في قضايا مدنية باهظة، وبين الفقراء الذين يشكلون معظم المستأنفين، والذين يواجهون أحكاماً بالسجن لسنوات طويلة. ولأن المحكمة العليا في الولاية تراجع القليل القليل من النقاط، فإن محكمة الاستئناف - في تسع حالات من عشر - هي التي تملك الكلمة الفصل في القضايا بصفة عامة.

القضية اليوم محددة بوضوح: هل قدّمت الولاية دلائل كافية لتبرير إدانة هارناسون بجريمة القتل من قبل هيئة المحلفين؟ نادرًا ما تبطل محكمة الاستئناف الأحكام على هذا الأساس. فالقاعدة هي أن قرار هيئة المحلفين يبقى صالحًا ما لم يكن يفتقد إلى المنطقية بصورة كلية. ولكن هذه القضية محيرة بحق. توفي ريكاردو ميلان، شريك هارناسون في السكن وفي شركة سياحية أيضاً، عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين بمرض غامض اعتبره طبيب التشريح التهاباً معويًا أو فطرياً غير مشخص. وكان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد لو لا عناد والدة ريكاردو التي قامت بعده رحلات إلى هنا من بورتوريكو، مستخدمةً كلَّ مدخلاتها من أجل استخدام محقق خاص وأخصائي في السموم، والذي أقنع الشرطة في نهاية المطاف بنبيش قبر ريكاردو وانتشال جثته. وقد أظهرت عينات شعره مستويات مميتة من الزرنيخ.

السم جريمة خفية. فليس هناك سكين أو سلاح ناري. ولا وجود للحظة نبيشه (نسبة للفيلسوف نبيشه)، عندما تواجه الضحية وتشعر بإثارة تنفيذ إرادتك عليه. إن عنصر الخديعة فيها أكبر بكثير من العنف. ومن الصعب إلا تُدفع إلى الاعتقاد بأن ما أوقع هارناسون أمام هيئة المحلفين هو أنه ببساطة يبدو متورطاً من هيئته فقط. ويبدو لي مألوفاً نوعاً ما.

ولكن، لا بد أن هذا يرجع إلى رؤيتي صورته في الصحيفة، لأنني حتماً كنت سأذكر شخصاً بمثيل هيئته الغريبة. إنه يرتدي بدلة لامعة نحاسية اللون. وأظافر اليد - التي يكتب بها بهو جائية عنيفة ملاحظات غير معروفة - طويلة إلى درجة أنها بدأت تتحنى مثل أظافر إمبراطور صيني، إضافة إلى وجود عدد وافر من العقد المتشابكة تغطي شعره الأحمر الكثيف. ولديه شارب زنجيلي اللون يتدلّى فوق فمه، وشعر حاجبيه الطويل يجعله يبدو مثل حيوان قدس. فلطالما أشعرني مثل هؤلاء الأشخاص بالحيرة. فهل يسعى لجذب الانتباه إليه؟ أو أنه ببساطة يعتقد أننا جميعاً مملوون؟

وبعيداً عن منظره، فإن الدلائل الحسية التي تشير إلى أن هارناسون قتل ريكاردو متضاربة بعض الشيء. فقد أبلغ بعض الجيران مؤخراً أن هارناسون كان في الشارع يصرخ على ريكاردو بسبب خروجه مع رجل أصغر عمراً منه، حاملاً بيده سكين مطبخ، ويبعدوا عليه أنه كان ثملأ. وأكدت تقارير الولاية أيضاً أن هارناسون ذهب إلى المحكمة من أجل منع نبش قبر ريكاردو، حيث أصر على أن والدة ريكى مجنونة تريد أن تلصق التهمة به من خلال جنة أخرى. ولعل الدليل المادي الوحيد في القضية هو ما وجده المحققون من آثار ميكروسكوبية من سم نمل يحتوي أكسيد الزرنيخ في غرفة التخزين خلف المنزل الذي ورثه هارناسون عن أمه. بيد أن هذا المنتج لم يعد يُصنع منذ عشر سنين على الأقل؛ الأمر الذي شجع الدفاع بأن الذرات القليلة كانت مجرد بقايا منحلة من زمن الأم، في حين كان بوسع الفاعل الحقيقي أن يشتري نوعاً أكثر سمية من أكسيد الزرنيخ من عدة بائعين على الإنترنت. وبالرغم من أن الزرنيخ سم كلاسيكي معروف، إلا أن القتل بواسطته نادر هذه الأيام، ولهذا السبب لا يُشمل الزرنيخ ضمن الفحوصات السمية الروتينية التي تُجرى على الجثث، وهذا هو سبب إخفاق طبيب التشريح الأول في اكتشاف سبب الوفاة.

باختصار، كانت الأدلة متوازنة تماماً بحيث قررت، بصفتي كبير

القضاة، إطلاق سراح هارناسون بكفالة إلى حين استئنافه الحكم. وذلك لا يحدث غالباً بعد أن يُدان المتهم، ولكن بدا لي من غير المنصف أن يبدأ هارناسون بتمضية مدة في السجن في هذه القضية الدقيقة قبل أن نبت في المسألة بشكل قطعي.

وقراري يفسر أيضاً ظهور تومي مولتو، المدعي العام المؤقت، اليوم. مولتو، المدعي العام المؤقت، محامي استئناف بارع. ولكن، نظراً إلى كونه يترأس مكتبه، فإنه نادراً ما يملك الوقت للمرافعة في قضایا الاستئناف في هذه الأيام. وهو يعالج هذه القضية لأن المدعين العامین قرؤوا حكم الكفالة على أنه إشارة إلى إمكانية نقض حكم إدانة هارناسون. والمقصود من حضور مولتو هو التأكيد على مدى تمسّك مكتبه بالأدلة التي يقدمها. وها أنا أحقّ أمنية تومي، كما أظن، وأسأله حالما يبدأ دوره بالكلام.

"سيد مولتو، صَحَّ لي. عندما أقرأ التقرير، فإنني لا أجد أي دليل على الإطلاق. كيف يمكن للسيد هارناسون أن يعلم بأن الزرنيخ لن يكتشف عند إجراء الفحص الروتيني عن السموم، وبذلك يمكنه تمرير قتل السيد ميلان على أنه ناتج عن أسباب طبيعية؟ فهذه ليست معلومة عامة فيما يتعلق بالمواد المشمولة في اختبار السعّيات على الجثث، أليس كذلك؟".

"إنه ليس سراً حكومياً، سيد القاضي. ولكن لا، إنه غير معلن، لا".

"وسواء أكان سرياً أم لا، فليس هناك أي دليل على إمكانية أن يكون السيد هارناسون يعرف ذلك، أصحيح ما أقوله؟".
يقول مولتو: "هذا صحيح، سيد القاضي".

إحدى نقاط قوة تومي مولتو هنا هي أنه مهذب و مباشر بصورة دائمة، لكنه لا يستطيع منع ظل سخط باطنني مألف من تعنيم وجهه ردًا على استجوابي له. ومولتو وأنا يجمعنا تاريخ معقد. فقد كان مولتو محامي ادعاء مساعدًا في الحادثة التي لا تزال منذ إحدى وعشرين سنة؛

تقسم حياتي إلى نصفين؛ كما يقسم الخط منتصف الطريق، وذلك عندما حوكمت ثم بُرئت من جريمة قتل محامية ادعاء مساعدة أخرى.
”في الواقع، سيد مولتو، لم تكن هناك أدلة واضحة تتصل بكيفية تسميم السيد ميلان من قبل السيد هارناسون، أليس كذلك؟ ألم يشهد عدة أصدقاء لهما بأن السيد ميلان كان يطهو جميع الوجبات؟“.

”أجل، لكن السيد هارناسون كان هو من يصب الشراب عادة.“
”لكن أخصائي الكيمياء الذي استعان به الدفاع قال إن أكسيد الزرنيخ شديد المرونة بحيث لا يمكن إخفاء طعمه حتى في كأس شراب، ألم يقل ذلك؟ والادعاء لم يفند هذه الشهادة، أليس كذلك؟“.

”لم تُفند هذه النقطة، هذا صحيح، سيدي القاضي. لكن هذين الرجلين تشاركاً معظم وجباتهما. وهذا بالتأكيد من هارناسون الفرصة الكافية لارتكاب الجريمة التي أدانته بها هيئة المحلفين.“.

يتحدث الناس كثيراً في المحكمة هذه الأيام عن التغيير الذي طرأ على تومي بعد زواجه للمرة الأولى، وفي وقت متاخر من حياته، واستقراره في وظيفة كان يتوق إليها بوضوح. بيد أن الحظ الجيد الذي حلّ على تومي مؤخراً لم يساعد كثيراً في إنقاذه من وجوده طوال عمره بين غير المحظوظين من الناحية الجسدية. لقد تركت السنون آثارها الواضحة على وجهه الذي أشرف على مرحلة الشيخوخة. والجزء القليل من الشعر الباقى على رأسه أصبح أبيض تماماً، وهناك كيسان من اللحم أسفل عينيه، مثل كيسى شاي مستعملين. ولكن، بالرغم من ذلك، لا يمكن إنكار وجود تحسن طفيف. لقد فقد تومي بعضه من وزنه، واحتوى بذلات لم تعد تبدو كما لو أنه نام فيها، كما أنه غالباً ما يُظهر تعبيراً ينم عن الوداعة، وحتى البهجة. ولكن ليس الآن، ليس معه. فعندما يتعلق الأمر بي، وبالرغم من مرور السنين، لا يزال تومي ينظر إلى كعدو دائم. ويمكنني القول، من قراءة ملامحه وهو يتجه عائداً إلى مقعده، إنه يأخذ شوكوكى اليوم كدليل إضافي على ذلك.

عند انتهاء النقاش، أرفع الجلسة وأذهب مع القاضيين الآخرين

من دون الموظفين إلى غرفة ملاصقة لقاعة المحكمة، حيث ستناقش قضایا الصباح، ونقرر محصلة كل واحدة منها، وسيكتب كلّ منا رأيه للمحكمة. إنها غرفة أنيقة تبدو مثل غرفة طعام في نادٍ للرجال ، بما فيها الثريا الكريستالية. وهناك طاولة كبيرة محاطة بكراسي جلدية ذات مساند مرتفعة تكفي لجلوس قضاة المحكمة الثمانية عشر كلهم في المناسبة النادرة التي نجلس فيها معاً - وهذه الحالة تُسمى "en banc" - لاتخاذ قرار بشأن قضية ما.

"ثبتت"، تقول مارفينا هاملين حالما نصل إلى اسم هارناسون ، وكأنه ليس ثمة فائدة من النقاش. مارفينا تشبه الصورة النمطية المطبوعة في ذهاننا عن السيدة السوداء العادية الصارمة ، ولديها ما يكفي من الأسباب لتكون كذلك. لقد نشأت في هي معزول مخصص للسود فقط ، وأنجبت ولداً وهي في السادسة عشرة ، وبالرغم من ذلك تمكنت من إكمال دراستها ، وعملت في البداية كسكرتيرة قضائية ، ثم انتهت بها الأمر كمحامية؛ ومحامية جيدة أيضاً. لقد ترافعت في قضيتيين أمامي عندما كنت قاضياً أحكم بمفردي من دون لجنة محلفين ، منذ سنين خلت . وأنا أعرف ، بفضل جلوسي بجانب مارفينا لمدة عشر سنين ، أنها لن تغير رأيها. "من غيره يمكن أن يكون قد فعلها؟" تقول مارفينا .
أسألها: "هل ستجلب مساعدتك القهوة لك ، مارفينا؟".
"أنا أجلبها لنفسي ، شكراً ."

"أنت تعلمين ما أعنيه. ما هو الدليل الذي قدم على أنه لم يكن هناك شخص من العمل؟".

"المدعون العامون ليسوا مضطرين لملاحقة الأرانب في كل حجر ، والأمر ينطبق علينا نحن أيضاً". تجيب مارفينا .

إنها محققة في هذه النقطة ، لكنني مع ذلك أخبر زميلي بأنني سأصوّت ضد القرار. ولهذا نلتفت كلانا إلى جورج ماسون الذي سيكون رأيه ، عملياً ، القرار الحاسم في القضية. لا يزال جورج ، وهو فيرجيني مهذب ، يحتفظ بأثر ناعم من لهجته الأصلية ، وتسرية شعره

الأبيض ملائمة تماماً لمتطلبات قسم انتقاء الممثلين في السينما فيما يتعلق بالممثل الذي سيلعب دور قاضٍ. وجورج صديقي المفضل في المحكمة، وسيخلفني كرئيس للقضاة إذا ما فزت - كما هو متوقع على نطاق واسع - في الانتخاب الأساسي والعام في السنة القادمة؛ للوصول إلى المحكمة العليا في الولاية.

يقول جورج: "أعتقد أنها ضمن الحدود تماماً".

أقول متحجاً: "جورج!" كنت وجورج خصمين لدوين عندما كانا محاميين. فمنذ ثلاثين عاماً جاء جورج بصفته محامي الدفاع الجديد المعين في المحكمة حيث كنت أشغل منصب المدعى العام. والخبرة الأولية شديدة التأثير في القانون، كما في أي مهنة أخرى، ولهذا السبب يميل جورج عادة إلى المتهمين أكثر مما أفعل، ولكن ليس في هذا اليوم. يقول جورج: "أعترف بأن الحكم يقول إنه يمكن أن يكون غير مذنب فيما كانا في محكمة البداية، ولكننا في الاستئناف. لذا، فالوضع مختلف. وأنا لا أبدل حكم هيئة المحلفين بحكمي".

هذه الملاحظة الصغيرة موجهة إليّ. وأنا لم أقولها علانية لو كنت مكانه، لكنني أشعر بأن حضور السيد مولتو والأهمية التي يوليه للقضية قد تركا تأثيراً كافياً على زميلي. مع ذلك فأنا لا أزال غير متأكد. ولكن، هذا أيضاً جزء من العمل؛ أي قبول التباسات القانون. وأطلب من مارفينا أن تكتب هذا الرأي للمحكمة، ثم تغادر وتتركني وجورج بمفردنا.

يقول جورج: "قضية صعبة". من إحدى بديهيات هذه الحياة - مثل عدم ذهاب الزوج والزوجة إلى السرير وهما غاضبان - أن يترك قضاة محكمة الاستئناف خلافاتهم في قاعة التشاور. أرفع كتفي رداً على تعليقه، لكنه قادر على ملاحظة الحيرة في ملامحي. "لماذا لا تكتب رأياً مخالفًا؟". يقصد بذلك رأيي الخاص الذي أشرح من خلاله سبب اعتقادي أن القاضيين الآخرين أخطأوا في الحكم. "أعدك بأنني سأنظر في هذه المسألة مجدداً عندما تكون مكتوبة على الورق".

نادرًا ما أنسق على رأي الأغلبية، لأن من مسؤولياتي كرئيس للقضاة أن أنشر روح الانسجام في المحكمة، ولكنني أقرر قبول اقتراحه، فأتوجه إلى مكتبي الخاص من أجل الشروع بالعملية مع الموظفين القانونيين العاملين معي. وبصفتي رئيساً للقضاة، أحتل جناحاً يعادل مساحة منزل صغير. فمن غرفة استقبال واسعة - تشغله مساعدتي ومجموعة موظفي المحكمة العاملين لدي - يتفرع مكتبان صغيران لمساعدي القانونيين، وعلى الجانب الآخر يقع مكتبي الواسع - تسعه أمتار في تسعه أمتار، وبارتفاع طابق ونصف - المغطى بألواح خشب بلوط عتيق لامع يضفي على المكتب جوًّا معتماً كما لو أنه في قلعة.

وعندما أدفع الباب المؤدي إلى الغرفة الواسعة، أجده حشداً من أربعين شخصاً تقريباً يصرخون على الفور: "مفاجأة!". لقد تفاجأت بالفعل، ولكن، في الأساس، من الرعب الذي يتنابني حين أتذكر ذكرى مولدي. ومع ذلك، أتظاهر بأنني مبتهج بينما أدور في أرجاء الغرفة محياً أناساً يجعلني وجودهم القديم في حياتي - أشعر - بالحزن والكآبة بقدر ما تثيره شواهد القبور.

أرى ابني، نات، الذي يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً - وهو نحيل جداً لكنه وسيم بصورة تبعث على السرور وسط شعره الأسود الفاحم - وباربارا، زوجتي منذ ستة وثلاثين عاماً، بين الحضور، وكذلك جميع قضاة المحكمة السبعة عشر، باستثناء اثنين منهم. يصل جورج ماسون الآن، ويعانقني، ثم يقدم لي علبة باسم جميع الزملاء. من الحاضرين أيضاً بضعة إداريين هامين في طاقم موظفي المحكمة، وعدة أصدقاء ما زالوا يمارسون مهنة المحاماة. محامي السابق، ساندي شتيرن - ممتنع الجسم وقوى البنية لكنه يعاني من سعال صيفي - موجود مع ابنته وشريكه القانونية، مارتا، وكذلك الرجل الذي جعلني منذ أكثر من خمس وعشرين سنة نائبه الأول؛ المدعي العام السابق ريموند هورغان، الذي تحول من صديق إلى عدو، ثم إلى صديق من جديد خلال عام واحد فقط، وذلك عندما شهد ضدي خلال محاكمتي،

وبعد ذلك، إثر تبرئتي، عندما رُشحني لتولي منصب محامي الادعاء. ويلعب ريموند الآن دوراً كبيراً في حياتي بصفته رئيس حملتي الانتخابية للوصول إلى المحكمة العليا. إنه يضع الخطط ويهز شجرة المال في المؤسسات الكبيرة، تاركاً التفاصيل العملياتية لذئبين - واحدة تبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً والأخرى ثلاثة وثلاثين - يبدو أن التزامهما بانتخابي لا يقل قوّة عن التزام قاتل مأجور.

ومعظم الضيوف محامون أو كانوا كذلك في السابق، وهم مجموعة ودودة بطبيعتها. ولهذا هناك الكثير من المرح والضحك. سينتظر نات من كلية الحقوق في حزيران، وبعد ذلك سيبدأ العمل في المحكمة العليا في الولاية، حيث كنت أيضاً فيما مضى موظفاً قانونياً. ويبقى نات كما هو؛ لا يشعر بالارتياح في تبادل الأحاديث. ولهذا السبب تجدني وباربارا، بحكم عادة قديمة، نتجول بالقرب منه بين الحين والآخر لحمايته. والموظفات القانونيتان العاملتان لدى - اللتان تقومان بعمل مشابه للعمل الذي سيضطلع به نات لاحقاً حيث تساعدانني في البحث وكتابة آرائي لهذه المحكمة - تأخذان على عاتقهما واجباً أقل تميّزاً اليوم بالعمل كنادلتين. ولأن باربارا دائماً لا تشعر بالارتياح في العالم خارج حدود منزلنا، وخاصة في العلاقات الاجتماعية الكبيرة، فإن أنا فوستيك، كبيرة الموظفين لدى ، تخدم تقريباً كمضيفة هذا اليوم، حيث تقوم بصب كمية قليلة من الشراب في قعر الكؤوس البلاستيكية التي سرعان ما تُرفع بينما يقوم الحشد بإنشاد حماسي لأنشودة "سنة حلوة يا جميل". ينتهج الجميع عندما يتبنّى أني لا أزال مليئاً بالهواء الساخن لإخمام نيران الشموع المغروزة في قالب كيك الجزر ذي الطبقات الأربع الذي أعدّه أنا.

نوهت في الدعوة لعدم جلب هدايا، ولكن هناك بعض الكلمات المضحكه. وجد جورج بطاقة تقول: "تهانينا يا رجل، لقد بلغت الستين الآن، وأنت تعلم ماذا يعني ذلك". وفي الداخل: "لا سراويل بعد الآن!". وفي الأسفل، كتب جورج بخط يده: "ملاحظة: الآن أنت تعلم لماذا

يرتدي القضاة عباءات". وفي العلبة التي قدمها جورج لي يوجد رداء أسود تبعت على كتفيه شارتان ذهبيتان لقائد فرقة استعراض. فيثير الرداء المزخرف نوبة ضحك مدوية عندما أعرضه للضيوف المجتمعين.

وبعد عشر دقائق أخرى من الاختلاط، يبدأ الحضور بالفرق.

"أخبار"، يقول ريموند بصوت خافت بينما يمر بجانبي وهو في طريقه للخروج. تجعد ابتسامة كبيرة وجهه الوردي العريض، لكن الحديث حول ترشحه ممنوع في الأماكن العامة، وبصفتي رئيس قضاة، فأنا حريص دوماً على أن أبقى مثلاً يحتذى. فبدلاً من ذلك، أوفق على المجيء إلى مكتبه خلال نصف ساعة.

وبعد ذهاب الجميع، أقوم ونات وباربارا وأفراد طاقمي بجمع الصنون الورقية والكؤوس البلاستيكية، وأقدم شكري لهم جميعاً. "كانت أنا رائعة"، تقول باربارا، ثم تضيف في واحدة من نوبات الصدق التي لن تفهم زوجتي الطيبة أبداً أنها غير مطلوبة، "هذه الحفلة كلها كانت فكرة أنا". وباربارا مولعة بكبيرة موظفي القانونيين بشكل خاص، وغالباً ما تعبر عن أسفها لكون أنا كبيرة جداً في السن بالنسبة إلى نات الذي انفصل مؤخراً عن صديقه، مع أنها بقيا معاً لمدة طويلة. وأنضم إلى البقية في تقديم المديح لبراءة أنا في خنز الكيك، وهو أمر معروف محلياً في محكمة الاستئناف. شاعرة بالجرأة لوجود عائلتي التي لن تجد بادرتها إلا أنها منطلقة من أحسن ما في العالم من نوايا، تقدم أنا مني وتعانقني، فأرببت على ظهرها بطريقة ودية.

"ذكرى ميلاد سعيدة، أيها القاضي. أنت صخرة!". بهذه الجملة تغادر أنا، بينما أقوم بما في وسعي لإبعاد الإحساس المفاجئ بوجود أنا بين ذراعي عن ذهني، أو على الأقل عن ملامحي.

أتفق مع زوجتي وابني على خطة لتناول العشاء. تفضل باربارا، كما هو متوقع، تناول الطعام في المنزل وليس في المطعم. يغادران بينما تبقى روائح الكيك والشراب معلقة بصورة محزنة في هواء الغرفة التي استعادت صمتها للتو. ستون عاماً مضت، وهذا أنا أترك وحيداً من

جديد، في مواجهة ذاتي.

لم أكن في أي يوم من يمكن أن يدعوه الناس شخصاً مبتهجاً ومتفائلاً. فأنا مدرك تماماً أنني حظيت بما هو أكثر من نصيبي العادل من الحظ الجيد. وأحب ابني، وأستمتع بعملي. لقد تسلقت مجدداً ذروة جبل الاحترام بعد أن سقطت في وادٍ من العار والفضيحة. فأنا متزوج منذ مدة طويلة، ونجح زواجي في تجاوز أزمة تفوق التصور وهو غالباً ما ينعم بالهدوء والسكينة، مع أنه ليس وثيق الارتباط تماماً. لكنني تربيت في منزل مضطرب بواسطة أم خجولة وقلقة، وأب لم يكن يشعر بأي خجل لكونه سافلاً. فلم أكن سعيداً عندما كنت طفلاً، ولهذا السبب ربما، يبدو لي أنني لاأشعر بالسعادة والرضا أبداً بعد أن أصبحت رجلاً راشداً. حتى وفق معايير شخص تتراوح درجة حرارته العاطفية في العادة بين السأم والحزن، فأنا كنت أتحرق انتظاراً، بالمعنى السلبي للكلمة، هذا اليوم. وبالرغم من أن القدم نحو الموت يحدث في كل ثانية، إلا أننا جميعاً نعاني عند نقاط انعطاف زمنية معينة. لقد صدمتني الأربعون مثل كومة من الصخور: بداية أواسط العمر. ومع الستين، أعرف تماماً أن الستارة تُرفع عن الفصل الأخير. والإشارات شديدة الوضوح بحيث لا يمكن تجنبها: الستتين لتخفيف الكوليستيرون، والفلوماكس لتقليل حجم بروستاتي المتضخمة، وأربعة أقراص من الأدفيل مع العشاء كل ليلة، لأن الجلوس لنهاه كاملاً - أحد مخاطر المهمة - يفعل فعله على أسفل ظهري.

إن اقتراب النهاية يضيف شعوراً خاصاً بالخوف من الآتي، وبشكل خاص من حملتي للوصول إلى المحكمة العليا، لأنني عندما سأطلو القسم بعد ثمانية عشر شهراً، سأكون قد وصلت إلى أبعد ما يمكن أن يدفعني إليه الطموح. وأنا أعرف أنه سيكون هناك، على الرغم من كل ذلك، صوت هامس متذمر نابع من قلبي. وهذا الصوت سيقول، هذا ليس كافياً. ليس بعد. وبالرغم من كل النجاح، ففي صميم قلبي، لن أشعر بالسعادة التي تملأني لمدة ستين عاماً.

ذكرى ولادة راستي

الانتخابات

08/11/04

وفاة باربارا

08/9/29

07/3/19

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني

تومي مولتو، 30 أيلول، 2008

كان توماسينو مولتو الثالث، المدعي العام المؤقت في مقاطعة كابيندل، جالساً خلف مكتب المدعي العام الضخم والثقيل مثل سيارة كاديلاك من الستينيات، متوجهاً من تغييره عندما طرق مساعدته الأولى جيم براند طرفة واحدة بمفصل سبابته على إطار الباب.

"أهي أفكار عميقة؟". سأله براند.

ابتسم تومي محاولاً أن يكون مراوغاً، بالرغم من طبيعته الصريحة وال مباشرة. وكان السؤال المتعلق بمقدار التغير الذي طرأ عليه خلال السنتين الأخيرتين يخطر على باله مثل نقطة ماء تسقط من حافة سقف مرة أو مرتين كل ساعة. وكان الناس يقولون إنه تغيير بشكل مثير للastonishment، متسائلين على سبيل المزاح: أين يمكن أن يكون قد خبأ الفانوس السحري؟ لكنه تعلم من وجوده في منصب المدعي العام المؤقت للمرة الثانية أن يفهم الإطراء الذي يقدمه الناس دائمًا لمن هم في موقع السلطة. ولكن، إلى أي حد يمكن للناس أن يتغيروا؟ تسأله تومي. هل أصبح مختلفاً حقاً؟ أم إنه ببساطة كان هو ذاته من دون تغيير من حيث الجوهر؟

قال براند فور دخوله: "اتصل شرطي من نيرينغ منذ قليل. يقول إنهم وجدوا باربارا سابينش ميتة في سريرها. وهي زوجة رئيس القضاة؟".

كان تومي يحب جيم براند، فهو محام ممتاز ومخلص بصورة

نادرة في هذه الأيام. ومع ذلك، فقد امتنع من التلميح إلى أن لديه اهتماماً خاصاً براستي سابيش. لكنه كان يهتم به بكل تأكيد. وبالرغم من مرور اثنين وعشرين عاماً، لا يزال اسم رئيس قضاة محكمة الاستئناف، الذي حاكمه تومي بنجاح في جريمة قتل زميلة لهما، يخترقه مثل سهم كلما سمع به. ولكن، ما لم يكن يكتفي به هو التلميح إلى أنه يحمل في داخله ضغينة لسابيش منذ مدة طويلة. والضغينة من شيم المخادعين الذين لا يستطيعون مواجهة الحقيقة، وبخاصة تلك التي لا تناسبهم.

فكان المحاكمة أشبه بقتال شرس، وقد فاز في نهايتها راستي.

قال تومي: "وماذا يعني ذلك؟ هل سيرسل المكتب زهوراً؟".

ابتسم جيم - وهو طويل وقوي البنية، ويرتدى قميصاً أبيض مكوناً ومنشى بحيث أصبح مثل ياقه قميص رجل دين - كاشفاً عن أسنان جميلة. في الواقع، لم يردد تومي لأنّه تقصد ذلك. وكان يحصل معه هذا طوال حياته؛ عندما كان حسه الداخلي يقوده إلى إبداء ملاحظة يعتبرها الجميع نكتة فجة.

قال براند: "لا، إنه أمر غريب. ولهذا السبب أبلغنا الملازم به. فالزوجة تموت والزوج لا يطلب حتى 911. فمن عين راستي سابيش طبيب شريح؟".

وأشار تومي له لتقديم المزيد من التفاصيل. قال براند إن القاضي لم يخبر أحداً، حتى ابنه، لأربع وعشرين ساعة تقريباً. وبدلأ من ذلك، قام بترتيب هيئة الجنة كما يفعل منظم الجنائز. كما لو أنهم سيسهرون عليها هناك. عزا سابيش تصرفاته إلى الصدمة، وإلى الحزن. كان يريد أن يكون الأمر على هذا النحو قبل أن ينقل الخبر إلى الناس. واعتقد تومي أنه يفهم ذلك. قبل اثنين وعشرين شهراً، وهو بعمر السابعة والخمسين، وبعد تمضية حياة بأكملها بدا له فيها أن الرغبة المعدية أمر لا فرار منه مثلها مثل النفس، وقع تومي في حب دومينغا كورتينا، وهي إدارية خجولة ولكنها جميلة، وتعمل في مكتب إدارة المحكمة. ولم يكن الوقع في الحب أمراً جديداً على تومي. فكل بضع سنوات في حياته، كانت

تظهر امرأة ما في العمل، أو في دار العبادة، أو في البناء المرتفع الذي يسكن فيه، فيطور تجاهها ولعاً ورغبة يقلبان حاله رأساً على عقب. بيد أن الاهتمام لم يكن متباذلاً بالتأكيد. وبدا أن الوضع لم يتغير عندما كانت دومينغا تشيح بعينيها كلما كان تومي قريباً منها، وكان هذا مفهوماً تماماً، إذ إنها كانت في الحادية والثلاثين من عمرها فقط. لكن إحدى صديقاتها كانت قد لاحظت نظرات تومي الثاقبة وهمست لها باعتقادها أنه حتماً سيدعوها للخروج معه قريباً. وبعد تسعه أسابيع، تزوجا. وبعد زواجهما بأحد عشر شهراً، ولد توماسو. وهكذا شعر تومي بالسعادة، بعد انتظار دام طويلاً، وفي عمر يتخلّى فيه معظم الناس عن الأمل في الحصول على المزيد، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين حظوا بالكثير خلال حياتهم. قال تومي: "خمسة وثلاثون عاماً من الزواج أو نحو ذلك. يا الله! أي شخص يمكن أن تصبح تصرفاته غريبة. وهو شخص غريب الأطوار على كل حال".

قال براند: "هذا ما يقولونه". لم يكن جيم يعرف سابيس عن قرب. وبالنسبة إليه، كان رئيس القضاة شخصية بارزة بعيدة. وهو لم يكن يتذكر تلك الأيام عندما كان راستي يتجلو بجبين مقطب موجّه تجاه نفسه بشكل أساسي في الأروقة هنا في مكتب المدعي العام. وبراند في الثانية والأربعين، أي أنه رجل ناضج بما يكفي لكي يكون رئيساً، أو يدير هذا المكتب. لكنه نضوج من نوع مختلف عن نضوج تومي، فما يُعتبر حياة بالنسبة إلى تومي تاريخ بالنسبة إلى براند.

قال براند: "قرون استشعار الشرطي تهتز".
"ماذا حدث باعتقاده؟ هل ثمة إشارة إلى وجود عنف؟".
"في الحقيقة، إنهم ينتظرون تقرير طبيب التشريح. ولكن، ليس هناك دم أو أي شيء آخر".
"إذًا؟".

"حسناً، لا أعرف، أيها الرئيس. ولكن أربعاً وعشرين ساعة مضت، وبوسعك إخفاء الكثير من الأشياء في هذه المدة. كأشياء في

جري الدم يمكن أن تختفي".
"مثل ماذا؟".

"اللعنة، توم، أنا أخمن فقط. لكن رجال الشرطة يعتقدون أن عليهم القيام بشيء ما. ولهذا السبب جئت إليك".

كلما كان تومي يرجع بأفكاره إلى محاكمة سابيتش قبل اثنين وعشرين سنة، كانت المشاعر المشحونة تعود إليه بقوة. لقد وجدت مساعدة المدعي العام، كارولين بوليموس، التي كانت صديقة لتومي - وواحدة من أولئك النساء اللاتي لم يكن بوسعه إلا أن يرغب بهن - مخنوقة في شققها. وما جعل التحقيق في الجريمة مشحوناً منذ البداية هو وقوعها في خضم حملة شرسه من أجل الفوز بمنصب المدعي العام بين ريموند هورغان صاحب المنصب آنذاك، وصديق عمر تومي؛ نيكو ديلا غارديا. فنسبَ ريموند الجريمة إلى راستي؛ نائبه الأول الذي لم يذكر قط أنه ارتبط مع كارولين بعلاقة جنسية سرية قصيرة انتهت بشكل سيئ قبل أشهر من وقوع الجريمة.

بدت إدانة سابيتش بالجريمة شديدة السهولة عندما وجّهوا التهمة إليه بعد فوز نيكو بالانتخاب، بيد أن القضية انهارت خلال المحاكمة، وتبددت الأدلة، ونسى أخصائي الأمراض التابع للشرطة - الذي حدد زمرة دم راستي في عينة المني التي أخذت من كارولين - أن الضحية ربطت أنبوبها، فلم يستطع على منصة الإدلاء بالشهادة أن يفسر لماذا استخدمت قاتل حيوانات منوية عادياً أيضاً. فسلط محامي راستي، ساندي شتيرن، الضوء على كل صدع في بناء الادعاء، وعزّا كل إخفاق - نقص الأدلة، احتمال تلوث العينة - إلى تومي الذي حاول الصاق التهمة براستي. ونجحت الخطة، حيث بُرئ راستي، وطرد نيكو من منصبه بالتصويت. وزيادة في المهانة، عُين راستي مدعياً عاماً.

ومنذ ذلك الحين، وبالرغم من مرور السنوات، لم يكُنْ تومي عن تقييم إمكانية أن يكون راستي مذنبًا. فمن الناحية المنطقية، كان من الممكن أن يكون ذلك صحيحاً. وفي الواقع، كان هذا هو موقفه العلني،

إذ لم يتحدث تومي حول الأمر مع أي شخص من دون أن يقول: من يعلم؟ لقد نجح النظام؟ أطلق سراح القاضي. وكما كان تومي لا يفهم كيفية بدء الزمن، أو ما حدث لجيسي هوفا، أو لماذا كان الترابيرز يخسرون سنة بعد سنة؟ كان أيضاً لا يعرف من قتل كارولين بوليموس. بيد أن قلبه لم يكن يتبع طريق المنطق. وكانت عبارة، "سابيش هو الذي فعلها"، محفورة على جدران قلبه كما يحفر الناس أوائل أحرف أسمائهم على مدخل أحد الكهوف. وبعد تحقيق دام عاماً كاملاً، تبين أن تومي لم يرتكب تقريباً أياً من الخروقات التي اتهم بها مكرأ في المحكمة. ولكن، هذا لا يعني أن تومي لم يرتكب أخطاء. فقد سرّب معلومات سرية إلى نيكو خلال الحملة، بالرغم من أن جميع المدعين العاملين المساعدين كانوا يتحدثون خارج المحكمة. لكن تومي لم يخف أدلة أو يحرّض أحداً على الحديث باليمين. كان تومي بريئاً، ولأنه كان واثقاً من ذلك، بدا له من المنطقي أن سابيش كان مذنباً. لكنه لم يتحدث حول ذلك مع أي أحد، حتى دومينغا التي لم تكن تسأله حول أمور العمل إلا نادراً. قال لبراند: "لا يمكنني الاقتراب من هذا الأمر. إنه يعقب بالذكريات".

رفع براند كتفيه. كان رجلاً ضخماً. قبل عشرين عاماً، أثناء الجامعة، لعب كمدافع أخير في جميع البطولات الجامعية. وكان يمتلك رأساً كبيراً، لم يبق عليه سوى القليل من الشعر، وكان يهزه ببطء. لا يمكنك التغاضي عن قضية يكون المتهم فيها متهمأً للمرة الثانية. فهل تزيد أن أراجع الملفات لأرىكم عدد لوائح الاتهام التي وقعتها على أشخاص ارتكبوا جرمهم الأول؟".

"هل يوجد واحد منهم على وشك أن يُنتخب عضواً في المحكمة العليا في الولاية؟ لرأستي ظلّ كبير يا جيمي".

"أقول فقط...".

"دعنا نحصل على نتائج التشريح الآن. ولكن، حتى ذلك الحين، لا شيء آخر. ولا أريد شرطاً فضولياً يحاول أن يشم مؤخرة راستي. ولا

أريد أن يتورط هذا المكتب. لا استدعاءات من قبل هيئة ملحقين أو أي شيء ما لم يظهر شيء حقيقي ومحسوس. وهو ما لن يحصل. وبوسعنا أن نفكر في كل ما نريد أن نفكـر فيه بخصوص راستي سابيتش، لكنه شخص ذكي؛ ذكي فعلاً. دع رجال شرطة نيرينغ يلعبون في الرمل إلى أن نسمع شيئاً من طبيب التشريح. هذا كل شيء".

لم يعجب هذا الكلام براند، وكان باستطاعة تومي ملاحظة ذلك. لكنه خدم في السابق في مشاة البحرية، ويفهم تسلسل القيادة جيداً. وخرج من المكتب راسماً على محياه تعبير عدم الرضا الخفيف الذي يرسمه دائماً عندما يقول: "مهما يكن ما تقوله أيها الرئيس".

عندما أصبح لوحده شرذمه شرذمه تومي في التفكير في باربارا سابيتش. كانت جميلة في صباها، وذات صفات سوداء مشدودة بإحكام، وجسد فاتن، ونظرة قاسية تفيـد أن أحداً لا يمكنه امتلاكها. ونادراً ما كان يراها تومي خلال العقدين الأخيرين، لأنـه لم تكن لديها مسؤوليات زوجها نفسها، وربما لأنـها كانت تتجنب مولـتو. وأثناء محاكمة سابيـش - منذ سنوات خلت - كانت تجلس في قاعة المحكمة يومياً وتترقب تومي بنظرات حانقة كلـما التفت إليها. ما الذي يجعلـك واثـقة إلى هذه الدرجة؟ تذكر تومي أنها لم تكن تبـدي أي اكتـرات له حتى قبل اتهـام راستـي. فانبـق في داخلـه شعور بالـأذى لـطالما شـعر بهـ في وجهـ الـازدراءـ المتـكررـ لهـ، فـكـتبـ علىـ الفـورـ. وـتـمنـىـ لـهـ الرـحـمةـ وـالـغـفـرانـ. فـمـتـلـ هذهـ المشـاعـرـ هيـ التيـ جـذـبتـ دـوـمـيـنـيـاـ إـلـيـهـ وـمـكـنـتـهـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـمـطـافـ مـنـ الفـوزـ بـهـ. وـكـانـتـ تـعـرـفـ مـاـ فـيـ قـلـبـ تـومـيـ مـنـ طـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ أيـ شـخـصـ فـيـ الـعـالـمـ باـسـتـثـنـاءـ أـمـهـ الـتـيـ تـوـفـيـتـ قـبـلـ خـمـسـ سـنـوـاتـ.

ومع بروز صورة زوجته المليئة نوعاً ما، وفي الأماكن الصحيحة بشكل خاص، اشتعلت الرغبة في جسده، ليس خطـئـةـ أنـ يـرـغـبـ المرءـ بـزـوـجـتـهـ. ولـعلـ رـاستـيـ شـعـرـ تـجـاهـ زـوـجـتـهـ بـالـشـعـورـ ذـاتـهـ ذـاتـ يـوـمـ. وـلـكـنـهاـ رـحـلتـ الـآنـ. فـاغـفـرـ لـهـ يـاـ اللـهـ، قـالـ فـيـ نـفـسـهـ مـجـدـداـ. ثـمـ تـلـفـتـ حـولـهـ فـيـ أـرـجـاءـ الـغـرـفـةـ، مـحاـوـلـاـ مـرـةـ أـخـرىـ مـعـرـفـةـ وـجـهـ الـاخـتـلـافـ الـذـيـ طـرأـ عـلـيـهـ.

الفصل الثالث

راستي، 19 آذار، 2007

تقع محكمة الاستئناف المحلية التابعة لمنطقة الاستئناف الثالثة اليوم في بناء المحكمة المركزية البالغ من العمر سبعين عاماً، وهو بناء مشيد من الأجر الأحمر ذو أعمدة بيضاء أعيد تنظيمه في الثمانينيات بالأموال الفدرالية لمكافحة الجريمة. ومعظم الأموال التي أنفقت عليه كانت على ترميم قاعات محكمة الجزاء في الطوابق السفلية، لكن جزءاً كافياً من المال ذهب أيضاً لإنشاء موقع جديد لمحكمة الاستئناف في الطابق العلوي. لقد استثمرت الملايين على أمل أن تنتعش هذه المنطقة - الواقعة في محيط مركز المدينة - لكن محامي الدفاع يغادرون بسياراتهم الفاخرة فور انتهاء جلسات المحاكمات، والقليل من التجار يمليون للمجازفة في منطقة أغلب زائريها من مجرمي المتهمين. كما تبيّن أن الساحة الإسمانية الفاصلة بين المحكمة ومبني البلدية الواقع في المنطقة المقابلة من الشارع مفيدة جداً لتنظيم المظاهرات.

أنا خارج المحكمة على بعد أقل من ستين متراً من بوابتها، في طريقي لمقابلة ريموند، من أجل معرفة أخباره المتعلقة بحملتي الانتخابية، فأسمع اسمي فألتفت لأجد جون هارناسون يقف خلفي. إنه يعتمر قبعة الآن وييرز شعره من تحتها مثل شعر بوزو. أشعر في الحال بأنه كان يمكن منتظراً وصولي كي يظهر.

"هل يمكنني أن أسألك عن وضعها أيها القاضي؟".

"سيد هارناسون، أنا وأنت ينبغي ألا نتكلم، وخاصة عندما تكون

قضيتك قيد التدقيق". لا يمكن لأي قاضٍ أن يقابل طرفاً من دون وجود الطرف الآخر.

يضع هارناسون إصبعاً ثخيناً على فمه ثم يقول: "ولا كلمة بخصوص هذا يا سيدى. أردت فقط أن أتمنى لك ذكرى ميلاد سعيدة، وأشكراك شخصياً على كفالتى. فقد أخبرنى ميل بأن منح كفاله يتطلب قاضياً استثنائياً. وهذا لا يعني بأننى لا أستحق ذلك. لكنه قال إن أحداً لا يلقى استحساناً لإطلاق سراح مجرمين مدانين. بالطبع، أنت تعرف كيف هو الوضع عندما يكون المرء في هذه الحالة".

وبفضل الخبرة الطويلة، لا أظهر أي رد فعل. وفي هذه المرحلة من حياتي، تنقضي أشهر من دون أن يبدي الناس أي إشارة إلى اتهامي وحكمي. عندما أهُم بالالتفات كي أمضي في طريقى يرفع هارناسون يداً فتظهر لي تلك الأظافر الطويلة الغريبة.

"على أن أقول إننى أشعر بالفضول لمعرفة ما إذا كنت تتذكرنى، أيها القاضى. كان لي حضور غير محبب نوعاً ما في حياتك".
"هل تقابلنا من قبل؟".

"كنت محامياً في السابق، سيدى القاضى، منذ مدة طويلة. إلى أن وجهت الاتهام إلي".

بشكل إجمالي، قضيت خمسة عشر عاماً في مكتب المدعى العام، وأكثر من اثنى عشر عاماً كمساعد مدعى عام، وعامين، مثل تومى مولتو، كمدعى عام مؤقت، قبل أن أنتخب لـأكون قاضياً. وحتى في ذلك الحين، لم يكن بالإمكان أن أتذكر كل القضايا التي تعاملت معها، فكيف يمكن أن يكون الوضع الآن؟ لكننا اتهمنا عدداً قليلاً جداً من المحامين في تلك الأيام. ولم نوجه اتهامات لرجال أو أطباء أو مدراء تنفيذيين أيضاً. كان العقاب، في ذلك الحين، يقتصر إلى حد كبير على الفقراء فقط. لم أكن أدعى جون. كان هذا هو اسم أبي. وكانوا يدعونى في العادة جاي روبرت".

"جاي روبرت هارناسون". أقول وأطلق زفيرأً ناعماً. لا عجب

أنه بدا مألفاً.

"الآن عرفتني". يبدو عليه السرور لأنني تذكرة القضية بسرعة كبيرة، مع أنني أشك في أنه يشعر بأي شيء إلا الانزعاج. كان هارناسون محامي أحياه فقيراً يكافح ليكسب قوته. فوجد في نهاية المطاف استراتيجية معروفة لتحسين نمط عشه. كان يقوم بتسوية قضايا إصابات شخصية، وبدلاً من دفع نصيب زبائنه من إيرادات الضمان، كان يحتفظ بها لنفسه. وإذا اشتكى أحد الزبائن كان يدفع له من مال تسوية قضية تخص زبوناً آخر. ومئات المحامين الآخرين في منطقة المدن الثلاث كانوا يرتكبون مثل هذه المخالفة. حيث كانوا يأخذون من أموال زبائnenهم ليدفعوا بها إيجارات منازلهم أو ضرائبهم أو رسوم تعليم أولادهم. الحالات الأسوأ كانت تؤدي إلى حرمان المحامي من ممارسة المهنة، ولعل هارناسون أفلت بهذه العقوبة فقط، ولكن لسبب واحد، وهو أنه كان يملك سجل توقف طويلاً بسبب ارتكابه الفعل المنافي للحشمة؛ ذلك أنه كان يتزداد دائماً على أماكن غير الأسواء جنسياً الممنوعة في تلك السنوات، حين كانت مشاربهم تتعرض، بالتناوب، للإغارة والابتزاز من قبل رجال الشرطة.

ولم ينكِّد محامي، ثورسن سكوجلاند - وهو فنلندي قليل الكلام رحل منذ مدة طويلة - عناء استخدام كل طاقته عندما جاء ليناقش قرار ياته هارناسون بارتكاب واحدة من مخالفاته.

"إنك تتهمنه بأنه غير سوي جنسياً".

"وماذا في ذلك؟" أجبته. كثيراً ما أذكر هذا الحوار - مع أنني لا أذكر الشخص المتعلق به - لأنني حتى عندما قلت ذلك، شعرت وكأن يداً بدأت تلوح بالقرب من قلبي طالبة مني الانتباه أكثر. ومن أقسى الحقائق التي عشتها في هذا العمل، كمدع عام وكفاح، أنني فعلت باسم القانون الكثير مما ندمت عليه، وأسف عليه التاريخ أيضاً.

"لقد غيرت حياتي أيها القاضي". ليس في نبراته أي شيء غير مريح، مع أن السجن كان مكاناً قاسياً لشخص غير سوي جنسياً في تلك

الأيام؛ بل باللغ القسوة في الواقع. وكان شاباً وسيماً، كما أذكر، أقرب إلى النعومة، مع شعر أحمر مملؤ من الخلف، وعصبياً، لكنه أشد ثقة بنفسه بما لا يُقاس من الشخص الذي يقف أمامي الآن.

"هذا لا يبدو لي بأنه شكرٌ، سيد هارناسون".

"لا، لم يكن بإمكاني أن أقدم أي نوع من الشكر في ذلك الحين. ولكن، بصرامة سعادة القاضي، أنا واقعي. حقاً. فمنذ خمس وعشرين سنة، كان بالإمكان أن يكون الوضع مختلفاً، كما تعلم. لقد تقدّمت لمكتب المدعي العام مرتين، وكانت قريباً من أن أوظف كمساعد مدع عام. وكان من الممكن أن أكون الشخص الذي يحاول إرسالك إلى السجن بسبب من أقمت علاقة معها. هذا هو سبب محاكمناك، حقاً، أليس كذلك؟ إذا كانت ذاكرتي جيدة. لم يكن هناك الكثير من الأدلة إلى جانب كونك غمست إصبعك في قالب الطوى".

الواقع متقاربٌ بما يكفي. فهمت ما يرمي إليه هارناسون. هو غرق وأنا بقيت طافياً. ومن الصعب إدراك السبب في ذلك، على الأقل بالنسبة إليه.

"هذا الحوار غير مفيد، سيد هارناسون. أو غير ملائم". التفت أريد الانسحاب لكنه لحقني مجدداً.

"لم أقصد الإساءة، سيد القاضي. بل أردت فقط أن ألقى التحية وأشكرك. لقد وقع مصيرِي بيديك مرتين، لكنك هذه المرة كنت أفضل بالنسبة لي من المرة الأولى، على الأقل حتى الآن". يتنسم قليلاً للجملة الأخيرة، لكن ملامحه تحول لتصبح أكثر جدية. "هل أملك فرصة على الأقل، أيها القاضي؟". مع انتهاءه من طرح هذا السؤال، يبدو لي فجأة أنه مثير للشفقة كطفل ينتمي.

"جون"، أقول ثم أصمت قليلاً قبل أن أستأنف كلامي: "كما يمكنك أن تفهم من النقاش، إن النقاط التي أثرتها لا تسقط على آذان صماء يا جون. النقاش لم ينته بعد".

"إذا، لا يزال هناك أمل".

أهز رأسي مشيراً إلى أنني لن أقبل المزيد من الكلام، لكنه يشكري
على كل حال، حانياً رأسه قليلاً بخنوع مطلق.
"كل عام وأنت بخير"، يقول هارناسون بينما أدير ظهري له.
وأمشي في طرفي والقلق يتملّكي.

أعود إلى المبني - بعد اجتماع مقلق بعض الشيء مع ريموند بشأن
الحملة الانتخابية - في الساعة الخامسة وبضع دقائق، أي الساعة العجيبة
التي يختفي بعدها الموظفون كما لو أن مكنسة هووفر كهربائية تقوم
بشفطهم. أنا، الموظفة الأشد مثابرةً واجتهاً من كل الموظفين الذين
سبق وعملوا معي، موجودة هنا، كما تكون غالباً، تعمل لوحدها. تلحق
بي حافية القدمين إلى مكتبي، حيث تستريح صفوف المجلدات القانونية
- التي أصبحت في عصر الكمبيوتر تُعرض للزينة فقط - على رفوف
الكتب إلى جانب صور وتدذكارات من العائلة والعمل.

"أنتeedin للرحيل؟". ستحتفل بأخر يوم تقضيه أنا معي يوم
الجمعة، من خلال إقامة مأدبة عشاء على شرفها، وهو أمر أقوم به
لجميع الموظفين القانونيين المغادرين. وفي يوم الاثنين الذي يليه،
ستنضم أنا إلى قسم المقاضاة في شركة ريموند هورغان. وستتقاضى
أجراً أعلى مما أتقاضاه، وستحصل على فرصة تأخرت كثيراً لدخول
الحياة الحقيقة. وخلال السنوات الائتني عشرة الأخيرة، عملت أنا خبيرة
إسعافات أولية، وكانت إعلانات، ومديرة تسويق. وكانت طالبة في
كلية التجارة، والآن محامية. إنها، مثل نات، جزء من جيل يبدو في
أغلب الأحيان متجمداً في مكانه بواسطة حسه القاسي بالسخرية. وعملياً،
كل شيء يؤمن به الناس يمكن عرضه كتناقضات مضحكة. ولهذا فهم
يضحكون، وييفون في مکانهم.

"أعتقد"، تبتسم ثم تكمل، "أنتي أملاك بطاقة معايدة".
"بعد كل ما فعلته؟". أخذ المغلّف منها.

كتب على البطاقة: لقد بلغت السنتين. هناك صورة لحسناء شقراء

ترتدي كنزة ضيقة. ولكن ليس إلى حد أنك لا تشعر بالحب. كتب على الجانب الآخر من الصورة: أو تتوه إلىه. وتضييف البطاقة: "استمتع بحياتك كلها!". وفي الأسفل، كتبت أنا ببساطة: "مع كل الحب، أنا". هل هي مخيلتي فقط، أم أن الفتاة ذات الصدر الناہد على المقدمة تشبه أنا نوعاً ما؟ أقول لها: "جميلة".

تجيب أنا: "كنت عاقلة. لم أستغل الفرصة".

أصمت لبرهة بينما يحدق كل منا إلى عيني الآخر.

أخيراً أقول: "اذبهي. إلى العمل". إنها - ما يدعو للحسنة - جميلة جداً وفائقة الجاذبية. عيّنان خضراء، شعر أشقر قريب إلى الصفرة، بشرة وردية، وجسد منتناسق وقوى. تستدير وتمشي بطريقة مغربية، بتثورتها المستقيمة إلا من انحناء إضافية عريضة ولكن بصورة جميلة عند المؤخرة، ثم تلتفت لترى التأثير على ملامحي، فأشير لها بيدي كي تتتابع سيرها.

تعمل أنا معى منذ سنتين ونصف تقريباً، أكثر من أي موظف استخدمته من قبل. إنها محامية لامعة وسريعة البديهة وتملك موهبة واضحة للعمل في هذه المهنة، فضلاً عن طبيعتها المرحة والشفقة. إنها منفتحة على الجميع تقريباً ودائمة المزاح؛ الأمر الذي ييهجها هي نفسها أكثر من أي شخص آخر. فوق كل هذا، إنها طيبة وعطوفة ومؤثرة مساعدة الغير، حتى لو كان ذلك على حسابها. فعلى سبيل المثال، نظراً إلى أن براعتها في استخدام الكمبيوتر تفوق براعة معظم تقني المعلومات في المكتب، فإنها غالباً ما تتخلى عن ساعة غدائها من أجل إصلاح مشكلة ما في الغرف الأخرى. وإنها تخبز الكعك والفطائر للموظفين، وتتذكر تواريخ ميلاد وتفاصيل عائلات الجميع. وبكلمات أخرى، إنها إنسانة اجتماعية ومحبوبة من قبل كل العاملين في المبنى.

غير أن سعادتها مع الآخرين أكبر من سعادتها الداخلية. ويمثل الحب، بشكل خاص، هاجساً لديها. إنها امرأة مليئة بالحنين واليأس.

وتجلب أنا إلى المكتب سلسلة من الكتب التي تهتم بالمساعدة الذاتية، والتي غالباً ما تتبادلها مع جويس، حاجبتي في قاعة المحكمة. "هل تحب طريقة حياتك؟ وكيف تعرف إذا كنت محبوباً كفاية؟". عندما تقرأ في فترة الغداء، يوسعك رؤية ملامح الحزن تغطي وجهها.

إن المدة الطويلة التي أمضتها أنا معه - والتي مددت عندما حملت خليفتها، كوماري باتا، بشكل مفاجئ واضطررت للراحة في السرير بشكل كلي - أدت في نهاية المطاف إلى تقارب حتمي فيما بيننا. ومنذ فترة من الوقت، أثناء عملنا معاً ليلتين في الأسبوع في تنظيم الأوامر الإدارية، بانت تترك لنفسها حرية الاعتراف بهمومها التي غالباً ما تكون عاطفية الطابع.

أخبرتني ذات مرة: "كنت أ وعد الرجال، محاولة عدم أخذ الأمر على محمل الجد كي لا أرفع من آمالي عبئاً. وهذا نجح بطريقة ما، إذ ليس لدى أمل على الإطلاق". ابتسمت، كما تفعل عادةً، مستمتعة بالجانب المضحك أكثر من الجانب المبكي. "كما تعلم، لقد تزوجت لفترة قصيرة جداً عندما كنت في الثانية والعشرين، وعندما انتهى الأمر، لم أقلق قطَّ بشأن عدم إيجاد شخص مميز. اعتقدت أنني كنت لا أزال يافعةً جداً. لكن الرجال لا يزبون يافعين! أنا في الرابعة والثلاثين. وأخر رجل واعدته كان في الأربعين وكان لا يزال فتىً، بل طفلاً! لم يتعلم أن يلقط ملابسه الوسخة عن الأرض. وأنا أحتاج إلى رجل؛ رجل ناضج بالفعل".

كل هذا بدا بريئاً جداً إلى ما قبل بضعة أشهر فقط، عندما بدأت أشعر بأن الرجل الناضج الذي كان في مخيلتها هو أنا.

سألتني ذات ليلة في كانون الأول بينما كانت تصف لي موعداً أو لا غير مبشر مع أحد الرجال: "لماذا تتطلب العلاقة الحميمية هذه المشقة؟". قلت لها، ما إن التقطت أنفاسي: "لا يمكنني أن أصدق ذلك".

"ليس مع أي شخص أهتم لأمره فعلاً". هزت رأسها بيأس ثم قالت: "هل تعلم؟ أنا على وشك أن أقول: اللعنة! سأحاول أي شيء".

ليس أى شيء. ليس أقزاماً وأحصنة. ولكن، لربما ينبغي على الذهاب إلى واحد من تلك الأمكنة التي لم أضعها بعين الاعتبار فقط من قبل. أو في الواقع، فكرت فيها لكنني سخرت من نفسي وأبعدتها عن ذهني. لأن محاولة القيام بما هو طبيعي لم تؤد إلى نتائج جيدة. لذا، لربما ينبغي على أن أكون سيئة. فهل كنت سيئة ذات يوم أيها القاضي؟". سألتني فجأة، وعيناها الخضراوان مثل رادار.

أجبتها بهدوء: "جميعنا كنا سينين ذات يوم".

تلك كانت نقطة انعطاف محورية. أما الآن، فقد أصبح أسلوبها معي - كلما كنا لوحدي - جريئاً و مباشرأ؛ ملاحظات غامضة تحمل معنى إيحائياً، غمزات، أي شيء أقل من إشارة، أنا للبيع. قبل بضع ليال، وقف فجأة ووضعت يدها على بطنهما وشدّت كنزتها بينما كانت تقف بشكل جنبي، ثم سألتني:

"هل تظن أنتي ضخمة من الأعلى؟".

استمتعت بالمنظر طويلاً قبل أن أجيبها بنبرة حاولت قدر استطاعتي جعلها تبدو حيادية، قائلاً إنها تبدو جميلة.

لدي عذران لتحمل هذا الوضع. أولاً، في الرابعة والثلاثين من عمرها، أنا أكبر قليلاً من أن تكون موظفة قانونية، وتجاوزت منذ فترة بعيدة مراحل النمو التي يمكن بسببها اعتبار سلوكها جزءاً من الطفولة. وثانياً، إنها لن تبقى هنا طويلاً، إذ إن كوماري التي أصبحت أمًا بكامل عافيتها الآن، بدأت العمل الأسبوع الماضي. وقد بقيت أنا بضعة أيام أخيرة كي تدرّبها. وبالنسبة إلى، فإن رحيل أنا سيكون مأساة حقيقة ومدعاة للراحة في آن واحد.

لكن، بما أن مرور الوقت سيحل مشاكلـي، فإن الشيء الوحيد الذي لا أفعله هو ما تتطلبه أبسط مبادئ الحكمة؛ وهو أن أجلس أنا وأقول لها لا، بكل لطف ورقـة؛ مع الامتنان العميق للإطراء الذي أتلقاءـه. ولكن، هذا مستحيل، غير ممكن. لقد حضرت الكلمات الازمة عدة مرات لكنني لم أستطع حمل نفسي على التفوه بها، لسبب واحد، وهو أنتي يمكن أن

أتعَرَضُ إلى إِحْرَاجٍ شَدِيدٍ. إنْ حُسْنَ الْفَكاهَةِ لَدِيَ آنَا، الَّذِي يُمْكِنُ وَصْفَهُ بِأَنَّهُ ذَكْرِي فِي هَذَا الْعَصْرِ - عَصْرِ مَارِسٍ وَفِينُوسِ - يُمْبِلُ غَالِبًا إِلَى الْإِبْحَاءِ. وَلِهَذَا السَّبَبِ، أَخْشَى أَنْ تَقُولَ إِنْ كُلَّ ذَلِكَ كَانَ مَزَاحًا، وَكَمَا نَفَعَلُ جَمِيعُنَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخِرِ كَيْ نُوْحِي بِأَنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَفْصُدْ مَا قَلَناهُ.

بِيدِ أَنَّ الْحَقِيقَةَ الْأَشَدُ مَرَارَةً هِيَ أَنِّي لَسْتُ راغِبًا في التَّوْقُفِ عَنِ الشَّرْبِ مِنْ مَاءِ الْحَيَاةِ النَّفِيِّ الْمَنْدُفِقِ مِنَ الدَّعْوَاتِ إِلَى الْحَمِيمِيَّةِ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ تَصَغِّرُنِي بِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةَ وَعَشْرِينَ عَامًا، حَتَّى لو كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ الْمَزَاحِ.

خَلَالْ سَنَةِ وَثَلَاثَيْنِ عَامًا مِنَ الزَّوْاجِ، ارْتَبَطَتْ بِعَلَاقَةٍ مَعَ امْرَأَةً وَاحِدَةً، بِدُونِ حُسْبَانٍ الْمَمَارِسَاتِ الْحَمِيمِيَّةِ الْمَخْمُورَةِ فِي الْجَزْءِ الْخَلْفِيِّ مِنْ سِيَارَةِ سَتِّيشِنْ عِنْدَمَا كُنْتُ أَخْضُعُ لِدُورَةِ تَأهِيلِيَّةٍ فِي الْحَرَسِ الْقَوْمِيِّ، وَهَذَا الْانْزِلَاقُ النَّزُوِّيُّ الْمَجْنُونُ فِي مَهَاوِيِّ الْلَّذَّةِ وَالْمَجْنُونُ أَدَى مَبَاشِرَةً إِلَى مَحَاكمَتِي بِتَهْمَةِ ارْتِكَابِ جَرِيمَةِ قَتْلٍ. إِنْ لَمْ أَكُنْ أَنَا أَمْثُلُ التَّجَسِيدِ الْحَقِيقِيِّ لِلشَّخْصِ الَّذِي لَا يَتَعْلَمُ مِنْ خَطْئِهِ، فَلَنْ يَجْسُدْهُ شَخْصٌ أَخْرَى أَبَدًا.

أَعْمَلُ فِي مَكْتبِي لِمَدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَنِ نَصْفِ سَاعَةٍ، فَإِذَا بَآنَا تَظَهِّرُ مِنْ جَدِيدٍ.

"أَعْتَدْتُ أَنْكَ تَأْخِرَتْ". إِنَّهَا مَحْقَةٌ، لَدِيَ عَشَاءً بِمَنْاسِبَةِ ذَكْرِي مِيلَادِيِّ.

"هَرَاءُ. لَيْسَ عَنِّي أَيْ شَيْءٌ عَلَى الإِطْلَاقِ".

تَحْمَلُ بِيَدِهَا وَصْلَةُ الْذَّاكرَةِ الَّتِي تَخْرُّزُ فِيهَا كُلَّ لَيْلَةً مَجْمُوعَةً مِنَ الْاسْتِنْتَاجَاتِ الْفَانِونِيَّةِ الَّتِي أَرَاجَعَهَا فِي الْمَنْزِلِ. وَتَسَاعِدُنِي فِي ارْتِدَاءِ مَعْطَفِي وَتَثْبِتُهُ عَلَى كَتْفِيِّي.

"ذَكْرِي مِيلَادِ سَعِيدَةٍ مَجْدُدًا أَيْهَا الْفَاضِيِّ". تَضَعُ إِصْبَاعًا عَلَى الزَّرِّ الْأَوْسَطِ ثُمَّ تَكْمِلُ قَائِلَةً: "أَرْجُو أَنْ تَتَحَقَّقَ كُلُّ أَمْنِيَاتِكَ". تَرْمَقُنِي بِنَظَرَةٍ شَهْوَانِيَّةٍ إِلَى أَبْعَدِ الْحَدُودِ ثُمَّ تَرْفَعُ جَسْدَهَا عَلَى أَصَابِعِ قَدَمِهَا الْحَافِيَتِينِ. إِنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنْ تَلَاقِ الْلَّحْظَاتِ الَّتِي تَبَدُّو مِنْ شَدَّةِ إِثَارَتِهَا وَوَضُوْحِهَا أَنَّهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحَدُّثَ، بِيدِ أَنَّهَا تَطْبَقُ شَفَتِيَّهَا عَلَى شَفَتِيِّي، وَإِنَّ لِلْحَظَةِ وَاحِدَةٍ

فقط. وكالعادة، لا أفعل شيئاً لمقاومتها. فأنا مشتعل من قدمي إلى منتصف
جذعي لكنني لا أنس ببنت شفة، ولا حتى كلمة وداعاً، بينما أخرج من
الباب.

الفصل الرابع

**تومي مولتو، 3 تشرين الأول، 2008، قبل ثمانية عشر
شهراً**

طرق جيم براند باب تومي، لكنه بقي على العتبة متظراً المدعى العام كي يشير إليه بالدخول. وخلال الفترة الوجيزة التي تولى فيها لأول مرة منصب المدعي العام في العام 2006، أحس تومي بنقص في الاهتمام. وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من العمل في هذا المكتب، من الثامنة صباحاً وحتى العاشرة مساء كل يوم، اكتسب سمعة محارب أبله، بحيث بدا من الصعب بالنسبة إلى مساعدي المدعي العام الآخرين أن يعاملوه بالاحترام الذي تفترضه السلطة المطلقة لهذا المنصب. بيد أن براند، مساعدته الأولى، غير كل هذا، وذلك بفضل احترامه وحبه لمولتو؛ الأمر الذي كان يدفعه بصورة تلقائية للقيام بكل أنواع التصرفات الرسمية البسيطة - مثل النقر على الباب - التي أدت في نهاية المطاف إلى جعل معظم المساعدين الآخرين يحيّون تومي بكلمة الرئيس.

قال براند: "حسناً. لدينا شيء صغير جديد حول راستي سا بيتش. تقرير أولي حول الزوجة".
"؟".

"وهو أمر مثير للاهتمام. هل أنت مستعد؟".
في الحقيقة، كان ذلك سؤالاً جديراً بأن يُطرح. هل كان تومي مستعداً؟ إن التورط مع راستي سا بيتش مرة أخرى يمكن أن يقتله. ثمة اعتقاد عام في أوساط المحكمة يفيد بأن نيكو تسرّع في قضية راستي

سابيش. صحيح أن تومي كان مشاركاً، لكنه لم يكن مسؤولاً عن القرارات النهائية، التي وإن كانت غير ملائمة إلا أنها لم تَتَّخذ بُنْيَة سيئة. وكان هذا التفسير ملائماً للجميع. وبعد إعادته إلى منصبه كمَدْعَ عام، انتقل نيكو إلى فلوريدا، حيث جمع عدة ملايين من الدولارات خلال مقاضاة شركات التبغ. فاشترى جزيرة في كييز وكان يدعى تومي إليها، والآن دومينغا أيضاً، مرتين في السنة على الأقل.

بالنسبة لتومي وسابيش، كلاهما زحفا إلى بر الأمان إثر كارثة شخصية، واستعادا حياتهما. وفي الواقع، راستي - وكان آنذاك مَدْعِياً عاماً مؤقتاً - هو الذي أعاد وظيفة مولتو إليه. إنه اعتراف صامت بأن كل ذلك الافتراء كان كلاماً فارغاً. وعندما كان الاثنان يلتقيان في تلك الأيام، وهو ما كان يحدث غالباً، كانا يظهران نوعاً من الدفء المتكلف، ليس فقط بسبب الضرورة المهنية، وإنما أيضاً لأنهما تغلباً على المحن ذاتها معاً. كانوا أشبه بشقيقين غير منسجمين مع بعضهما بالرغم من نشأتهم في بيئه واحدة.

قال براند: "سبب الوفاة فشل قلبي، نتيجة عدم انتظام في ضربات القلب، واحتمال ردة فعل ناجمة عن ارتفاع في ضغط الدم".
"هل هذا مثير للاهتمام؟".

"في الواقع، هذا ما قاله سابيش. وإنها كانت تعاني من قلب غير منتظم وضغط دم مرتفع. لقد أخبر الشرطة بذلك. فكيف يمكن لشخص ما أن يخمن هذا؟".

"بالله عليك يا جيم. لربما كان هناك تاريخ عائلي".

"هذا ما قاله. إن والدتها مات بالطريقة نفسها. ولكن، لعل شريانها الأبهر انفجر. ولعلها أصبت بجلطة دماغية. ولكن لا، إنه يقول: بروم، فشل قلبي".

"دعني أرى". مَدَ يده لأخذ التقرير، وفي أثناء ذلك قرر أن من الأفضل أن يغلق الباب. ونظر خارج العتبة إلى ما بعد غرفة الانتظار - حيث كانت سكرتيراته تعملان - إلى الممرات المظلمة، وقال في نفسه إن

عليه القيام بشيء ما يتعلق بهذه المكاتب. وهذا شيء آخر كان تومي يفكر فيه كل يوم. وكان المدعى العام يسكن في مبنى البلدية الكثيف - حيث الضوء المنبعث منه يشبه لون طلاء باهت - طوال العقود الثلاثة التي أمضها تومي مولتو هنا، ولما لا يقل عن ربع قرن قبل ذلك. وكان المكان خطراً مع انتشار الأسلال الكهربائية على الأرضيات في كل مكان، وكانت النوافذ المخلعة الصاخبة لا تزال وسيلة التكيف الوحيدة في المكان.

وبعد عودته إلى كرسيه، راح يقرأ ملاحظات التشريح. "فشل قلبي مرتبط بارتفاع في ضغط الدم". وكانت عائلتها تملك قلوباً هشة مثل هشاشة كواحد أحسن السباق، وهي ماتت بينما كانت نائمة، ربما مع حمى ناجمة عن إصابتها بإنفلونزا مفاجئة. وخلص أخصائي التشريح إلى أن الموت كان ناتجاً عن أسباب طبيعية؛ بما ينسجم مع تاريخها الطبي العائلي. لم يتوقف تومي عن هز رأسه أثناء قراءته التقرير.

قال براند: "هذه المرأة كانت تزن خمسين كيلوغراماً وبطول 160 سنتمراً. كانت تمارس التمارين الرياضية يومياً وكانت تبدو كما لو كانت في نصف عمرها".

"جيسي أراهن بعشرة دولارات على أنها كانت تمارس الرياضة لأن أحداً في عائلتها لم يتحط سن الخامسة والستين. لا يمكنك التغلب على الجينات. وماذا عن تحليل الدم؟".

"لقد أجروا لها اختباراً مناعياً؛ تحليلاً سمي روتنيناً.
هل ظهر شيء ما؟".

"ظهر الكثير. كانت هذه السيدة تملك خزانة أدوية بحجم صندوق سيارة، ولكن لا وجود لأي شيء لا تملك وصفة طبية بشأنه. أقراص منومة كانت تتناولها كل مساء، والكثير من المواد الخاصة بالاكتئاب الهوسى".

رمق مولتو مساعدته الأول بنظرة متفرضة وقال: "أي المواد التي يمكن أن تسبب فشلاً قلبياً، أليس كذلك؟".

"ليس بجرعات طبية. أعني ليس في العادة. يصعب قياس مستويات هذه المادة بعد الموت".

"لديها تاريخ طبي منسجم. وإذا لم تمت لأسباب طبيعية - وربما هو احتمال واحد من خمسين - فعل السبب هو تناولها بالصدفة جرعة زائدة من أدويتها".

لوى براند شفتيه. لم يكن لديه ما يقوله، لكنه لم يكن راضياً. ثم سأله براند: "وماذا عن شخص بقي جالساً هناك لمدة أربع وعشرين ساعة؟". المدعى العام الجيد مثل الشرطي الجيد، يمكنه في بعض الأحيان أن يعدّ قضية من واقعة واحدة فقط. لعله كان على حق. ولكنه لم يكن يملك أي دليل.

قال تومي: "ليس لدينا ما نحقق فيه مع شخص سيكون في المحكمة العليا المحلية بعد أكثر من ثلاثة أشهر بقليل، وسيملك القدرة على التصويت بنعم أو لا على كل حكم يحصل عليه هذا المكتب. وإذا كان راستي سابيش يريد أن يجعل حياتنا بائسة، فستكون أمامه عشر سنوات لفعل ذلك".

حتى أثناء نقاشه مع مساعدته الأول، كانت حقيقة الأمر تتوضّح لتومي مولتو بشكل تدريجي. لم يكن راستي سابيش يعني لبراند أي شيء، لكن ما يمثله بالنسبة إلى تومي هو الذي كان يقود هذا النقاش. فقد اضطرّ تومي - لكي يستعيد وظيفته عندما كان راستي مدعياً عاماً مؤقتاً قبل عقدين - للاعتراف بأنه انتهك معايير المكتب في التعامل مع الأدلة المتعلقة بمحاكمة سابيش. كانت عقوبة مولتو خفيفة، حيث تخلى عن المطالبة بتعويض مالي عن العام الذي عُلق فيه عن العمل خلال التحقيق معه بعد المحاكمة.

لكن، مع مرور الوقت، أصبح اعتراف تومي بارتكابه خطأ ثقيلاً جداً. أكثر من نصف قضاة المحكمة العليا في مقاطعة كايندل هذه الأيام كانوا مدعين عامين مساعدين سبق لهم وعملوا مع تومي. وكانوا يعرفونه صلباً، متمراً، ويمكن التوقع بما سيفعله، وإن بصورة ضبابية، وكانوا

سعداء لتعيينه رئيساً مؤقتاً للمكتب عندما استقال المذيع العام المنتخب، موزس آبلبي، بسبب اكتشاف إصابته بورم دماغي متقدم جداً بعد عشرة أيام فقط من أدائه القسم لتولي منصبه. بيد أن اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي للعمال والمزارعين، التي تعرف كل الأسرار الفدراة، لم تكن راغبة بترشيح تومي للمنصب أو حتى لمنصب قاض؛ المنصب الذي كان تومي يرغب به بشدة، لأنه كان يوفر أمّاً طويلاً الأمد لرجل يملك عائلة شابة مثل عائلته. وفي الحقيقة، كان بالإمكان تعریض اللائحة بأكملها للخطر إذا ما قام أحد المنافسين، باكتشاف اعتراف تومي، وبدأ بالتصريف كما لو أن تومي اعترف بارتكاب جرم. ربما لو كان يملك السلطة القوية لشخص مثل راستي لتمكن من التغلب على هذا الوضع. لكنه، على كل حال، كان سعيداً بإبقاء هذه النقطة السوداء في سيرته المهنية مجهولة لدى الجميع باستثناء قلة من الأشخاص. ولا شك أن براند كان محقاً، فإثبات أن سا بيتش كان شخصاً سيئاً يمكن أن يمحو تلك النقطة السوداء، إذ حتى لو عرف الجميع كل شيء عما حدث، فإن أحداً منهم حينئذ، لن يكرر لكون تومي ارتكب خطأ.

لكن ذلك النوع من الرميات البعيدة المدى لم تكن تستحق المخاطرة. وبعد أن بدا لسنوات أن احتفاظه بعمله ما هو إلا واحدة أخرى من رغبات تومي غير القابلة للتحقيق، أحسَّ بحلوة الفخر لبراعته في عمله. وفوق ذلك حظى بفرصة إصلاح الكثير من الضرر الذي لحق بسمعته أثناء محاكمته راستي. وهذا ما مكّنه - إثر انتخاب مدع عام جديد بعد سنتين - من استعادة دور المنفذ، والحصول على أجر كبير لقيامه بتحقيقات داخلية لصالح إحدى الشركات. وهذا لم يكن ليحدث لو اعتقد الناس أنه استخدم منصبه للانتقام.

"جيبي، لكن صريحين. لا يمكنني أن أعبث مع راستي سا بيتش من جديد. فلدي طفل عمره سنة واحدة. والأشخاص الآخرون في عمري يفكرون في التقاعد. أما أنا فينبغي على أن أفكر في المستقبل. فلا أستطيع أن أتحمل اعتمار القبعة السوداء مرة أخرى". لطالما أحس

تومي بالإرباك من الموقف الذي يشغله الآن في سلم الحياة. إنه لم يقصد قط أن يكون طيناً أو متلواناً فقط كي يحصل على ما كان يتوق إليه منذ وقت طويل. لكنه، في الوقت نفسه، لم يكن في يوم من الأيام يتمتع بأنّا منتفخة بحيث يعتقد أن بإمكانه التجربة حتى على الزمن.

كشفت نظرة براند بوضوح ما كان يجول في داخله: هذا ليس تومي مولتو. وما سمعه للتو - الاهتمام الشخصي، الحرص - لا ينسجم مع المدعى العام الذي يعرفه. فانقبض قلب تومي لدى رؤيته الخيبة في وجه براند.

قال تومي: "اللعنة، ماذا تريدين؟".

"دعني أنفّق. على مسؤوليتي الخاصة. بحذر شديد. ولكن، دعني أناكِ من أن ما بين أيدينا لا يعني شيئاً".

"إن حصلت أية تسلّيات، جيمي، وخاصة قبل الانتخاب، ولم نكن قد اكتشفنا شيئاً، فوسعك كتابة ورقة نعي. هل تفهم ذلك؟ إنك تعبث في ما تبقى لي من حياة".

"وبهدوء شديد". رفع براند يده المربعة الكبيرة ووضع إصبعاً على شفتيه.

"اللعنة"، قال تومي مرة أخرى.

الفصل الخامس

راستي، 19 آذار 2007

عندما أترجل من الباص في نيرينغ ، ميناء العبارات السابق الذي تحول إلى ضاحية قبل فترة قصيرة من انتقالنا إلى هنا في العام 1977 ، أتوقف عند صيدلية على الطرف الآخر من الشارع من أجل جلب أدوية باربارا. وبعد بضعة أشهر من انتهاء محاكمتي قبل إحدى وعشرين سنة ، انفصلت وباربارا ، لأسباب غير مفهومة تماماً إلا لكتلنا. فلربما كان الأمر قد تطور إلى طلاق لو لم تُشخص إصابتها باضطراب ثنائي القطب إثر محاولة انتحار مجهضة . بالنسبة إلى ، أصبح هذا الأمر عذراً كافياً لإعادة التفكير في الأمر مجدداً . وبعد انتهاء المحاكمة ، وبعد الأشهر التي أمضيتها وأنا أحارو الوقف مجدداً على أرض صلبة ، وبعد الليالي التي أمضيتها وأنا أطلق الاتهامات بحق الزملاء والأصدقاء الذين تخلوا عنني أو لم يفعلوا ما يكفي من أجلي؛ بعد انقضاء كل هذا ، أردت ما كنت أريده منذ بدء الكابوس: أردت استعادة الحياة التي كنت أعيشها. لم أكن أملك القوة ، إذا شئتم الصدق ، للبدء من جديد ، أو لأرى ابني - وهو مخلوق هش - يصبح الضحية الأخيرة للمأساة برمتها. لقد عاد نات وباربارا من ديترويت ، حيث كانت في السابق تعلم الرياضيات في جامعة واين ستيت ، بشرط واحد فقط ، وهو تعهدها بالالتزام الدقيق بنظامها العلاجي. مزاجها لا يستقر بسهولة. وعندما كانت الأمور تسير على ما يرام ، وخاصة خلال السنوات القليلة الأولى التي تلت عودتها ونات إلى المنزل ، وجدتها أقل نزقاً بما لا يقاس وأكثر مرحاً. لكنها فقدت

جانبها الهوسي، حيث لم تعد تملك الإرادة أو الطاقة للتسمر أمام حاسوبها في جلسات تدوم كل واحدة منها أربعاً وعشرين ساعة عندما تكون هناك نظرية رياضية صعبة تريدها. وبمرور الوقت، تخلّت عن مهنتها؛ الأمر الذي تسبب بالمزيد من الكآبة لها. وهذه الأيام، تدعى باربارا نفسها فأر تجارب، إذ تبدي استعدادها التام لتجربة أي شيء يوصي به طبيتها النفسي من أجل التوصل إلى سيطرة أكبر على حالتها. تتناول باربارا مجموعة قليلة من الأدوية عندما تكون حالتها ممتازة: تيرجيتول، سيروكوويل، لاميكتال، توباماكس. وعندما تكون مكتوبة، فإنها تتناول أدوية ثلاثة الحلقات، مثل أسيندين وتوفرانيل المسببين للنعاس، والذين يجعلانها تبدو وكأن أحداً ثقب حفرتين في عينيها، ما يجعلها تمشي في البيت واضعة نظارة سوداء. وفي الحالات الأشد سوءاً تلجم باربارا إلى الفينيلزين، وهو دواء سيعدها - كما اكتشفت هي وطبيتها - عن محاولة الانتحار، ما يجعله يستحق الاستخدام بالرغم من مخاطره الجانبية العديدة. والآن، إنها تستخدم وصفات لخمسة عشر إلى عشرين دواء، تتضمن الأقراص المنومة التي تأخذها يومياً، وأدوية ارتفاع ضغط الدم المزمن واضطراب ضربات القلب الغرضي. وتطلب باربارا علىًّا جديدة من أدويتها عن طريق الإنترنت، وأقوم بجلبها لها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً.

تناول طعام العشاء في المنزل يحدث بصورة غير منتظمة. فزوجتي طباخة ماهرة وقد أعدت لنا ثلاثة قطع من اللحم المشوي المنزوع العظم، وكل واحدة بحجم قبضة بول بونيان^(*)، لكننا جميعاً استنفدنا بهجتنا من الاحتفال الذي حصل في المكتب. نات الذي كان يبدو

(*) هو شخصية خطاب أسطورية، يظهر في القصص الطويلة في الفولكلور الأمريكي. يعتقد عادة أنه عملاق بجانب أنه كان خطاباً يمتع بمقدرات خاصة. تم توثيق الشخصية للمرة الأولى في أعمال الصحفي الأمريكي جيمس ماك جيليفري. تاريخياً كانت للشخصية شعبية في القصص المحكية في القرن التاسع عشر في المناطق الشمالية في الولايات المتحدة في ميشيغان و威يسكونسن ومنيسوتا.

في مرحلة ما وكأنه لن يغادر منزل الأسرة أبداً، بات يعود إليه مكرهاً هذه الأيام، وهو الآن صامت كالعادة خلال الوجبة. وكان واضحاً من البداية تقريباً أن هدفنا الأساسي هو الانتهاء من الأمر، والقول إننا تناولنا العشاء معاً في يوم هام، ومن ثم عودة كل واحد منا إلى عالمه الخاص. سيرجع نات إلى منزله للتحضير لدروس القانون غداً، وستعود باربارا إلى كمبيوترها للبحث على الإنترنت، وسأضع أنا - كالعادة - وصلة الذاكرة في الكمبيوتر وأراجع مسودة الآراء.

كما يحصل غالباً في عائلتي، أقوم بافتتاح الحديث. ولم أجد قصة أكثر غرابة من لقائي هارناسون لسردها لهما.

"السجين؟". تسأل باربارا عندما ذكر اسمه للمرة الأولى. نادراً ما تصفي إليّ عندما أتحدث عن العمل، لكنك لا تستطيع أبداً التوقع بما تعرفه باربارا برونشتاين سابقاً. في هذه المرحلة، إنها نسخة مشابهة مرعبة - ولكن بأسلوب أفضل بكثير - لأمي الفاقدة للرشد تقريباً، والتي كانت مهوسّة في أواخر حياتها، بعد وفاة والدي، بتسجيل أفكارها على أوراق ملاحظات كانت تكتسّها على مائدة الطعام في منزلنا. ولأنها كانت تعاني هوس الأماكن العامة، وجدت أمي طريقة للخروج من شقتها الصغيرة وذلك من خلال الاتصال المنتظم بالبرامج الحوارية الإذاعية. زوجتي أيضاً تكره مغادرة المنزل. فهي المهووسة بالكمبيوتر، تتجول بين مواقع الإنترنت من أربع إلى خمس ساعات يومياً، مشبعةً كل فضول لديها حول وصفات أطعمة، استثمارات أسمها، أحدث البحوث في الرياضيات، صحف، مشاريع المستهلكين، وبعض ألعاب فلاش. فلا شيء في الحياة يمكن أن يبعث الاستقرار في نفسها أكثر من وجود عالم من المعلومات بين يديها.

"تبين أنني في الماضي أدنت الرجل الذي كان محاماً يعيش من أموال زبائنه. وغير سوي جنسياً".

تقول باربارا: "وماذا ينتظر منك الآن؟".

أرفع كتفي، ثم أخفضهما نافياً علمي بأي شيء، لكنني من خلال

إعادة سرد القصة، أجابه في داخلي شيئاً أكره الاعتراف به، حتى أمام زوجتي وأبني: إنني أشعر بالذنب لإرسال رجل إلى السجن بسبب أحكام مسبقة أشعر الآن بالعار لأنني كنت أملكها. وفي ضوء هذا التحليل أدرك ما كان هارناسون يحاول بمكر الإيهاء به، وهو أنني لو لم أتهمه للأسباب غير الصحيحة، وأحرمه من مهنته، وأؤذن به في حفرة من العار، لاتخذت حياته مساراً مختلفاً كلياً، بمعنى أن موقعه واحترامه لذاته كانا سيعناني من قتل شريكه. أنا الذي بدأت مسار السقوط. التفكير في الجانب الأخلاقي للمسألة يجعلني ألتزم الصمت.

يقول نات: "ستتحدى الآن، أليس كذلك؟". عندما كان نات يعيش في المنزل بعد تخرجه من الجامعة، نادراً ما كان يتدخل مباشرةً في مواضيع نقاشاتنا. وفي العادة، كان يتبنى دوراً أشبه بدور المعلق المتعاطف مع كلينا، مقاطعاً فقط للإدلاء بلاحظات حول الطريقة التي عبرنا فيها أنا وأمّه عن نفسينا - "جيد بابا"، أو "أخبرينا ما هو شعورك حقاً، ماما" - وذلك بقصد منع أي منا من الإخلال بالتوازن الفلكي فيما بيننا. لطالما خشيت أن يكون الإصلاح بين أبويه عامل إضافياً آخر من العوامل التي جعلت دربه في الحياة أكثر مشقة. ولكنه في هذه الأيام يناقشني بفعالية في المسائل القانونية، مقدماً لي وسيلة نادرة لدخول عقل ابني المنعزل والكثير.

"لا جدوى من ذلك، لأنني صوّت مسبقاً. الشك الوحيد بشأن القضية، وليس هناك الكثير، يتعلق بجورج ماسون. وهارناسون، في الحقيقة، لم يحاول التحدث بشأن وقائع استئنافه على كل حال". والمشكلة الأخرى، إذا ما أردت عزل نفسي الآن، هي أن معظم زملائي في المحكمة سيعتقدون أنني أفعل ذلك من أجل حملتي الانتخابية، وذلك من خلال محاولة تجنب تسجيل صوتي بغية إبطال حكم بارتكاب جريمة القتل، وهو تصرف نادرًا ما يسعد العامة.

تفوّل باربارا: "هذا يعني أن فترة بعد الظهر كانت حافلة بالنسبة إليك".

أجبيها قائلًا: "وكان هناك المزيد". يستحضر هذا التصريح قبلة آنا إلى ذهني، وخوفاً من أن تكون وجنتاي قد اصطبغا باللون الأحمر، أمضى بسرعة لسرد ما حصل في أثناء لقاء ريموند. "عرض كول الانسحاب من الانتخاب الأولي".

كول هو ن. ج. كول، وهو عبقرى قانونى وأبله مغرور في آن واحد، كان ذات مرة معى في محكمة الاستئناف. إنه المعارضة الوحيدة التي أتوقعها في الانتخاب الأولي في بداية العام القادم. وأنا واثق من قدرتى على إلهاق الهزيمة به إذا ما حصلت على مصادقة الحزب، ولكن ذلك سيطلب استثماراً كبيراً في الوقت والمال. ولأن الجمهوريين لم يدعموا مرشحاً حتى الآن في مدينة الحزب الواحد هذه، فإن انسحاب كول سيكون مساوياً لفوزي بما تشير إليه الصحف بصرامة بأنه "مقعد الرجل الأبيض" في المحكمة العليا في الولاية، تميزاً عن مقعدي مدينة مقاطعة كابندل الآخرين اللذين يشغلهما في العادة رجل أميركي من أصول أفريقية وامرأة.

تقول زوجتي: "هذا رائع! يا لها من هدية ذكرى ميلاد لطيفة!".
"مهلاً. إنه سيسحب فقط إذا دعمت إعادة تعينه في محكمة الاستئناف كرئيس للقضاة".
"وماذا في ذلك؟".

"لا يمكنني أن أفعل هذا بجورج، أو المحكمة". فعندما جئت إلى محكمة الاستئناف، كانت موطنًا للمتقاعدين من الموالين الحزبيين المستعدين للتجاوب مع الإيحاءات غير الصحيحة. والآن، وبعد اثنى عشرة سنة أمضيتها كرئيس، تفخر محكمة الاستئناف التابعة لمنطقة الاستئناف الثالثة بعضويتها المتميزة التي تظهر آراؤها من وقت لآخر في كتب كليات الحقوق، ويُستشهد بها في أنحاء مختلفة في البلد. كول، بغروره وغبائه، يمكن أن يدمر كل ما أنجزته في لحظة واحدة.

تقول باريara: "جورج يفهم السياسة، وهو صديقك".
"ما يفهمه جورج هو أنه يستحق أن يكون رئيساً. وإذا ساعدت على"

وضع كول في مكانه، فسيشعر جميع القضاة بأنني طعنتم في الظهر".
القى ابني نات كول في كلية إيسنون للحقوق ، حيث يدرس كول ،
وتوصل إلى الاستنتاج الطبيعي .
"كول معنوه لعين" .

"من فضلك نات". تفضل باربارا التزام آداب اللياقة على مائدة
ال الطعام .

لقد دعم كول عرضه بتهديد. إن لم أقبل ، فسيغير الحزب ، ويصبح
 المرشح الجمهوري في الانتخاب العام في تشرين الثاني 2008. لن
 تكون فرصه في الفوز أفضل ، لكنه سيزيد الضغط علي إلى حد كبير .
 "إذا ، ستكون هناك حملة؟". تسألني باربارا ، غير مصدقة أنني
 أشرح لها كل هذا .

"إن لم يكن كول يخادع . قد يجد أن الأمر مضيعة للوقت والمال ".
 تهز باربارا رأسها ثم تقول : "إنه حقود . قد يرشح نفسه نكاية ". من
 المسافة البعيدة التي تحفظ بها عن عالمي ، ترى باربارا بوضوح أكبر ،
 وأدرك على الفور أنها محقه؛ الأمر الذي يضع حدأ لنقاشنا .

جلبت باربارا كيك الجزر الذي صنعته أنا إلى المنزل ، لكننا لا
 نزال نتعافي من غيبوبة السكر التي كاد أن يتسبب بها قالب الكيك هذا
 لنا . ونمضي أنا وابني عشرین دقيقة أخرى في مشاهدة فريق ترابيرز
 وهو يخسر مباراة أخرى . والوقت الوحيد الذي كنت أمضيه مع والدي ،
 خارج مخبز العائلة الذي عملت فيه منذ سن السادسة ، كان عبارة عن
 لحظات تحدث مرة أو مرتين في الأسبوع ، وكان أبي يسمح لي فيها
 بالجلوس بجانبه على الأريكة بينما كان يحتسي الشراب ويشاهد مباراة في
 كرة القاعدة؛ لعبة كان ولعه بها غير قابل للتفسير بصفته مهاجرأ . وكان
 إذا أشار إلى بتعليق ما عدة مرات في الليلة ، فإن هذا أثمن من كنز بالنسبة
 إلى . أما بالنسبة لنات ، فبعد أن كان لاعباً ممتازاً في المرحلة الثانوية ،
 بدا وكأنه فقد الاهتمام كلأياً بكرة القاعدة إثر خسارة موقعه كلاعب أساسى
 في السنة الأولى من الجامعة . ولكنه يمضي معى غالباً بضع دقائق أمام

التلفاز؛ لعل هذه الخصلة انتقلت إليه بالوراثة.

بعيداً عن إعراينا عن الحزن حال فريقنا غير المحظوظ على الدوام، أو نقاشاتنا القانونية، فإنني ونات لا نميل إلى التكلم كثيراً معاً. يعكس باربارا التي تحاصر ابنتا باتصال يومي يُفلّص هو مدته في الغالب إلى أقل من دقيقة. لكنني سأخرق عرفاً جوهرياً إن لم أتفصّل وضعه في الوقت الحالي الآن، بالرغم من معرفتي أنه سيحرّف وجهة أسئلتي.

"ما هي أخبار رسالتك؟". سيقوم نات الذي يطمح إلى أن يكون أستاذًا في القانون، بنشر أطروحة في جريدة إيسنون لو ريفيو حول علم النفس اللغوي وتوجيهات هيئة المخلفين.

"على وشك الانتهاء. س تكون في المطبعة هذا الشهر".
" رائع".

هـز رأسه عدة مرات كطريقة لتجنب المزيد من الكلمات. "الديك
مانع إن ذهبت إلى الكوخ في عطلة نهاية الأسبوع؟". يشير نات إلى
منزل العائلة في سكاجيون. "أريد الابتعاد للتدقيق في الأطروحة مرة
أخرى". ليس من حقي أن أسأل ، ولكن من المؤكد تقريراً أن نات سيذهب
مع صاحبه المفضل؛ أي نفسه.

يودع نات أمه التي أصبحت الآن في عالم آخر؛ هو عالم الإنترن特، فلا تسمعه ولا تجبيه. أغلق الباب خلفه ثم أذهب لأجد حقيتي. استعدت وباربارا الآن وضعنا الطبيعي. فليس هناك أي صوت يُسمع: لا تلفزيون، ولا غسالة أطباق. فالصمت يعني غياب أي تواصل. إنها في عالمها وأنا في عالمي. ومع ذلك، فهذا كان اختياري وأعتقد أنه ما زال كذلك، في أغلب الأحيان.

في مكتبي الصغير، أحمل مسودة الآراء من وصلة الذاكرة، وأصححها ثم ألقي نظرة على بريدي الإلكتروني الشخصي حيث أجد عدّة تهان بذكرى مولدي. قرابة الحادية عشرة، أتوّجه إلى غرفة النوم وأكتشف أن باربارا لا تزال صاحبة على نحو غير متوقع. إنها ذكري ميلادي، وأعتقد أنتي سأكون الصبي المحتفل بذكرى مولده.

لا أعتقد أن الممارسات الحميمية في الزيجات الطويلة أكثر تنوعاً - وبالتالي، بصورة مجردة، أكثر إثارةً - منها في العلاقات التي تنشأ بين الرجال والنساء في المشارب التي يقصدها العازبون. أسمع من بعض الأصدقاء في مثل عمرينا تعليقات عابرة توحى بأن الحميمية انتهت من حياتهم. بيد أنني وباريبارا ما زلنا نحافظ على حميميتنا قوية، ربما كوسيلة للتعويض عن مواضع النقص الأخرى في زواجنا. ولطالما تمنت زوجتي بجمال ساحر، وهي أكثر إبهاراً الآن، في حين أن الكثير من نظيراتها أنهكتهن السنون. بالرغم من أنها سمحت لصفائر شعرها الطبيعي الكثيف بالمشيب، ومع أنها تخرج غالباً من دون مكياج بالرغم من الشحوب الذي يفرضه التقدم بالعمر، إلا أنها لا تزال جميلة، مع تفاصيل أنوثية واضحة. وإنها تمارس التمارين الرياضية لمدة ساعتين ولخمس مرات في الأسبوع على المعدات الموجودة في قبو منزلنا، لمواجهة روتين يحارب الأمراض التي تسري في عائلتها، ولتحافظ على مظهرها البافع. لا أزال أشعر بزهو ذكري من النوع الذي ينبع عن مرافقة امرأة فائقة الجاذبية عندما أدخل غرفة ما برفقتها، ولا أزال أستمتع بمنظرها في السرير، حيث تكون الحميمية رياضتنا المشتركة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. صحيح أنها تكون معلمة في أغلب الأحيان، لكن معظم الحياة كذلك؛ حتى في أفضل فتراتها مع العائلة حول مائدة الطعام ومع الأصدقاء في المشرب.

هذا لا يعني بأن أيّاً من ذلك سيحصل في هذه الليلة. فما إن دخلت غرفة نومنا حتى أدركت أنني فرأت خطأً معنى بقاء باريبارا صاحبة حتى الآن. فعندما تكون مستاءةً يتصلب وجهها - الفك، العينان - ويصبح كالفولاذ.

أطرح عليها السؤال البسيط والخطر على الدوام: "ما الأمر؟". تتقلب تحت الأغطية بحق ثم تقول: "أعتقد أنه كان باستطاعتك التحدث إلى أولئك"، هذا التعليق غير مفهوم إلى أن تضيف قائلةً: "بشأن كول".

أقول لها باستغراب شديد: "كول؟".

"هل تعتقد أن هذا لا يؤثر عليًّا أيضاً؟ لقد قررت، يا راستي، أن تخضعني لحملة انتخابية لمدة أشهر من دون أن تتحدث معي. أفظن أنني سأكون قادرة على الذهاب إلى مخزن البقالة بعد التمرين، وشعري ملتصق برقتي، وتفوح مني رائحة حذاء رياضي؟".

في الحقيقة، تطلب باربارا معظم ما تحتاج إليه من بقالة عبر الإنترنت لكنني أتجاهل ما تقوله وأسألها لم لا؟

"لأن زوجي سيغضب . وخاصة إذا دسَ أحدهم ميكروفوناً أمام وجهي أو النقط لي صورة".

"لن يلتفت أحد صورة لك يا باريara".

"إذا كانت إعلاناتك على التلفاز ، فالجميع سيراقبونني . زوجة مرشح للمحكمة العليا مثل زوجة وزير . فالأمر سيئ بما يكفي معك وأنت رئيس قضاة . ولكنني سأكون مضطراً الآن للعب الدور " .
ليست هناك طريقة لإخراجها من حالة الارتياب هذه ، فأننا أحياول منذ عقود . بدلاً من ذلك ، أقول لها معتذراً : "أنا آسف . أنت محققة ، كان يجب علىي أن أتحدث إليك " .

"لكنك لم تفكّر في هذا، أليس كذلك؟".

"لقد اعتذرت للتو ، باريara".

"لا، بصرف النظر عما يعنيه الأمر بالنسبة إليّ، فأنت لم تفكّر حقاً في السماح لکول بأن يصبح رئيساً".

- "باربارا، لا يمكنني الأخذ بعين الاعتبار ما إذا كانت زوجتي" -
أبحث بشكل ملحوظ عن الكلمات المناسبة لتفادي كلمات مثل مضطربة
عقلياً، ثنائية القطب، مجنونة - "تخجل من الدعاية لدى اتخاذني قرارات
مهنية. ن. ج. كول سينسب بضرر كبير للمحكمة إن أصبح رئيساً.
إنني أضع مصالحي الشخصية جانباً. لا يمكنني أن أضع وزناً إضافياً
لمصالحك أنت".

"لأنك راستي، المثال الأعلى؛ وسانت راستي؛ فأنت دائمًا تحتاج

إلى خوض سباق حواجز طويل قبل أن تسمح لنفسك بنيل مرادك . لقد سئمت من ذلك".

تکاد تفلت مني كلمة مؤذية ، لكنني أکبح نفسي كما أفعل دائمًا . ستغضب الآن ، وأنا سأمتص غضبها وحسب ، مردداً في داخلي كلمات معينة کي أحافظ على هدوئي ، إنها مجنونة ، أنت تعرف أنها مجنونة ، لذا دعها وشأنها.

ترتفع وتيرة غضبها شيئاً فشيئاً . أقترب من كرسي ، وأجلس عليه ولا أقول أي كلمة باستثناء ذكر اسمها بين الحين والآخر . تغادر السرير ، وتتخذ وضعية ملاكم ، متحركة في أرجاء الغرفة كما لو أنها كانت في حلبة . كفاحا منقبضتان بقوه لكنها لا تقدفي بالكلمات ، بل بشتائم وكلمات لاذعة . فأحافظ على برودة أعصابي ، غير مكترت لها . وفي الوقت المناسب ، أتوجه إلى خزانة الأدوية وأجلب قرص ستيلازين . أريها القرص ، وأنظر لأرى إذا كانت ستأخذه قبل أن تدخل الطور المدمر الأخير الذي ستعمد فيه إلى تدمير شيء ما ذي قيمة بالنسبة إلى . ففي الماضي ، حطمت أمام عيني مساند الكتب الكريستالية التي قدمتها لي نقابة المحامين عندما رُفعت إلى رئيس قضاة ، وأحرقت بذلة التوكسيدو بواسطة مشعلة النار التي نستخدمها لإشعال الشواية ، ورمت في المرحاض سيجارين كوبين قدمهما لي القاضي دوبل . واليوم ، ها هي تمسك بالعلبة التي قدمها لي جورج ، وتخرج الهدية ثم تقص الشارتين الذهبيتين المعلقتين على كتفي الرداء .

"باربارا!". أصرخ بها من دون أن أقف لأنعنها . وهذه الصرخة ، أو ربما تصرفها ، تکفل بردعها قليلاً ، فتنقطع قرص الدواء عن طاولة السرير ثم تتبعه . وخلال نصف ساعة ، ستسقط في غيبوبة ستجعلها نائمة معظم يوم غد ، ولن يكون هناك أي اعتذار . وبعد يوم أو يومين سنعود إلى حيث بدأنا؛ بعيدين ، حذرين ، منقطعين . وسنمضي عدة أشهر في سلام قبل الثوران التالي .

أتوجه إلى الأريكة في مكتبي الملائق لغرفة النوم . إذ توجد

عليها وسادة وشرشف وبطانية تحسّباً لمثل هذه الظروف. فنوبات غضب باربارا تهزمي دائماً، وتجعلني أرجع في الزمن إلى الوراء، إلى إحدى وعشرين سنة مضت، متسائلاً أي جنون جعلني أعتقد أننا نستطيع الاستمرار.

أشرب كأساً من الشراب في المطبخ. عندما أصبحت محامياً لم أكن أشرب قطّ، لكنني في هذه السن أشرب كثيراً، لكن ليس إلى حدّ مفرط، ولكنني نادراً ما أذهب إلى السرير من دون أن أشعر بالخدر أولاً. وفي الحمام أفرغ مثانتي للمرة الأخيرة وأنظر هناك. وفي أوقات محددة من السنة تدخل أشعة ضوء القمر مباشرة عبر النافذة السقفية للحمام.

أعود إلى المطبخ وأتناول كأساً آخر، ثم أعد سريري على الأريكة الجلدية. لقد فعل الشراب فعله، وها أنا أسقط رويداً رويداً في دهاليز النوم. وهكذا ينتهي يومي بتذكر أعوامي الستين على الأرض، مع شعوري بشفتي أنا على شفتي، وذهني يدور مع الأسئلة الأبدية. فهل يمكنني أن أكون سعيداً؟ وهل سأموت من دون أن أحاول اكتشاف ذلك؟

* * *

العلاقة بين القاضي والموظف القانوني فريدة إلى حدّ كبير في الحياة المهنية المعاصرة، لأن الموظف القانوني، بصورة أساسية، محام متّدرب لدى القاضي. إنهم يأتون إلى لامعين وموهوبين ولكن غير مصقولين، فأنفق سنين في تعليمهم؛ إذ لا شيء أقل من التفكير المنطقي في المشكلات القانونية. فأنا نفسي كنت موظفاً قانونياً منذ خمسة وثلاثين عاماً، عند رئيس قضاة المحكمة العليا، فيليب جولدستين، الذي ما زلت أكُن له - مثلاً يشعر جميع الموظفين القانونيين تجاه قضائهم - حباً واحتراماً عظيمين. وفيليب جولدستين كان واحداً من أولئك الأشخاص الذين دخلوا الحياة العامة بسبب اعتقادهم الراسخ والعميق بالإنسانية، معتقداً أن الحب موجود داخل كل إنسان، وأن مهمته كسياسي أو كقاض تتمثل بالمساعدة على إظهاره. وذلك هو الاعتقاد العاطفي الراسخ لحقبة أخرى، وإذا أردت أن أكون صريحاً، إنه ليس الاعتقاد الراسخ الذي

عشته على الإطلاق. لكن مرحلة تدريبي كانت تجربة رائعة، لأن فيليب كان أول شخص يرى أنني أملك مواهب عظيمة كمحام. وكنت أنظر إلى القانون على أنه قصر من الضوء يمكن لإشعاعه أن يزيل الظلمة المعيشة في منزل أبي. وقبولي في هذا المجال كان يعني أن روحي تجاوزت الحدود الصغيرة التي لطالما خشيت أنه كان مقدراً لي العيش ضمنها.

لست واثقاً من أنني كنت قادراً على اتباع نموذج القاضي اللطيف مع موظفي القانونيين. ولكن موظفي القاضي هم ورثته في القانون، ولدي صلة خاصة مع الكثير منهم. وإن الموظفين السابقين السبعة الذين يحضررون حفلة وداع آنا من بين المفضلين لدي، وجميعهم ناجحون بصورة بارزة في المهنة. وينضم هؤلاء الموظفون السبعة إلى بقية طاقمي لتشكل معاً طاولة فرحة من خمسة عشر شخصاً في غرفة خلفية مظلمة في مطعم ماشيوكو. نحتسي جميعنا الكثير من الشراب الفرنسي، ونسخر مازحين من آنا، منتقدين حميتها الدائمة، وتبرئها من حياة العزوبية، وسرقتها السجائر بين الحين والآخر، والطريقة التي تحول بواسطتها بزة رسمية إلى ثياب عادية. فاشترى لها أحدهم خفافاً منزلياً كي تتنعله في المكتب.

تنتهي الحفلة وتعيدني آنا في سيارتها إلى المحكمة - كما خططنا - كي أجلب حقيتي، وتوضّب هي ما بقي من أغراضها قبل أن تقُلني إلى الحافلة المتوجهة إلى نيرينغ. ولكن، يتبيّن أن كل واحد منا اشتري للأخر هدية صغيرة. أجلس على أريكتي القديمة - يذكرني جلدها المشق بوجهي - لأفتح العلبة. يوجد فيها مجسم صغير لميزان العدالة كتبت آنا عليه: "إلى الرئيس، مع حبي وامتناني للأبديةين، آنا".

"جميل"، أقول لها فتجلس بجانبي حاملة بيدها هديتي.

بعد قُرْب الكلمات ليست استعارات وحسب. ففي الأشهر الأخيرة من عمل آنا في المكتب تلاشى جزء كبير من المسافة المهنية بيننا. وعندما ندخل أحد المصاعد، تحشر آنا نفسها أمامي مباشرة. وعندما تصدمني

بمؤخرتها، تقول لي "عفواً"، ثم تنظر إلىَيَّ من فوق كتفها وتبسم. وبالطبع، إنها تجلس الآن ملتصقة بي تماماً، فالخاصرة على الخاصرة، والكتف على الكتف، ولا يفصل بيننا ميليمتر واحد. تدمع عيناهَا لدى رؤيتها هديتي، وهي مجموعة أقلام لمكتبها مع عبارة مقتبسة من فيل جولدستين تفيد أنها خلقت لتتبوأ مكانة عظيمة. ثم تقول: "إنك تعني لي الكثير أيها القاضي".

تلقي برأسها على صدرِي بشكل طبيعي جداً، فأطْوُّقها - بعد بضع لحظات - بذراعي. نقى على هذه الوضعية لعدة دقائق من دون أن تنقوه بحرف واحد. وأضع يدي الآن على كتفها المتينة. وشعرها الجميل يرتاح فوق قلبي مباشرة. فليست ثمة حاجة إلى نقل الحوار الجاري بيننا الآن شفهياً. فالاشتياق والترابط قويان، لكن المخاطر والعبثية واضحة أيضاً. وبينما نحن على هذه الحال، نحاول تحديد أي خسارة ستكون أسوأ: المضي قدماً أم التراجع. وفي هذه اللحظة، لا أعرف ما سيحدث، لكنني أعرف شيئاً واحداً فقط، وهو أنني كنت أكذب على نفسي منذ أشهر. لأنني راغب بها من أخص قدمي إلى قمة رأسي.

أفكِر بيني وبين نفسي، هل سيحدث ذلك؟ هل سيحدث فعلًا؟ كيف؟ ولم لا؟ وهل يمكن أن يحدث ذلك؟ هذا الموقف يشبه اللحظة التي يقف فيها رئيس هيئة المحلفين حاملاً ورقة الحكم المطوية بيده. فحياة شخص ما ستتغير؛ حياة ما ستكون مختلفة بعد لحظات.

خلال هذه اللحظات، أعدُّ نفسي بأن القرار سيكون قرارها هي فقط. لن أطلب منها شيئاً، ولن أقوم بأي مبادرة. إن الإحساس بجسدها المتين يثيرني، لكنني لا أقدم على أي حركة، وأكتفي بالانتظار، إلى أن تبدأ برفع رأسها نحوِي فأشعر بأنفاسها الحارة على رقبتي. فهي التي تنتظر الآن. وأفكِر حالياً في شيء واحد فقط هو: إن لم يحدث الآن فلن يحدث أبداً في مناسبة أخرى، ولن تُتاح لي الفرصة مرة أخرى لمعانقة واحدة من أشد النساء إثارة.

أنظر إليها. تلقي شفتانا، ولسانانا. فأصدر تأوهًا عالياً وتهمس

هي قائمة: "رasti، اوه، راستي". تبتعد قليلاً لتنظر إلى، فأنظر إليها، أراها جميلة، هادئة، ووائقة تماماً. عندئذ تقول لي كلمات تسمو بروحى إلى حيث لم تسم قبلأً. بهذه الحسناء الشابة الرائعة الجريئة تقول: "قلني مجدداً".

في ما بعد، تقلني أنا إلى الحافلة. وقبل الوصول إلى المحطة بقليل تحرف إلى زفاف جانبي كي نقبل بعضنا قبلة الوداع.

أنا! الرئيس سابيتش، أقبل امرأة في الظل خلف شعاع الضوء الصادر عن مصباح عمود النور مثل فتى في السابعة عشرة من عمره.

تسألني: "متى سأراك؟".

"أوه، أنا".

"رجاءً، ليس مرة واحدة فقط. سأشعر بأنني بائعة هوى". تصمت لبرهة ثم تقول: "وربما أكثر من بائعة هوى".

أعرف أنه لن تكون هناك لحظة أكثر حلاوة من اللحظة التي عشناها للتو. صحيح أنها غير مكتملة، لكنها الأجمل والأشد إثارة للبهجة.

"كل العلاقات غير الشرعية تنتهي بصورة سيئة". ولعل المثال الأبرز في العالم على هذا الأمر، فقد حوكمة بتهمة ارتكاب جريمة قتل بسبب ذلك. "فينبغي علينا التفكير في هذا".

"لقد فكرنا مسبقاً. لاحظت لأشهر بأنك كنت تفك في كل مرة كنت تنظر فيها إلىي. من فضلك. لتبادل الأحاديث، إن لم يكن من أجل أي شيء آخر".

كلانا نعرف أن الحديث الوحيد الذي ستبادله سيحدث بين الفصول، لكنني أهز رأسي ثم أقبلها بعمق من جديد قبل أن أترجل من سيارتها السوبارو العتيقة التي تنطلق مصدرة صوتاً متحسراً من كاتم صوتها المعطل. أمشي ببطء نحو الحافلة وأنا أفكـر: كيف يمكنني أن أفعل ذلك مجدداً؟ وكيف يمكن لأي آدمي أن يرتكب الخطأ نفسه الذي خرب حياته مرة أخرى بالرغم من علمه باحتمال حدوث كارثة أخرى؟ أطرح

على نفسي هذه الأسئلة مع كل خطوة أخطوها. ولكن الإجابة هي ذاتها دائمًا: بسبب ما انقضى بين ذلك اليوم والآن؛ ولأن العمر الذي انقضى لا يستحق أن يُدعى عِيشاً.

الفصل السادس

تومي، 13 تشرين الأول 2008

تقدّم جيم براند بطلب للعمل في مكتب المدعي العام فلتلقى رفضاً رسمياً، لكنه لم يكتفى بذلك، بل ذهب إلى قاعة الاستقبال للتسلّل بأن يُجرّوا له مقابلة. ومن حسن حظه أن تومي كان مارأ من هناك في تلك اللحظة وسُرّ بما رآه. وتومي هو الذي ساعد براند على اجتياز لجنة التوظيف، وعلمه كيف يكتب مذكرة قانونية وافية، وجعله المحامي الواجهة في عدد من القضايا الكبيرة. وقد أثبتت براند، في الوقت المناسب، أنه يستحق هذه الثقة. وكان يمتلك حساً فطرياً بهذه المهنة، مع فطرة فارس سباقات خيول يعرف بوجود تهديد له في الجهة غير المرئية بالنسبة إليه. وكان محامو الدفاع يربون عن استثنائهم من أسلوبه القاسي في الكلام، لكنهم كانوا يقولون الشيء ذاته عن تومي أيضاً.

إلا أن جيم براند، بعكس معظم أولئك الذين تسدي لهم معرفة، لا ينسى أبداً صاحب الفضل عليه. وكان تومي بمثابة شقيقه الأكبر. وكل منهما كان مرافقاً للأخر في حفل زفافه. وحتى الآن، يلتقي تومي براند، مرة في الشهر على الأقل، لتناول طعام الغداء على انفراد، كطريقة للحفاظ على علاقتها الخاصة، ولكن أيضاً للتحدث حول مشاكل المكتب المتكررة التي كانت، لو لا ذلك، ستُنسى بسهولة في خضم تدفق الظروف الطارئة. وفي العادة، كانا يتناولان شطائر في مكان قريب، ولكن براند ترك لتومي اليوم رسالة مع السكريبتيرات طالباً لقاءه في أسفل المبني عند منتصف الظهريرة. وما إن شغل جيم سيارته المرسيدس

المتوقة في المرأب الإسمتي المتاخم لمبنى البلدية ومبني المحكمة حتى رأى تومي يخرج إلى الشارع.

قال تومي بعد دخوله السيارة: "إلى أين؟". كان براند يُعشق هذه السيارة، وهي من نوع E-class لعام 2006، اشتراها بسعر رخيص بعد ثلاثة أشهر من البحث على الإنترنت وفي صفحات الإعلانات. فكان يلمعها بمساعدة بناته كل يوم أحد. وقد وجد منظفاً للجلود منح سيارته رائحة سيارة جديدة. كانت نظيفة إلى درجة أن تومي شعر بعدم الارتياح حتى بمصالبة ساقيه، خشية أن يخلف حذاؤه غباراً على المقعد. ذات مساء، كان براند يهم بالانطلاق بسيارته، فإذا بمتشرد بلا أسنان يقترب منه متزحجاً ويقول: "يا رجل، هذه سيارة بحق". لعله أحد أسعد أيام براند، إذ ما زال يكرر هذه الجملة دائماً.

قال براند: "كنت أفكّر في مطعم جياكولوني".

"يا الله!". يقدم مطعم جياكولوني شرائح لحم عجل فتى منزوعة العظام ومقلية وموضوعة ضمن لفائف من الخبز الإيطالي، ومغمورة بالصلصة والثوم. وعندما كان تومي مدعياً عاماً شاباً، كان يأخذ المحققين الذين يعملون معه في إحدى القضايا إلى هذا المطعم عندما تتعقد هيئة المحلفين للتشاور، لكن شطيرة واحدة في هذه الأيام فيها من الحريرات ما يكفي ل أسبوع كامل. "أشعر مثل أفعى عاصرة تحاول هضم حسان".

"ستستمتع ببعديك". كانت هذه أول إشارة إلى أن براند كان يحضر له شيئاً ما.

كانت هنالك طاولات إسمانية خلف المطعم. فأخذ تومي وبراند شطيرتهما الضخمتين وتوجّهاً إلى هناك، فإذا برجل يرتدي بدلة رسمية يهبط واقفاً على قدميه حالما يراهما يقتربان.

"أيها الرئيس، تذكر ماركو كانوا، أليس كذلك؟ ماركو، أنت تعرف المدعى العام".

"مرحباً توم". رفع كانوا يده كمن يريد أن يرمي شيئاً ما، ثم أنزلها

بقوة في يد تومي. عندما كان ماركو في الشرطة، كان يُعرف باسم لا كانتو، وذلك لكسله غير الاعتيادي بالرغم من أنه كان ذكياً بما يكفي. ولقد أثبتت كانتو أن السلطات أخطأت عندما وضعت مكيفات هوائية في سيارات الشرطة، لأنه في الصيف لم يكن ليخرج منها حتى لو كانت جريمة قتل تحدث أمامه. ومع ذلك فقد حطَّ واقفاً على قدميه في مكان ما. هذا كل ما كان يتذكره تومي عنه.

"نائب رئيس الأمن في جريشام"، قال كانتو عندما سأله تومي عن عمله في هذه الأيام. جريشام فندق كلاسيكي يحوي صالة استقبال فخمة ذات أعمدة رخامية باسقة مثل أشجار السيكوايا في كاليفورنيا. لقد ذهب تومي إلى هناك عدة مرات لحضور مناسبات خاصة برابطة المحامين، لكنك تحتاج إلى ميزانية شركة لتدفع بدل الإقامة في الغرف.

قال مولتو: "لا بد أن هذا عمل صعب. مرة في الشهر ستتولى طرف في موقف متازم عندما تضطر للهمس في أذن مدير ما بأن عليه مغادرة المشرب".

قال ماركو: "في الواقع، لدى طاقم مكون من أربعة أشخاص للقيام بذلك. وأنا أستمع فقط لما يدور بواسطة سماعة الأذن". وأخرج كانتو السماعة من جيبه ورفعها عالياً كي يضحكا.

"وماذا عن المشاهير؟". قال براند المولع بالنجوم. "لا بد أنك ترى بعضهم منهم".

"هذا صحيح". راح كانتو يخبرهم عن نجم روک في التاسعة عشرة من عمره طاف على ملاهي المدينة ذات ليلة وقرر لدى عودته في الثالثة بعد منتصف - وكان في حالة يرثى لها - أنها فكرة حسنة أن يخلع جميع ملابسه في صالة الاستقبال. "لم أعرف ما سأفعله أولاً، أأمنع مصوري الفضائح؟ أم أرفع درجة حرارة المكان كي لا يُصاب الفتى بالزكام؟ يا له من أحمق صغير!".

قال براند: "وتصادف شخصيات معروفة محلية أيضاً. أ ولم تخبرني بأنك رأيت رئيس قضاة محكمة الاستئناف طوال الوقت هناك في الربيع

قبل الفائت؟".

"حقاً. بدا لي وكأنني لم أره إلا وبرفقته شابة جميلة تتآبظ ذراعه".
التفت براند لينظر في عيني تومي الذي عرف الآن سبب تواجدهما
في هذا المكان.

قال تومي: "كم عمرها برأيك؟".

"تجاوزت سن التصويت. لا أعرف. ثلاثون ربما. جميلة، وصدر
كبير رائع. ففي المرة الأولى، رأيته جالساً في صالة الاستقبال. لم يبد
ذلك منطقياً بالنسبة إلىَّ، أليس كذلك؟ رئيس القضاة لا بد أن يكون زير
نساء. اتجهت نحوه كي نثرث قليلاً. لكنني رأيت عينيه تتحركان جانبًا،
في إشارة إلى شخص ما للتوجه إلى مكان معين. فانحنىت متظاهراً بأنني
أريد أن أسوّي ثانية إحدى ساقي البنطال، ما دفع هذه الشابة للتراجع
فعادت أدراجها نحو المصعد.

وبعد أسبوعين، كنت في أحد الطوابق للتحقق من رجل أعمال
آسيوي مصاب بأثار السفر من منطقة زمنية بعيدة، فلم يجب على
الاتصال الهدف إلى إيقاظه. وعندما انفتح باب المصعد، رأيت هذا
الثاني يتبع أحدهما عن الآخر: القاضي وهي. وكانت تدسُّ كنزتها
داخل تنورتها. أما رئيس القضاة، فكانت تبدو عليه تلك الملامح كما
تعلم، أيتها المثانية، لا تخذلني الآن. وبعد بضعة أسابيع، رأيته يدخل
صالة الاستقبال، وعندما رأني دار على نفسه دورة كاملة مثل راقصة
باليه ثم غادر المكان عبر الأبواب الدوارة. بالرغم من أن الفتاة كانت
في الصالة".

"في أي وقت من النهار كان ذلك يحصل؟".

"في فترة الغداء مرتين. وأخر مرة بعد العمل مباشرة".

"يمارس القاضي الحميمية في فترة منتصف الظهر؟".

قال ماركو: "هذا ما بدا لي".

صمت تومي لبرهة للتأمل في تقييماته المتصارعة. لم يفاجئه
نفاق راستي، بمعنى أنه كان يرشح نفسه للمحكمة العليا ويسعى وراء

شهواته في الوقت عينه. فكانت فكرة خيانة زوجته غير مفهومة بالنسبة إلى تومي. لماذا؟ أي شيء يمكن أن يكون أثمن من حب الزوجة؟ وبالمحصلة، لقد أكدت هذه القصة تقديره السابق لرأسي وهو أنه كان شخصاً حقيراً.

قال تومي: "هل حضرتَ مأدبة غداء أقامتها رابطة المحامين في ذلك الفندق؟".
"بالتأكيد، دائماً".

"وهل تكون غرف الاجتماعات ممتلئة دائماً، ليلاً ونهاراً؟".
"في ذلك الحين، أجل. لكن، الآن الوضع مختلف".
"حسناً، ولكن، ثمة أسباب كثيرة لتواجد تلك الشابة والقاضي في ذلك المكان. فهل ستحت لك الفرصة لإلقاء نظرة على دفاتر سجلاتكم، ماركو، لتعرف ما إذا كان القاضي قد حجز غرفة في الفندق أم لا؟".
"أجل، لكن الفتاة في صالة الاستقبال لم تسمح بذلك".

"هل يعني هذا أنه ليس هناك سجل؟".
"ليس هناك سجل".

نظر تومي إلى براند الذي كان سعيداً بطريقة سير الأمور ما جعله يستأنف انتقاده الحmasي على شطيرته. حتى في هذا العمر، كان جيمي ذا شهرة مفتوحة على الدوام. وكان لدى تومي الكثير ليقوله، ولكن ليس أمام ماركو. تحدث حول فريق كرة القدم في الجامعة إلى أن طوى كانتو ورقة الصرّ والقليل مما بقي من الشطيرة ثم أراح يديه على فخذيه العريضتين استعداداً للذهاب، وقال: "تعلم؟ لم تعجبني قط الطريقة التي تعامل بها راستي معك في تلك المحاكمة. ولهذا السبب لم أمانع في سرد هذا القصة".

"أقدر لك ذلك". قال تومي، بالرغم من أنه كان يعتقد أن كانتو كان يغطي على كرهه الخاص نحو سابيش.

قال كانتو: "لكن الفندق... خصوصية ضيوفنا" - رسم كانتو علامتي الاقتباس بأصابعه التخينة في الهواء - "شيء عظيم، وكأنه بنك

سويسري لعين أو شيء من هذا القبيل. لذا، إن تسرّب شيء ما إلى العلن، فأنا لم أخبركما أي شيء. وإذا كنت تريد هذا مسجلاً على ورق، فأرسل محققاً ما إلى هناك، وأنا سأقصد رئيسي وهو بدوره سيذهب إلى رئيسه. فأنت تعرف كيف تجري الأمور".

"فهمت"، قال تومي بينما كان يراقب ماركو وهو يبتعد بيذاته الجميلة.

رمى تومي بقية شطيرته، ثم أشار إلى براندكي يعود إلى سيارته. لقد ركنا جيم في مكان من نوع ، حيث كان بوسعه مراقبتها. وبعد دخولهما أخذ جيم اللوحة التي كان قد وضعها على لوحة العدادات (شرطه مقاطعة كايندل الاتحادية - عمل خاص)، ثم أعادها إلى مكانها خلف واقية الشمس.

قال تومي: "أتعرف أن ذلك الشخص لم يكن يشبه رجال الشرطة عندما كان في الشارع؟".

"يمكنني القول إنه كان يشبه كيساً من الروث".

"وهناك شيء من الضغينة بينه وبين سابيش، أليس كذلك؟".
"هذا ما فهمته. ففي المرة الأولى التي تحدثنا فيها حول الأمر، أسرّ لي بأن راستي، عندما كان قاضياً من دون محلفين، استدعاءه بخصوص طلب قمع".

"حسناً، هذا يعني بأن كانوا يرى أكثر بقليل مما يمكن أن تراه عيناً أي شخص آخر".

"ربما، وربما لا. ولكن، إذا كان محقاً، فهذا دافع لقتل زوجة القاضي".

"لكن هذا حدث قبل سنة ونصف، وهو ليس دافعاً جدياً للقتل. إلا تسمع بالطلاق؟".

"ليس من زوجتي. إنها ستركل مؤخرتي" - جودي امرأة قوية، وهي محامية ادعاء سابقة أيضاً - "لربما فكر راستي في أن الطلاق يمكن أن يضر بحملته الانتخابية".

"لذا كان بوسعي الانتظار ستة أيام".

"لربما لم يستطع. لعل المرأة الشابة كانت حاملاً وكان حملها على وشك الظهور".

"ثمة الكثير من ربما ولعل هنا يا جيمي".

كانا قد وصلا إلى ساحة ماديسون في ذلك الحين، مقابل أبواب مستشفى الجامعة مباشرة. حيث كانت هناك مجموعة من الأشخاص عند الزاوية بانتظار الضوء: أطباء ومرضى وعمال كما يبدو من هيئاتهم، وجميعهم ثمانية كما أحصاهم مولتو - كانوا يتحدثون على هواتفهم الخلوية.

قال براند: "أيها الرئيس، لن يُعدم راستي عند منتصف الليل بسبب ذلك. لكنك قلت: أحضر شيئاً ما. وهذا شيء ما. لدينا شخص يملك في سجله اتهام بارتكاب جريمة قتل. والآن، تموت زوجته بشكل مفاجئ وهو يترك جثتها في مكانها يوماً كاملاً من دون أي سبب منطقي. ويبتدين أن لديه عشيقة. فعله أراد مبادلة سهلة. لا أعرف. ولكن علينا أن نستقصي الأمر. وهذا كل ما أقوله. لدينا عمل نقوم به وينبغي علينا أن نبحث".

حدق تومي عبر الشارع العريض المغطى بستار من الأشجار القديمة الضخمة المزروعة على الجانبين. الأمر سيكون أسهل بكثير فيما لو كان الشخص غير راستي سابقًا.

"كيف وصلت هذه المعلومات إليك على أي حال؟ ومن الذي ذلك إلى ماركو؟".

"واحد من شرطة نيرينغ يلعب البولينغ مع ماركو كل ليلة ثلاثة". لم يحب مولتو هذا الجزء، فقال: "أمل أنها يتحدثان بصوت هامس. فلا أريد أن يسأل نصف قسم نيرينغ كل شخص تتم مصادفته بما إذا كان يملك أي سبب يدعوه للاعتقاد بأن راستي سابقًا قتل زوجته".

أكَّد براند لтомي أنه أطبق الغطاء بشكل محكم ، في حين عزى

تومي نفسه بأن القصة لم تصل إلى الصحافة بعد. ثم سأله براند عما يريد أن يفعله.

قال براند: "أقول إنه حان الوقت لسحب سجلاته المصرفية، وسجلات هاتفه. دعنا نرى ما إذا كانت هناك حقاً فتاة غامضة، وما إذا كانوا ما زالا يتقابلان. فبositu نطبق مذكرة تسعين يوماً على الجميع، ومنعهم من إخبار راستي إلى ما بعد الانتخابات". وبموجب نسخة الولاية من القانون الوطني، كان المدعى العام يملك الحق في طلب الوثائق التي يريدها أمر الموظف الذي يقدمها بعدم إخبار أي شخص آخر باستثناء محام لمدة تسعين يوماً. في الواقع، كانت نسخة شاحبة مما كان باستطاعة الشرطة الفدرالية القيام به - كان لديهم الحق في إبقاء طلب الاستدعاء سرياً للأبد - لكن محامي الدفاع الجنائيين المحليين فتحوا أبواب جهنم، كالعادة، في العاصمة.

زفر تومي مصدر أآهة عميق، ثم قال مقتبساً من الفيلسوف الإيطالي ميكافيلي: "إذا صوبت نحو الملك، فمن الأفضل لك أن تقتله".

قال براند: "افترض الأسوأ أيها الرئيس، افترض أننا حفرنا بئراً جافة. فسيغضب راستي عندما يكتشف الأمر، ولعله سيضع تركيزه علينا بين الحين والآخر، لكنه لن يذهب إلى أي مكان كي يشتكي. إنه في المحكمة العليا، وهو لم يصب بأي أذى. كما أن لديه صديقة. وإنه فقط سيكرهك أكثر بقليل من كرهه لك في السابق".

"عظيم".

"لدينا عمل أيها الرئيس. ولدينا بعض المعلومات".

"معلومات غير كافية".

"غير كافية أو لا، علينا الاستفادة منها. فهل تريدين بتباھي شرطي من نيرينغ أمام أحد الصحفيين بعد ستة أشهر من الآن حول كشفه أمراً ما بخصوص راستي، وأن تكون بحاجة إلى زراعة قلب لأنك لم تكن تريدين أن يركل راستي القذر العظيم مؤخرتك مرة أخرى؟ هذا ليس جيداً أيضاً".

كان براند محقاً. فقد كان عليهما القيام بواجبهما، على الرغم من الخطر الكامن فيه.

انتظر تومي طوال المدة التي استغرقتها عودتهما إلى مبني المحكمة قبل أن يعطي براند الإذن بالمتابعة.

مكتبة

t.me/t_pdf

ذكرى ولادة راستي

الانتخابات

08/11/04

وفاة باربارا

08/9/29

07/3/19

الفصل السابع

راستي، آذار - نيسان ، 2007

بعد أربعة أيام من تحولنا إلى عاشقين ، قابلت أنا مرة أخرى في فندق جريشام . ولقد أغفينا فكرة اللقاء في مسكنها لأن زميلتها في السكن ، ستايلز ، وصلت بشكل غير متوقع . علاوة على ذلك ، فإن البناء الذي تسكن فيه يبعد شارعين فقط عن المحكمة العليا ، حيث يمضي نات عدة ساعات في الأسبوع .

لقد اتفقنا عبر عدة رسائل إلكترونية مشفرة على أنها ستستخدم بطاقة اعتمادها من أجل حجز غرفة الفندق . فأجلس في صالة الانتظار متظاهراً بأنني أنتظر شخصاً آخر . وعندما يلتفت موظف التسجيل جانباً تبحث عيناً أنا عن فتجداني ، فأدس يدي داخل سترتي وأتلمس قلبي . وعندما تنظر إلى امرأة لأشهر بعين الخيال الراغبة ، فإن جزءاً منك لا يتمكن من تقبّل حقيقة أنها هي حقاً المرأة نفسها المستلقية بين ذراعيك . وهذا صحيح إلى حدّ ما ، فخصرها أنحف مما كنت أعتقد ، في حين أن فخذيها أضخم . وعندما أمسها ، أقول لنفسي: أخيراً... أخيراً . لاحقاً ، وبينما هي منهكة في إدخال كنزتها في تنورتها ، أقول: "لقد حصل ذلك بالفعل ".

يُشرق وجهها بابتسامة تتمُّ عن سعادة كبيرة ، ثم تقول: "لم تكن ت يريد ذلك ، أليس كذلك؟".

"لم أكن أريد ، لكنني هنا الآن".

"أنا أفكّر في شيء ما لمرة واحدة فقط ، وبعدها أقرر . إنها موهبة ."

منذ ثلاثة أشهر ، أدركت أنني سأقوم بذلك معك".

"وأنت مثل شرطة الفرسان الكندية ، أليس كذلك؟ تحصلين دائماً على رجالك".

تبتسم ، تبتسם للعالم بأسره ، ثم تقول: "صحيح ، أنا مثل شرطة الفرسان الكندية".

في مكتبي ، وفي مساءات الحملة الانتخابية ، وعندما أمشي في الشارع أو أركب في الباص ، أشغل في متطلبات الحياة الاعتيادية ، ولكنني من الداخل أفك في شيء واحد ، هو أنا. أفك فيها بصورة دائمة ، وأراجع باستمرار الخطوات التصاعدية التي اتخذناها خلال الأشهر الأخيرة في طريقنا لتصبح عاشقين ، ولا أزال مذهولاً من تمكني من تجاوز الحدود القاسية التي فرضتها على نفسي. ففي المنزل ، لا أجد رغبة في النوم ، ليس فقط لأنني لم أعد أحب الاستلقاء بجانب باريara ، ولكن لأن فيضاً من الحيوية دخل جسدي خلال الأسبوع الأخير بصورة لم أخبرها منذ عقود. ومن دون الواقي الزجاجي الذي كانت ترتاح خلفه بأمان جميع الإناث باستثناء زوجتي لمدة جيل كامل ، أصبحت أشعر بإثارة حسية لوجود أي امرأة تقربياً.

ومع ذلك فأنا أعرف في جميع اللحظات أن ما أفعله جنوني بجميع المقاييس . رجل متتفذ متوسط العمر وامرأة جميلة شابة . فالقصة ليس فيها أي شيء جديد ، وتتحقق أن تكون موضع احتقار عام ، بما فيه احتقاري الشخصي . وعلاقتي غير الشرعية الأولى ، قبل أكثر من عشرين عاماً ، تركتني محطمأً لدرجة أنني بدأت أزور طبيباً نفسياً . ولكنني لا أفكر الآن في البحث عن معالج آخر ، لأنني لست بحاجة إلى نصيحة شخص آخر لأعرف أن هذا ببساطة جنوني ، ومجونني ، وعدمي ، والأهم من ذلك ، غير واقعي . لذا ، يجب أن يتوقف .

بالنسبة إلى أنا ، انكشف العلاقة لن يكون كارثياً بالقدر الذي سيكون عليه بالنسبة إلي . إنه سيشكل بداية محرجة لمهنتها ، هذا صحيح ، لكنها

لن تتحمّل أبداً معظم اللوم ، إذ ليست لديها زوجة قطعت لها الوعود بالإخلاص ولا مسؤوليات عامة. وفي المحكمة ، قد تنقد موقفى حقيقة أننا كبحنا مشاعرنا إلى أن تركت أنا مكتبي ولم تعد موظفة لدى ، لكن ن. ج. كول سيكون بالتأكيد المرشح المفضل على الفور في المنافسة الانتخابية.

هذا سيكون أقل الأثمان ، إذ إن غضب باربارا قاتل. وفي هذا العمر ، من الأرجح أن ذلك سيجعلها خطرة على نفسها. لكن الأسوأ من ذلك هو مواجهة نات ونظرته الجديدة ، الخالية من أي احترام.

ومن الحقائق التي ظهرت إثر علاقتي الأولى حقيقة أتنى أحمل معى حقائب جمعتها من المنزل المظلم والتعيس الذي تربيت فيه. وحتى ذلك الحين ، كنت أعتقد بسذاجة أتنى جو كوليچ أو بيفر كليفير ، شخص استطاع أن يغير نفسه ، من ابن لأب سادي ناج من الحرب ، وأم منعزلة غريبة الأطوار إلى شخص أميركي طبيعي أعلى مرتبة من الشخص العادي . وما زلت أتوق إلى أن أكون مثلاً أعلى ، لكنني مسكون بظل لي في داخلي يعرف أتنى لست كذلك . ولا يوجد شخص من هذا النوع . إني أعرف ذلك أيضاً . ولكنني معني بعيوبي أكثر من عيوب أي شخص آخر . وهذا يعني أن أتفق ما أنا عليه.

آنا مثل الكثير من الأشخاص الذين عرفتهم في كلية الحقوق ، ليست متقة ولكنها ذكية. إن سرعة بديهتها في ما يتعلق بعمل المحامي الأساسي ، أي الربط بين الواقع والقانون ، تحبس الأنفاس مثل مشاهدة رياضي عظيم يستعرض مواهبه على أرض الملعب . والآن ، وبعد أن أصبحنا فجأة ندين ، أجد ذكاءها فاتنا على المستوى الفطري . لكن حوارانا ، إلى حد ما ، ليست سلسة ولا هادئة. إنه حوار محام مع محام ، وفي الغالب يكون جدالاً ، نصف مسل ، لكنه دائماً لا يفتقر إلى الحدة . وهذه الحقيقة ، أي طبيعة نقاشاتنا ، كان ينبغي أن تكون واضحة لكلينا منذ البداية؛ وهي أن هذه العلاقة لا يمكن أن تنتهي بصورة جيدة. إما أنها

ستلتقي شخصاً أكثر ملاءمة لها، أو أن الأمر سينكشف وستنهاي حياتي من جديد. وفي كلتا الحالتين، ليس هناك مستقبل لحبنا. "لم لا؟". تسألني عندما أقول لها ذلك في سياق الحديث خلال اللقاء الثاني.

"لا أستطيع أن أترك باربارا. أولاً، لأن ابني لن يغفر لي أبداً. وثانياً، لأن هذا ظلم". أشرح لها بعضاً من تاريخ زوجتي، حتى إنني أسرد لها بالتفصيل مجموعة الأدوية الموجودة في خزانة أدويتها كي أثبت لها وجهة نظري، وهي أن زوجتي شخص مدمر، وأنني عدت إليها وأنا أعرف هذه الحقيقة.

"أنا، لقد فهمت ذلك من قبل. فلا بد أن تفهمي هذا الآن".
"لا أعرف ما فهمته. لقد أردت فقط أن أكون معك". وتنساب الدموع على وجنتيها المشرقتين.

" هنا تكمن المشكلة. فهناك فرق جوهري بيننا".

"أقصد العمر؟ أنت رجل وأنا امرأة. أنا لا أفكر في العمر".
"يُفترض بك أن تفكري في ذلك. إنك تبدئين حياتك وأنا أنهي حياتي. أفلاتلاحظين أن الرجال في مثل عمري يتسلط شعرهم، ويبدأ بالنمو على آذانهم، وأن أحشاءهم تصبح رخوة؟ فلماذا برأيك؟".
تقلب شفتيها ثم تقول: "أسباب الهرمونات؟".

"لا. ماذا يمكن أن يقول داروين؟ لماذا من المفيد أن يبدو الرجال المستون مختلفين عن الشبان منهم؟ كي ترى الشابات الخصيّات من ينبغي عليهم الزواج بهم. كي لا تفلت عطاءة كسلى في مثل سنّي بالقول إنها أصغر بعشرين عاماً".

"أنت لست عطاءة كسلى. وأنا لست خارقة الجمال". ترمي الأغطية عنها باستثناء ثم تمشي نحو المكتب كي تجلب سيجارة. "فما الذي تعتقد؟ هل هذه مجرد تجربة بالنسبة إلي؟".

"هكذا ستكون في النهاية. إنها شيء جنوني قمت به ذات مرة كي تستفيدي منه في المستقبل".

"لا نقل لي إنني صغيرة السن".

"كلانا لم تكن ل تكون هنا لو لم تكوني صغيرة السن. وكان افتاناً ببعضنا ليكون أقل بكثير لو أنك لست كذلك".

وقفتُ وراءها، وأدرتها نحوِي، ثم مررت يدي على طول جذعها. فمن الناحية الجسدية، إنها كاملة. وهذه ميزة تعمل آنا جاهدة للحفظ عليها، من خلال جلسات العناية بالليدين والقدمين، والشعر، والوجه، أو ما تسميه آنا الترميم الروتيني. صدرها مثالي، فهو كبير، وممتلىء على نحو جميل. أضف إلى ذلك أنني مفتون بكل مفاتنها حيث يتركز شبابها، كما يبدو لي. إنها شديدة النعومة، برازيلية كاملة على حد تعبير آنا.

في ظل هذه الدهشة، تمضي الحياة. أقوم بعملي، أكتب الآراء، أصدر الأوامر، أقابل مجموعات ولجاناً من رابطة المحامين، وأحلُّ الخلافات البيروقراطية الدائمة في المحكمة، لكن آنا لا تكف عن إثارة انتباهي في أوضاع مثيرة متنوعة. وتغيير كول للحزب، الذي قام به في غضون أسبوع من تاريخ ذكرى مولدي، سحبَ الاهتمام من حملتي الانتخابية في ذلك الوقت، على الرغم من استمرار ريموند بتنظيم أنشطة خاصة من أجل جمع التبرعات.

أتحدث وأنا عدة مرات في اليوم. أتصل بها من مكتبي فقط، لأن فواتير الهاتف الخلوي المفصلة تُرسل بالبريد إلى المنزل. وأستخدم رقمها الخاص في المؤسسة، وهي أيضاً تتصل برقمي الخاص في المكتب. وغالباً ما تكون محادثتنا سريعة؛ مزيجاً من الأحاديث العادبة والتعابير التي تتم عن الرغبة: "طلب غورنر مني العمل على هذه القضية الحفيرة. وأضطر للعمل طوال عطلة نهاية الأسبوع... مشتاقة إليك... أحتاج إليك".

ذات مرة سألتني آنا على الهاتف: "ماذا حدث مع هارناسون؟". آخر عمل قامت به آنا كموظفة قانونية في مكتبي هو كتابةرأيي المعارض

في القضية، وهي كانت مهتمة بها، مثل العديد من القضايا الأخرى التي عملت عليها. وفي الواقع، كنت قد نسيت هارناسون، مثل الكثير من الأشياء في حياتي، فاستدعيت كوماري حالما أنهيت المكالمة. واستجابةً لرأيي المعارض، مارس جورج بشهامة حقه كأي قاض في محكمتي، حيث وزع رأي مارفينا الحاد ورأيي المعارض على جميع المكاتب، طالباً رأيهم فيما إذا كانت القضية تبدو مناسبة للدعوة لاجتماع عام، حيث يجتمع القضاة الثمانية عشر كلهم من أجل التوصل إلى قرار بشأن القضية. واختار عدة قضاة من زملائي الخيار الدبلوماسي - احتراماً لي كرئيس - والمنتسب بعدم الرد على الإطلاق. وضعوا مهلة أسبوع وانتهى الأمر بهزيمة قاسية، 13 إلى 5 - بمن فيهم أنا وجورج ومارفينا - لصالح تثبيت الحكم. وهذا يضمن أن المحكمة العليا سترفض أيضاً الاستئناف إلى القضية. منتشية بالانتصار، تطلب مارفينا إعادة التصويت مرة أخرى، لكن هارناسون سيعود إلى السجن خلال شهر واحد كحد أقصى.

أفكر في أنا على الدوام تقريباً. لكنني فوق الشبهات كلياً عندما أكون في المنزل. وفي الليالي التي تسبق لقائي أنا، أتفحص جسدي العاري تحت ضوء الحمام. فأنا مسن، متكتل، ومنتفخ. أشذب شعر عانتي بواسطة أداة حلاقة شعر الأنف، ومزيلاً الشعر الأبيض الطويل. وينبغي على الحذر خشية أن تلاحظ باربارا، لكنها في الحقيقة لا تنتبه لأي شيء، حتى إلى زياراتي المتكررة إلى الحلاق. وبعد ستة وثلاثين عاماً من الزواج، فإنها تهتم بوجودي أكثر بكثير من اهتمامها بشكلي. وعندما كنت مع كارولين، قبل بضعة عقود، كنت مشغول الذهن إلى حد بعيد. لكن أنا جعلتها أكثر صبراً مع باربارا. فإن المتعة التي أحصل عليها من أنا تفرّغ مخزون الاستياء والمرارة في داخلي. وهذا لا يعني بأنه من السهل موافقة الخداع. فإن القيام بمهام منزلية كإخراج القمامنة، أو ممارسة الحميمية - الأمر الذي لا أستطيع تجنبه تماماً - يبدو وكأنه يتم بواسطة ذات أخرى. ولا يتعلق الزيف ببساطة بالمكان الذي كنت فيه أو بما حصل في نهاري، بل بحقيقة أنا؛ المتوارية في أعماق

"أنا مسرور لأن هذا سر". وأقول لأننا بينما نحن مستلقيان في السرير ذات يوم . بتنا نتقابل مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع ، في موعد الغداء أو بعد العمل عندما يكون باستطاعتي الادعاء أنتي موجود في أحد الأنشطة المتعلقة بالحملة. "لأنك في هذه الحال لن تضطري للاستماع للملائين من الأشخاص الذين يخبرونك بأنك مجنونة".

"ولماذا أكون مجنونة؟ أبسبب العمر؟".

"لا ، هذا جنون طبيعي فقط . أو غير طبيعي . فأنا أشير إلى حقيقة أن آخر امرأة ارتبطت بها بعلاقة انتهت ميتة". أثرت انتباها . فتجمدت عيناهما الخضراء ، وتوقفت السيجارة في منتصف الطريق إلى فمها .

"هل يجب عليَّ الخوف من أنك ستقتلني؟".

"أنا لم أفعل ذلك". لعلها ليست متأكدة ، لكنني لم أصبح لها بالمزيد . فمنذ أكثر من عقدين ، على سبيل المبدأ ، لم أقدم أي تأكيد لأحد حتى لأقرب أصدقائي . وحتى لو كانوا يضمرون شوكوأا ، بالرغم من معرفتهم الوثيقة بي ، فأنا لم أحاول في أي يوم تبديدها من خلال إنكار صلتي بالجريمة .

تقول أنا: "أتعرف؟ أذكر الكثير حول القضية . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي أفكر فيها في أن أصبح محامية . و كنت أقرأ ما يكتب عن القضية في الجرائد كل يوم ".

"وكم كان عمرك ، عشرة؟".

"ثلاثة عشر".

أقول بحزن: "ثلاثة عشر". أدرك في هذه اللحظة أنتي لن اعتاد أبداً على غبائي الهائل . "وتلوميني أيضاً لأنك أصبحت محامية . والآن سيقول الناس حقاً إنني أفسدتك".

تضربني بالوسادة مداعبةً ، ثم تقول: "ومن فعل ذلك برأيك؟".

أهز رأسي.

"ألا تعرف؟ أم أنك لا ت يريد أن تجيب؟ لدى نظرية، هل ت يريد أن تسمعها؟".

أقول من دون أن أحاول إخفاء انزعاجي: "دعينا نرتدي ثيابنا".
"أنا آسفة، لم أقصد إزعاجك".

"أنا لا أتحدث حول الأمر. فقدامى المحاربين لا يتحدثون عن حروبهم. إنهم يتجاوزونها وحسب. الأمر مشابه. وهذا لا يعني بأنك لم تجعليني أتساءل".
"من فعل ذلك؟".

"لماذا أنت موجودة هنا؟ نظراً لتاريخي الخطر".

ترتدي القطعة التحتية من ثيابها الداخلية، لكنها تخلع حمالة صدرها بخفة راقصة تعرّ ثم ترميها نحو الحائط.

"الحب"، تقول بينما ترمي بجسدها بين ذراعي، " يجعلك تقوم بأشياء مجنونة". وكلانا متاخران ، لكن هذه الحركة تشعلني مجدداً فنكر ما كنا قد أنهينا فعله قبل قليل.

لاحقاً تقول أنا: "أنا لا أصدق ذلك. لا أصدق".

أقول بهدوء: "شكراً لك، أنا مسرور لأن هذا لم يردعك".
"لعل العكس صحيح".

أحدق فيها بفضول.

"أعني أنك لا تزال كالأسطورة، ليس فقط بالنسبة إلى المحامين.
لماذا تعتقد أن أحداً عاقلاً لا يرشح نفسه ضدك من أجل المحكمة العليا؟".
المحكمة العليا. يخفق قلبي عدة مرات. وفي تلك الأثناء، تشيح أنا بنظرها متفركة.

وبعد ذلك تستأنف حديثها: "أتعلم؟ أحياناً تقوم بأشياء لا تفهمها تماماً، وتشعر بأنك يجب أن تقوم بها وحسب؛ منطقية أو غير منطقية، فهذا لا يهم كثيراً".

هذا الحوار يثير سؤالاً أطرحه على نفسي كثيراً. فما الخطب في

امرأة شابة أعرف أنها، في معظم الجوانب الأخرى، موهوبة وراجحة العقل، بحيث تهم برجل يبلغ عمره ضعف عمرها تقريباً، دع عنك أنه متزوج؟ ليس لدى وهم بأنه لو لم يكن جميع المحامين والقضاة ينادونني بالرئيس كلما دخلت المحكمة المركزية، لما انجذبت إلى أبداً. ولكن، ما الذي يعنيه بالنسبة إليها أن تعاشر الرئيس؟ شيء ما. أدرك ذلك. ولكن، لعلى لن أفهم أبداً ذلك الجزء الخفي منها الذي تأمل أنني قد أملؤه. ما الذي تطمح إليه في مهنتها؟ ماذا تمنى من والدها أن يكون؟ الرجل الذي ترغبه في أحلامها السرية؟ لا أعرف، ولعلها هي نفسها لا تعرف أيضاً. لكنني أشعر فقط بأنها ت يريد أن تكون قريبة قدر الإمكان، لأن ما تسعى إليه لا يمكن تشربه إلا من اللحم إلى اللحم.

إليكم ما نسيته: الألم. نسيت أن أقول إن العلاقة غير الشرعية عذاب دائم: من الخداع في المنزل، إلى القلق من اكتشاف أمرنا، إلى المعاناة التي أعرف أنها ستأتي حتماً في نهاية المطاف، وإلى الألم الانتظار لأكون معها مجدداً. ومن حقيقة أنني أكون على طبيعتي فقط لبعض ساعات كل عدة أيام في غرفة في فندق. على الرغم من أن هذه اللحظات العذبة، التي تشبه العيش في فردوس أرضي، تستحق أن يعاني المرء من أجلها كل ما عادها من عذاب.

ونادراً ما أنام بعمق في الليل، وأستيقظ في الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل لأشرب كأساً من الشراب. وأخبر باربارا بأن ما يلاقني هو المحكمة والحملة الانتخابية. فأجلس في الظلام وأقول لنفسي إنني سأقابلها مرتين آخريتين ثم سأنهي علاقتي معها. ولكن، إذا كنت سأنهيها في ذلك الحين، فلم لا أنهيالآن؟ لأنني لا أستطيع. ولأن اليوم الذي سأتركها فيه هو اليوم الذي أقبل فيه أن هذا لن يحصل ثانيةً، أو بكلمات أخرى، بأنني بدأت أحضر.

وعلى الرغم من الإجراءات الوقائية الاعتبادية، فإنني أجد نفسي أزداد ازدراة بالمخاطر إلى حد ما. فالمخاطر موجودة دائماً، ولكن

عندما تفلت بفعلتك مرتين، ثم أربعاً، ثم خمساً، فإن الحذر الفطري يصيّبه الخدر بشكل تدريجي. وذات يوم، وبينما كنت بانتظار آنا في فندق جريشام، إذا بماركو كانتو - وهو شرطي سابق عرفته عندما كان لا يزال في الشرطة - يرانني جالساً في صالة الاستقبال من دون سبب واضح ويقترب مني للاقاء التحية. إنه يرأس الأمن في الفندق الآن. وبدت الطريقة التي أخبرته فيها بأنّي سأقابل صديقاً من أجل تناول الغداء غير مقنعة حتى بالنسبة إلىّي. ولهذا السبب، شعرت بالذعر بعد نحو أسبوع عندما توقف المصعد في أحد الطوابق، بينما كنا في طريقنا إلى النزول، وظهر ماركو الذي يبدو مثل مصارع سومو مصغر. كانت لحظة سيئة. لم نكن قد ابتعدنا تماماً عن بعضنا عندما توقف المصعد. ولا بد أن ماركو لاحظ شيئاً.

"سيدي الرئيس! إننا نراك كثيراً هنا".

لم أقدم أنا له، وأحسست بأن نظرات ماركو كانت تخترقني. وفي الأسبوع التالي، رأيته عندما كنت أهم بدخول الفندق، فدرت دورة كاملة، وغادرت من الأبواب إلى أن غادر الصالة.

أخبرتها عندما أصبحت في الغرفة: "حان الوقت لتغيير مسرح الجريمة. كان ماركو شرطياً ميدانياً منذ وقت طويل. وكان كسولاً لكنه كان يملك حاسة شم ممتازة".

كانت آنا قد خلعت ملابسها في ذلك الحين، وتغطى جسدها العاري برداء الفندق المزغب.

"أهكذا تنظر إلى الأمر؟ أهو جريمة؟".

"أي شيء يمنحك هذا الشعور بالروعة لا بد أن يكون غير صحيح". علقت ستري، وجلست على السرير لأخلع حذائي قبل أن أدرك أنني كنت غير لائق. وكانت آنا تراقبني.

"كان بوسفك على الأقل الادعاء أنك تفكّر في البقاء معّي". "آنا... ولكن، كلانا نعرف أنها تقول الحقيقة. ولم أمض أي ليلة معها. في يوم الجمعة من الأسبوع الثالث، أخبرت باربارا أنني ذاهب

حضور اجتماع للمحامين، وتجرأت على العودة إلى المنزل في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، على الرغم من أن أنا توسلت إلى كي أبي. غالباً ما تتحدث عن الابتعاد عن البلدة وتمضية عطلة من عطل نهاية الأسبوع معاً والاستيقاظ معاً والسير في الهواء الطلق معاً. ولكنني لا أستطيع تخيل حدوث ذلك. فإنني شديد التعلق بها. لكن علاقتنا، بالنسبة إلى، تنتهي فقط إلى الأماكن المغلقة، حيث يمكننا أن نتجرد من ملابسنا ونحصل على الأشياء المختلفة التي يتوق كلانا للحصول عليها.

"جدياً، لا يمكنك أن تتزوجني، أليس كذلك؟".
"إنني مرتبط".

"أهذا صحيح؟ لا، هل كنت لتتزوجني إن لم تكون باربارا في الصورة؟ إذا ماتت، أو هربت؟".

"أنا، الناس سيسخرون مني في وجهي".

"الهذا السبب؟ لأن الناس سيسخرون منك؟".

"لأن هناك سبباً للسخرية. رجل متزوج من شابة بعمر ابنته".

"لو كنت مكانك، فسأقول إن هذه مشكلتي. إذا كنت أنا أريد أن أدفعك وأنت جالس على كرسي متحرك في حفل تخرج من المدرسة الثانوية....".

"وهل ستغيرين حفاضاتي؟".

"لا يهم. لماذا لا يمكنك أن أخذ خياراتي؟".

"لأن الناس في العادة يجدون مشقة كبيرة في الحفاظ على تعهدهاتهم عندما تكون الفوائد قصيرة المدى. ينتهي الأمر بهم وهم يشعرون باستثناء شديد".

تدبر ظهرها. هذه الحوارات تسبب لها البكاء دائماً.

"أنا، هناك شخص ما سيموت ليتزوج بك".

"حسناً، إنه لم يظهر بعد. ولا تخبرني عن شخص آخر. فلا أريد جائزة ترضية".

"لن أكذب عليك، أنا. لا أستطيع. أنا أكذب في جميع الأماكن"

الأخرى. وينبغي علىي أن أخبرك الحقيقة. أنا، كنت لأتزوجك لو أتنى في الأربعين. فأنا في الستين".

"توقف عن القول إبني شابة".

"أنا أقول إبني عجوز".

"كلامها مزعجان جداً. انظر، أنت لست هنا بالصدفة. تعاشرني، ثم تعطيني هذه المحاضرات التي تلمح إلى أنك لا تستطيعأخذ الأمر على محمل الجد".

أدبرها نحوي، وأنحنى قليلاً كي أنظر في عينيها ثم أقول: "هل يبدو ذلك منطقياً بالنسبة إليك؟ هل يبدو منطقياً ما قلته للتو بأنني لا آخذ الأمر على محمل الجد؟ لقد جازفت بكل شيء لكى أكون معك. مهنتي، زوجي، واحترام ابني".

نفلت نفسها من قبضتي، ثم تنظر إلىي مجدداً بعينين حادتين.

"هل تحبني، راستي؟".

إنها المرة الأولى التي تتجرا فيها على طرح هذا السؤال، لكنني عرفت منذ البداية أنه آت.

"أجل"، أقول بصدق واضح.

تسح عينيها، ويشرق وجهها.

بعد المقابلة الأخيرة مع ماركو كانتو، أصبحت لقاءاتنا خاضعة لنزوات موقع hotelrooms.com، حيث يتبيّن دائماً أن واحدة من عدة مؤسسات تابعة لمركز المدينة تملك غرفاً شاغرة في الدقيقة الأخيرة بأسعار زهيدة. أنا هي التي تهتم بالحجز ثم ترسل العنوان إلى بريدي الإلكتروني، وتصل قبلي بعشر دقائق من أجل تسجيل الحجز، ثم ترسل رقم الغرفة إلى حاسوبي محمول. ونغادر المكان بفارق عشر دقائق. وذات مرة، وبينما كنت أخرج من فندق رينايسنس في يوم ربيعي رائع، حيث السماء صافية ورائحة الأزهار المتفتحة عابقة في الجو، إذ بي أسمع صوتاً مألفواً نوعاً ما.

"آه، أيها القاضي". عندما التفت، وجدت هارناسون واقفاً أمامي.

فيما لها من لحظة فظيعة! أدركت أنه تباعني إلى هناك منذ ساعتين ثم انتظرني مثل كلب مخلص رُبط على عمود إنارة. ثُری، هل عرف شيئاً؟ وكم مرة تعَقّبني؟ ومرة أخرى أشعر بحجم غبائي وبفداحة الخطأ الذي أرتكبه.

"تخيل أنتي التقيق!"، قال هارناسون من دون أي ذرة صدق، فعرفت أن ظنّي في محله. فتوسلت لقلبي أن يهدأ بينما أقوم بتقييم ما يمكن أن يكون قد لاحظه. إنه يعرف أنّي أقصد الفنادق في أوقات الغداء، وبأنّي أبقى لفترة أطول مما يتطلبه تناول وجبة في منتصف اليوم، ولكن هذا كل ما رأه. فإذا كان يتّعّبني، فإنه لا يمكن أن يكون قد رأى أنا لأنّها جاءت قبلي بعشر دقائق.

"تخيل"، قلت أخيراً. فالابتزاز ليس غريباً على هارناسون، لذا وقفت أنتظر تهديده. ولكنه سيكون بلا جدوى، لأنّه ليس بوسعي القيام بشيء لتغيير النتيجة في قضيته.

"لا يمكنني أن أتحمل أيها القاضي عدم المعرفة. وعندما خرجت بكفالة، شعرت بفرح عظيم، ولكن هذه ليست حرية. فإن الوضع أشبه بالمشي على طريق بانتظار باب فخ لِفتح تحني".

نظرت إلى هارناسون الذي أدته يوماً للأسباب غير الصحيحة، والذي فعلت ما بوسعي لأجله بعيداً عن ناظريه، ثم قلت: "لن يطول صدور القرار طويلاً". ثم التفت أريد المغادرة فشعرت بيده على كمي. "أرجوك أيها القاضي. ما الفرق؟ إذا كان القرار قد حُسم، فما الضير في إخباري به؟ إنه أمر فظيع، أيها القاضي. وأريد أن أعرف فقط".

هذا خطأ. هذا هو الجواب الصحيح. ولكن، من أنا اليوم لأنّزم بالمبدا؟ ولا تزال رائحة عطر أنا تخترق جسدي ولا أزال أشعر بالإنهاك الذي الناتج عن الحميمية.

"عليك أن تحضر نفسك لخبر سيء، جون".

قال بصوت خافت: "آه. ليس هناك أمل؟".

"لا. إنك في نهاية الطريق. أنا آسف".

"آه. أنا في الواقع لم أكن أريد العودة إلى السجن. أنا مسنّ".
كنت أشعر بتعاطف غريب مع هارناسون، لكنني في الوقت نفسه
كنت أشعر بالضيق من الطريقة التي تعقبني فيها، ومن تملّقه لي بغرض
الحصول على المعلومات، وكانت أعرف أيضاً أنتي كنت بحاجة إلى
وضع حدّ حاسم كي أمنع المزيد من الترهيب. ولكن الشعور الغالب في
تلك اللحظة هو الامتعاض من رثائه الذاتي، فأنا كنت دائماً - عندما كنت
مدعياً عاماً - أكن بعض الاحترام لأولئك الذين يخرجون من المحكمة
من دون أن يرف لهم جفن، والذين يعيشون على شعار: "لا ترتكب
الجريمة إذا كنت لا تستطيع تحمل العقوبة".

"جون دعنا نواجه الحقائق. لقد ارتكبت الجريمة، أليس كذلك؟".
أجابني على الفور: "وكذلك أنت، أيها القاضي. وها أنت هنا".
"لقد بُرئت كما كنت أستحق".

"وأنا كنت أستحق ذلك أيضاً". أخرج منديلاً من جيبي، ونظف أنفه.
ثم راح يبكي مثل طفل. التفت بعض الأشخاص المارة بجانبنا وهم في
طريقهم لدخول الفندق من دون أن يتوقفوا، لكنه لم يكترث للأمر.
ولكن، ليس لأنك لم ترتكب فعلتك. فكيف كان شعورك؟ كيف
أمضيت ذلك الشهر الذي عرفت فيه أنك ستفقتل ذلك الشاب؟". لم أكن
متاكداً مما أريد فعله من خلال مواجهته بهذه الطريقة. ولكنني أظن أنتي
كنت أريد طرح هذه الأسئلة: أين هو الحد؟ وكيف يتوقف المرء؟ لقد
عاشرت موظفتي وخنت زوجتي، ورميت بكل شيء أجزئه في مهب
الريح، فأين قدرة المرء على كبح نفسه؟

"هل ت يريد أن تعرف فعلاً أيها القاضي؟".
"أجل".

"كان ذلك صعباً، أيها القاضي. لقد كرهته. كان سيتركتني. وكانت
عجوزاً وهو كان شاباً. لقد أويته وساعدته وكان ممتناً في البداية، لكنه
سئم مني بعد ذلك. لقد كبرت ولم يعد بإمكاني الحصول على شخص

آخر؛ شخص مثله. أنت تفهمني، أليس كذلك؟".

تساءلت مرة أخرى عما يمكن أن يكون قد عرفه بخصوص أنا، بينما كنت أهز رأسي دلالة على الفهم.

"لكنني لم أكن أعتقد أنني سأرتكب فعلتي في البداية. لقد فكرت في الأمر، أعترف بذلك. ذهبت إلى المكتبة وقمت ببعض البحث. هناك قضية في محكمة الاستئناف، فهل تعلم هذا؟ من بنسلفانيا. تتحدث القضية عن زرنيخ لم يكتشف في الفحص". ضحك بمرارة ثم تابع، "يبدو أن المدعين العامين لم يتذكروا أنني تدرّبت كمحام".

"وأين وضعت الزرنيخ؟ هل وضعته في المشروب؟".

"كنت أخبز". ضحك هارناسون. ومحامو الادعاء مؤرخون مهتمون بإعادة تركيب الماضي مع جميع مخاطر التاريخ. لكنهم لا ينجزون أبداً مهمتهم بشكل صحيح تماماً، إما لأن الشهود متحيرون، أو لأنهم يغيّرون إفاداتهم، أو لأنهم مخطئون؛ أو لأن المحققين، كما في حالة هارناسون، لا يطرحون الأسئلة الصحيحة أبداً أو لا يجمعون أجزاء ما يعرفونه مسبقاً. "كل أولئك الأشخاص الذين شهدوا بأنني لم أكن أطبخ كانوا صادقين. فعندما يكون ريكى في المنزل، يصبح المطبخ ملكه. لكنني أخبرت. وريكي كان يحب الحلويات. وفي المرات القليلة الأولى، قلت لنفسي إنني سأقوم بذلك للمرة فقط، كي أرى ما إذا كان سيلاحظ أو إذا كان باستطاعتي تنفيذ ما قرأته. لربما فعلت ذلك خمس مرات وكانت لا أزال أعتقد أن ذلك لم يكن حقيقياً، وأنني كنت سأتوقف. كما تعلم، قلت ذلك لنفسي كثيراً". يصمت لبرهة ثم يقول بشكل مفاجئ: "إنني كنت سأتوقف. ولكنني لم أتوقف. لم أتوقف. وفي اليوم السابع أو الثامن، أدركت أنني لن أتوقف. لقد كرهته. كرهت نفسي. وكانت سأفعل ذلك في كل الأحوال. وأنت أيها القاضي. كيف شعرت عندما قلت تلك المداعنة العامة؟ أبسبب الحب؟".

"لم أفعل ذلك".

قال ببرودة: "صحيح. أنت أفضل مني".

"لن أقول ذلك يا جون. لعلني حظيت بفرص أفضل. ولا أحد جيد
لوحده. وكلنا بحاجة إلى المساعدة. لقد حصلت على أكثر مما حصلت
عليه أنت".

"ومن الذي يساعدك الآن؟". أدار وجهه الوردي نحو الفندق.
أشياء صحيحة كثيرة قيلت في هذا الحوار. وأكتفي بهز رأسي مرة
أخرى ثم أمضي في طريقي.

الفصل الثامن

تومي، 17 تشرين الأول، 2008

كانت روري جيسلينغ ابنة الشرطي شاين جيسلينغ، وهو رقيب محقق في نهاية خدمته الطويلة. عندما كانت فتاة، كانت روري تملك كل شيء؛ جمالاً، ذكاء، شخصية مشجعة فريق رياضي. وكان شاين يريد ما يريده أي أب لابنته في تلك الأيام؛ أن تتعلم كيف تكسب رزقها وأن تتزوج. ولقد حصلت على درجات ممتازة متتالية في كلية المحاسبة في الجامعة، وتجاوزت امتحان الحصول على شهادة محاسب عام مجاز من المحاولة الأولى، وحالها الحظ لتبدأ عملها في إحدى شركات المحاسبة الكبيرة. وكل هذا رائع، لو لا أنها كانت تشعر وكأنها كانت تقضي حكماً بالسجن. وبعد أربع سنوات، تركت العمل وتقدمت بطلب للانضمام إلى أكاديمية الشرطة من دون أن تخبر والديها بشيء. ويقول بعض الناس إن أباها بكى حزناً عندما سمع الخبر.

تحولت روري إلى قسم الجرائم المالية بعد سنتين، وأصبحت نجمة منذ ذلك الحين. وعندما دخلت برفقة جيم براند، أحсс بشيء من خيبة الأمل لرؤيه التحول الذي طرأ على شكلها منذ آخر مرة رآها فيها قبل بضع سنوات. فبصفتها شخصاً عانى دائمًا بسبب مظهره، لم يفهم تومي تماماً كيف يمكن لامرأة مثل روري التي كانت ذات يوم قادرة على تعطيل حركة المرور، أن تطلق العنان لنفسها، فيزداد وزنها بنحو عشرين كيلوغراماً في جميع الأماكن غير المناسبة. لم تكن قد بلغت الخمسين بعد، ولكنها كانت لا تزال شقراء وجميلة وأنثقة.

قال تومي: "هل من نتائج سعيدة؟". كان تومي وبراند قد قررا أن روري هي الرهان الأفضل في الشرطة من أجل الاهتمام باستدعاءات الوثائق. وكانت رتبتها كافية، وكان باستطاعتهما أن يسألها من دون الرجوع إلى أحد القادة أو الخبراء من أجل فهم شيء ما. وإضافة إلى ذلك، كانت واحدة من القليل من أفراد الشرطة الذين يفاخرون بحفظهم للأسرار.

أجبت روري: "لا يا سيدي. لا أعرف ماذا تملكان يا شباب، في بداية الأمر". رمقت المدعى العام بنظرة حادة بينما كانت وبراند تجلسان على الكرسيين الخشبيين بجانب طاولة مكتب تومي. وكان تومي قد طلب من براند ألا يعطي أي تفسير بخصوص التحقيق. وروري - مثل جميع أفراد الشرطة - تكره العمل بعينين مغمضتين. ويريد ضباط الشرطة دائمًا أن يعرفوا كل شيء، غالباً لأن هذه واحدة من مزايا كونك شرطياً، حيث تشعر أنك قادر على مواجهة الجميع. وبالطبع، يختلف الأمر من شرطي إلى آخر. وهذا يشبه العمل مع العلماء الفدراليين، "افعل ما أقوله وحسب".

لا يملك تومي أي شيء ضد روري، ولكنه كان يعرف أن ثمة طريقة واحدة فقط لمنع تفشي خبر أن راستي كان مشتبها به بارتكاب جريمة قتل؛ وهي عدم الثقة بأي شخص.

قال تومي: "تعرفين من هو الشخص، أليس كذلك؟". وكان الاسم وحده كان بمثابة تفسير كاف.

"عندما تقدم أربع وثائق مطلوبة بموجب استدعاءات وعليها اسم الشخص نفسه، فإنك تفهم شيئاً ما. وأنصور أن القاضي يملك عشيقه سرية. وحسب علمي، فالمعاشرة ليست جريمة. حتى بالنسبة إلى مرشح للمحكمة العليا. وأنتما تعملان بسرية شديدة بحيث أشعر بأن ذلك ليس فعل انتقام، إذ يكفي تسريب الأمر للصحافة. لذا، ثمة شيء كبير هنا، أليس كذلك؟".

نظر براند إلى تومي الذي بقي صامتاً. وكان يفكر في ما قالته

روري. والوثائق التي جلبتها تؤكد ما قاله كانوا سابقاً، إذ تُظهر أن راستي كان يخون زوجته.

"سألكلما سؤالاً واحداً. هل نتحدث عن شاب أم فتاة؟".
قال تومي أخيراً: "أنتي".

قالت روري: "اللعنة". من الواضح أنها كانت تعتقد أن هذا سيكون ممتعاً حقاً.

قال براند: "لكتنا نسمع أنها أصغر منه بكثير. ما رأيك بذلك؟".
قالت: "ليس الشيء نفسه".

قال براند: "هل تعرفين لماذا يعاشر امرأة تصغره بثلاثين عاماً؟".
"لأنه محظوظ"، أجابته بابتسامة ساخرة. وكانت تظن أنه كان يسخر منها، حيث إنه كان يكلمها كما لو أنها رجل، غير أن براند كان يتكلم بجدية.

قال تومي مقاطعاً: "هل هناك من يعمل هنا؟ روري، ماذا اكتشفت من الوثائق؟".

"ليس كثيراً. أخذنا رقم حسابه المصرفي من سجلات راتبه الحكومي. وذلك كان أفضل شيء حصلت عليه، حسابه المصرفي".
سألتها تومي عما إذا كان المصرف قد تسلّم رسالة التسعين يوماً التي تطلب منه عدم إفشاء الأمر. فاكتفت روري بالنظر إليه بطريقة توحى وكأنها كانت تقول له: أنا لست غبية. ثم فتحت صنفها وأعطت تومي نسخاً من بيانات راستي.

ثم أخبرتهما روري بأن راستي أوقف الإيداع التلقائي لراتبه في مصرفه. وحدث ذلك عندما وصل أخيراً تعديل نفقات المعيشة للقضاة الحكوميين بعد إيقافه لمدة سنتين بسبب دعوى قضائية سخيفة رفعتها إحدى مجموعات داعيي الضرائب. وبدلاً من ذلك، كان راستي يذهب إلى المصرف كل أسبوعين حاملاً شيكه بيده ويودع المبلغ نفسه الذي كان يُودع في حسابه قبل وصول التعديل، ثم يأخذ ما تبقى نقداً، بما فيه أكثر من أربعة آلاف دولار متراكمة دفعت كدفعة أولى.

لم يفهم تومي ما كانت ترمي إليه.

قالت روري: "هذا يعني أنه يريد بعض المال، وزوجته لا تعرف شيئاً عنه". وكانت تتحدث أحياناً مثل أبيها، من دون انتباه للقواعد النحوية، وكأنها كانت تشعر بالأسف لكونها واحدة من الخريجات الجامعيات المتفوقات.

قال براند: "لقد أخبرتك. إن الفتاة بارعة".

قال تومي: "أنا من أخبرتك بذلك. لكنني فقط لا أرى سبباً مقنعاً. فلعل القاضي يحب المراهنة على الخيول".

قالت روري: "أو يتعاطى المخدرات. هذا كان أول تخمين لي. بما أتنى أخمن فقط". رمقت تومي بنظرة موحية أخرى ثم قالت: "لا يمكنني، بالطبع، أن أخبرك أين ذهب معظم النقود، لكنني أملك فكرة جيدة. أحياناً كان يأتي إلى المصرف ويقوم بالإيداع، ويستخدم المال الذي يعادله، إضافة إلى بعض المال من جيده، في شراء شيكات مضمونة من البنك".

قال تومي: "اكتشاف جيد".

"كنت محظوظة، إذ أعطاني المصرف هذه مع بقية السجلات. فأنا لم أفكّر قط في طلبها. وفي العادة، مع كل قوانين السرية المالية، تضطرُّ للنفر عليهم مثل الطلب كي تحصل على ما أنت مخول بالحصول عليه. ولكنهم وضعوها كلها في مصنف واحد في أقل من يوم. ولعل رسالة التسعين يوماً صدمتهم بقوة. فأعتقد أنهم لا يرون الكثير منها في نيرينغ". أرتهما الشيك الأول المؤرخ في 14 أيار 2007، بقيمة 250 دولاراً. وخصص صرفه لشركة تدعى STDTC.

سألها تومي: "وماذا تعني؟".

"شركة فحص الأمراض المنقوله جنسياً".

"واو".

"أجل، واو".

قال تومي: "لماذا؟ هل يملك عضواً قذراً؟".

"بوسيي اعطاؤك الكثير من النظريات. وكلها مسلية. وأنت حزرت الأولى منها الآن. لعله نسي جلب الواقي، أو لعله هو والصديقة أرادا إجراء الاختبار معاً. ولكن، من المؤكد أنه إذا جلب شيئاً معه إلى المنزل، فلن يستطيع الإفلات من زوجته بإخبارها أنه التقطه من مقعد تواليت".

قال تومي لبراند: "هل يمكننا الحصول على النتائج؟".
"فقط إذا طلبناها من الفدراليين. وبموجب القانون الوطني، بوسعهم الحصول على بياناتك الطبية من دون علمك. ولكن مجلس الولاية رفض هذا في النسخة المحلية من القانون".

إذا استطاع الفدراليون أن يسرقوا القضية فسيفعلون. فرئيس القضاة والمحكمة العليا. إنهم يريدون دوماً أن يتصدروا العناوين الرئيسية. ولكن تومي لم يكن حاجة بالنسبة إليهم. فالواضح من حقيقة أن راستي أجرى اختباراً هو أنه بدون شك كان يبعث.

نظر تومي إلى براند وقال: "لعل صديقة راستي بنت هوى؟".
هز براند رأسه موافقاً - إنه واحد من الاحتمالات بالفعل - ثم قال:
"لعله حصل على بعض الأسماء من إيلوت سبيتزر". ضحك الجميع،
لكن روري لم تتوافق على الفكرة، لأن إقامة العلاقات مع بنات الهوى غالباً ما تكون عادةً لدى الشخص، وراستي بدأ بإيداع راتبه، إضافة إلى تعديل نفقات المعيشة، في 15 حزيران من العام السابق.

قال براند لروري: "كيف يمكن أن يفسر هذا لزوجته؟".
"بأن يقول لها إنَّ تعديل نفقات المعيشة قد وصل أخيراً".

هز براند رأسه، وكذلك فعل تومي.
قالت روري: "على فرض أنه أراد التغود من أجل الاحتفاظ بفتاة ما، فلا بد أن هذا توقف، على الأقل لبعض الوقت".

قال براند: "لماذا لبعض الوقت؟".
"إليك الشيك المضمون رقم اثنين".
الشيك المؤرخ في 12 أيلول، أي قبل أكثر من شهر بقليل، موجه

إلى دانا مان مقابل 800 دولار. كُتب عليه: "استشارة، 4، 9، 08." كان برايما دانا، كما كان يُعرف، ملك محامي الطلاق وأكثرهم أجراً، حيث كان يمثل الأثرياء فقط. وكان الناس العاديون يصفونه بأنه نذل شامت، وبأنه حريص أكثر منه ذكي، حيث تتمثل براعته الرئيسة في تحويل الزوجات إلى مطلقات تعيسات. ولكن، كان هناك أيضاً من يمدح حصافته وحكمته. ومن الواضح أن راستي كان واحداً منهم.

قال تومي: "ما هو تصوّرك حول هذه؟".

"أقصد لماذا يدفع من أجل الاستشارة؟".

"لا. الطلاق قد يكون صعباً بعض الشيء في منتصف حملة انتخابية".

قال براند: "وخاصة إذا كانت هناك امرأة أخرى".

قالت روري: "هل يمكننا الحصول على سجلات برايما دانا؟".

هز تومي وبراند رأسيهما معاً، ثم قال تومي: "لا شيء سوى الفاتورة والأجر المدفوع. لن يقول لنا أبداً ما تناقشا حوله. ولا يعني هذا أن الأمر يستحق تكبد عناء البحث. فكم مرة في العقد الأخير سجل برايما دانا حضوراً في أي شيء باستثناء قضايا الطلاق؟".

ذهب براند إلى كمبيوتر تومي. وكان جيم واحداً من أولئك الذين يفهمون الكمبيوتر كما لو أنهم ولدوا فيه، حيث يبدو لك أنه قادر على الحصول على المعلومات عن طريق النقر على بضعة مفاتيح فقط، في حين أن كل ما تعلمه تومي هو كيف يفتح بريده الإلكتروني فقط.قرأ براند من موقع برايما دانا على الشبكة: "الممارسة محفوظة بقانون الزواج".

كان بحوزة روري شيك آخر مجيراً إلى برايما دانا في تموز 2007 مع ملاحظة مشابهة. إذاً، من الواضح أن راستي فكر في مسألة الطلاق لبعض الوقت. والشيك السابق يتلازم تماماً مع الفترة التي كان يلتقي فيها صديقه الشابة.

قال تومي: "إذاً، كيف تربطين هذه الأمور معاً؟".

رفعت كفيها، ثم قالت: "قد تكون هناك أشياء كثيرة. ولكن، كما تعلم، من المؤكد أن هناك فتاة. وبعد ذلك، ليس باستطاعتنا سوى التخمين. فكلنا نعرف الأمر المألف: تطلب منه فتاته أن يهجر زوجته وإلا فسيُقْلِفُ المخزن، وهو يرفض، فيفترقان. وبحلول أيلول هذا، بدأ يفكر في أشياء أخرى. وبينما كان يعُذُّ نفسه للطلاق"، قالت روري بنبرة مسرحية: "تموت الزوجة بدلاً من ذلك، في توقيت مناسب جداً". نظرت إلى تومي ثم إلى براند، وكأنها تحاول استخلاص رأيهما في ما قالته من ملامح وجهيهما. وكانت بارعة بالفعل. فإن الشيك الثاني المجيئ لبرايما دانا صدر قبل أقل من ثلاثة أسابيع من وفاة باربارا. كان تومي يفكر في تفسيرها. وكان تفسيراً جيداً بالفعل، على الرغم من إمكانية وجود تفسيرات عديدة أخرى.

ثم قال: "هل نعرف من هي هذه الفتاة؟".

قالت روري: "كنت أظن أنكما تعرفان".

قال تومي: "لم يحالينا الحظ في هذا الأمر".

وذلك روري. كان عدد فواتير الهاتف الأرضي قد بلغ ستة بحلول ذلك الحين. وتفاصيل الهاتف الخلوي أظهرت القليل من الاتصالات في اليوم، ولكن معظم الاتصالات كانت إما لمنزله، أو لابنه، أو لمخزن الأدوية في البلدة.

ابتسمت وقالت: "بوسعنا الحصول على فواتير الهاتف الخاصة بالمحكمة. ولكن، يبدو أن رسالة التسعين يوماً يجب أن تذهب إلى رئيس القضاة. والتفاصيل، بعد انتهاء سنة ونصف، لا بد أن تكون قد أزيلت الآن، مثل الهواتف الأخرى".

قال براند: "ماذا عن البريد الإلكتروني؟".

"هذه الأيام، جميع المزودين يظهرون مخدّمهم بعد ثلاثة أيام. وهذا لا يعني بأنه لا يملك رسائل على أقراصه الصلبة. أعتقد أنني سأكون مهتمة بصورة خاصة بإلقاء نظرة على كمبيوتره في المنزل، أو في العمل".

قال تومي: "لن نذهب إلى هناك الآن. وليس قبل الانتخاب، وقبل أن نحصل على أكثر مما نملكه الآن".
شكر تومي روري، مشدداً بصفة خاصة على نوعية العمل الذي قام به.

قالت روري من الباب: "هل أنا مشتركة معكما؟".
أجابها: "بالطبع أنت معنا. ولن نريد شخصاً آخر. فسنحصل بك".
جلس تومي وبراند عدة لحظات من دون أن يتكلما. وكان باستطاعتك سماع رنين الهواتف وصياح الموظفين المساعدين من الممر.
"لدينا شيء ما أيها الرئيس. اختبار الأمراض المنقوله جنسياً. فهذا ليس للزيجات السعيدة. ونحن نعرف أنه يتحدث عن إنهاء الزواج قبل بضعة أسابيع فقط من رحيلها".

فكَر تومي قليلاً ثم قال: "ربما باربارا هي التي كانت تقيم علاقة. ولعله يدفع لمحقق خاص بواسطة أموال تعديل نفقات المعيشة، والشخص الذي يقابلها في الفندق هو هذا المحقق. وبالمناسبة، المحقق شابة، مما يشكل تغطية خاصة لها كمحققة خاصة. ولعله يجري الفحص ليتأكد من أن زوجته لم تجلب أي مرض إلى المنزل. ومع الوقت، لا يتمكن من مسامحتها، فيذهب لاستشارة برايمداانا".

كبح براند ضحكة كبيرة قبل أن تفلت منه، ثم قال: "لقد فقدت قدرتك على التفكير المنطقي، أيها الرئيس".

"اسمع جيمي، طبيب التشريح قال إن باربارا ماتت ميتة طبيعية".
"لأن القاضي السيئ جلس لمدة أربع وعشرين ساعة كي يتحلل الشيء الذي قتلها فعلاً في أمتعتها".

وقف براند واقرب من مكتب تومي: "ينبغي علينا أن نظهر على السطح أيها الرئيس". وكانت في ذهن براند لائحة طويلة من الأشياء التي يريد القيام بها. كإجراء مقابلات لمعرفة كيف كانت علاقة راستي وباربارا، وكتطوير جدول زمني لما حصل في الليلة التي سبقت موتها دقيقة بدقيقة، والتحدث مع ابن عائلة سابينتش.

قال تومي: "ليس بعد. إذا وصل الأمر إلى الصحافة، فسيخسر راستي معركة الانتخاب قبل أن تبدأ. وعندما يخسر راستي الانتخاب فسنعطيه الدفاع المناسب؛ مهما كان نوع الدفاع الذي سنبنيه في نهاية المطاف. تعرف ما سأقول: المدعى العام المؤقت يريد الانتقام لقضية قديمة وإبعاد ساينس عن المحكمة. ونحن سنأخذ وقتنا. يجب علينا أن نستمع لهذا الكلام".

"إنهم يبقون لمدة عشر سنوات في المحكمة العليا".
"ليس مع إدانة بجريمة قتل".

قال براند: "وماذا سيحصل إذا كان بحثنا ناقصاً؟ وإذا افترينا ولكن ليس إلى الحد الكافي؟ هذا الرجل لن يقدم على ارتكاب جريمة أخرى وحسب، بل سيهاجمنا أيضاً من موقعه الجديد".

كان تومي يعرف ما يريد براند أن يصل إليه. تسلية الأمر إلى الصحافة، وإلقاء راحة راستي للقيام بشيء من واجبهما تجاه العدالة، بدلاً من عدم القيام بأي شيء. وكان براند يميل إلى التصرف بسرعة، وحرق المراحل، وربما كان تومي يشعر مثله أيضاً، إذا أراد أن يكون صادقاً، ولكن لسبب مختلف.

مات والد براند في مكتبه، عندما كان جيمي في الثامنة من عمره. وكان هناك خمسة أطفال آخرين. وفعلت الأم ما بوسعها، حيث أصبحت مساعدة مدرس، لكنهم كانوا موجودين في مكان غير ملائم، إذ كانوا يقيمون في منزل جميل في ضاحية راقية دفع ثمنه من تأمين الوالد، في بلدة لم يكن باستطاعتهم تحمل نفقات العيش فيها. وطوال المرحلة الدراسية كان جميع الطلاب حول جيمي يرتدون ثياباً أفضل، ويركبون سيارات أفحى، ويمضون عطلاً أجمل، وأكلون طعاماً أحسن من طعامه. فمنذ بضع سنوات سأله تومي عن سبب اهتمامه بالأكل، فأجاب: "بسبب الجوع".

عاشت عائلة براند في مجتمع لم يكن أفراده يفهمون فكرة أن يكون المرء جائعاً. وشعر جيمي دائماً بعدم وجود من يهتم به في المنزل.

فوادته كانت تملك تواماً أصغر منه بخمس سنوات لتركز اهتمامها عليه. وأخواه الأكبر سنًا كانوا يقونان بما يوسعهما لتأمين لقمة العيش لبقية أفراد الأسرة.

وفي المرحلة الثانوية، كان براند في مشكلة دائمة. كان يهرب من المدرسة ويمضي وقته في غرف الميسر، حيث بدأ اللعب خفيةً منذ سن الخامسة عشرة. ولو لا كرة القدم لطردوه من المدرسة بسهولة. وكان براند متواحشًا على أرض الملعب، حيث لم يكن ينهي موسمًا من دون أن يصيب أربعة أو خمسة لاعبين من رفاقه في الفريق أثناء التدريب، وضعف هذا العدد من المنافسين، لكنه كان لاعبًا أساسياً على الدوام، ونادرًا ما كان يخفق في إيقاف لاعبي الخصم خلال اللعب. وأخبروه بأنه لم يكن ضحمةً بما يكفي للعب كمدافع في دوري الدرجة الأولى، لكنه برهن لهم أنهم كانوا مخطئين عندما وصل إلى الجامعة. لقد فعل ما فعله هنا في المكتب، عندما منحه تومي الفرصة ليثبت ذاته، معتمداً على إرادته الذاتية فقط. ولهذا السبب كان براند يحب تومي، لأنَّه كان أول شخص يعطيه فرصة حقيقةً من دون مقابل. ولكن، عندما تصبح اللحظات ساخنة، وخصوصاً خلال المحاكمة، يظهر مجدداً الصبي الجائع الغاضب الذي لم يكن يحب اللعب بحسب القواعد لأنَّه كان يعتقد أنها وُضعت من قبل أناس لم يكونوا يكترون لأمثاله. ولكن، عاجلاً أم آجلاً، كان الجزء الناضج منه يستعيد زمام المبادرة من جديد؛ مع أنك في بعض الأحيان قد تضطر لركله في مؤخرته. وهذا بالضبط ما كان تومي يفعله في تلك اللحظة.

"لا". قال تومي لفكرة التسريب؛ بما يكفي من الحدة لإيضاح وجهة نظره. لقد تعلم هذا الدرس بأصعب الطرق في قضية سابيشن الأولى. أنت هنا للادعاء في قضايا جرائم، وليس لتقرير نتائج الانتخابات. قم بعملك فقط. حقًّا. ابن قضيتك. "لا خيار أمامنا. لا شيء علني قبل الانتخاب".

قال براند: "ولكن، لدينا طريقة أخرى للتعامل مع كل هذا. نفتح

ثغرة في دفاع الانتقام ذاك".
"ما الذي تقصده؟".

"ثبت أنه أفلت بجريمة منذ عشرين عاماً. والمدعى العام لا يسعى للانتقام. فإنه يبحث عن العدالة. وعيّنات الدم وبقايا المني من القضية القديمة لا بد أن تكون لا تزال موجودة في ثلاثة طبب التشريح، أليس كذلك؟".

عرف تومي إلى أين سيؤدي هذا الكلام لأنه فكر في هذا الاحتمال عدة مرات في كل عام خلال العقد الماضي، وعندما أدرك أن الحمض النووي سيقدم إجابة قاطعة حول ما إذا كان سابيتش مذنباً بجريمة قتل كارولين بوليموس أم لا. لكنه، بالطبع، لم يكن يملك سبباً كافياً لإجراء الاختبارات.

قال تومي: "ليس بعد".

"يمكنا أن ندخل من خلال أمر محكمة لصالح طرف واحد. ولنقل إنها جزء من تحقيق متعلق بهيئة محلفين".

"اسحب ذلك الدليل من التلاجة في ماجرات" - كان يشير إلى مركز قيادة الشرطة، حيث لا سر في مأمن - "و خاصة مع أمر محكمة متعلق بهيئة محلفين، وسيعرف كل شرطي في البلدة خلال ساعتين، وكل مراسل صحفى بعد خمس دقائق من ذلك. عندما سيحين الوقت المناسب، قد نجد طريقة من دون أمر من المحكمة".

وقف براند محدقاً في تومي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يكشف فيها تومي نفسه، ما يدل على مدى انشغاله برأسته؛ وبالحمض النووي.

قال تومي: "ليس بعد. وبعد الانتخاب يمكن النظر في كل هذا مرة أخرى".

عبس براند.

قال تومي مرة أخرى: "ليس بعد".

الفصل التاسع

راستي، أيار، 2007

ما هي العلاقة الحميمية المثالبة؟ هل يجب أن تكون مدتها طويلة؟ أو هل يجب أن تكون مبتكرة؟ هل حركات السيرك مطلوبة؟ أم إنه مجرد تطرف؟ ليست ممارساتي الحميمية مع آنا هي الفضلى في حياتي؛ وفقاً لجميع المقاييس. فهذا الوصف يبقى منطبقاً على علاقتي مع كارولين بوليروس التي كانت الحميمية بالنسبة إليها، في كل مرة، عبارة عن غزو جريء لأشد منسوبات المتعة ارتفاعاً، حيث يكون فيها كل شيء مباحاً. أنا تنتهي لجبل يعتبر الحميمية نسلية بالدرجة الأولى. وعندما أطرق بباب غرفة الفندق بعد عشر دقائق من وصولها، غالباً ما أجده مفاجأة ممتعة: مرضية ترتدي كعباً عالياً مثيراً، أو ثوباً مربوطاً بمنديل حول الخصر، إن حلته تجد جسداً عارياً تماماً.

لكنها بالطبع أكثر خبرة مني بما لا يقاس. وأنها هي المرأة الرابعة التي أمارس الحميمية معها خلال الأربعين سنة الماضية. أما العدد الخاص بها، كما تقول بابتهاج، فهي لا تكشف عنه أبداً، مع أنها تذكر بصورة عابرة في سياق حديثها ما يكفي لأعرف أن أسلافي كثر. ولهذا السبب، إنها تجد صعوبة في بلوغ الذروة. ومع اعتذاري لتولستوي، يمكنني القول إن جميع الرجال يبلغون الذروة بصورة مشابهة، لكن كل امرأة تبلغها بطريقتها الخاصة. وطريقة آنا غالباً ما تكون شاقة بالنسبة إلىي. كما أنتي أعاني مشاكل في بعض الأيام؛ الأمر الذي يدفعني إلى الاستعانة بطبببي من أجل القرص الأزرق الصغير الذي غالباً ما يعرضه

لكن، بالرغم من أتنا في بعض اللحظات نبدو وكأننا بحاجة إلى فيديو إرشادي، إلا أن لقاءاتنا دائمةً ما تتميز برقة وحنان بعيدين عن الوصف. إنني أمسها كما يلمس المرء أثراً مبجلاً، بعشق وتمجيد، مع الثقة الكاملة بأن رغبتي وامتناني يشعان من بين مسامات جلدي. كما أتنا نملك الشيء الذي تتطلبه دائمةً الحميمية المثالبة؛ ألا وهو الحضور الوحيد لكلينا فقط في لحظاتنا المثلثي، بالطبع. ففي مثل هذه اللحظات يختفي شعوري بالعار والقلق، والقضايا التي تزعجني، وهموم المحكمة والحملة الانتخابية، ولا تبقى إلا هي في عالمي. إنه نسيان كلي جميل.

وعلى الرغم من إصرار أنا على وجوب عدم التفكير في عمرينا، إلا أن الفارق موجود بصفة دائمة، وخاصة في الفجوة التي تظهر خلال تواصلنا. فلم يسبق لي أن وضعت أي - بود قط، ولا أعرف ما إذا كان جيداً أم سيئاً عندما تقول هي إن شيئاً ما يقتل. وهي لا تملك أدنى فكرة عن العالم الذي شكلني، وليس لديها ذكريات عن أغتيال كينيدي أو الحياة في عهد آيزنهاور؛ من دون ذكر فترة السبعينيات. لذا، فإن الانصهار في الحب، بمعنى أنها أنا وأنا هي، يكون في بعض الأحيان موضع شك.

وهذا يعني أيضاً بأنني أتحدث كثيراً عن نات، فأنا لا أستطيع مقاومة طلب مساعدة أنا، كونها أقرب إلى سنه مني.

قالت لي ذات ليلة وهي مستلقية بين ذراعي بعد انتهاء من مهرجان الفرح الحميمي: "إنك تقلق كثيراً بشأنه. أعرف الكثير من الأشخاص الذين كانوا معه في كلية الحقوق في إيستون، والذين يقولون إنه لامع. كما تعلم، إنه واحد من أولئك الأشخاص الذين يتكلمون في الصف مرة كل شهر لكنه يقول حينئذ شيئاً لم يفكر فيه البروفيسور نفسه".
"إنه يمر بوقت عصيب".

لأنك تحب أولادك وتجعل من رضاهم الهدف الأساسي لوجودك،

فإنك تشعر بشيء من الإحباط عندما تراهم ليسوا أكثر سعادة منك بكثير. وكان ناتانيل سابيتش ولدًا جيداً بجميع المقاييس المعروفة. وخلال المرحلة الإعدادية، كان طالباً مجتهداً ونادرًا ما كان يقلل من احترام والديه. ولكنه عانى صعوبة بالغة خلال مرحلة النضج. وعندما كان فتى صغيراً، كان مفرط النشاط بحيث لم يكن يقدر على الجلوس ساكناً بانتظار نهاية القصة التي كنت أرويها، بل كان يعمد إلى تقليل الصفحات مقدماً كي يعرف النهاية مسبقاً. ومع تقدمه في السن، أصبح واضحاً أن كل هذه الحركة العشوائية كانت ناجمة عن ضرب من القلق دفعه إلى الانبطاء على نفسه شيئاً فشيئاً.

لم تكن هناك نهاية لنظريات المعالجين النفسيين فيما يتعلق بالأسباب. ولذَّ وحيد لأبوين وحدين أيضاً. تربى في بيت دافئ من الرعاية الأبوية الزائدة عن الحد. ثم جاءت صدمة اتهامي ومحاكمتي التي زلزلت عائلتي - على الرغم من كل ظاهرنا بالتماسك - وجعلتها تتبدَّل مثل شخصية سينمائية متشبثة بجسر متصدع.

التفسير الذي أجاَ إليه غالباً هو التفسير الذي يبعد الملامة عنِّي إلى أبعد الحدود؛ وهو أنه ورث بعضاً من اضطراب أمه الاكتابي. وعند بلوغه سن المراهقة، كان يوسعى رؤية الاكتتاب المظلم المألف يحلُّ عليه، مع العزلة والشrod الذهني نفسيهما. لقد شهدنا جميع أنواع التجارب التي يمكن أن تتوقعها: رسائل من المدرسة تحمل درجات ممتازة وأخرى ضعيفة، ومخدرات. ولعل أكثر الأيام خزيًّا في حياتي هو اليوم الذي دخل فيه صديقي دان ليبرانزر، وهو محقق كان على وشك التقاعد، مكتبي بصورة غير متوقعة منذ نحو عشر سنين، وقال لي: "اعتقدت وحدة مخدرات فتى من مدرسة نيرينغ الثانوية البارحة. وهو يقول إنه يشتري مخدراته من ابن أحد القضاة".

الجانب الجيد من هذه الحادثة هو أنها سمحَت لنا بإعادة نات للعلاج النفسي. وعندما بدأ بأخذ موائع إعادة امتصاص السيروتونين الانتقائية (SSRIs) بالقرب من نهاية دراسته الجامعية، بدا وكأنه خرج من كef

مظلوم إلى ضوء الشمس ، فانتسب لمدرسة تحضيرية في الفلسفة . وفي نهاية المطاف ، انتقل من البيت كلباً . ولاحقاً ، ومن دون نقاش مع أحد ، تحول إلى كلية الحقوق . فمنذ استقلاله عنا ، يتلقى نات كل صنوف الفلق والاشتياق مني ومن باربارا ، حيث نبدو وكأن كلينا مصدومان لأنه اتخذ أخيراً طريقه الخاص في الحياة . ولكن ، ربما لذلك علاقة بعدم الارتباط الناجم عن بقائنا وحيدين في وجه بعضنا .

"هل كنت سعيداً لذهابه إلى كلية الحقوق؟".

"شعرت بالراحة نوعاً ما . ولكن ، لم أكن أمانع الفلسفة . اعتدت أنها مشروع جيد لكنني لم أكن أعرف إلى أين تؤدي . والأمر نفسه ينطبق على كلية الحقوق . يقول إنه سيصبح أستاذًا . ولكن ، سيكون صعباً عليه الانتقال من موظف قانوني مباشره ، ولا يبدو أنه يملك أفكاراً أخرى " . "وماذا عن العمل كعارض أزياء لدى ج . كرو؟ أنت تدرك كم ابنك وسيم ، أليس كذلك؟".

نات محظوظ بما يكفي لأنه يشبه أمه . ولكن ، مع ذلك ، فالحقيقة التي يبدو بأن أحداً لا يدركها سواعي هي أن الميزة الثاقبة في وسامته ، وزرقة عينيه الغامقة ، وعالم الغموض الذي يكتنف كأبته ، كل ذلك آتٍ مباشرةً من أبي . فتتجذب الشابات إليه كما تتجذب السفن إلى منارة بسبب ملامحه الجميلة الاستثنائية ، لكنه لطالما كان بطريقاً بصورة غريبة في إقامة علاقة مع الفتيات ، كما أنه دخل طوراً جديداً من العزلة نتيجة انفصاله الكارثي عن كات؛ الفتاة التي رافقها طوال السنوات الأربع الماضية . "عرضوا عليه عملاً . شخص ما من إحدى الوكالات رأه في الشارع . لكنه لطالما كره أن يتحدث الناس عن وسامته ، فهو لا يريد أن يُقيّم على هذا الأساس . إضافة إلى ذلك ، هناك عمل أفضل إذا كان يريد جني المال بسهولة ". "وما هو هذا العمل؟".

"كل شاب وشابة في عمرك . باستطاعتكم جميعاً أن تكونوا أثرياء أكثر مما تحلمون ".

"كيف؟".

"بأن تتعلموا كيف نزيلون أوشامكم".

تطلق أنا ضحكتها المعتادة، كما لو أن لا شيء في هذه الحياة سوى الضحك. ولكن الحديث حول نات يجعلها تشد قليلاً. وبعد بضع دقائق ترفع نفسها على مرفقها لتنظر إلى.

"هل أردت يوماً أن تنجب فتاة؟".

أحدق فيها قليلاً ثم أقول: "أعتقد أنها ملاحظة من النوع الذي يسمى بها نات خرقاً مقصوداً".

"أقصد تجاوزاً للحدود؟".

"أعتقد أن هذا ما كان يعنيه".

"لا أظن أن الحدود تمثل أي فرق هنا"، تقول وهي تشير بيديها إلى جدران غرفة الفندق، "هل أردت أن تنجب فتاة؟".

"أردت المزيد من الأولاد، لكن باربارا كانت تتذرع بجميع أنواع الأعذار. كقولها إنها لن تحب طفلاً آخر أكثر من نات، شيء من هذا القبيل. ولكن، عندما أنظر إلى الأمر الآن، أعتقد أنها كانت تعرف أنها مريضة، وهشة".

"إذا، هل الجواب نعم؟".

أذكر تلك الأيام، وكم تمنيت أن يكون لدى أولاد، وأن أكون أمّا، وأن أربئهم بشكل أفضل من التربية التي حظيت بها أنا. أجل كان هذا هاجساً لدى.

وأخيراً أقول لها: "أعتقد ذلك".

تف على قدميها، ثم تمسك الثوب الذي تلف به جسدها من أجل الدفء وترفعه ببطء عن كتفيها تاركة إياه يسقط على الأرض بينما هي تحدق في بعينين راغبتين اعتدت أن أراهما خلال أيام عملها الأخيرة في مكتبي.

"هذا ما كنت أعتقد". تقول ثم تلقي بنفسها بجانبي.

عندما ألتقي في الليل، يصعب علىي تركها والعودة إلى المنزل. إنها تتوسل إليّ كي لا أذهب، مستخدمة تكتيكات إغوانية لهذا الغرض. وهذه الليلة، بعد أن ارتدت ثيابها بامتعاض، وبينما كنا نقترب من الباب، وهي تمشي أمامي، تضع كلتا يديها على الباب وتبدأ برقص رقصة خلية أمامي.

"إنك تصعيدين علىي المغادرة".
"هذه هي الفكرة".

تظل على هذه الحركة الراقصة الخلية بضع لحظات، فألصق جسدي بجسدها وأنضم إلى الحركة، إلى أن تثور رغبتي داخلي. فيتم اتصال بيننا من دون واقٍ، وذلك جريء جداً وفق معاييرنا. أنا تحفظ دائمًا بواقيات في حقيبتها.

"أوه، راستي".

لكننا كلينا لا نتوقف.

لاحقاً، نرتدي ملابسنا مجدداً بصمت مشوب بشيء من الاستياء.
"أعلمني كي أرقص لك رقصة خلية"، تقول بينما أغادر أولًا.

الشعور بالذنب يأتي خلسة ويدمر كل شيء. وبعد فترة النسيان الوجيز التي ذكرتها آنفاً، غالباً ما تتنابني مخاوف متكررة. فأشعر بحزن عميق عندما ألتقي واحدة من رسائل أنا الإلكترونية المشفرة، وصل "الزائر"، أي الحيض. تصلني ذات يوم كلمة مختصرة تدخل الرعب في قلبي: "STD"، أي مرض منقول جنسياً. ماذا لو أن أنا - التي تسافر كثيراً - مصابة من دون علمها بمرض قابل للانتقال عن طريق الجنس. فأتخيّل على الدوام وجه باربارا وهي تدخل المنزل آتية من زيارة لطبيتها النسائي.

كنت أعرف أن هذا القلق غير منطقي إلى حد بعيد، لكن المخاوف أشبه بمسامير تدق في رأسي. وليس باستطاعتي تحمل نوع آخر من القلق المجهول، فهناك الكثير من العذاب الذي يقض مضجعي مسبقاً. ولهذا،

بينما أنا في مكتبي ذات يوم، أضع كلمة "STD" في محرك البحث على الإنترنت فأجد نفسي في أحد المواقع.

أتصل من هاتف مأجور في محطة الحافلات وأدير ظهري كي أتأكد من أن أحداً لا يسمعني. فتشرح لي المرأة الشابة من الطرف الآخر من الخط عملية الاختبار، ثم تخبرني بأنها تقبل ببطاقة اعتمادي. والأحرف الأولى التي ستظهر على الفاتورة قد لا تكون مؤذية، لكنها ذلك النوع من التفاصيل التي لا يمكن أن تغفل عنها باربارا، فهي تسأل دائماً حول أي مصروف غير مفسّر.

أصمت فتفهم الفتاة كل شيء، ثم تصيف بتهذيب قائلة: "أو إذا كنت تفضل، يمكنك الدفع بواسطة حواله بريدية أو شيك مضمون". ثم تعطيني رقماً شخصياً سيحل محل اسمي في جميع تعاملاتي مع الشركة. أشتري الشيك المضمون في اليوم التالي عندما أذهب إلى المصرف كي أودع بعض النقود. ثم أتجه من هناك مباشرة إلى الطابق الثلاثين في مبنى مركز المدينة لأسلم الشيك كما قيل لي. أجد نفسي أمام باب كتب عليه "استيراد/تصدير". أفتح الباب وألقى نظرة خاطفة، ثم أخرج مجدداً لأدقق في العنوان في جيبي. وعندما أدخل مجدداً، ترمقني موظفة الاستقبال، وهي روسية في منتصف العمر، بنظرة حادة ثم تسألني بلهجة مكسرة: "هل جئت لتعطيني نقوداً؟". أدرك حينئذ أن الواجهة ضرورية، إذ حتى لو أن محققاً ما تبعني إلى هنا، فإنه لن يعرف غرضي. تأخذ الشيك مني، وترمييه من دون مبالاة في أحد الجوارير ثم تعود إلى عملها. فلا بد أن هذه المرأة قابلت مجموعة غريبة من الأزواج غير المخلصين، أو أشخاصاً غير أسواء بالعشرات. أمّ حملت من شخص يسكن بجوار منزلها بينما يكون الزوج خارجاً يبحث عن عمل. ورجال كثر في مثل عمري مرتعبون من بنت هو تكفل ثلاثة دولارات أمضوا بعض الوقت معها. فمجال عملها هو الضعف والحمافة.

أجري الاختبار، ثم أوقع باستخدام رقمي الشخصي. لا تكلف المرأة التي تسحب الدم مني عناه رسم ابتسامة على وجهها. ربما لأن

أي مريض هنا يمثل خطرًا محتملاً عليها. ولا تنذرني بأن الإبرة يمكن أن تكون مؤلمة.

وبعد أربعة أيام، يبلغني شخص من المكتب أنني نظيف. وعندما ألتقي أنا في المرة التالية، أخبرها بما حصل معي.
“أنا لم أكن قلقة”， تنظر إلىي من تحت حاجبيها ثم تتابع، “هل كنتَ قلقاً؟”.

أنا جالس على السرير والوقت ظهر. وبوسعني سماع موظف المشرب يقرع على الأبواب كي يدخل ويأخذ الأطباق الفارغة. فأقول في نفسي وأنا في حالي القلقة أساساً: تغطية عظيمة لأي محقق خاص. “هناك أسئلة كثيرة لم أرد طرحها”. وبما أنني لا أستطيع تقديم وعد بعدم النوم مع باربارا، أدرك أنني لا أستطيع أن أطلب الإخلاص من أنا. فما زلت لا أعرف إذا كانت تقابل رجالاً آخرين أم لا، لكنني نادراً ما أتلقي ردأ على رسائلي الإلكترونية التي أتجرأ على إرسالها إليها في عطل نهاية الأسبوع. والغريب في الأمر هو أنني لاأشعر بالغيرة. فأتخيل دائماً اللحظة التي ستخبرني فيها أنها حصلت على ما تبغىه من تلك التجربة، وأنها ترید استئناف حياتها الطبيعية.

لا يوجد أي شخص إلا أنت، راستي”， - الآن فقط أقول في نفسي - ”ولطالما كنت ألتزم الأمان. آسفة لأنني ارتعبت، ولكنني ألتزم الأمان لأنني لن أجري إجهاضاً أبداً.”

”لم يكن ينبغي علي فعل ذلك.”

”لقد أحببت ذلك”， تقول بهدوء ثم تجلس بجانبي، ”يمكنا القيام بأفعالنا الحميمية بهذه الطريقة. بما أننا نعرف الآن. لقد وضعت لولباً. ”وماذا سيحدث عندما تقابلين شخصاً آخر؟”.

”أخبرتك بأنني ألتزم الطرق الآمنة دائماً. أعني...”.

”ماذا؟”.

”لا يجب أن يكون هناك شخص آخر، إذا أخبرتني بأنك تفكـر في ترك باربارا”.

"آنا، لا يمكننا الاستمرار في هذا الحوار. وإذا كنا نملك ساعتين فقط للبقاء معاً، فلا يمكننا إنفاق نصف هذا الوقت في الجدال". من السهولة معرفة متى تكون آنا غاضبة. فالجزء الأقسى منها - ذلك المتعلق بآليات القانون المتوحشة - يسيطر عليها ويتصلب وجهها. لقد جرحتها الآن. وأشعر بتوتر شديد، فأتمدد على السرير وأضع وسادة على وجهي. وستستعيد آنا حالتها الطبيعية بعد قليل وستلتقي بجاني. ولكنني الآنأشعر أنني وحيد وفي حالة من التأمل حيث أختبر نفسي بطرح السؤال الذي تطرحه هي غالباً علىي. فهل يمكن أن أتزوجها لو أن ظرفاً ما سمح بذلك؟ إنها امرأة تبعث السرور في القلب، وجميلة المنظر، وأستمتع بكل لحظة أمضيها معها. ولكنني تجاوزت الرابعة والثلاثين منذ زمن بعيد.

ولكن، ثمة شيء آخر يتوضّح لي بصورة مفاجئة مثل حل مشكلة رياضية لم أتمكن من حلها سابقاً. وإنني أدرك الآن أنني أرتكبت خطأً. لعلها ليست الخيار الصحيح. فمنذ عشرين عاماً، ظننت أيضاً أنني اخترت الأفضل من بين خياراتي المرأة كلها، وكانت مخطئاً. وكان بوسعي فعل شيء آخر؛ إيجاد شخص آخر. ولم يكن ينبغي علي العودة إلى باربارا مطلقاً. ولم يكن ينبغي علي أن أبيع سعادتي مقابل سعادة نات، لأنه كان الخيار غير الصحيح لثلاثتنا. لقد جعلت نات يكبر في زنزانة من المعاناة الصامتة. وأشعر الآن مثل سفينة حربية حُملت فوق طاقتها، فتقربها ريح خفيفة، وتفرق في بحر من المفترض أن تبحر فيه. ولن ينفع إلقاء اللوم على أحد إلا نفسي.

وعندما أعود إلى مكتبي، أجد رسالة عاجلة من جورج ماسون على مكتبي، بل ثلاثة، في الواقع. الحياة في محكمة الاستئناف تمشي بحركة بطيئة. حتى الطلبات التي سمى عاجلة تحل في يوم أو يومين، وليس في ساعة. وعندما أرفع رأسني، أرى جورج على عتبة الباب. وقد جاء شخصياً على أمل أن أكون قد وصلت.

أقول له: "ماذا؟".

أغلقَ الباب وراءه ثم قال: "أصدرنا الحكم في قضية هارناسون يوم الاثنين".
رأيت ذلك".

"التفيت جريراً بريسين مصادفةًاليوم وأنا في طريقى لتناول الغداء. وكانت قد اتصلت بميل تولى لتنسيق أمر تسليم هارناسون لكنها لم تلقَ جواباً منه. وأخيراً، بعد الاتصال الثالث، اعترف ميل بأنه يظن أن هارناسون هرب. فتحرّت الشرطة عن الأمر هذا الصباح، ووجدت أن هارناسون اختفى منذ أسبوعين".

"هل خرق الكفالة؟ أنتو إيه هرب؟".

ذهب هارناسون إلى إحدى العبارات النهرية المخصصة للعب الميسر، واستخدم بطاقة اعتماد ذات سقف عالٍ لشراء قطع لعب بخمسة وعشرين ألف دولار، ثم صرفها إلى نقود من أجل تمويل رحلته. وإذا كان قد هرب منذ أسبوعين، فمن المحتمل أن يكون خارج البلد الآن. لم تعرف الصحف بعد، لكنها ستعرف بعد وقت قصير. وأردت أن تكون مستعداً عندما يتصل الصحفيون". لا يعرف العامة شيئاً عما يفعله قضاة المحكمة العليا، لكنهم سيفهمون أنني أطلقت سراح مجرم مدان. وسيستخدم كول اسم هارناسون مراراً وتكراراً. فأتساءل في نفسي ما إذا كنت قد منحت الأحمق فرصة كبيرة.

لكن، ليس هذا ما يشلُّ تفكيري عندما يتركني جورج وحيداً خلف مكتبي الضخم. فقد عرفت خلال الأسبوع السابع التي قابلت فيها أنا أن ثمة كارثة تلوح في الأفق، لكنني لم أتبين شكلها. وأنا مذهول لإدراكي أنني ساعدت في انتهاك خطير للقانون. لقد تلاعب بي هارناسون بشكل جيد جداً. والانتخابات هي آخر اهتماماتي الآن. مع مدعٍ عام غير مناسب - ومن المؤكد أن توقي مولتو هو هذا المدعى العام غير المناسب - يمكن أن ينتهي الأمر بي في السجن.

أنا بحاجة إلى محام لأنني مشتت الذهن و مليء بتقريع الذات إلى حد

يجعلني غير قادر على حل هذا الأمر بمنفسي . وهناك خيار واحد فقط ، وهو ساندي شتيرن ، الذي مثّلني منذ واحد وعشرين عاماً . أتصل به ، فترد عليّ مساعدته فوندرا : "أوه ، سيادة القاضي . إنه ليس في المكتب . إنه متوجه قليلاً بسبب الطقس ، لكنني أعرف أنه سيحب أن يتحدث معك . دعني أرى إذا كان بوسعه الرد على المكالمة " .

وبعد عدة دقائق يقول ساندي : "راستي" . صوته ضعيف ومبحوح بصورة تثير القلق . أسأله عن المشكلة ، فيقول : "التهاب شديد في الحنجرة " .

لا أكلّ نفسي عناء قول بعض كلمات المجاملة ، بل أدخل الموضوع مباشرة : "ساندي ، أنا بحاجة إلى المساعدة . وأشعر بالخجل لأنني سأقول إنني ارتكبت شيئاً أحمق " .

أنتظر سيل التوبخ والتقرير . ولشتيرن كل الحق في فعل ذلك ، ولا سيما بعد الفرصة الثانية - الحياة الثانية - التي منحني إياها . بيد أن شتيرن يقول لي بصوت متعجّب : "آه يا راستي ، هذا ما يبيّنني في عملي " .

طلب طبيب شتيرن منه عدم التكلم لمدة أسبوعين ، وبالتالي عدم الذهاب إلى المكتب . وأنا أفضل الانتظار على أن أطلب المشورة من أي شخص آخر . وبعد مرور ثمان وأربعين ساعة ، أستعيد توازني بعض الشيء . فتكشف مسألة هرب هارناسون ، وتتبع الشرطة جميع الآثار الممكنة لكنها لا تصل إلى معرفة أي شيء يخص مكان تواجده . وينتقد كول بشدة أحکامي الخاطئة ، لكن تقريره ينشر في خبر صغير من بضعة أسطر في أسفل صفحة الأخبار المحلية لأن الانتخاب العام كان لا يزال بعيداً . ومما يدعو للسخرية أن كول كان يمكن أن يسجل نقاطاً أكبر بكثير لو بقي في الانتخاب الأولي .

ليست لدى فكرة حول كيفية تطور مشكلة هارناسون ، ولا أعرف إذا كان ساندي سينصحني بالاعتراف بالأمر في المحكمة أو البقاء على

صمتى. ولكننى واثق من شيء واحد، وهو أننى سأتوقف عن مقابلة آنا. وبعد أن تذوقت طعم الانهيار مجدداً، لا يمكننى أن أتحمل أي خطر إضافي.

وبعد ثلاثة أيام، أصل مبكراً إلى صالة استقبال فندق دولسيمر كى ضمن اعتراف طريقها قبل صعودها إلى الغرفة. ومن حضورى المبكر تعرف آنا أن ثمة شيئاً غير مناسب، لكننى أجذبها نحو أحد الأعمدة وأقول لها بصوت هامس: "يجب علينا أن نتوقف، آنا".

نقول بعصبية وانزعاج: "لنصل إلى الغرفة". إذا قلت لا ، فأنا أعرف أنها لن تقدر على ضبط نفسها وستثير الانتباه إلينا.

تنفجر بالبكاء بحرقة حالما نغلق الباب وراءنا ، ثم تجلس على كرسى من دون أن تخلع المعطف الخفيف الواقي من المطر الذى لبسه اليوم بسبب هطول الأمطار.

"حاولت أن أتخيل. وحاولت أن أتخيل هذا مرات كثيرة. ماذا سأشعر عندما ستقول هذا الكلام؟ لكننى لم أصدق. لم أصدق ، ولا أستطيع التصديق الآن؟".

قررت مسبقاً أننى لن أتحدث عن هارناسون. فأنا لم أقل شيئاً عندما وقعت الحادثة، وبغض النظر عن مدى التناقض ، فإن المرأة نفسها التي شجعت عواطفى غير القانونية ستشعر بانزعاج شديد لإساءة تصRF فى كفافى . فبدلاً من ذلك ، أقول ببساطة: "لقد حان الوقت. أنا متأكد من ذلك. لم يزدد الأمر إلا سوءاً".
"راسى".

"أنا على حق يا آنا. وأنت تعرفين ذلك".

ما يثير دهشتي أنها تهز رأسها موافقة ، فهي نفسها وصلت إلى النتائج عينها. وبعد ثمانية أسابيع - أفكر في نفسي - ستكون هذه هي المحطة الأخيرة لاغترابي عن التعقل.

"يجب أن تعانقني مجدداً".

ترتمي بين ذراعى ، ونبقى على هذا الوضع لفترة طويلة أمام

الباب . ويقودنا هذا في نهاية المطاف إلى السرير . نسرع كلانا في الانتهاء ، ربما لعلمنا بأننا نمضي وقتاً مسروقاً .

نرتدي ملابسنا مجدداً ، وعندما نصل إلى الباب ، تتعلق بي ثم تقول : "هل يجب أن نتوقف عن رؤية بعضنا؟" .
"لا ، ولكن لنبعض بعض الوقت" .

تخرج من الغرفة فأستلقى هناك على السرير لفترة طويلة جداً .
أكثر من ساعة .

أتابع حياتي مثل شخص أبتر يشعر بألم مبرح في عضوه المبتور ،
فقلبي يضج بالحنين والشوق ، وعقلي يخبرني ، بحزن ما بعده حزن ،
بأن ما أختبره الآن سينقضى أيضاً . فلن أقدم على فعل ذلك مرة أخرى .
لقد تحققت اللعنة الآن ، لن أفعل ذلك مجدداً .

وبعد أسبوع ، يتحسن الوضع . أفقدها وأحزن على خسارتها ،
لكنني أستعيد بعض السلام الداخلي . فقد كانت أقرب إلى الحلم منها إلى
الحقيقة - شابة جداً ، وكأنها من حقبة مختلفة - بحيث يصعب الشعور
بالحرمان الكلي . وبغض النظر عما سيؤول إليه الأمر مع هارناسون ،
فإن هذا الجزء من الحكاية سيقى غير مُفصح عنه . ولن تعرف باربارا .
ولن يعرف نات . لقد تجنبت الأسوأ .

أسئل باستمرار ، هل أنا هي من أفقدها؟ أم الحب؟

وبعد أسبوعين من لقائنا في دولسيمر تأتي أنا إلى مكتبي . فأميز صوتها من غرفتي ، حيث أعمل ، وأسمعها تقول لسكرتيرتي إنها جاءت إلى المبني من أجل تسجيل قضية فأرادت إلقاء التحية علينا . تتنهج حين ترانني واقفاً عند الباب ثم تدخل بسرعة من دون أن أدعوها؛ إنها موظفة سابقة جاءت لإلقاء التحية وحسب ، شيء يحصل على الدوام .
تضاحك هي وجويس بمرح حول انتعالهما الحذاء نفسه ، إلى أن
أغلق الباب ، فتجلس وتضع رأسها بين يديها .

قلبي يدق بقوة. إنها في غاية الجمال. ترتدي بذلة رمادية جميلة لا أزال أذكر ملمسها كما لو أنني أمسها الآن.

ترفع رأسها، ثم تقول بهدوء: "قابلت شخصاً. في الواقع، إنه يسكن في المبني. لقد رأيته مئات المرات لكنني لم أبدأ التحدث معه إلا منذ عشرة أيام".

"أهو محام؟". صوتي منخفض أيضاً.

"لا"، تهز رأسها بتصميم، كما لو أنها توحى بأنها ليست بهذا الغباء.

يُعمل في التجارة. استثمارات. مطلق. أكبر مني بقليل. يعجبني.

عاشرته ليلة البارحة".

أنجح في عدم إبداء أي رد فعل.

"لقد كرهت ذلك. كرهت نفسي. أقصد أنتي أجرب كل شيء، راستي".

"كلانا بحاجة إلى الوقت".

تهز رأسها فيهتز معه شعرها الجميل. لقد قصّه خلال الأسبوعين المنصرمين وأصبح ملتفاً من الأسفل قليلاً.

"سأنتظرك دائمًا لتقول لي: ارجعني".

"سأكون دائمًا راغبًا في العودة إليك، لكنك لن تسمعي ذلك مني".

تبتسم قليلاً في محاولة لاستجماع نفسها بعد ملاحظتي السخيفه الأخيرة.

ثم تقول: "لماذا أنت مصمم لهذه الدرجة؟".

"لأننا وصلنا إلى الاستنتاج المنطقي. وليس هناك نهاية سعيدة.

وأنا بدأت بالاستسلام للواقع".

"ماذا تعني بذلك؟".

"إنني لا أملك الحق في العيش مرتين. ولا أحد يملك هذا الحق. لقد أخذت خياراتي. وينبغي عليَّ إظهار بعض الامتنان للقوة التي سمحت لي بالتلزلج فوق طبقة رقيقة للغاية من الجليد والعبور إلى صفة الأمان.

وأعني: لقد قلت لك مراراً وتكراراً، باربارا يجب ألا تعرف".

ترمقي بنظره قاسية رأيت مثلها بضع مرات في السابق. إنه تعبير

سيواجهه مئات الشهود التابعين للخصوم في المحكمة خلال العقد القادم.
"هل تحب باربارا؟".

لا أجيّب. فثمة سؤال من الغريب أنها لم تأسّله حتى الآن.

"إنك تهتم لما يقوله الناس، لأنك تخوض الانتخابات، أليس كذلك؟"

فلو خُيِّرت بيني وبين المحكمة العليا، فإنك تختار المحكمة العليا".

أقرّر على الفور بأنّ علىّ أن أجذب، فأقول: "صحيح".

تقول باستهزاء: "هه". ثم ترفع رأسها لتقيمني من دون أن تخلع

ذلك التعبير القاسي عن وجهها. صحيح أنتي كذبت، لكنها لمحت الحقيقة.

ومع ذلك، فقد حققت شيئاً واحداً.

لقد انتهينا.

علاقتي مع ساندي شتيرن قوية وفريدة من نوعها. إنه المحامي الوحيد الذي أعتذر عن النظر في قضيّاه في محكمة الاستئناف. لكننا لسنا صديقين مقرّبين. في الواقع، وبعد محاكّمتى لم أتحدث معه لستين تقريراً، إلى أن طغى الامتنان على المشاعر التي أحسست بها خلال ما جرى في قضيّتي. والآن، يجمع بيننا ود متبدّل، وتناول الغداء معاً بين الحين والآخر. وكان الدور الذي لعبه في حياتي مهمّاً لدرجة أنني لا أستطيع الادعاء بأنه مجرد محام آخر. وكان دفاعه بارعاً، وكل كلمة نطقها في المحكمة كانت بأهمية كلّ نوّة موسيقية لدى موزارت. لذا، أنا مدين له بحياتي.

تبادل الحديث في مكتبه حول أولاده وأحفاده. تطلّقت ابنته الصغرى منذ سنتين ومعها ثلاثة أولاد، ولكنها تزوجت مجدداً. وانتقل ابنه بيتر إلى سان فرانسيسكو مع شريكته، وهي طبيبة مثله. أما ابنته مارتا، التي تعمل معه، فمن الواضح أنها الأكثر سعادة في حياتها. فقد تزوجت منذ اثنى عشر عاماً من مستشار إداري يُدعى سولومون، ولديها منه ثلاثة أولاد.

ويبدو ساندي كما هو، وإن كان أكثر وزناً بقليل، لكن ذلك مخفي

بواسطة بذلة مصممة بعناية. فمن مزايا ظهور الشخص متوسط العمر بمظهر أصغر سناً هو أنه يبدو محسناً ضد الزمن.

"ويبدو أنك تعافيت تماماً من التهاب الحنجرة".

"ليس تماماً، راستي. فقد أجريت تنظير قصبات قبل يوم من اتصالك بي. وسأجري عملية جراحية لسرطان الرئة في وقت لاحق من هذا الأسبوع".

السيجار اللعين موجود دائماً معه. وعندما يغرق عميقاً في أفكاره، تجد الدخان يتدفق من منخريه كما لو كانا منخرتي تنين. "يا الله!".

"أخبروني بأنه لأمر جيد أنهم يستطيعون إجراء العملية. وثمة سيناريوهات أكثر سوءاً مع هذا النوع من السرطان. فسيتأصلون فصاً، ومن ثم سينتظرون ويراقبون".

أسأله عن زوجته هيلين، التي تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى، فيقول إنها شجاعة ولطيفة، كعادتها، وإنها دائماً موجودة عندما يحتاج إليها.

ثم أخبره قصتي، متطرقاً إلى الأشياء التي يحتاج إلى معرفتها فقط: كنت أواعد امرأة، وتبعني هارناسون، والتقارني على حين غرة ثم تركني مصدوماً وخائفاً يلتهمني الشعور بالذنب. فتثير القصة تعبيراً لا تبيناً معتقداً على وجه ساندي حيث تحتشد جميع ملامحه لفترة وجيزة، بينما يحاول إدراك الجوانب المراوغة في الحياة.

والأسبوعان اللذان انتظرت خلالهما رؤية ساندي لم يفعلا الكثير لتوضيح نفكيري بخصوص معضلتي مع هارناسون. وأريد نصيحة شتيرن فيما يتعلق بما يتطلبه مني القانون والأخلاق كي أفعله. فهل يجب أن أقول الحقيقة لزمائي القضاة أو للشرطة؟ وماذا سيحدث لي في النتيجة؟ وبينما هو يستمع، يمد شتيرن يده بصورة لا إرادية ليتناول سيجاراً ثم يتوقف فجأة. وبدلأ من ذلك، يبدأ بفرك صدغيه مستغرقاً فترة لا يأس بها من الوقت.

"قضية كهذه يا راستي، رجل كهذا...."، لا يكمل شتيرن جملته، لكن طريقة في الكلام توحى بأنه أدرك تماماً غرابة هارناسون. "الذى مؤل رحلته بذكاء بالغ، وأظن أنه أعد خططاً مشابهة من حيث الدقة من أجل إخفاء نفسه. وأشك بأن أحداً سيراه مجدداً. وإذا ما جرى اعتقاله، فسيكون الأمر إشكالياً. قد يأمل المرء أن يحفظ سرك بداعف العرفان بالجميل، ولكن سيكون من الغباء توقيع ذلك. كمسألة جزائية، على أي حال، تبدو لي قضية صعبة جداً. فال مجرم أدين مرتين، وقد أرسلته أنت في المرة الأولى إلى السجن. ولا يوجد الكثير من الشهود. وهذا يفترض أن مولتو يمكن أن يتخيّل وجود جريمة ما. ولكن، إذا كان هارناسون هو الشاهد الوحيد للولاية - ومن الصعب توقيع وجود شاهد آخر - فستكون قضية سهلة. أما كمسألة انصباطية بالنسبة إلى لجنة المحاكم، فهذا أمر آخر. وبعكس الاستجواب الجرمي، سيكون مطلوباً تقديم شهادتك في النهاية، وبغض النظر عن مدى ارتباك حين التقيّت هارناسون، فكلانا نعرف أن تصرفك يتعارض مع عدة قواعد خاصة بسلوك القضاة. ولكن، طالما أن المحاكمات الجزائية ليست قصيرة الأمد - وبالتأكيد هي ليست كذلك مع جلوس تومي مولتو على كرسي الداعي العام - فعليك ألا تقول شيئاً لزملاكك. وأنا نادرأ ما أحافظ بسجل لمحادثاتي مع زبائني. ولكن، في هذه الحالة سأكتب مذكرة وأضعها في الملف؛ في حال أردت أن تقدم دليلاً مادياً على تلقيك هذه النصيحة مني". بالطبع، إنه يشير إلى احتمال أن يكون ميتاً عندما يبرز أمر طارئ يتطلب مني تفسير سبب صمتي.

وفي أثناء نزولي في المصعد، أحارو استيعاب تقييم شتيرن المشابه لتقييمي إلى حد كبير. ومن خلال الواقع، من المرجح أنني سأنجح في الإفلات من كل هذه الورطة. فهارناسون رحل إلى الأبد. وباربارا ونات لن يعرفا بخصوص علاقتي مع أنا. وأنا سأرتفق إلى المحكمة العليا وسأنسى مع الوقت مرحلة قصيرة من الحماقة غير المعقولة. وسأحصل على ما أريده، وإن بغير استحقاق كلي. وبما أنني جازفت بكل شيء،

فلعلي سأستمتع بحياتي أكثر مما كنت سأفعل من دون مجازفة.
أخرج من حصار الأبواب الدوارة إلى نهار مشرق ، مع بدء
أول حرارة الصيف. فالشارع مليء بالمتبضعين والمتوجهين لتناول
طعام الغداء. وهناك عمال طرق يصلحون التقوب التي أحدثتها الشتاء ،
ورائحة القطران الساخن تملأ الهواء. والأشجار في الحديقة بجانب
الشارع تكتسي خضراء جديدة مع اكتمال أوراقها. لقد أصبح طرفي
واضحاً. وبذلك فلن يكون هناك اختباء من الحقيقة.

أنا أحب أنا. فماذا بوسعني أن أفعل؟

الفصل العاشر

تومي، 23 تشرين الأول، 2008

لم يكن تومي يحب السجن. الذي كان مؤلفاً من ثلاثة طوابق، ومع ذلك فقد كان قاتماً مثل زنزانة؛ حتى في وضح النهار، لأن السلطات بنت في العام 1906 نوافذ لا يزيد عرضها عن خمسة عشر سنتيمتراً من أجل منع حالات الفرار. وهناك أيضاً شيء مثير للإزعاج بخصوص الصوت، فالضجيج مزعج لثلاثة آلاف شخص مسجون. وأما الرائحة فتلك مسألة أخرى. فمهما كانت عملية التعقيم والتخلص من القمامات صارمة، فإن وجود عدد كبير جداً من الرجال في مكان ضيق، مع وجود مرحاض من الفولاذ غير القابل للصدأ لكل اثنين منهم، فهذا يملأ المبني برائحة نتنة للغاية. وعلى أي حال، إنه ليس فندق فور سيزن، ولم يُبنَ ليكون كذلك. ولكنك قد تظن أن تومي مولتو اعتاد دخول السجن بعد ثلاثين سنة من زيارته من أجل التحدث مع الشهود، أو محاولة إقناع المتهمين، لكن معدته كانت تقف ضده كلما دخل إليه.

"لماذا سنتحدث مع هذا الرجل الآن؟". سأل تومي براند بينما كانا ينتظران في غرفة البوابة، وكانت الساعة آنذاك تشير إلى التاسعة مساء. وعندما اتصل براند، كان تومي في المنزل. ولم يكن قد مضى على نوم ابنه توماسو إلا فترة قصيرة، في حين كانت دولفينغا تنظف الصحنون في المطبخ. وكان المنزل لا يزال يعبق برائحة التوابل والحفاظات. تلك هي الساعات الثمينة في يوم تومي، حين كان يشعر بإيقاع عائلته؛ أي بالنظام العذب بعد عودته من الفوضى النسبية لحياته في الخارج.

ولكن براند لم يكن ليطلب من الرئيس الخروج ما لم يكن هناك شيء لا يمكن تأجيله، فارتدى بذلك من جديد. إنه المذيع العام، وحيثما كان يذهب كان مضطراً لأن يظهر بهذا المظهر. وقد تبين أن أمر السجن والضابط المسؤول كانا قد وصلا للتو إلى السجن عائدين من منزلهما بعد سماعهما بمجيئه، وذلك كي يصافحاه ويتبادلا بعض الأحاديث التافهة معه. وقد ذهبا منذ دقيقة فقط، تاركين لتومي فرصة سماع شرح موجز من مساعدته الأول.

أجاب براند: "لأن ميل تولي قال إن الأمر يستحق المجرء. حقاً، حقاً إنه يستحق هذه الرحلة. إنه يملك شيئاً يجب أن يسمعه المذيع العام شخصياً. والساعة التاسعة مساء، مع عدم وجود صحفي على بعد ميل من هنا، إنه الوقت الأمثل".

"جيسي، لدى زوجة و طفل".

قال براند ممازحاً: "وأنا لدى زوجة وثلاثة أطفال". وكان براند يثق في تولي أكثر من معظم الأشخاص الآخرين لأنه كان يتشارك بالمكتب مع شقيقه الأكبر.

قال تومي: "إذا، قل لي. هذا الشخص، هذا السجين، ماذا كان اسمه؟ هارناسون؟". منذ ثمانية عشر شهراً، توسلت جرين بريسون، رئيسة قسم الاستئناف في المكتب، لتومي كي تناقش القضية. هذا كل ما يذكره بالطبع، إضافة إلى أنها فازت على الرغم من معارضة سابيتش. ولكن التفاصيل الأخرى اختفت من ذاكرته بمرور الزمن.

"صحيح. إنه فارِّ منذ سنة ونصف".

قال تومي: "أذكر. لقد أطلق سابيتش سراحه بكفالة". وفي الشهر الماضي، نشر ن. ج. كول إعلانات يتحدى فيها راستي، مسلطا الضوء بصورة مبالغ بها على حقيقة أن المذعين العامين عارضوا إطلاق سراح هارناسون بكفالة. وعندما ماتت باربارا، اضطر كول إلى سحب الإعلانات من البث، ما أراح مولتو، لأنه لم يكن يحب إفحام مكتبه في معركة انتخابية، وخصوصاً هذه المعركة.

قال براند: "قبضوا على هارناسون البارحة في كولفيل، وهي بلدة تبعد ثلاثة ميل جنوباً، على الجانب الآخر من حدود الولاية، وعدد سكانها عشرون ألفاً. وكانت مقر هارناسون الجديد. فلَعْ لوحة محامٍ، ممارساً المهنة تحت اسم ثورسن سكوجلاند".

"سالف"، قال تومي، مستذكرة ثورسن الذي رحل عن الدنيا منذ وقت طويلاً؛ كان شخصاً محترماً.

"إذاً، كان يمارس المحاماة. وإضافة إلى ذلك، اسمع هذا: كان يعمل كمهرج في حفلات الأطفال. وكان يجيء من عمله كمهرج أكثر مما يجيئه كمحام - وهذا يخبرك بشيء ما - وكانت الأمور تسير على خير ما يرام إلى أن أوقعته مشكلة الشرب في الشرك حيث قُبض عليه تحت تأثير الشراب. فأدت مقارنة البصمات من الإيف بي آي بعد ساعتين من إطلاق سراحه. وكان هارناسون يظن أنه لا يزال يعيش في الأيام الغابرة حين كان الأمر يستغرق أسبوعاً، إذ كان في البيت يوسبت أمتعته عندما جاءه الشريف برفقة فرقة خاصة من الشرطة".

وبما أن ميل تولي قد تنازل عن مهمة التسليم، فقد أعاده الشريف كولفيل بنفسه إلى منطقة المدن الثلاث. لم يكن الكثير من المجرمين الفارين يعتقدون في كولفيل، ما يعني بأن الشريف سيتحدث عن هارناسون طوال حياته الباقية. وبالرغم من أن هارناسون لم يكن قد ذهب إلى المحكمة بعد، ولم تكن الصحافة تعرف أنه محتجز، ولكن كان من المؤكد أن القصة ستنتشر. وعلى أي حال، هذا سيكون خبراً جيداً لراستي. لأنه عندما ستبدأ إعلانات كول بالظهور مجدداً، فإنه لن يكون قادرًا على التلويع بمسألة المجنون الذي أطلقه سابينش.

أدخل تومي وبراند عبر مجموعتين من القضايا الحديدية ثم رافقهما ضابط يدعى سوليفان إلى غرف المقابلات. طرق سوليفان على باب أبيض فخرج ميل تولي إلى الممر الضيق. وكان ميل، المتألق عادةً، يرتدي ثياباً عادية. ومن الواضح أنه كان يعمل في حديقته عندما وصل هارناسون إلى البلدة في الخامسة عصراً، إذ كانت هناك بقايا طين تحت

أظافره وعلى سروال الجينز. فأدرك تومي على الفور أن تولي نسي شعره المستعار بسبب عجلته. ومع أنه كان يبدو أفضل في الواقع ، إلا أن تومي قرر عدم الإفصاح عن هذا الرأي.

استهلَ تولي كلامه بالتراءِ والتملق المعتادُين للمدعي العام العظيم لاضطراره للخروج ليلاً.

قال تومي: "وأنا أحبك أيضاً يا ميل. فما هي الأخبار الجديدة؟".
"حسناً" ، قال ميل بصوت منخفض جداً. في السجن لا تعرف أبداً من يلعب لصالح من. وبعض الضباط كانوا يعملون لصالح العصابات وبعضهم لصالح صحفي ما. ولهذا السبب اقترب ميل من تومي كما لو أنه يريد الحصول على قبلة. "إذا كنت ستسأل هارناسون عن سبب اتخاذه قرار الهرب ، فسيخبرك بأنه عرف مسبقاً بشأن قرار محكمة الاستئناف".

كيف؟".

"هذا هو الجزء الجيد. فرئيس القضاة هو الذي أخبره".
أحس تومي وكأن شخصاً ضربه بلوح خشبي على رأسه. ولم يكن بوسعه التصديق ، لأن راستي كان قاضياً متشددًا جداً.

قال تومي: "سابيتش؟".

أجل".

لماذا؟".

"إنه حوار غريب للغاية. وستود سمعاه بنفسك. وهناك بعض الفائدة أيضاً. أعني أنك ستبعده عن المحكمة العليا بأقل جهد ممكن. وبأقل جهد ممكن. حتى إنك تستطيع أن تجعله مساعداً ومحرضاً على خرق الكفالة وانتهاك قواعد محكمته بالذات".

وكان ميل مثل الآخرين يعتقد أن تومي سيفعل أي شيء من أجل الإيقاع براستي مجدداً. ولكن ، بدلاً من ذلك ، ضحك تومي بصوت عالٍ ثم قال: "هل سأفعل ذلك بوجود هارناسون كشاهد وحيد؟ معركة فردية بين مجرم مدان ورئيس قضاة محكمة الاستئناف! وأنا المدعي العام!".

والأسوأ من ذلك، فإن الطريقة التي ستنطابق بها هذه الحكاية مع إعلانات كول ستجعل الجميع يسخرون من تومي ويعتبرونه عميلاً غبياً لکول.

قال تولي بهدوء: "هناك شاهد آخر. لقد أخبر شخصاً ما بخصوص المحادثة في حينه".

"من هو؟".

رسم تولي ابتسامته المائلة المعتادة. ولم يكن ميل قادراً على رفع الجهة اليمنى من وجهه.

"أنا مضطر للاحتفاظ بسرية موکلي في الوقت الحالي".

لدي فريق أحلام هنا - حدث تومي نفسه - مجرم قذر ومحام قذر. فلربما تصرّف ميل بقداره منذ البداية وساعد هارناسون على الهرب. ولكن ميل هو ميل. ولا بد أنه تأكد من أن هارناسون نسي هذا الجزء من القصة، وسيتولى هو مسألة التنظيف في المحكمة. وكان يعرف كيف يخدع لجان المحلفين. فإنه يفعل ذلك لما يقرب منأربعين عاماً.

قال تومي: " علينا أن نسمع هذا من رجلك. فليست هناك صفة مسبقة. وإذا أعجبنا ما سيقوله، فيمكننا التحدث. سمه عرضاً، أو سمه ما شئت، كي لا نستخدمه ضده".

بعد انفراده مع موکله لدقیقة واحدة، لوح ميل لبراند وتومي كي يدخلان الغرفة التي كانت بطول ثلاثة أمتار وعرض مترين ونصف تقريباً، ومطلية بالأبيض بالرغم من وجود خطوط سوداء غير منتظمة على الجدران. أما بالنسبة إلى السجين هارناسون فهو لم يكن يبدو على ما يرام. لقد حلق شاربه، وترك الشيب يتسلل إلى شعره بعد هربه، وزاد وزنه. وكان جالساً ببذلة المساجين البرتقالية، يداه وساقاه مقيدة، وكلا القيدتين متصلان بحلقة فولاذية مثبتة في الأرضية. وكان الأثر الشاحب الباقي من الساعة التي أخذوها منه عند اعتقاله لا يزال مرئياً وسط شعر ذراعه الأحمر الكثيف. وكان ينفت حوله بقلق كل بضع ثوانٍ. وعلى الرغم من أنه لم يمض على وجوده في سجن المقاطعة سوى عدة ساعات، إلا أنه أصبح حذراً من أي شيء يمكن أن يأتيه من الخلف.

ينبغي على السلطات أن تزج سجناء القاعدة في سجن مقاطعة كايندل الليلة واحدة فقط، وستعرف مكان تواجد أسامة بن لادن في الصباح. قرر تومي أن يستجوب هارناسون بنفسه، وبدأ بسؤاله عن الوقت الذي قرر فيه التخطيط للفرار.

"لم يكن باستطاعتي مواجهة العودة حالما عرفت أنني سأخسر الاستئناف. قبل ذلك، كنت أعتقد حقاً أننا سنفوز. هذا ما كان ميل يعتقده أيضاً".

لم يجرؤ ميل على رفع عينه لتلقي عيني تومي. فقد كان الفوز بقضايا الاستئناف نادراً بالنسبة إلى محامي الدفاع. وكان ميل يعذّب موكله لدفع عشرة آلاف دولار أخرى من أجل تقديم التماس للمحكمة العليا.

"وكيف علمت أنك ستعود؟".

"اعتقدت أن ميل أخبرك".

"حسناً، أخبرنا أنت".

أخذ هارناسون بعض الوقت للنظر في يديه المطويتين السمينتين. ثم قال: "كما تعلم، أعرف الرجل منذ وقت طويل، ساببيتش. أقصد مهنياً".
لوح بيده بينه وبين تومي، فرفع الأخير كتفيه وأنزلهما. "وبعد أن منعني الخروج بكفالة، بدأت أتساءل بشأنه. فكرت بأنه ربما كان يشعر بالسوء لزجي في السجن في أول مرة. وينبغي عليه أن يشعر بذلك، يعلم الله".
لم يكن تومي وبراند يعرفان هذا الجزء، وراح هارناسون يشرح أول لقاءاته مع راستي. فكان تومي لا يزال يذكر الاعتقالات الغريبة التي كان ينظمها ريموند هورغان قبل الانتخابات مباشرة؛ في الحدائق العامة وفي غرف الرجال في مكتبة مركز المدينة وفي مشارب متنوعة، حيث كان يجمع المعتقلين في حافلات مدارس أمام عدسات الكاميرات. ولكن الزمن يتغير، قال تومي في نفسه. كان لا يزال غير متأكد من شعوره حيال زواج الشواذ أو تربيتهم للأطفال، لكن الله لم يضع مجموعة كاملة من البشر على الأرض، لو لم يكونوا جزءاً من نظامه. وعلى كل حال، كان تومي يعرف أنه كان سيتعامل مع قضية هارناسون بالطريقة نفسها

التي تعامل فيها راستي.

قرر هارناسون أن يزور راستي بعد المداولات الشفهية ليشكّره وبهئته بذكرى مولده. فتساءل تومي في داخله عن الدور الذي لعبته زيارة هارناسون في رأي راستي المعارض في القضية.

"طلب مني ميل عدم فعل ذلك. وأآخر شيء أرددته هو إبعاد راستي عن القضية. ولكن، كان هناك شيء غريب عندما رأيته".

قال تومي: "ماذا تعني؟".

"رابط ما، شيء من هذا القبيل"، استغرق هارناسون بعض الوقت بحثاً عن الكلمات المناسبة، "جربت بازلاء في قرن بازلاء".

فهم تومي شيئاً. محاميان. فاسقان. مجرمان. لقد بدأ يحب هارناسون.

كان براند يجلس بجانب تومي ويدوّن ملاحظاته على كراسة أوراق بين الحين والآخر، ولكنه في معظم الوقت كان يراقب هارناسون عن كثب محاولاً استنتاج شيء ما. وكان هارناسون يتحدث وهو مطأطئ الرأس في أغلب الوقت، وكأن ذكرى هذه القصة كانت تزن عشرة كيلوغرامات. فهم تومي المشكلة: كان هارناسون يقدر ما فعله راستي، ولهذا فهو يشعر بالاستياء لأنه يتكلم عنه.

"عدم المعرفة، وانتظار صدور القرار. فأحياناً لا تستطيع التحمل أكثر. لذا، تصورت، حسناً، لقد تحدثت معي مرة، لعله سيخبرني على الأقل بما سيحدث. وهكذا تبعته مرتين. وانتظرت خروجه لتناول الغداء وتبعته".

في المرة الأولى، ذهب راستي إلى فندق أثينيوم. ومن الواضح أن راستي كان يغير مكان لقاءاته السرية، وربما لأنه التقى كانوا كثيراً في فندق جريشام حيث كان يقابل فتاته الشابة الجميلة. ولكن هارناسون لم يكن يعرف شيئاً بخصوص كانوا أو اختبار الأمراض المنقولية جنسياً.

وهذا يعني بأن قصته كانت صحيحة حتى الآن.

"هل كان مع سابيتش أي شخص؟".

"أفترض ذلك". ابتسم هارناسون. "لكنني لم أرها. راقبته يتوجه مباشرة إلى المصعد. لقد غاب لفترة طويلة جداً. وقد بدأت السماء تمطر. لذا غادرت المكان وتبعته في الأسبوع التالي. وتكرر الشيء نفسه، ولكن في فندق مختلف. اتجه إلى المصعد مباشرة ثم أخفى". نسي هارناسون اسم الفندق، ولكن كان واضحًا أنه فندق ريناسنس من الموقع الذي وصفه هارناسون. "فانتظرت في الخارج ثلاثة ساعات تتربياً، وبعد ذلك خرج. فكان يمشي بسرعة. وحالما رأيت ذلك، عرفت أنه كان مع امرأة".

"هل كان معه أحد هذه المرة؟".

"لا. لكن النظرة التي ارتسمت على وجهه حين رأني... كما تعلم، عينان جاحظتان؛ نظرة شخص يقول في نفسه: اللعنة. وربما لهذا السبب تكلم معي. فحاول أن يتخلص مني، لكنني طلبت منه، على سبيل الشفقة فقط، أن يخبرني: هل سأرجع إلى السجن أو لا؟ فقال لي: استعد لخبر سيء. فأمنت في نهاية الطريق. فبكية مثل فتاة صغيرة".

قال تومي: "وكل هذا بينما كنتما واقفين هناك في الشارع؟ أنت ورئيس القضاة يخبرك بأن قضيتك ستثبت؟". القصة بأكملها كانت جنونية. والوقت وقت الغداء في شارع ماركت. ولا بد أن مائة شخص شاهدوهما معاً، وراستي يتحدث مع متهم في قضية يحكم فيها. أي محامي دفاع - وساندي شتيرن هو الذي سيلتقط به راستي حتماً، إذا لم يكن قد مات - سيقضي على هارناسون تماماً. ولكن التقى العادي منطقى أيضاً، بمعنى أنه إذا كان هارناسون يختلف القصة، فإنه لم يكن ليخرج بكل هذه التغرات والعليوب. وغالباً ما يأتي المتهمون بقصص كهذه، أغرب من أن تُصدق". "وهل أخبرت ميل عن ذلك؟".

نظر هارناسون إلى ميل، فأشار برأسه دلاله على الإيجاب. ثم قال: إنه اتصل به في ذلك اليوم.

كان تولي على حق، فهم سيغرقون سفينة راستي بهذه المعلومات. وأهم ما في الأمر أنها لن تكون قضية تومي. ووفقاً لطريقة سرد القصة

من قبل هارناسون ، لم يرتكب راستي أي جريمة ، لكن تومي سيكتفي بنقل المعلومات إلى لجنة المحاكم ، وهذه اللجنة ستقوم بزيارة إلى راستي الذي سيقدم استقالته بهدوء على الأرجح ، ويأخذ راتبه التقاعدي بدلاً من الخضوع لجلسة استماع علنية ، وتخرج بذلك قصة علاقته السرية إلى العلن .

التفت تومي إلى براند ليり إذا كان لديه شيء آخر . فسأل براند هارناسون ما إذا كان قد تحدث مع رئيس القضاة أكثر من ذلك .

قال هارناسون مبتسمًا: "هذا هو الجزء المهم بالنسبة إليّ . وكان هناك بعض الأخذ والرد . "حسناً ، دعنا نسمعه ."

"كما تعلم ، كنت أبكي ، فقال لي راستي ، بصورة أساسية: دعك من هذا ، لقد قلت الرجل ، أليس كذلك؟ . سأله براند: "هل قتلته فعلًا؟ ."

فاطعه ميل - لم يكن يريد من هارناسون أن يعترف - لكن تومي قال إنه لن يقبل بأي رفض . وسأله براند مجددًا عما إذا كان قد قتل ريكى فعلًا .

"أجل" ، هز رأسه قليلاً ، "أجل قتلته ، وهذا ما قلته لسابتش . ولكنني قلت له: إنك أفلت بجريمتك . فنظر إليّ وقال: الفرق بيني وبينك هو أنتي لم أفعل ذلك ."

قال تومي مقاطعاً: "هذا ما قاله راستي لك؟ كنت تتحدث عن عشرين سنة مضت؟ ."

"بالتأكيد . قال إنه لم يفعلها . وكان ينظر في عيني أيضاً . "هل صدقته؟ ."

فكر هارناسون قليلاً قبل أن يجيب: "أجل ، أعتقد ذلك ."

هذا الأخذ والرد دوخ تومي لوهلة . فقد كان هارناسون ذكياً بما يكفي ليعرف ما كان تومي يريد سماعه ، ومع ذلك لم يقله . وكان الرجل مجرماً مبدئياً . ولم يكن هنالك أدنى شك في أنه كان يقول الحقيقة .

قال براند: "هل هناك أى شيء آخر؟".

حاول هارناسون أن يحك أذنه، فأدرك أن الأصداف لن تسمح له بالوصول إلى هذا الحد. "سألته عن الشخص الذي كان معه في الفندق، من يكون؟".

"هل أجاب على هذا السؤال؟".

"استدار وذهب . وكانت هذه هي نهاية الحوار".

قال براند: "لم ينكر، استدار وذهب فقط؟".

"صحيح".

"هل هناك شيء آخر؟ أي شيء آخر حدث بينك وبين رئيس القضاة؟".

"هذا معظمها".

نظر هارناسون إلى الأعلى محاولاً التذكر، ثم قال: "هناك شيء واحد فقط، غريب بعض الشيء. فعندما أخبرته أنني قلت ريكى، قال لي: كيف يشعر المرء عندما يسم شخصاً؟".

أحس تومي من الطريقة التي انقضت بها تولي أنه لم يسمع هذا
الجزء من قبل.

قال براند: "أسالك كيف يشعر المرء عندما يسم شخساً؟".

"صحيح. كيف شعرت أنا يوماً بعد يوم؟".

قال براند: "ولماذا أراد أن يعرف ذلك؟".

أظن أنه كان يشعر بالفضول. وكان الحديث قد جرنا وابتعدنا
كثيراً عن التحفظ. وعندي قلت له: أنت تعرف كيف يشعر المرء حين
يقتل شخصاً، فأجابني بأنه لم يقتل تلك المرأة".

كرر براند هذه النقطة بضع مرات أخرى مع هارناسون، محاولاً سماح الحوار بالتدفق كما حدث في الواقع. ثم غادر المدعى عمان بعد أن أخبر أتولى أنهما سيقيمان الأمر ثم يتصلان به. حرصاً على

عدم قول أي شيء لبعضهما إلى أن أصبحا على أن بعد عشرات الأمتار من السجن.

قال براند: "حسناً، أنت تعرف بماذا أفكر".
"أعرف بماذا تفكّر".

"أفكر في أن هذا هو السبب وراء تقديم راستي المعلومة المتعلقة بالاستئناف؛ ولأنه كان مرتبطاً بعلاقة سرية ويفكر مسبقاً في قتل زوجته. ولأن المرشح للمحكمة العليا لا يريد طلاقاً يشوّه صورته وسط الحملة الانتخابية، وخاصة إذا كانت فتاته الجديدة غير مناسبة. فهو يريد القيام ببعض البحث الميداني لمعرفة ما إذا كان قادرًا فعلياً على ارتكاب الفعل".
هذا تومي رأسه بهدوء ثم قال: "ستكون نظرية أفضل يا جيمي لو كنا نملك دليلاً على أن باربارا ماتت بجرعة زائدة من نوع ما، وليس نتيجة فشل قلبي".

"لعلنا لم نجد هذا الدليل بعد".

رمقه تومي بنظرة موبخة. ذلك هو الخطأ الأكبر الذي يمكن أن يرتكبه أي مدّع عام؛ أن يأمل بدليل غير موجود. كان الجو بارداً، ونسى أن يجلب معه معطفاً، لكنه لم يكن منزعجاً من البرد وحسب، بل كان لا يزال مصدوماً مما قاله هارناسون حول راستي حين أخبره الأخير بأنه لم يقتل كارولين. ومن الواضح أن تومي كان يملك نظريته الخاصة، وهي أنه إما أن يكون راستي قاتلاً أو لا يكون، وإما أن يكون قد قتل كلتا المرأةين أو أنه لم يقتل أياً منها.

قال تومي: "الجزء المتعلق بالجريمة الأولى لا يزال يحيّرني".
"سابيتش كان يكذب. ولمجرد أنه أساء للرجل ذات مرة فلا يعني هذا أنه يمكن أن يسلّم نفسه لقاتل. إضافة إلى ذلك، فهناك طريقة للتعامل مع هذا الأمر والوصول إلى اليقين".

قال تومي: "ليس بعد. ذكرني مرة أخرى. كيف كاد هذا الشاذ أن يفلت بفعلته؟".

"أي شاذ سيدي الرئيس؟".

"هارناسون . لقد سُمّ صديقه بالزرنيخ ، أليس كذلك؟".
"أجل . لكنه ليس سماً شائعاً في هذه الأيام . ومن الصعب الحصول
عليه ، ولا يظهر في الفحص الروتيني عن المواد السمية".
توقف تومي عن المشي فسبقه براند بخطوة واحدة فقط قبل أن
يتوقف بدوره .

قال براند: "أنت تفكّر في ...؟".

"كان سا بيتش واحداً من القضاة في القضية ، أليس كذلك؟ وإنه
يعرف كل هذه التفاصيل المتعلقة بما يظهر ولا يظهر في اختبار المواد
السمية؟".
"حتماً".

صمت تومي قاتب براند كلامه بحماسة: "أتريد أن نطلب فحصاً
طيفياً شاملأً لدم باربارا؟".

"تحدث مع أخصائي السموم".

"فحص طيفي شامل . يجب علينا فعل ذلك . سلوك غريب بعد
الوفاة ، وعلاقة حميمية سرية ، وأسئلة تتعلق بتسميم شخص . إننا نقوم
بعملنا فقط ، سيدى الرئيس . ويجب علينا فعل ذلك".

تحدثا حول كيفية إجراء فحص طيفي شامل من دون أي جلبة
ثم افترقا . صعد تومي إلى الطابق الثالث من مبني المرأب متوجهاً إلى
سيارته . فالمرأب في تلك الساعة كان خطاً أكثر من الشوارع . لقد
سرق أحد القضاة في هذا المكان قبل عدة سنوات ، ومع ذلك لم يكن
هناك أي مظهر من مظاهر الأمن . وقد أثار هذا الجو شيئاً في داخله ،
فكرة جعلته يشعر للمرة الأولى بالإثارة إضافة إلى الخطر .
ماذا لو - فكر تومي - ماذا لو أن راستي فعلها حقاً؟

القسم الثاني

الفصل الحادي عشر

راستي، 2 أيلول، 2008

يرن الخط الداخلي في مكتبي، وعندما أسمع صوتها - الكلمة الأولى فقط - يضج الحنين في صدري. لقد مضت سنة أشهر على آخر مرة رأيتها فيها؛ عندما جاءت لتناول طعام الغداء مع مساعدتي، منذ أكثر من سنة على قطع علاقتنا.

"أوه، لم أتوقع وجودك حقاً. ظننت أنك ستقون في الخارج من أجل شؤون الحملة الانتخابية".

أسألها: "هل خاب ظنك؟". تضحك آنا من أعماقها.
"أنا بحاجة إلى روينتك. اليوم، إذا كان ذلك ممكناً".

"أهو شيء هام؟".

"بالنسبة إليّ نعم".

"هل أنت بخير؟".

"أظن ذلك".

"تبدين غامضة قليلاً".

"يفضل أن أراك شخصياً".

"أين تريدين أن أراك؟".

"لا أعرف. مكان هادئ. المشرب في دولسيمر. سيتي فيو، أو
مهما كان الاسم الذي يطلقونه عليه".

في الحقيقة، لم تنته آنا بالنسبة إلى قط. ففي تموز منذ سنة، وبعد
فترة قصيرة من زيارتي لساندي شتيرن، أصبحت مقتنعاً لعدة أيام بأنني

سأترك أي شيء وأتوسل لأنك ترجع إلي. زرت دانا مان، وهو صديق قديم وملك قضايا طلاق الأثرياء في المدينة. ولم أكن أنوي إخباره عن أنا، بل قلت له فقط إنني كنت أفكر في إنهاء زواجي، وإن لدى عدة أسئلة تتعلق بكيفية القيام بذلك بطريقة هادئة، مفترضاً موافقة باربارا. وبعد خمسة أسئلة تقريباً، كون دانا صورة موجزة عن القصة بأكملها.

قال دانا: "لا أظن أنك جئت إلى هنا من أجل نصيحة سياسية. ولكن، إذا أردت نصيحة تبقيك بعيداً عن الصفحات الأولى خلال الحملة، فمن الأفضل لك ألا تفعل شيئاً".

"كنتأشعر بالتعاسة منذ وقت طويل. وقبل أن أرتبط بهذه المرأة، لم أكن أدرك مدى البؤس الذي كنت أعيشه. ولكن، لست متأكداً الآن مما إذا كان بوسعي عدم القيام بشيء. كنت أفضل حالاً من قبل، من أجل هذا السبب بالذات".

"والميزة الأساسية للشخص اليائس هي أنه لا يدرك أنه يائس".
"ومن قال هذا؟".

"كيرغارد"، ضحك دانا من نظرتي المستغربة، فأنا أعرف دانا منذ أيام دراستي في كلية الحقوق، وهو لم يكن يقتبس أقوالاً عن الفلاسفة حينئذ. "لقد حلت محل أستاذ في الجامعة العام الماضي وهو علمني ذلك. كان وضعه مشابهاً لوضعك".
"ماذا فعل؟".

"رحل. والفتاة كانت طالبة تخرج".
"ما مدى سوء العاقبة؟".

"لقد انتقدته الجامعة بشدة بسبب فعلته. فأخذ أوراق نقلها. واضطر لأن يأخذ إجازة عام كامل من دون أجر".
"هل هو سعيد الآن؟".

"حتى الآن، أظن ذلك. لقد أنجبا طفلاً منذ فترة قصيرة".
"أفي مثل عمرنا؟!". كنت غير مصدق. لم يكن بإمكاني قط خداع

الطبيعة بهذه الطريقة. وكانت قصة دانا كافية لإثبات أن هذا الأمر مستحيل. ولم يكن بوسعي تحمل فكرة ما يمكن أن يفعله الطلاق بباربارا. فأخبرت دانا قبل مغادرتي أنتي لا أتوقع العودة مرة أخرى.

ومع ذلك، لم أجرب على محو رسائل أنا الإلكترونية من حاسوبى في المنزل. فمعظمها كانت مؤلفة من سطر واحد يتعلق بالمكان الذي سلتقي فيه في المرة التالية. وبدلاً من ذلك، جمعتها كلها في ملف واحد، تحت عنوان شؤون خاصة بالمحكمة. و كنت أفتحه مرة في الشهر تقريباً كما لو كنت أفتح صندوق كنز. فأنا لا أقرأ الرسائل لأن هذا سيكون مؤلماً، كما أن محتوياتها لا تعنى الكثير، لكنني ببساطة أتمعن في اسمها أسفل الصفحة، والتاريخ، والعناوين؛ وهي "اليوم" أو "غداً" في الغالب. وأهيم مع ذكرياتي لبعض الوقت آملاً بحياة أفضل.

والآن، وبعد اتصال أنا، أفك في نبرة صوتها المستعجلة. قد يكون أي شيء، ربما مشكلة مهنية. وماذا سأفعل إذا جاءت لتقول لي إنها لا تستطيع الاستمرار من دون أن نعيد إحياء علاقتنا؟ وماذا لو أنها تشعر بما أشعر به منذ وقت طويل؟ كان دولسيمر آخر مكان التقينا فيه. فهل كانت ستخاره لو لم تكن الرغبة هي دافعها؟ أدرك أنتي لن أقول لها لا، كما لم أستطع فعل ذلك عندما أدارت وجهها إلى على الأريكة في مكتبي. فإذا كانت مستعدة للانتقال، فسأتابعها. وسألتك ورأي كل ما أملكه. أحدق في الصور المرتبة فوق مكتبي؛ صور نات في أعمار مختلفة، وصور باربارا، الجميلة دائمًا. ومن العبث محاولة تقييم العواقب الكاملة لما أنا على وشك فعله، لأنها كثيرة جداً ومتنوعة جداً بحيث لا يستطيع حتى لاعب شطرنج روسي ماهر أن يدرسها كلها في كل خطوة. لكنني سأفعل ذلك. سأحاول، أخيراً، امتلاك الحياة التي أريدها. وسأكون، أخيراً، شجاعاً.

الفصل الثاني عشر

تومي، 27 تشرين الأول، 2008

دخل براند مكتب تومي وبرفقة أخصائية المواد السمية، نيني ستراك، وهي في الثلاثينيات، حمراء الشعر، بنية العينين، جذابة بما يكفي لترتدي تنورة قصيرة. وكانت تعلم في كلية الطب، وترتبط مع البلدية بعقد عمل. وكان براند قد توجه مباشرة إلى أخصائي الأمراض التابع للشرطة من أجل إنجاز العمل بسرعة، والذي بدوره اتكل على مختبر الخدمة الطبية الأميركية في أوهايو؛ والمختبر هذا هو المرجع بالنسبة إلى نصف المؤسسات الأمنية في أميركا. وكان تومي يخشى أن تثير هذه المناورات الشكوك عندما يرجع الدم المسحوب من جثة باربارا من براد المشرّح، لكن أحداً لم يلاحظ سألهما تومي: "ماذا؟".

قال براند: "أتريد القصة الطويلة أم القصيرة؟".

قال تومي: "لنبدأ بالقصيرة". أشار براند إلى ستراك بيده كي تتكلم. كانت تمسك بحافظة ملفات بيدها.

قالت: "تُظهر عينة الدم القلبي مستوى سمياً من مركب مضاد للأكتاب يُدعى فينيلازين".

كان براند ينظر إلى الأرض، ربما كي يمنع نفسه من الابتسام، بالرغم من عدم وجود شيء يدعو للابتسام، في الواقع.

سألهما تومي: "إنها لم تمت من أسباب طبيعية، أليس كذلك؟".

"لا أريد أن أكون غير متعاونة، ولكن إعطاء رأي يتعلق بسبب

الوفاة ليس جزءاً من عملي. ويمكنني أن أخبرك بأن الأعراض الواردة في التقرير - اضطراب في ضربات القلب، مع احتمال حدوث ارتفاع في ضغط الدم كرد فعل - نتيجة كلاسيكية لتناول جرعة زائدة من ذلك الدواء".

أخذت الدكتورة ستراك دقة لوصف دواء الفينيلزين، الذي يستخدم لمعالجة الاكتئاب غير النمطي، غالباً بالترافق مع مركبات أخرى. وهو يعمل من خلال تثبيط إنتاج إنزيم أوكسیداز أحادي الأمين (MAO) الذي يخرب مواد كيماوية متنوعة تؤثر في المزاج. ويتمثل أثر الدواء على الدماغ غالباً في تحسين الحالة العاطفية، لكن تقيد إنتاج الإنزيم يمكن أن تكون له نتائج جانبية ممينة في أجزاء أخرى من الجسم، وخاصة إذا ما تم هضم أطعمة أو أدوية تحتوي مادة تدعى تيرامين.

تابعت الدكتورة ستراك قائلة: "هناك لائحة طويلة من الأشياء التي لا ينبغي أكلها عندما يكون المريض يتناول الفينيلزين، كالشراب الفرنسي الأحمر، والأجبان المعتقد، وشراب الشعير، واللبن واللحوم أو السمك المحفوظ بالخل أو الماء المملح، وأي نوع من السجق المجفف. فكل هذه الأطعمة تزيد سمية الدواء".

قال تومي: "من أين حصلت على هذا الدواء؟".

"كان موجوداً في خزانة أدويتها. ولو لم يكن موجوداً، لما تمكّن مختبر الخدمة الطبية الأميركي من تحديده". ثم شرحت الدكتورة ستراك كيف يعمل الفحص الطيفي العام على عينة الدم. في البداية، يقدم مجموعة كبيرة من القضبان الملونة. ثم تُعزل النماذج اللونية للأدوية المائة تقريباً التي غطّيت سابقاً في الفحص الروتيني عن المواد السمية. والألوان القليلة الباقية يمكن أن تمثل آلاف الأيونات. ولهذا السبب، رجع المختبر إلى خزانة أدوية باربارا. وعند المطابقة مع الأدوية، تم التعرّف على الفينيلزين على الفور".

قال مولتو: "إذا، يمكن أن تكون جرعة زائدة عَرضية".

"في الحقيقة، إذا نظرت إلى مستويات الدم، فربما ستقول لا. لأن"

التركيز يعادل أربعة أضعاف الجرعة العادلة. وعلى فرض أن النتيجة صحيحة، فيمكنك أن تقول إنها ربما نسيت وتناولت القرص مرتين. أما أن تأخذه أربع مرات؟ فهذا غير عادي. والمرضى الذين يتناولون مثل هذه الأدوية يُحذرون كثيراً من خطورتها".
"إذا، إنها ليست عَرضية، أليس كذلك؟".

"أقول لا، نظرياً. ولكن هناك ظاهرة، تُدعى "إعادة توزيع ما بعد الموت"، وهي تجعل مضادات الاكتئاب معينة تهاجر إلى القلب بعد الموت مسببة تركيزات عالية في الدم القلبي. وهذا ينطبق بصورة خاصة على مضادات الاكتئاب ثلاثة الحلقات. أما إذا كانت مثبطات أوكسيداز أحادي الأمين تتصرف على النحو ذاته، فهذا غير مشار إليه في المراجع. ولا أعرف ما إذا كان الفينيلزيدين يهاجر، وغيري من المختصين لا يعرفون هذا أيضاً، ليس بصورة مؤكدة. وإذا كنا نعرف مما نبحث عند تشريح الجثة، فوسعنا إجراء عملية سحب دم من الشريان الفخذي لأن عملية إعادة التوزيع التي تحصل ما بعد الموت لا تصل إلى هذا الحد من القلب. لكن سحب الدم من الشريان الفخذي ليس إجراء روتينياً في هذا البلد، ومن الواضح أننا لا نستطيع إجراءه الآن. لذا، لا يوجد أخصائي في المواد السمعية يستطيع القول بتقنه إن التركيز العالي للفينيلزيدين في دمها يعني أنها تناولت جرعة قاتلة من الدواء، كنفيض تكونه نتيجة عملية إعادة توزيع بعد موتها".

أدرك تومي أنه لو سمح لجيم بالتعامل مع هذا الأمر كتحقيق في جريمة قتل منذ البداية، لكان قد حصل على هذه الأوجبة على الأرجح. نظر ثانية إلى الدكتورة ستراك وقال: "إذا، عملية إعادة التوزيع هذه تعني أنها ربما لم تتناول جرعة زائدة، أليس كذلك؟ أو ربما أخذت قرصاً وتغاضت قليلاً عن التعليمات وتناولت بيترًا بالسجق الحار".
"هذا ممكن".

"وماذا حول الانتحار؟ هل هذا أحد الأدوية التي تجعل المكتب أكثر ميلاً للانتحار؟".

"هذا ما تقوله المراجع الطبية".

قال براند محاولاً استبعاد احتمال أن تكون باربارا قد قتلت نفسها: "ليست هناك رسالة. فلم تجد الشرطة رسالة انتحار". رفع تومي يده، في إشارة إلى عدم رغبته في الجدل في ذلك الوقت، ثم قال: "إذًا، قد يكون انتحاراً. وقد تكون حادثة عرضية. هل هذا كل ما يمكنك قوله؟".

"على فرض أن الفينيلزين هو سبب الوفاة، فستكون بحاجة إلى أخصائي في علم الأمراض لقول ذلك بصورة قاطعة".

على الكرسي الخشبي بجانب كرسي ستراك، كان وجه براند يبدو كوجه شخص يحاول كبح حرقة معدية. فشعر تومي بأن ستراك خدعت براند، ثم لانت عندما تحدثت مع المدعى العام نفسه. ولم يكن جيم ليجلبها إلى تومي لو لم تكن أكثر إيجابيةً معه في مكتبه.

قال براند: "ماذا بشأن الزمن؟ إن تركت يوماً ينقضي بعد الموت، فما أثر ذلك على تمييز الجرعة الزائدة للفينيلزين في التشريح؟".

لمست ستراك وجهها بيدها بينما كانت تفكر فيما ستقوله. وكانت تضع خاتم زواج ذا قرص ماسي كبير يوحي بأن زوجها اقتربن بحبيبته من أيام الدراسة الثانوية، وهذا جعل شعور تومي حيالها أفضل. ثم قالت: "قليلأً ربما. كلما كان إجراء التشريح سريعاً، سهل استبعاد حصول عملية إعادة التوزيع التي تحصل بعد الموت. وبالطبع، فإن تحليل محتويات المعدة يصبح أكثر صعوبة، لأن العصارة المغوية تستمر في إتلاف المواد الموجودة في الداخل. وهذا سيفيد إيجاد قرص دواء، أو تمييز الفينيلزين أو حتى ما كانت قد أكلته، بما فيها المنتجات التي تحوي التيرامين. ولكن، مرة أخرى، بإمكان أخصائي علم الأمراض أن يعطيكم إجابة أفضل".

قاطعها براند قائلاً: "حسناً، ولكن، إذا أطعمنها شخص ما الكثير من الجبن ثم أعطاها قرصين، ثم ترك الجسم يبرد لمدة يوم، فهذا سيجعل إثبات حصول تسمم بالفينيلزين أكثر صعوبة؟".

قالت: "نظرياً، أجل".

قال تومي: "ولماذا لم نكتشف هذا في البداية؟".

"لأن مثبتات أوكسيداز أحادي الأمين لا تُغطّى في الفحص الروتيني عن السمية".

قال براند: "وما هي الأقراص الموجودة في خزانة أدويتها - على الأقل تلك المعروفة بسميتها - التي لم تُغطّ في الفحص الروتيني للمواد السمية؟".

فتحت ستراك ملفها ثم قالت: "هذا هو الوحد فقط. المهدئات، والأدوية المضادة للقلق، ومضادات الاكتئاب، كلها تُفحص روتينياً. ومع سجلها المرضي، لن يُستثنى الفينيلزين. ولكن، إذا لم تكن هناك مستويات سمية لأي شيء آخر، فلن تتوقع مستويات سمية لهذا أيضاً".

سألها تومي بضعة أسئلة قصيرة أخرى قبل أن تغادر.

"طبية لعينة"، قال براند حالما أغلق الباب وراءها.

قال تومي: "من الأفضل لك أن تعرف ذلك الآن. فهل تحققت من ملف هارناسون؟".

هز براند رأسه دلالة على الإيجاب. كان تولي قد تحدث عن الفينيلزين، من بين نحو عشرة مركبات أخرى، عندما كان يستجوب الدكتورة ستراك في المحاكمة. كان تولي يحاول إثبات أنه حتى أخصائي السموم الخبير لم يكن يعرف أي أدوية كانت تدخل ضمن الفحص الروتيني، فما بالك بهارناسون المسكين. وأسئلة تولي لستراك، بما فيها ذكره للفينيلزين، تم إجازها في بيان الواقع في ملف هارناسون المقدم أمام محكمة الاستئناف. وهذا يعني بأن راستي يعرف؛ أي أنها لن يجدا صعوبة في إثبات ذلك.

شعر تومي بالإثارة خلال حديثه مع الدكتورة ستراك، لكنه الآن يجلس على الكرسي الكبير للمدعي العام محاولاً تهدئة نفسه والتفكير بعناية أكبر.

أخيراً قال: "هذه معلومات عظيمة يا جيمي، ولكن بصرف النظر

عن هوية أخصائي السموم الذي سنأتي به، فإننا لن نستطيع إثبات سبب الوفاة".

جادله براند في مسألة الصديقة، وزيارة برايما دانا، وسؤاله هارناسون عن الشعور الذي ينتاب المرأة حين يسمم شخصاً ما، وترك الجثة يوماً كاملاً كي يتحلل الفينيلزين وأي شيء آخر في المعدة.

"لا يمكنك محاكمة بجريمة قتل، يا جيمي، ما لم تثبت بصورة قاطعة أنها قتلت عمداً". هذه هي المشكلة التي توقعها لبراند منذ البداية. وإذا كنت تفترض أن شخصاً ذكياً وخبرأً كراسي سا بيتش ارتكب جريمة بهذه، فعليك أن تدرك أنه حصن نفسه جيداً.
غير أن براند لم يكن مستعداً للإسلام.

"أريد أن أضع استدعاءً ورسالةً تسعين يوماً على الصيدلية، لأعرف ما إذا كان لراستي أي صلة بالفينيلزين".

رفع تومي يده مانحاً جيمي الصلاحية الكاملة.
قال جيمي مقرضاً إبهامه من سبابته حتى كادا يتلامسان: "نحن قريبون إلى هذا الحد".

اكتفى المدعي العام بهز رأسه وهو يبتسم بحزن.

الفصل الثالث عشر

آنا، 2 أيلول، 2008

طوال حياتي، بذلت وكأني كنت أملك موهبة في ارتكاب أخطاء كارثية كانت ترجموني سنوات إلى الوراء في كل مرة. بدأت العمل في مهنتين على الأقل - في الإعلان، ولاحقاً بعد التخرج من كلية إدارة الأعمال، في التسويق - لم تكونا ملائمتين لي على الإطلاق، ولطالما وقعت في حب الأشخاص غير المناسبين. وعندما كنت في الثانية والعشرين، تزوجت برجل عادي جداً، وبقينا معاً اثنين وسبعين يوماً بأكملها. بيد أنني ارتكبت أخطاء أسوأ من هذه، وعلى الأخص في علاقتين طائشتين مع رجلين متزوجين، حيث كانت النتيجة التراجيدية واضحة كما لو أنها كانت مكتوبة على جبيني.

مثل الجميع، أنا أميل إلى تحمل والدي مسؤولية إخفاقاتي وعيobi. أب هجرنا عندما كنت في السادسة، ومنذ ذلك الحين لم يصلني منه شيء أكثر من بطاقات معايدة، وأم بدت وكأنها كانت - بالرغم من محبتها - تتوقع مني أن أقوم بتربيتها. وكانت في الثامنة من عمري عندما كنت أضبط ساعة المنبه كي أصحو وأوقظها لذهاب إلى العمل. ولهذا السبب، كبرت وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن أي شيء لا تستحسنني أمي يستحق إعادة النظر فيه.

لكن، ما أنا على وشك القيام به مدحش، حتى بالقياس مع تاريخي الخاص. وبعد إنهاء المكالمة مع راستي، أنظر إلى الهاتف في يدي وأتعجب من مدى جنوني وخطوري.

أحد أساتذتي في كلية الحقوق كان يحب أن يقول إن معظم مشاكل العالم تبدأ بالعقارات؛ الأمر الذي ينطبق بالتأكيد على هذه الحالة. في شهر حزيران الماضي، قررت شراء شقة لي. فأحبيبتي فكرة امتلاك شيء خاص بي أخيراً. ولكن، منذ اللحظة التي وقعت فيها العقد، بدا العالم وكأنه انزلق إلى حالة من الذعر الاقتصادي. فخلال أسبوع، سُرّح رفيقي في السكن من العمل فقرر الانتقال للسكن مع صديق له، بعد أن كان قد وافق في السابق على استلام إيجار شقتي الحالية. وفي موقع عملي، فجأة، بدأ الناس يتهمون حول هبوط الأرباح وطرد بعض الأعضاء وحتى بعض الشركاء. وكان بوسعي رؤية نفسي بحلول الميلاد عاطلة عن العمل، وأدفع عن نفسي في المحكمة في دعاوى تتعلق بالخلاف عن دفع الأقساط والأخلاط والإفلات.

وبعد الرابع من تموز مباشرةً، أرسلت مجموعة من رسائل البريد الإلكتروني، ووضعت إعلاناً من أجل تأجير شقتي في جميع المواقع التي خطرت في ذهني، بما فيها - بمساعدة زوجة أحد شركائي الشبان - الموقع الداخلي للمحكمة العليا في الولاية. وشقتي تبعد أقل من شارعين عن المحكمة ولها فهي ستكون مثالية لأي موظف حقوقى قادم. فجاءني هذا الإيميل في اليوم نفسه:

FROM: natchReally1@clearcast.net
TO: AnnaC402@gmail.com
Sent: Wednesday, 7/9/08 12:09 pm
Subject: Re: My Apartment

مرحباً أنا

رأيت إعلانك. ومن المفرح أن أعرف أنك في وضع جيد. فلا أتخيل أنني سأمتلك شقة خاصة، بصراحة. فهي فكرة بعيدة بعُدّ مجرأة. على أي حال، ما رأيك إن أقيمت نظرة على شقتك في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة؟ إنني أعيش مع ثلاثة من أصدقائي في منزل في

كيوني، لكن الوضع سينتهي في أيلول لأن اثنين منهم سيتزوجان. ولا زلت لا أعرف ماذا سأفعل عندما ستنتهي فترتي التدريبية - أعرف أنني تأخرت ثمانية أشهر تقريباً - ولكنني أدرس عرضاً من إحدى المؤسسات. فإن أعجبتني شقتك فذلك سيساعدني على اتخاذ قرار بشأن العمل. وحتى لو لم أستأجرها، فهو سعى أن أمدحها أمام الموظفين الذين مازالوا يبحثون.

نات سابيتش

فكرت عدة مرات بخصوص هذه الرسالة، لكن للأسف منطقه الخاص ، فضلاً عن أنني لم أجد عذراً جيداً لرفض طلبه. دخل الشقة في الحادية عشرة من صباح يوم الأحد التالي مرتدياً سروال جينز وقميص تي - شيرت. إنه أطول من والده بنحو عشرة سنتيمترات ، وهو نحيل، ووسيم بصورة مدهشة. شعر أسود كثيف ، وعينان زرقاوانيتان بلون البحر مع غمازة صغيرة جميلة تحت شفتيه. تجول في أرجاء الشقة معبراً عن جمالها بالرغم من أنني كنت أعرف أنه كان سيقول الشيء ذاته حتى لو كانت هناك وطاويط متدرلة من السقف. وفي النهاية تناول فنجان قهوة معي في الشرفة الصغيرة حيث أريته كيف يمكن النفس ليحصل على رؤية ممتازة لمركز المدينة والنهر.

لطالما أحببت نات. إنه وسيم لدرجة أنك تخشى في بعض الأحيان أن تنظر إليه كي لا يتدارى فُكُّ السفلِي ، لكن خجله وبساطته يهونان الأمر عليك.

كان يوماً رائعاً، حيث النسيم عليل والزوارق تقطع النهر جيئه وذهاباً. تجاذبنا أطراف الحديث معاً، وهو أمر ليس بيسير مع نات، فهو يتحدث ببطء شديد وكأن ما يريد قوله يجب أن يتجمع في مكان ما من أعماقه لفترة وجيزة من أجل المعاينة قبل أن يسمح له بالخروج. وهذا أمر شاق ، حتى بالنسبة إلى إنسانة مثلّي معتادة على شغل معظم وقت البت في آية محادثة.

قال نات: "فكّرت دائمًا في أن أصبح طبيباً نفسياً، لأنني رأيت الكثير منهم. ولكن، منذ كنت صغيراً، نظرت إلى الجميع على أنهم محتجزون نوعاً ما داخل قصتهم الخاصة حول العالم، ولم أكن واثقاً من أنني سأعرف يوماً كيف يشعر الآخر داخلياً. ولهذا السبب بدأت دراسة الفلسفة. لكن القانون على الأقل قصة يمكن أن يتفق حولها الناس".

ضحكـتـ لـوـصـفـهـ.ـ وـعـنـدـمـاـ أـخـبـرـتـهـ حـوـلـ فـخـرـ وـالـدـهـ بـمـاـ حـقـقـهـ فـيـ كـلـيـةـ الـحـقـوقـ،ـ حـدـقـ فـيـ مـسـتـغـرـبـاـ ثـمـ قـالـ:ـ "ـمـنـ يـعـرـفـ بـمـاـ يـفـكـرـ وـالـدـيـ؟ـ لـمـ يـقـلـ لـيـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ حـوـلـ أـيـ مـنـ هـذـهـ الـأـمـورـ -ـ كـلـيـةـ الـحـقـوقـ،ـ مـرـاجـعـةـ الـقـانـونـ،ـ التـمـرـينـ -ـ بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـ كـلـ خـطـوـتـهـ كـانـتـ تـتـبعـ دـرـبـهـ".

نظرـتـ فـيـ فـنجـانـ قـهـوةـيـ ثـمـ قـلـتـ:ـ "ـكـيـفـ حـالـ أـبـيكـ؟ـ".ـ

"ـإـنـهـ يـرـكـزـ عـلـىـ الـاـنـتـخـابـ.ـ وـكـوـلـ يـشـدـدـ عـلـىـ ذـلـكـ الشـخـصـ هـارـنـاسـونـ الـذـيـ هـرـبـ مـنـ الـبـلـدـ بـعـدـ أـنـ مـنـحـهـ وـالـدـيـ كـفـالـةـ،ـ وـوـالـدـيـ فـيـ حـالـةـ هـيـجـانـ شـدـيدـ".ـ فـكـرـرـ لـيـ جـزـءـاـ مـنـ النـصـيـحةـ التـيـ أـسـداـهـاـ رـيمـونـدـ هـورـغانـ لـوـالـدـهـ بـخـصـوـصـ الـحـمـلـةـ الـاـنـتـخـابـيـةـ ثـمـ تـوـقـفـ لـيـسـأـلـيـ عـماـ إـذـاـ كـنـتـ أـعـرـفـ رـيمـونـدـ.ـ نـظـرـتـ إـلـيـهـ مـطـوـلاـ لـأـنـيـ كـنـتـ مـتـأـكـدةـ فـيـ الـبـدـاـيـةـ مـنـ أـنـهـ كـانـ يـمـزـحـ.

وـأـخـيرـاـ قـلـتـ:ـ "ـإـنـيـ أـعـمـلـ لـصـالـحـ رـيمـونـدـ".ـ

ضرـبـ نـاتـ بـيـدهـ عـلـىـ جـبـيـنـهـ ثـمـ قـالـ:ـ "ـيـاـ لـيـ مـنـ غـبـيـ!ـ أـنـاـ مـنـدـهـشـ لـأـنـكـ لـمـ تـتـحـدـثـ مـعـ وـالـدـيـ بـنـفـسـكـ.ـ إـنـهـ فـيـ الـعـادـةـ يـظـلـ عـلـىـ تـوـاـصـلـ مـعـ موـظـفـيـهـ السـابـقـيـنـ،ـ وـهـوـ يـتـحـدـثـ عـنـكـ كـمـاـ لـوـ أـنـكـ أـظـرـفـ شـيـءـ مـنـ اـخـتـرـاعـ بـوـبـ -ـ تـارـسـ".ـ

"ـأـصـحـيـحـ مـاـ تـقـولـهـ؟ـ حـقـاـ؟ـ إـنـيـ فـقـطـ أـعـمـلـ كـثـيرـاـ لـدـرـجـةـ أـنـيـ أـصـبـحـ مـعـزـوـلـةـ مـثـلـ نـاسـكـ".ـ شـعـرـتـ بـقـلـبـيـ يـقـفـزـ فـرـحاـ بـالـإـطـراءـ.

قادـنـاـ هـذـاـ إـلـىـ حـوـارـ طـوـيلـ حـوـلـ كـوـنـيـ عـضـوـ شـابـةـ فـيـ شـرـكـةـ قـانـونـيـةـ.ـ فـأـخـبـرـتـهـ الـحـقـيقـةـ،ـ وـهـوـ أـنـ الـأـمـرـ إـمـاـ صـفـقـةـ طـائـشـةـ -ـ تـذـهـبـ إـلـىـ الـشـرـكـةـ لـتـدـفـعـ قـرـوـضاـ دـرـاسـيـةـ أـوـ تـجـمـعـ قـسـطاـ أـولـيـاـ -ـ أـوـ فـعـلـ أـمـلـ أـعـمـىـ،ـ لـأـنـكـ تـعـقـدـ أـنـ مـنـ الـمـعـتـعـ حـقـاـ؟ـ أـنـ تـكـوـنـ مـحـامـيـاـ،ـ فـقـطـ إـذـاـ تـمـكـنـتـ

من الوصول إلى الموضع الممتعة، وهذا ما لم أحقه بعد".

قلت له: "القلق الأكبر هو أنك بينما تحاول إيجاد حل، تجد نفسك بحاجة ماسة إلى النقود".

قال مع ابتسامة جميلة: "مثل شراء شقة خاصة".

"صحيح. أو استئجار شقة جميلة فعلاً بنفسك".

ضحكنا، وبينما كنا نتوجه إلى الداخل، سألته عن أي عمل آخر يمكن أن يعمله.

"عملت كمدرس بديل في ثانوية نيرينغ عندما كنت أدرس في كلية الحقوق، وبوسيعى العودة إليها. وما أحبه حقاً هو تدريس القانون. ولكن، ينبغي عليك أن تنشرني شيئاً ما كي يوظفوك في مكان محترم. نشرت أطروحة، لكنني بحاجة إلى المزيد. فكان من المفترض أن أقضى هذه السنة في كتابة دراسة نقدية قانونية حول علم الأعصاب والقانون، لكنني انفصلت عن صديقتي قبل فصل واحد من تخرجي، وما زلت أعاني من جراء ذلك لدرجة أنتي لا أستطيع التركيز على مثل هذا العمل عندما أعود إلى البيت من الوظيفة. ربما سأنجزها العام المقبل عندما سأعمل كمدرس بديل".

"آسفة بشأن الانفصال".

"آه، يمكنني أن أرى أن ذلك كان أفضل لي، حقاً، لكن الوضع بأكمله يقتلني. فذات يوم تكونين جزءاً جوهرياً من حياة شخص ما، وفي اليوم التالي تعدين إليه المفتاح، وحتى كلبها لن يبول على قدميك".

ضحكـت من أعمـاقي، بالرغم من أـنـي تأثـرت بـتعلـيقـهـ الحـزـينـ.

ثم قـلتـ: "لـقدـ عـانـيـتـ مـنـ مـثـلـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـيـ السـابـقـ. بلـ أـعـانـيـ مـنـهـ الآـنـ فـيـ الـوـاقـعـ". لمـ أـمـلـ الشـجـاعـةـ لـلـنـظـرـ فـيـ عـيـنـيهـ مـبـاـشـرـةـ فـاكـتـفـيـتـ بـالـسـيرـ نحوـ الـبـابـ.

قال عندما وصل إلى الباب: "إنـيـ لـأـتـحدـثـ كـثـيرـاـ فـيـ العـادـةـ. لاـ بدـ أـنـيـ أـشـعـرـ وـكـأـنـيـ أـعـرـفـ أـكـثـرـ مـاـ هـوـ الـحـالـ فـيـ الـوـاقـعـ". لمـ أـعـرـفـ كـيفـ أـجـيـبـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـلامـ، فـسـكـتـنـاـ لـبـرـهـةـ قـبـلـ أـنـ يـغـادـرـ.

عندما أغلقت الباب كان قلبي يدق بقوة في صدري . لقد جلب نات والده معه إلى شقتي . وعندما وصلت علاقتي مع راستي إلى نهايتها ، حاولت جاهدة عدم التفكير فيه كثيراً ، لكنني عندما كنت أفكر فيه ، كنت أقرّع نفسي بشدة لأنني كنت مجنونة وضعيفة وغبية لرغبتني في شيء كان واضحاً تماماً بأنني لن أحصل عليه . دينيس ، المعالج النفسي الذي أزوره ، يقول إن الحب هو الشكل المقبول الوحيد قانونياً من الاختلال العقلي . ولكنني أعتقد أن هذا هو سبب كون الحب رائعاً ، إلى جانب كونه خطراً؛ لأنه قادر على تغييرك .

كتب نات إلى بعد أسبوعين ليقول إنه لن يستطيع استئجار الشقة .

بعد الاستماع إليك ، أدركت أنني يجب أن أكون مجنوناً لكي أعتقد أنني أستطيع العمل في شركة محاماة . سأراسل جميع الموظفين القادمين إلى المحكمة العليا الذين يمكن أن يكونوا لا يزالون يبحثون وأقول لهم كم هي رائعة شقتك .

أود أن أعتذر لك لأنني كنت غبياً ونصف مختل عقلياً، اثرث حول أطبائي النفسيين . ولكن ، كان من الممتع حقاً التحدث إليك ، وكانت أفكـر في أن أدعوك لشرب فنجان قهوة خلال الأسبوعين القادمين كـي أحـيطك عـلـماً بـأـي تـطـورـات مـهـنـية جـديـدة .

الشيء الآخر هو أنني عندما استرجعت المحادثة بأكملها في ذهني ، اعتـقدتـ أـنـهـ كـانـ مـضـحـكاـ نـوـعاـ ماـ أـنـتـاـ كـانـ نـسـأـلـ بـعـضـنـاـ الـبعـضـ عـمـاـ كانـ أـبـيـ يـفـكـرـ فـيـهـ هـذـاـ هـوـ أـبـيـ تـمـاماـ .

نتحدث لاحقاً .

نات

قرأت هذه الرسالة عدة مرات ، وخصوصاً الجزء المتعلق بشرب القهوة . هل هذا الشاب معجب بك؟ ثم أمضيت نصف ساعة في كتابة رد

نات

بأنني أتفهم تماماً وأشكرك جداً لمساعدتك داخل المحكمة. لن أفقد الأمل.

وأنت لم تظهر مثل شخص "غبي ونصف مختل عقلياً". في الحقيقة، بانتي أخضع لعلاج نفسي منذ سنة تقريباً، بعد انفصال سيني جداً جداً، وأشعر أحياناً بأنني كنت أضيقُ حياتي قبل ذلك. وما زلت أشعر بالإحراج قليلاً بخصوص ذلك، لأنني بحاجة إلى العلاج، ولأنه يعجبني أيضاً. لكنه الوقت الوحيد الذي أتحدث فيه مع نفسي في هذه الأيام. أكره تحديد مواعيد لشرب القهوة لأنني دائمًا أخلف وعدني فيها. ولكن، راسلني بين الحين والآخر ودعني أعرف أخبارك.

ما إن ضغطت على زر أرسل حتى أصابتني الدهشة من حقيقة أنني نادراً ما أغير اهتماماً لكوني وحيدة. لقد أجريت الكثير من التغييرات في العقد الأخير بحيث أصبح من الصعوبة بمكان البقاء على تواصل مع الأصدقاء، وخاصة بما أن معظمهم متزوجون الآن ولديهم أولاد. أنا سعيدة لأجلهم لكنهم لم يعودوا مهتمين بمشاركة الكثير من مشاكلهم مع الآخرين. ولا يمكنك فتح قلبك أمام شخص لن يبادرك الشيء ذاته. ولدي صديقات عازبات، ولكن في تسع حالات من عشر ينتهي بنا الأمر بالتحدث حول الرجال؛ الأمر الذي لا يفيدني في الوقت الحالي. وخلال عام ونصف أمضيته محاولة نسيان راستي، قمت بعزل نفسي وراء جدار من العمل، وخلال عطلات نهاية الأسبوع أمضي معظم الوقت أمام التلفاز وفي إعداد المأكولات غير الدسمة.

وبعد عشرة أيام من رسالة نات الأخيرة اتصل بي شخص يدعى ميكا كورفلينغ. حصل هذا الرجل الذي سيتدرّب عند القاضي تومبكينز

على رسالة من نات يمدح فيها شفقي ، وانتهى به الأمر باستئجارها بعد إرسال بعض صور جديدة عنها . وعندما كتبت لنات شاكرة له صنيعه ، أرسل لي هذه الرسالة :

FROM: natchReally1@clearcast.net
TO: AnnaC402@gmail.com
Sent: Friday, 7/25/08 4:20 pm

رائع !!! إذا كنت مدينة لي، فما رأيك بتناول طعام الغداء أو أي شيء آخر غدا؟ لا ينبغي أن يكون المكان مميزاً، لأنه باستثناء بذلك الرسمية لا أملك أي ثياب من دون ثقوب.

FROM: AnnaC402@gmail.com
TO: natchReally1@clearcast.net
Sent: Friday, 7/25/08 4:34 pm

انا آسفه يانات. كما أخبرتك سابقاً. عمل عمل عمل. لتأجل الموعد؟

FROM: natchReally1@clearcast.net
TO: AnnaC402@gmail.com
Sent: Friday, 7/25/08 4:40 pm

لدي عده امور لاهتم بها في المحكمة. سأقابلك قرب بنايتك.

FROM: AnnaC402@gmail.com
TO: natchReally1@clearcast.net
Sent: Friday, 7/25/08 5:06 pm

لدي مسودة قضية لا تحتمل التأجيل. وستكون صحبتى مملة وبشعة. في وقت آخر؟

FROM: natchReally1@clearcast.net
TO: AnnaC402@gmail.com
Sent: Friday, 7/25/08 5:18 pm

هيا! إنه يوم السبت! ولقد أجرت شفتك بفضلي.

في ذلك الحين، بدأت أشعر بأنني إنسانة ناكرة للجميل، لذا وافقت على لقائه لمدة وجيزة في مطعم "والـي"، مدركةً أنه ينبغي علي استغلال الفرصة لتهديته. وبينما كنت أهـم بالخروج لمقاتلـاته طلبت من ميترا بـالـينـغـسـ، السـكـرـتـيرـةـ الـتيـ كـانـتـ تـطـبـعـ المـسـوـدـةـ عـنـيـ، الـاتـصـالـ بـيـ بـعـدـ عـشـرـينـ دـقـيقـةـ وـالـادـعـاءـ بـأـنـ الشـرـيكـ يـرـيدـ رـؤـيـتـيـ.

"والـيـ" مـطـعمـ لـلـمـأـكـوـلـاتـ الـجـاهـزـ يـحـويـ الـقـلـيلـ مـنـ الطـاوـلـاتـ، وـلـهـذـاـ فـهـوـ يـكـونـ مـكـنـظـاـ جـداـ وـصـاحـباـ خـلـالـ الـأـسـبـوـعـ، باـسـتـثـنـاءـ السـبـتـ وـالـأـحـدـ. وـكـانـ نـاتـ جـالـسـاـ هـنـاكـ، وـأـمـامـهـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ فـنـجـانـانـ مـنـ الـقـهـوةـ، أحـدـهـمـاـ مـعـ الـكـرـيـمـاـ، فـعـرـفـتـ أـنـهـ لـيـ. وـكـانـ هـاتـفـهـ الـخـلـويـ مـوـجـودـاـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ أـيـضاـ، فـسـأـلـهـ إـذـاـ كـانـ يـنـتـظـرـ اـتـصـالـاـ.

"منـكـ. تصـورـتـ أـنـكـ سـتـلـغـيـنـ اللـقـاءـ فـيـ الـلحـظـةـ الـأـخـيـرـةـ".

"لـيـسـ لـدـيـ رـقـمـكـ".

"يا لـذـكـائـيـ! عـلـىـ أـيـ حـالـ، هـلـ يـمـكـنـيـ أـنـ أـسـأـلـكـ، لـمـاـذـاـ تـتـصـرـفـيـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ؟ـ".

أخذـتـ كـرـسـيـاـ، وـجـلـسـتـ مـحاـوـلـةـ إـيـجادـ عـذـرـ مـعـقـولـ.

"أـشـعـرـ فـقـطـ بـأـنـ الـأـمـرـ سـيـدـوـ غـرـيـباـ إـذـاـ بـدـأـنـاـ بـالـخـرـوجـ مـعـاـ. بـسـبـبـ عـمـلـيـ مـعـ وـالـدـكـ وـكـلـ شـيـءـ؟ـ". بدـتـ حـجـةـ سـخـيـفةـ بـصـورـةـ مـضـحـكـةـ، حـتـىـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـ.

"أـعـقـدـ أـنـ هـنـاكـ شـيـئـاـ آـخـرـ؛ صـدـيقـاـ غـيـورـاـ رـبـماـ، يـرـيدـ حـجزـكـ فـيـ غـرـفـةـ وـإـقـلـالـ الـبـابـ عـلـيـكـ".

ضـحـكـتـ وـقـلـتـ: "لاـ. لـيـسـتـ هـنـاكـ عـلـاقـةـ. إـنـتـيـ أـمـضـيـ وـقـتـ رـاحـةـ بـعـيـدـاـ عـنـ الرـجـالـ".

"أبسبب ذلك الانفصال؟ ما الذي حصل؟".

أخذت نفساً قبل أن أهز رأسي وأجيب: "لا يمكنني التكلم حول هذا الأمر، نات. ما زال مؤلماً، ومحرجاً جداً أيضاً. لكنني بحاجة إلى أن أكون أكثر ثقة في حقيقة من أكون، وما أريده، قبل أن أرتبط من جديد. ولم أبق مثل هذه المدة من دون مواعيد منذ الصف السابع. ولكنني أشعر بأنني أكثر عفافاً، إلا عندما تفرغ البطاريات من أرتبني".

أعتقد أنتي كنت أحابول منع طرح مزيد من الأسئلة حول قلبي المجروح، لكنني لا أزال مذهولة من أنتي قلت هذا الكلام. ومع ذلك، فقد اكتشفت مسبقاً بأننا نشبه بعضنا من جهة حسّ الفكاهة. ضحك نات من أعماق قلبه، وبدت ضحكته نابعة من جزء مخفي داخله.

"تبدو تلك فكرة معالج نفسي. فكرة وقت الراحة".

كانت فكرته بالفعل. وهكذا انتهى بنا المطاف ونحن نتحدث حول العلاج النفسي. وعندما اتصلت ميترا أحسست بخيبة أمل حقيقة. كما أحسست بنوع من الغباء لأننا لم نكن قد طلبنا الغداء بعد. اعتذرت منه بشدة، ثم وقفت استعداداً للمغادرة.

"ومتى ستنتقلين من الشقة؟".

"الأحد، 3 آب. استأجرت محترفين للمرة الأولى في حياتي. فلقد اعتمدت على أصدقائي كثيراً بحيث لم أعد أملك الشجاعة لأطلب منهم المساعدة مجدداً. وكل ما على فعله هو الاهتمام بالأشياء التي أخشى أن يكسرها العمال".

"بوسعك المساعدة. أنا قوي كالثور" - قال الجملة الأخيرة ببررة خاصة - "ورخيص جداً أيضاً".

"لا أستطيع أن أطلب منك ذلك".

"لم لا؟".

تحرّك فمي قليلاً بينما كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، لكنه قاطعني قائلاً: "هيبي، لا بأس عليك، دعينا نقولها بصراحة: صديقان فقط. إنتي في وقت راحة، وأنا أصغر منك في كل الأحوال. من

يناسبونك هم الرجال الأكبر سنًا، أليس كذلك؟".

"أجل، هذا صحيح. إنه أمر بديهي أن أُعجب بالرجال الأكبر سنًا".

"إذا، لا بأس. ما عليك إلا أن تحددي اليوم".

لم أستطع النظاهر بأنني لم أكن بحاجة إلى المساعدة، وخاصة من شخص قوي بما يكفي لحمل تفازي الجديد الذي كنت أخشى تسلیمه للعمال. ومن الأشياء التي لا حظتها خلال اللقاءين الأخيرين لي مع نات أتنى كنت أتوق لصحبة الذكور. فلطالما امتلكت أصدقاء مقربين من الذكور، يشاركونني أشياء معينة، مثل الرياضة، وتبادل النكات، ومشاهدة الأفلام المخيفة. ولكن، مع دخولي العقد الثالث، حين يصبح معظم الأشخاص الآخرين مرتبطين، يصبح الاحتفاظ بالصداقات المختلطة أكثر صعوبة، فالزوجات يصبحن غيورات، والحدود تحرس بشكل أفضل. ولهذا السبب، لم أستطع إلا أن أرحب بعرض نات وفق هذه الشروط، وخاصة بما أن زميله في السكن كان يملك سيارة فان يمكن أن يستعيرها.

هكذا، كان نات واقفاً أمام بابي مجدداً يوم السبت 2 آب. فكان يوماً مريعاً للقيام بالنقل، حيث كانت درجة الحرارة تقارب من خمس وأربعين درجة مئوية. وكانت الشمس حادة جداً، والهواء خافقاً مثل قفاز. أمضيت الليل بطوله في التوضيب. وعندما نقلنا كل شيء إلى الأسفل، تبين أن الأثاث لا يتسع لنقطة واحدة.

وبحلول منتصف الظهر، كنا قد أنهينا إصال النقلة الأولى إلى الشقة الجديدة، التي تقع في الطابق السادس في بناء قديم بمحاذة النهر، مع الكثير من التفاصيل القديمة كديكورات جبسينية على السقف، وأخرى خشبية جميلة، من بينها إطارات النوافذ، لم تُدهن قط بأي طلاء. لقد تختلف صاحب الشقة السابق عن دفع الأقساط المستحقة عليه، ولم يخطر بيالي أن البنك قطع الكهرباء. ولم يكن هناك مكيف هوائي، وكنا نقطر عرقاً. فكان قميصه مبللاً كلياً، وكان شكله أسوأ مع التصاق شعرى بوجهه.

قررنا أن يعود نات ليجلب بقية الصناديق بينما أذهب أنا لأشتري طعام الغداء. وقد استغرقت وقتاً أطول مما توقعت في التجول ضمن الحي الجديد، إذ عندما عدت وجدت نات في الشقة واقفاً في شرفتي الخلفية. وكان عارياً حتى الخصر بينما كان يعصر قميصه، وكان يبدو رائعاً وهو يفعل ذلك. فهو نحيل ولكنه مفتول العضلات. وقد أحست بتأثير ذلك في القسم الأسفل من جسدي. وقبل أن يتمكن من إمساكني وأنا أحدق إليه، أشحت بنااظري بعيداً عنه.

عندما عاد إلى الداخل، أريته الكيس قائلة: "هل أنت مستعد لتناول الطعام؟".

"الليس غداء هوائيأ مثل المرة السابقة؟".

وخرّته بيدي انتقاماً. وبينما كنت أحاول إيجاد مكان نجلس فيه، حيث لم تكن هناك طاولة، أشار نات إلى أحد الصناديق الأخيرة التي جلبها. كان مليئاً بالصور المؤطرة التي خرّنها منذ سنوات، وكانت أثمن من أن تُرمى، ومحرجة جداً بحيث لم يكن بوسعي عرضها.

"لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة". قال نات ثم أخرج صورة مكّبرة عن صورة قديمة جداً يظهر فيها أبي وأمي وأنا حين كنت في الخامسة من عمري. التقطت الصورة في فترة العيد. وكان اللحى مكّدساً على ارتفاع عالٍ أمام منزلنا المؤلف من طابق واحد. معتمراً قبعة جميلة ومرتدياً معطفاً، كان والدي يبدو أنيقاً حقاً وهو يضمني. وأنا كنت أرتدي تنورة ذات ثنيات صغيرة مع قبعة صوفية، في حين كانت أمي تبتسم بجانبنا. ومع ذلك، فإن شيئاً من انعدام الرضا يمكن ملاحظته علينا نحن الثلاثة.

"هذه واحدة من صور قليلة أملكها تضمنا نحن الثلاثة. لقد خلائقها عمتني في الأساس. وبعد رحيل والدي قامت أمي بقصّ أبي من جميع صورة العائلة، حرفيأ. بواسطة مقص. كانت لديه علاقات خارج الزواج. ولكن من بعض الملاحظات التي جمعتها على مر السنين، أعتقد أنها ربما كانت تفعل الشيء ذاته. فلست متأكدة تماماً. أمر غريب".

قال نات: "أعرف مثل هذا الشعور. وأعتقد أن أبي ارتبط بعلاقة مع امرأة عندما كنت صغيراً. ولهذا الأمر علاقة بمحاكمته. ولكن، كما تعرفين، لا هو ولا أمي كانا مستعدتين للتحدث حول هذا الأمر، ولهذا فأنا ما زلت لا أعرف تماماً ما حدث".

بدا أن كلينا لم نكن نعرف عما سنتحدث غير ذلك. التفت نات مجدداً إلى الصندوق، ثم أخرج صورة أخرى تبيّن أنها صورة زفافي. قال نات بإعجاب: "واو!". في الحقيقة، كان شكل رائعاً في ذلك اليوم، ولهذا لم أكن مستعدة قط لرمي الصورة.

"تلك الصورة هي، حرفيأً، الشيء الجميل الوحيد الذي خرجمت به من زواجي. الزواج من شخص ما هو فعل أمل، لكنه عندما يفشل، فإنك تستغرق وقتاً طويلاً لاستجماع نفسك من جديد".

والصورة التالية فاجأته، إذ قال: "لا أصدق. هل هذا ستورم؟". في الصورة، يظهر مغني الروك الشهير ستورم مرتدياً ستراً جلدية مزينة بالأزرار المعدنية وهو يطوفني وصديقتى المفضلة ديدى ويركليتش بذراعيه، وكنا كلاماً في الرابعة عشرة من عمرنا. وكانت قد ربحت سحب يانصيب من إحدى المحطات الإذاعية المحلية، وفازت بتذكرة لحضور حفلة موسيقية وفرصة لمقابلة ستورم في الكواليس، وبالطبع اخترت ديدى لمراقبتي. فعندما عرفتها في الصف الثاني الابتدائي شعرت وكأننى اكتشفت جزءاً مفقوداً من نفسي. كان والدها هارباً أيضاً، وبذا وكأننا لم نكن نحتاج إلى الكلام لكي تفهم كل منا الأخرى.

كانت فتاة مرحة وتحب القيام بالمقالب، وقد تورطت بالكثير من المشاكل مع تقدمها بالعمر. وغالباً ما كانا نشتركان معاً في تلك المقالب. فقد تسللنا ذات مرة إلى مكتب المدير وأخفينا صرصور حقل مزعجاً اضطر للبحث عنه عدة أيام حتى وجده. لكن المدرسين لم يكونوا يمليون إلى تحميلى المسؤولية لأننى كنت أفضل تلميذه في الصف. وقد بدأنا بالشرب معاً منذ سن الحادية عشرة حيث كانا نهرجان جرعات من الشراب من مخبأً أمها، ونضع بدلأ منها ماء إلى أن بات طعم الشراب الموجود في

الزجاجتين كطعم ماء الصبور.

في المرحلة الثانوية، أصبحت ديدي قوطية المظهر تماماً، من ظل عينيها الأبيض إلى أظافرها السوداء، وكان واضحاً أنها ستقع في المشاكل دائماً. وكان أصدقاؤها من الشبان دائماً نشازاً ومنعزلين؛ شباناً موسومين بأوشام راكبي الدرجات التاربة مع سجائر متولية من زوايا أفواههم، ولم يكونوا يعاملونها بطريقة جيدة مطلقاً. ففي السنة الأخيرة من الثانوية حملت من أحدهم وأنجبت جيسي.

سألني نات إذا كنت لا أزال أراها فأخبرته بأننا وصلنا إلى نهاية
 بشعة.

"في الحقيقة، انتقلت للسكن معها بعد انهيار زواجي، لكنها كانت تجربة سيئة. لقد علقت بكل الأعمال المنزلية، بما فيها إعداد الغداء المدرسي لابنتها جيسي. وكانت ديدي مستاءة مني، لأنه بالرغم من أن حياتي لم تكن تشبه صحناً من الكرز، إلا أن مستقبلي كان واضحاً أنه سيكون أفضل من مستقبلها. ومن جهتي، فأنا كنت قد سئمت من إعراضها مالاً لن أراه ثانيةً أبداً. وأنهكتني جيسي التي كانت فتاة صغيرة متطلبة جداً، ودائمة النواح بصورة غير قابلة للعلاج. وأدى كل ذلك إلى لحظة غريبة أفضل لا أتحدث عنها".

بينما كان ينظر مجدداً إلى الصورة غير نات الموضوع من خلال السؤال عن ستورم.

"أتريد الحقيقة؟ لو لا الصورة لما تذكريت أن ذلك حدث".

قال نات: "ستورم يقدم عروضاً جيدة. رأيته ثلاث مرات. وهذا كل ما كنت أفعله عندما كنت في الجامعة؛ أذهب إلى الحفلات الموسيقية وأتعاطى المخدرات. ليس كما الآن، حيث أذهب إلى العمل وأتعاطى المخدرات".

"نات، أذهب إلى المحكمة العليا حاملاً بجيسي ماري جوانا؟".
أحس بالحرج فتم بضع كلمات مرتبكة تشير إلى أنها كانت سنة صعبة.

"نات، إذا أمسكوك، فستحاكم. وأبوك شخصية بارزة جداً وهذا سيصعب الأمور عليك أكثر. وسوف يعلقون شهادة الحقوق الخاصة بك، ولن يسمح لك أحد بالاقتراب من أية مدرسة ثانوية أيضاً".

لقد أحرجته حاضرتي بالطبع، فانتهى بنا الأمر إلى الصمت بينما كنا جالسين على الأرض نتناول الطعام. وكنا نسند ظهرينا على الحائط وكانت الأرض باردة. وبعد قليل، أخبرني نات بأن جميع صديقاته السابقات أخبرنه بأنه سوداوي ومنعزل. ولأنني لم أر ذلك فيه حتى الآن، قلت له: "كلنا نقوم بأشياء غبية. وما عليك إلا أن تسألني أنا. فأنا زعيمة العالم في هذا المجال".

ثبتت عينيه في عيني للحظة، ثم قال: "إذا، أخبريني عن انفصالك".
"نات، لا أعتقد أنتي أستطيع".

ظل ينظر إلي للحظة أخرى ثم هز كتفيه وعاد لشطيرته. لاحظت كيف يمكنك أن تفقد الاتصال به وخاصة عندما يشعر بالسوء حيال نفسه.

ثم قلت: "من دون أسئلة"، كنت قد أغمضت عيني قبل أن أتكلم في محاولة لتصور كيف يمكنني التحدث عن الأمر. ولكن مع ذلك، أحسست به وهو يلتفت إلي: "بعد انتهاءي من العمل مع والدك مباشرةً، بدأت بمواعدة شخص أكبر مني بكثير. إنه ناجح جداً جداً، وهام. شخص كنت أعرفه وأنظر للاقتراب منه منذ وقت طويل. فكانت علاقة جارفة للغاية. ولكن، غبية أيضاً. وكان متزوجاً ولم يكن ليترك زوجته قط".

"ريموند، أليس كذلك؟ ريموند هورغان. لهذا رمقتني بتلك النظرة الغريبة عندما ذكرت اسمه في شقتك".

فتحت عيني وحدّقت إليه بحدة، فقال: "حسناً، من دون أسئلة. ماذا تقولين في المحكمة انسحبت. آسف آسف آسف".

أخبرته بقية القصة في بعض الكلمات. شخص رائع أخبرني دائماً بأن علاقتنا مجنونة وفي النهاية أنهاها. وكان بوسعك سماع صوت التلفاز

في الشقة المجاورة بعد انتهاءي من الكلام.

وبعد قليل، قلت له: "أراهن أنك ستفتش في جميع هذه الصناديق عن الشيء الذي يديبني".

"لا. كما قلت، كنا نقوم بأشياء غبية". وبعد ذلك راح يخبرني قصة طويلة عن العلاقة التي أقامها مع أم أحد أقرب أصدقائه خلال السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية. في تلك الظروف، كان من اللطيف أن يشاركني بهذا الأمر.

"إنك شخص طيب يا نات".

"أنا أحاول". وبينما كان يصف لي الطريقة التي وصل من خلالها إلى سرير تلك المرأة، كنا نسند رأسينا على الحائط وننظر إلى بعضنا. فكانت عيناه مثبتتين على عيني، ولم تكن ثمة إمكانية للخطأ في تفسير معنى نظرته تلك. وكنت أشعر بوحدي ورغبي، وكان بوسعي ارتقاب شيء أحمق بصورة غير قابلة للتصديق في تلك اللحظة، كما أفعل دائمًا. ولكن، لا بد أن تتعلم شيئاً ما من الحياة. لذا، اكتفيت بالعبث بشعره الرطب بينما كنت أنهض لأقف على قدمي.

كان واضحاً أنه انزعج من ذلك. وبعد بضع دقائق قال إنه مضطر للذهاب. وبالرغم من أنه قدم عرضاً فاتراً لإعادتي إلى المنزل لكنني رفضت. وبعدعودتي، أرسلت له رسالة إلكترونية أعربت فيها عن شكري وامتناني الكبيرين، ووعدت بدعوه إلى أول حفل غداء أقيم. مرّ يومان ولم يجب على رسالتي، وفي اليوم الثالث عرفت أنني وقعت في ورطة حالما رأيت اسمه في صندوق بريدي الإلكتروني وقرأت سطر الموضوع.

FROM: natchReally1@clearcast.net

TO: AnnaC402@gmail.com

Sent: Monday, 8/4/08 5:45 pm

Subject: My Heart (قلبي)

آسف لأنني لم أجب على رسالتك، لكنني كنت أفكر. كثيراً.
 أنا أفهم تماماً وضعك. لكنني بدأت أشعر نحوك بشيء ما، وربما
 تعرفين ذلك. وأنا بحاجة إلى الحذر من نفسي. ويمكنني الاستمرار
 بصورة جيدة إلا أن شيئاً ما يفقدني توازني فائداً بالغرق. وقد
 أغوص إلى أعماق سحيقة. ولكن، يبدو أن ثمة تواصلاً فيما بيننا،
 تواصلاً حقيقياً فعلاً. وأنا أتساءل ما إذا كان باستطاعتي إقناعك
 بالتفكير مجدداً. أعني، إنك لم تنجي مع الرجال الأكبر سنًا، لذا ربما
 كان من تحتاجين إليهم منذ البداية هم الرجال الأصغر سنًا. أعني،
 كلانا موجودان في النقطة نفسها من الكون. على أي حال، أظن أنك
 تفهمين ما أحاو قوله لأنك تفهميني كما يبدو لي.

كان كلاماً لطيفاً للغاية إلى درجة أن عيني دمعتا حين كنت أقرأها،
 ولكن لم تكن ثمة فائدة من كل هذا. ومع ذلك ترددت في الرد حتى
 مساء اليوم التالي.

FROM: AnnaC402@gmail.com
TO: natchReally1@clearcast.net
Sent: Tuseday, 8/5/08 10:38 pm
Subject: Re: My Heart

أعتقد أيضاً أنني أفهمك يا نات. وأظن أنك تفهمني. وربما لو لا الذي
 جرى في حياتي لكان من المحبب أن نمضي بعض الوقت ونرى
 ما سيحدث. لكنها ستكون فكرة سيئة جداً لأسباب كثيرة شرحتها
 لك مسبقاً، ولسبب أو سببين آخرين لا أريد الخوض فيهما، حتى
 معك. في الواقع، لقد تحدثت مع دينيس حول الأمر عصر هذا اليوم
 بعد قراءة رسالتك. فأنا لست من ذلك النوع الذي يعطي طبيبه

النفسي فيتو على حياته. وبصراحة، إنه ليس من ذلك النوع. ولكن،
باستطاعة كل ممن رؤية أن هذه الفكرة سيئة جداً. لا أعرف ما أقوله
غير ذلك سوى: إنني آسفة جداً جداً.

لم أكن متأكدة من أنه سيزعج نفسه بالرد، لكنه فعل ذلك في وقت
متاخر من اليوم التالي، ولكن ليقول وداعاً فقط.

آنا

أظن أنه يتوجب عليَّ أن أوقف هذا الأمر نهائياً. أي أن لا متقابل أو
تتصل ببعضنا أو أي شيء آخر. هناك شيء ما في طريقة تواصلنا
يبدو بأنه يؤدي إلى مكان واحد فقط. وأنا أمضى وقتاً كثيراً
ومحروحاً، ثم أعود إلى المنزل لأقرأ من جديد رسائلك. وهذه دائرة
خطرة.

مع ذلك فأنت لم تقولي كلمة تجعلني أفهم السبب حقاً. أهو العمر؟
أم عملك مع أبي؟ أم انفصالك؟ فبوسعنا التغلب على هذه الأشياء
بسهولة بالغة. ولكن الكلمة الوحيدة التي أفهمها هي: لا.
اعتقد أنك رائعة جداً.

لم أجِب، إذ لم يكن لدى المزيد لأقوله. لكنه أرسل رسالة أخرى
في الليلة نفسها.

آنا

لقد انتهيت للتو من إعادة قراءة رسالتك الأخيرة وفهمتها أخيراً.
وأعني أنني مخدر، لذا فأنا أعرف أن هذا لن يكون له أي معنى في
الصبح. ولكن الآن، أنا بحاجة إلى أن أسألك سؤالاً حول أبي؛ سؤالاً
غريباً جداً وشبيهاً بالمسلسلات الدرامية بحيث ستتأكدين من أنني
مجنون كلية.

كنت أفكِر بخصوص اعتقادك أنه سيكون غريباً أن تخرجِي معي بسبب أبي، وطريقة سكوتك حيال مسألة ارتباطه بعلاقة، والموضوع المتعلق بشكوكك حيال أمك. لذا، إليك السؤال.

هل أنت شقيقتي أو نصف شقيقتي؟ أعرف أن هذا فقط يمكن أن يكون منطقياً لأنني مشوش تماماً. لذا، إذا كنت لا تمانعين في الرد على لمرة واحدة فقط، فذلك سيكون عظيماً.

FROM: AnnaC402@gmail.com
TO: natchReally1@clearcast.net
Sent: Thursday, 8/7/08 12:38 am
Subject: Re: My Heart

آه يا نات. إنني أضحك وأبكي في الوقت نفسه. وأود أن أجيبك بنعم حتى يرتاح عقلك أخيراً. ولكن الجواب على سؤالك هو لا. لا.
أنت محق. ويجب لا يستمر هذا الأمر. وأنا أعتقد أنك أكثر من رائع.
إنك مثالي. ولكن، دعني أخبرك بما أقوله لنفسي. في أغلب الأحيان أردت أشخاصاً مميزين؛ أشخاصاً أحب أن أكون مثلهم، بدلاً من شخص يجعلني أشعر بأنني جيدة بما يكفي ذاتياً. لذا، فأنت منحتني هدية رائعة، وأنا لن أكون قادرة أبداً على شكرك بما يكفي.

صديقتك المحبة، أنا

الفصل الرابع عشر

تومي، 29 تشرين الأول، 2008

"أعرف أن لديك شيئاً ما". قال تومي لبراند عندما التقاه خارج مبنى المحكمة. كانت لدى جيم محاكمة، وكان يرتدي بدلة أنيقة جداً لا يقدر على شرائها أي محامي ادعاء آخر. وللهذا السبب، كان مولتو يقول لبراند في بعض الأحيان إنه لا بد أن يكون إيطالي المولد. فالقضية التي كان يرافع فيها جريمة قتل ثلاثة، وإحدى الضحايا هي ابنة أخت النجمة السينمائية واندا بايك، الجميلة والحزينة التي كانت تحضر إلى قاعة المحكمة برفقة مساعديها كل يوم. ولمعرفته بذلك، قرر جيمي الاحتفاظ بالقضية بدلاً من السماح لشخص أصغر عمرًا من قسم الجنائيات بالاهتمام بها. ولم يكن جيمي يشعر بالإحراج من حقيقة أنه كان يحب الظهور في التلفزيون قطًّا. وكانت المحاكمة في فترة استراحة الغداء، فخرج براند لمقابلة الرئيس. وكان الجو منعشًا مع ريح حادة وغيوم مسطحة بشعة.

قال براند: "كيف؟".

"كيف ماذ؟".

"كيف تعرف أن لدى شيئاً ما؟".

"لأنك لن تجرئي إلى الخارج وتأخذني إلى اجتماع غداء وسط القضية ما لم يكن لديك شيء ما".

"لعلَّي أعتقد أنك بحاجة إلى التمرين. لعلَّي أحب روينك وأنت تتدفع في الشارع مثل حمامه". دفع براند بطنه للخارج، ومشى بضع خطوات مقلداً المشية. أشار تومي له بالدخول، لكنه كان ينتظر روري جيسلينغ

التي انضمت إليهما بعد دقيقة مرتدية معطفاً ثقيلاً وواضعة وشاحاً لاماً.
وكانت تحمل ملفاً ورقياً تحت إبطها.

دخلوا المبنى، وصعدوا السالم لإيجاد مكان يتحدثون فيه.
وكانت قاعة القاضي والاتش مفتوحة، فدخلوها، وجلسوا على طرف
أحد مقاعدها الفاخرة وروري في المنتصف.

قال براند لها: "أريه".

"لقد طلبنا من صيدلية باربارا جميع إيصالات الاستلام ، والوصفات
المكررة ، وجميع السجلات في الشهر الذي سبق وفاتها". ثم أخرجت
رزمة من الأوراق من ملفها.

قال براند: "أريه إيصال الفينيلزين".

بحثت روري بين الأوراق ثم سلمت نسخة من إيصال مالي للمدعي
العام . وحرر هذا الإيصال من أجل شراء الفينيلزين بتاريخ 25 أيلول ،
الشهر الماضي ، وعليه توقيع راستي سابتش الواضح .

قال تومي: "هل تمانعين؟". أخذ بقية الأوراق من روري وراح
يتفحصها ، ثم قال: "راستي يجب جمعي الوصفات ، هكذا يبدو الأمر".

قالت روري: "ثمانون ، تسعون بالمائة".

قال تومي: "ماذا تعنين؟".

قال براند: "كان يجب الفينيلزين".

قال تومي مجدداً: "وماذا يعني ذلك؟".

قال براند: "أريه الأوراق الخاصة باليوم الذي سبق وفاتها".

سحبت روري عدة أوراق من الرزمة الموجودة في يد تومي .
كان راستي قد وقع على إيصال شراء وصفة مكررة لأقراص منومة
من أجل باربارا في 28 أيلول .

قال مولتو: "اعتقدت أنتا كنا نبحث عن جرعة زائدة من الفينيلزين".

قال براند: "انظر إلى شريط التسجيل . فالصفحة الخلفية هناك .
والمواد الأخرى التي اشتراها والتي تحتاج إلى رؤيتها".

استغرق تومي بعض ثوانٍ لفك شفرة الاختصارات ، ولكن من

الواضح أن الشرط كان يحوي زجاجة شراب فرنسي ريوجا، سmek رنة محفوظاً بالخل، سجقاً متبلّاً، وبعضاً من جبن التشادر المعنق، إضافة إلى علبة لبن. واحتاج المدعي العام إلى بعض ثوان أخرى كي يفهم.
قال تومي: "هذه المأكولات كلها تتفاعل مع الدواء، أليس كذلك؟ إنها تحوي تلك المادة؛ كلها أليس كذلك؟".

قال براند: "تيرامين؛ كلها. لقد اشتري المأكولات الممنوعة كلها. وبإمكانها تحويل جرعة عادية من الفينيلزين إلى جرعة مميتة، وجرعة رباعية إلى أمر مؤكد. وبإمكانني القول إن القاضي كان يحضر لنوع مختلف من العشاء الأخير".

نظر تومي إلى الورقة مرة أخرى، فرأى أن الشراء حدث في الساعة 5:32، ثم قال: "كانا سيناولاون كوكتيلاً".

قال براند: "ماذا؟ من أين حصلت على هذا؟".

قال تومي: "ذهب إلى المخزن في وقت الغداء. واشترى زجاجة الشراب وبعض المقلبات. كانا سيناولاون كوكتيلاً، يا جيم".

قال براند: "ولم اللبن؟".

قال تومي: "من أجل المرق".

قال براند: "أقلت المرق؟".

"أجل. إذا كنت في صحة جيدة، فإنك تستخدم اللبن بدلاً من الكريما الحامضة. وبالحديث عن المرق، مع تاريخ والدك، لا بد أنك تعرف مثل هذه الأشياء. لا تسمع بالكوليسترول؟". هجأ تومي الكلمة له مداعباً، فلوح براند بيده في وجه تومي متظاهراً بالضيق. وأضافت روري بعض كلمات جدية عن والدها الذي أجرى منذ فترة قريبة عملية قسطرة قلبية. تجاهلها براند وركّز على القضية.
"لقد أمسكنا به، أليس كذلك؟".

أحس تومي بالثقل بينما كان كبير مساعديه والمحققة يراقبانه. وكان يعرف أن الخيار في هذه القضية يقع على عاته وحده، وأن المخاطر سيتحملها وحده، وأنه هو الشخص الذي يجب أن يقنع. ولكنه عندما

جمع الخيوط معاً، لم يشعر بالرضا بعد. فقد كانت مجموعة مشتريات راستي مثيرة للريبة بلا أدنى شك، ولكنهم كانوا يحاولون استنتاج الكثير من أشياء يمكن لأي محامي دفاع أن يعتبرها محض مصادفة.

قال تومي بهدوء: "أصبحنا أقرب".

قال براند معتبرضاً: "سيدي الرئيس!". ثم أعاد عليه جميع الأدلة، فاضطر تومي لتحذيره بأن يُبقي صوته منخفضاً. فآخر شيء يريدونه هو أن يسمعهم صحي يدخل القاعة بالصدفة.

"جيسي، أنتما الاثنان جئتما بأشياء مذهلة، لكنها ظرفية بأكملها. ولست بحاجة إلى أن أخبرك كيف يمكن لشخص مثل ساندي شتيرن أن يقوّض أركان هذه القضية. ومن لم يذهب إلى المخزن لشراء البقالة؟ ومن لم يذهب لشراء وصفة طبية، أيتها السيدات والساسة؟". قلَّ تومي لكنه شتيرن الساخر بصورة أفضل مما توقع. "ستصعد خبيرتنا نفسها إلى منصة الشهادة وتعترف لدى استجوابها من قبل محامي الدفاع بأنها لا تستطيع استبعاد ستة عشر سبباً آخر للوفاة إضافة للقتل. إنها ضعيفة. والقضية ضعيفة جداً. ونحن بحاجة إلى شيء آخر".

قال براند: "ومن أين أحصل على شيء آخر؟". صمت قليلاً ثم أضاف بسرعة: "ماذا عن الحمض النووي؟".

كان تومي يفكر كثيراً في هذا الأمر مؤخراً، وخاصةً عندما يكون برفقة توماسو في منتصف الليل، وقد أدرك أنه ليس الحل. ولكنه لم يشاً مناقشة الأمر أمام روري فقال ببساطة ما كان يقوله منذ أسابيع: "ليس بعد".

نظر براند إلى ساعته. وكان مضطراً للعودة إلى المحكمة. فوقف وقال وهو يمشي بعض خطوات إلى الوراء: "لن أستسلم إليها الرئيس". ضحك تومي بصوت عالٍ وقال: "لست قلقاً بخصوص ذلك".

الفصل الخامس عشر

آنا، 2 أيلول، 2008

بعد انتهاء زواجي وانتقالي للعيش مع ديدي ، سيطر علىَ سؤال واحد . وكنت أستلقى على السرير في الصباح ، وأتساءل لمدة ساعة : هل أحب بول حقاً ؟ اعتقدت حينذاك أنني كنت أحبه ، لكنني أشك في هذا الآن . ولكن ، كيف أمكنني - أنا أو أي شخص آخر - أن أرتكب هذا الخطأ الجوهرى ؟ وكيف أعرف الشخص الأمثل ؟

رجل بعد آخر ، علاقة بعد أخرى ، كانت هذه الأشياء تثيرني وتجعلني أشعر في كل مرة بأن شيئاً ما ناقص . لقد افتتنت ببعض الرجال - أكثرهم راستي - وفي حالات أخرى أصبحت مهووسة بهم تقرباً ، تملكتني الرغبة فيهم . ولكن ، هل يمكن لشيء مشحون بالتوتر إلى هذه الدرجة أن يكون حباً ناضجاً دائماً ؟ وهل يمكن أن يؤدي إلى هذا الحب ؟ إنني أنتظر اليوم الذي أقع فيه في الحب حقاً .

كنت مكتوبة في الأسبوع الأول من آب ، وغير راغبة بتصديق أن ذلك أي علاقة بنات . ومع الوقت ، واجهت الحقيقة ، وهي أنني كنت أفقده ، أو بصدق أكبر ، أفقد الفرصة التيرأيته فيها ، الفرصة لامتلاك شيء مختلف يبدو جديداً وصانياً . وهذا الإدراك صدمني بقوة أكبر مما كنت أتوقع ، وأخرج معه الكثير من المشاعر بخصوص راستي ، وبالأخص الغضب . وفي وقت متأخر من الليل ، مررت علىَ لحظات لم أفهم فيها محاكمني للأمور . فما المحرّم الذي كنت أنتهكه ؟ مشاعر من كنت أحاول الحرص عليها ؟ فإذا كان الوالد لا يريدني ، فلم لا أستطيع

أن أكون مع الابن؟ ألم يكن هذا يعني أن الجميع راضون؟ وعندما أعدت التفكير في كل هذا في الصباح، أحسست وكأن الأرضية التي وقفت عليها خلال الخمسة عشر شهراً الماضية تبددت تحت قدمي.

كنت أعتقد أنتي في طريقي لتجاوز هذا الأمر. فأحسست وكأنني وضعت هذه الخيبة على الرف بجانب الكثير من الخيبات السابقة. فإذا بي في الصباح أذهب إلى غرفة الاستماع في المحكمة العليا لمساعدة مایلز كيرتزلر الذي كان يناقش طلب التماس عقيم لزبون هام. وكان يملك الحق بالنقاش الشفهي قانوناً، ولكن القضاة السبعة لم يكونوا سعداء لكونه يجدد وقتهم. وكان الضوء الأحمر سيضاء في أية لحظة، فإذا بشخص يتوجه برشاقة إلى المنصة ليقدم ملفاً للقاضي جويناري، وعندما نظرت لأرى، وجدت نات ينظر إلى مسبقاً. كان نحيلًا وقلقاً وفاتنا، وكانت عيناه الزرقاوان تنضحان بنظرة متولدة حزينة. وكنت أخشى أن يبدأ الشاب المسكين بالبكاء فأبكي معه أيضاً.

وعندما عدت إلى المكتب، وجدت رسالة منه في بريدي الصوتي: "عندما سأغادر العمل قرابة السادسة، سأتجه مباشرة إلى شقتك، وسأرن الجرس. وإذا لم تكوني في المنزل، فسأجلس على السلالم إلى أن تأتي. لذا، إذا كنت لا تريدين رؤيتي، فمن الأفضل أن تذهبين للنوم عند واحدة من صديقاتك، لأنني سأجلس هناك طوال الليل. وسيتوجب عليك أن تقولي لي لافي وجهي هذه المرة. وما لم يكن فهمي لك أقل بكثير مما أظن، فإنني لا أعتقد أن هذا سيحدث".

عرفت حينئذ أنه بالرغم من التردد والحيرة، والقول لنفسي: "لا، هذا جنون"، وكل التحذيرات من المخاطر الكبيرة، على الرغم من كل هذا، عرفت أن لدى قلبي خطة وأنني سأتبعها حتماً. وكما تقول الأغانيات، سأعطي كل شيء من أجل الحب. وهذه الحقيقة الخاصة بي أكبر وأعمق من جميع النصائح وال عبر التي كنت قد حاولت تقبلها. ولطالما عرفت ذلك.

خلال الأشهر القليلة الأخيرة التي عشتها مع ديدي، ارتبطت بعلاقة

مع شرطي يدعى لانس كورلي . و كنت أحضر صفاً يدرس مادة علم الاقتصاد في المساء كي أنهى جامعتي ، و تصادف أنه كان يحضر الصف نفسه . وكان رجلاً لطيفاً و سيناً ، و عندما كان يأتي لزيارتني ، كان يمضي وقتاً طويلاً مع جيسي . وكانت لديه ابنة صغيرة لم يكن يراها كثيراً . فلاحظت أن ديدى أعجبت به منذ البداية ، و عرفت أن الأمر سيسوء أكثر بمرور الوقت ، لأن ذلك كان واضحاً تماماً عليها . فكانت تسألني عدة مرات في اليوم عن الوقت الذي أتوقع مجئه فيه . وفي النهاية ، قرر لانس أن يحاول مصالحة زوجته السابقة ، غالباً لأن رؤيته المتكرونة لجيسي جعلته يدرك كم كان يشعر بالحنين لابنته .

عندما شرحت كل هذا لديدي ، قالت إنها واثقة بأن ذلك كذب ، وبأنني لم أسمح له بالمجيء إلى الشقة لأنني لم أكن أريده أن يقع في حبها . وقد ساء الوضع بينما إلى درجة أتنى طلبت من لانس أن يتصل بها ويشرح لها الأمر بنفسه ، ولكن تبين أن ذلك كان خطأ . فإن المهانة الشديدة التي أحست بها عندما علمت أن لانس عرف بما تكتنه له من إعجاب غير منطقي أغضبتها إلى حدّ كبير .

استيقظت قرابة السادسة صباحاً في آخر يوم عشته هناك على مشهد مرعب ، حيث كانت ديدى تقف فوق سريري وبيديها مقصان تشهرهما في وجهي . وكان بوسعي ملاحظة أنها كانت محطممة كلّياً . وكانت ترتجف بقوة ، وكان وجهها مبقعاً ، وأنفها يسيل من شدة البكاء ، وتهدد بقتلي . قفزت من السرير ، وصرخت فيها ثم صفعتها وشتمتها وانتزعت المقصين منها ، فسقطت على الأرض وتكونت على نفسها في زاوية غرفتي وهي تبكي .

استمعت إلى رسالة نات الصوتية ست أو سبع مرات ، ثم التقطت الهاتف واتصلت براستي . قلت له إنني يجب أن أراه ، بالرغم من أنني لم أستطع أن أتصور ما سأقول له . لكن الأشياء المجنونة تحدث في الحياة طوال الوقت عندما يقع الناس في الحب . فلدي صديقة تطلق ثم تزوجت من شقيق طليقها . فالحب مطلق القوة . إنه يملك آلية خاصة به

وقوانين خاصة به.

وفي ذلك اليوم في منزل ديدي ، بينما كنت أوضب أشيائي ، استمرت ديدي بالبكاء وهي تقول: "لم أكن سأفعل أي شيء ، لم أكن سأفعل أي شيء ، كنت أتظاهر أو أدعى لكنني لم أكن سأفعل أي شيء ". قالت لي هذه الجملة ألف مرة ، وبعد أن أنهيت توضيب آخر حقيبة ووضعتها على ظهري ، قلت لها: "هذه هي مشكلتك ". كانت تلك آخر كلمات أقولها لها.

الفصل السادس عشر

راستي، 2 أيلول، 2008

أجد أنا في فندق دولسيمر مسبقاً عندما أصل إليه. إنها عصبية، تتحسس كأساً من الشراب الغازي المليء بالفقاعات، ولكنها جميلة. لقد منحتها حياتها المهنية الخاصة هيئة أجمل، وتسريحة شعر أفضل، وثياباً أكثر أناقة. أجلس بجانبها على كرسي مرتفع عند المشرب.

"هل قصصت شعرك؟".

"ليس لدى وقت كثير للاهتمام به، الوقت الأطول للعمل" - تضحك
- "اعترافات عبده ذات أجر مرتفع".
"التسريحة تليق بك كثيراً".

إطرائي يجعلها تصمت لوهلة قبل أن تتمم قائلة: "شكراً".
"ماذا تشربين؟".

"مياه غازية. لدى شيء أريد أن أنهيه في العمل".
يُصاب قلبي بالوهن: ستعود إلى العمل. لا أقول شيئاً. فتحرّك
حقينتها وتضعها في الفراغ الفاصل بيننا.

"راستي، لا أعرف كيف سأقول هذا. لذا، أعتقد أنني سأقوله
وحسب. سأحاول أن أشرح. الموضوع الأساسي هو أنني بدأت أقابل
ناس. أعني، إنتي لم أفعل بعد، ولكنني سأفعل. سأقابلهم اليوم. ولا
أعرف إلى أين سيؤدي هذا الأمر، لكنه جدي جداً، جدي جداً منذ الآن".
"أقصدين ابني نات؟". للوهلة الأولى، لم أشعر بأي شيء في
داخلي، لكن الغضب اجتاحني بعد ذلك. "هذا جنون".

تمتلئ عيناهما الخضراوان بالدموع وهي تقول: "راستي ، لا أستطيع أن أصف لك كم حاولت جاهدة تجنب حصول ذلك".
"أوه ، بالله عليك يا أنا. ما الذي ستقولينه الآن؟ أهو قدر أم نصيب؟
إنك إنسانة ناضجة. لديك خيارات".
"راستي ، أعتقد أنتي أحبه ، وهو يحبني".
"يا الله!".

إنها تبكي الآن ، وتمسك بالكأس الباردة الملتقطة بوجنتها.
"اسمعي أنا ، أعرف أنك تريدين العودة إلىي . وأعرف أنتي خذلك .
وأعرف أن كل شيء مقبول في الحب وال الحرب . وسمعت كل هذه التعبيرات
النافحة . ولكن ، هذا مستحيل . ويجب أن تتوقفى ".

تقول وهي تتنحّب: "آه يا راستي ! راستي ، فعلت كل شيء بالطريقة
الصائبة . وأتمنى أن تفهمي . فقد حاولت جاهدة منع ذلك من الحدوث ".
أحاول التفكير ، لكن أبعاد هذا الأمر يستحيل تصورها . كما أنتي
أشعر بأن ذراعي ويدّي ترتجف من شدة الغضب .
"هل يعرف؟ هل يعرف بشأننا؟".

"بالتأكيد لا . ولن يعرف أبداً . أبداً . راستي ، أعرف أن هذا جنون
وصعب ، لكنك تعلم ، ويجب أن أحاول ، يجب أن أحاول . فلا أعرف
إذا كان باستطاعتي التعامل مع هذا ، أو إذا كان باستطاعتك أنت التعامل
مع هذا ، ولكن يجب على المحاولة . فلا بد من أن أحاول ".
أرجع إلى الخلف في مقعدي . وأنا لا أزال أعاني صعوبة في
التقط أنفاسي .

"هل تعرفين كم مرة رغبت بك ومنعت نفسى؟ أرغمت نفسى .
والآن ، ماذا؟ هل يفترض بي أن أشاهدى وأنت تتبخترين في منزلي؟
كرمى لله يا أنا".
"راستي ، أنت لا تريدينني ".

"لا تخبريني بما أريده . أعرف ما تعنينيه يا أنا . لا تدعى الصدق .
إنك تضيقين على الخناق بأسوأ الأساليب التي يمكن تصورها . إذاً ، ما

هو خياري؟ أتخلص من باربارا الآن؟ أهذا ما تريدينـ؟ أتخلص منها، أو تخربـين منزليـ".

"راسـتيـ، لاـ. لاـ يتعلـقـ الأمـرـ بكـ. بلـ بهـ هوـ. هذاـ كلـ ماـ أحـاولـ قولـهـ لكـ. رـاستـيـ، رـاستـيـ" تصـمـتـ قـلـيلـاـ ثمـ تستـأـنـفـ كـلامـهاـ: "لمـ أـشـعـرـ بمـثـلـ هـذـاـ الشـعـورـ نـحـوـ"ـ تـتـلـعـثـمـ - "نـحـوـ أيـ شـخـصـ. أـعـنـيـ، رـبـماـ يـجـبـ أنـ أـكـونـ حـالـةـ لـلـدـرـاسـةـ فـيـ إـحـدىـ الـمـجـلـاتـ الـنـفـسـيـةـ. لـأـنـتـيـ لـاـ أـعـتـقـدـ أـنـ ذـلـكـ كـانـ لـيـحـدـثـ لـوـلـاـ هـذـاـ الأمـرـ. لـكـ الـأـمـرـ مـخـتـلـفـ، رـاستـيـ. مـخـتـلـفـ بالـفـعـلـ. رـاستـيـ، رـجـاءـ دـعـناـ نـحاـوـلـ".

"أـنـتـ مـجـنـونـةـ، آـنـاـ. إـنـكـ لـاـ تـعـرـفـينـ مـاـذـاـ تـرـيـدـيـنـ، أـوـ مـنـ تـرـيـدـيـنـ. المـجـلـةـ الـنـفـسـيـةـ أـمـرـ صـائـبـ".

أـرـمـيـ نـقـودـاـ عـلـىـ الطـاـوـلـةـ، وـأـسـمـعـهاـ تـكـتمـ صـرـخـةـ خـلـفـيـ بـيـنـماـ أـنـدـفـعـ خـارـجـاـ مـنـ الـفـنـدـقـ. أـمـشـيـ بـخـطـوـاتـ سـرـيـعـةـ غـاضـبـةـ فـيـ الشـارـعـ. فـأـجـتـازـ عـدـةـ مـبـانـ، ثـمـ أـتـوـقـفـ فـجـأـةـ.

ثـمـ شـيـءـ وـاحـدـ وـاضـحـ. فـلاـ بـدـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ مـاـ، بـغـضـ النـظـرـ عـنـ شـدـةـ غـضـبـيـ الـآنـ. يـنـبـغـيـ أـنـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ. إـذـ لـيـسـ هـنـاكـ طـرـيقـ وـاحـدـ. سـأـفـكـرـ وـأـفـكـرـ وـلـنـ يـكـونـ أـيـ شـيـءـ أـفـعـلـهـ صـائـبـاـ، وـلـكـ لـاـ بـدـ مـنـ أـفـعـلـ شـيـئـاـ. مـاـذـاـ سـأـفـعـلـ؟

الفصل السابعة عشر

نات، 2 أيلول، 2008

من وجهة نظري ، كلنا نشبه مجموعة من الناس تسير في سياراتها على طريق سريع. وكل واحد منا يتجه نحو وجهة معينة ، ويستمع إلى الموسيقى التي يحبها ، أو محطة إذاعية مختلفة ، أو يتحدث على الهاتف ، وفيما عدا ذلك ، فكلنا نحاول الابتعاد عن طريق الآخرين . وبين الحين والأخر ، تتوقف لترحب براكب ما . ومن يعرف لماذا؟

لا أزال غير متأكد من الوقت الذي أعجبت فيه بآنا . وجدتها لطيفة منذ المرة الأولى التي قابلتها فيها إثر مجيئها للعمل مع والدي ، لكنني كنت مع كات حيتنة . وعندما انفصلنا دخلت أمي على الخط مباشرة من خلال تسؤالها مرة أو مرتين عما إذا كانت آنا كبيرة حقاً بالنسبة إلى ؛ الأمر الذي تسبب بتجميد الفكرة كلها . وبعد ذلك ، وفي أحد أيام هذا الصيف ، كنت في العمل ورأيت اسم آنا على إعلان يتعلق بشقتها ، وقلت لنفسي: لم لا؟ أذهب وتحقق من الأمر . وبينما كنت جالساً في شرفتها ، لم يكن مصدقاً كم كانت رائعة وذكية وجميلة ومرحة ومصفية . ولكن ، لم يكن الشعور متبدلاً في البداية . فحاولت معها كثيراً لكنها قالت: لا . بلطافة وعدوبة وكل هذا الكلام؛ ولكنها قالت: لا .

الآن ، وبعد مرور شهر تقريباً ، أنا في العمل وأشعر باضطراب كبير بسبب آنا . ومع ذلك ، فأنا أقل اضطراباً مما كنت عليه في الأسبوعين الأولين . وعندما تسوء الأمور معي ، أجتر المشكلة في داخلي مراراً وتكراراً . وأبكي . وكانت أخرج من مكتبي في المحكمة ، وأذهب إلى

المرحاض وأبكي قرابة أربع مرات في اليوم. ثم أبدأ بتهذئة نفسي، فيصبح بكاء واحداً في الصباح وأخر بعد الظهر. وبعد ذلك، مرة في العمل ومرة في البيت. لسبب ما، كانت حالي أسوأ مما كانت عليه بعد انفصالي عن بالوما وكات. وكنت أعرف أنني بنى كل هذه القصة في رأسِي على أنها العلاقة المثالية لمجرد أنها لم تحدث. إنها مثالية أفلاطونية. إنني مغمور حتى قمة رأسِي في الحب؛ بالرغم من أنني أعرف أن ذلك يتعلّق بفكرة الحب أكثر من أي شيء آخر. فالأمل أمر مذهل. ولعل الأمل هو الشيء الأكثر جوهرية في الحياة. وإنك تستمر في الحياة بفضل الأمل. ومن دونه تنها.

لا يزال مزاجي على هذا الحال اليوم عندما أدخل غرفة الاستماع في المحكمة العليا لتقديم ملف نسي المحامي المتدرّب في القضية، ماكس هاندلري، أن يجلبه إلى قاعة المحكمة. وها هي هنا. طوال شهر، كنت أتخيل عدة مرات في اليوم أنني لمحتها في الشارع، فأدرك على الفور أنني كنت مخطئاً. ولكن، في هذه المرة، بالرغم من أنني أجلس في القسم الخلفي من القاعة، وبالرغم من أنها غيرت ترتيبة شعرها، وبالرغم من أنني لم أشاهد وجهها، لكنني واثق من أنها أنا. إنها جالسة أمام طاولة الجهة المستأنفة تكتب ملاحظات بأسرع ما باستطاعتها، بينما يقوم أحد شركائها من المؤسسة التي تعمل فيها بالإدلاء بمطالعة شفهية أضجرت جميع القضاة بصراحة. وعندما أراها، أتوقف بسرعة بحيث أجعل نصف القضاة على السيدة، المتألهين لأي شيء يلهيهم، يحدقون إلىّي. يا لي من أحمق كبير!

أتجه نحو القاضي جويناري، وأسلّمه الملف محاولاً إيجاد طريقة للخروج من دون تكرار الأداء الغبي نفسه. العينان إلى الأمام، الكتفان مستقيمان. لكنني بالطبع منهاه ومتلهف لرؤيتها بحيث لا يمكنني منع نفسي من استرافق النظر؛ ولو نظرة واحدة. وعندما ألتفت - والله الحمد - أرى عينيها مثبتتين علىّي. ولا يزال الشريك يثثر، لكن أنا توقفت عن الكتابة. إنها لا تفعل أي شيء إلا مراقبتي. وعيناها لا ترمشان.

لقد فهمت كل شيء، كل شيء واضح في نظرتها. كانت تحترق مثلي تماماً، وقد استسلمت الآن. ومهما كان السبب الذي جعلها تقول لا، فهي لا تستطيع قولها بعد الآن. إنها تستسلم، وتسلم رأيتها للحب.

أخرج من القاعة وأعود إلى مكتبي لاستخدام هاتفي النقال. أترك رسالة صوتية وأقول لها إنني سأتوجه بعد العمل مباشرةً إلى منزلها، وإنني سأجلس هناك طوال الليل إن اضطررت لذلك، إلى أن تقول لي ما تريده وجهاً لوجه.

وهذا ما أفعله.

وعندما تصل إلى الشقة، تجدني جالساً على السلم أمام الباب. وكنت سأجلس هنا طوال الليل بالفعل. ولكن، في الحقيقة، لم يمض على بقائي هنا سوى خمس عشرة دقيقة فقط. تجلس بجانبي وتضع ذراعها على ذراعي، وتضع رأسها على كتفي، ونبكي، ثم ندخل الشقة. بهذه البساطة. خذها من طالب سابق في الفلسفة؛ هذا ما يتوقع أي إنسان لقوله: إنها أسعد لحظة في حياتي.

الفصل الثامن عشر

تومي، 31 تشرين الأول، 2008

ماك غراث هول هو مقر الشرطة الأساسي منذ 1921. إنه يشبه قلعة من العصور الوسطى بأحجاره الحمراء وأبوابه الخشبية الضخمة المقوسة من الأعلى، مع جدار حماية مسنن يحيط بالسطح.

بعث براند رسالة من قاعة المحكمة إلى تومي لمقابلته خارج مبني البلدية في الثانية عشرة والنصف ظهراً. وفي الموعد المحدد، اقتربت سيارة المرسيدس من الرصيف لتقلّ تومي ثم تنطلق مجدداً بسرعة كبيرة بحيث بدا وكأنها كانت عملية هروب. قاد براند سيارته بشكل متعرج وسط زحمة فترة الغداء كما لو كان مخموراً. وعبر بوابة الأمن، وركن السيارة خلف مقر الشرطة مما أتاح الفرصة لتومي للتحدث مع مساعديه الأساسي.

قال تومي: "ماذا تفعل هنا؟".

"لا أعرف. لست متأكداً. ولكن، عندما أبلغ راستي عن وفاة باربارا، أخذت شرطة نيرينغ جميع الأدوية الموجودة في خزانة أدوية باربارا ووضعتها في كيس من النايلون بدلاً من جردها هناك. لذا طلبت من روري أن تنقل جميع القوارير إلى هنا يوم الأربعاء لنرى ما إذا كان بإمكان ديكerman الحصول على شيء ما منها".

"حسناً. تفكير صائب".

"إنها فكرة روري، في الواقع".

"تفكير صائب، مع ذلك. وبماذا خرج ديكerman؟".

"إنك تطرح جميع الأسئلة الصعبة. ترك ديكerman رسالة تفيد أنه حصل على نتائج مثيرة للاهتمام. لم يكن ليقول مثيرة للاهتمام لو لم تكن كذلك بالفعل. لكنني لم أستطع الاتصال لأنني كنت في المحكمة طوال اليوم. كما أنتي لم أرد أن يدونها على الورق. هنا، سينتسرّب ذلك خلال ثلاثة أيام".

شرح براند لتومي أنها جاءت إلى المقر الرئيس للشرطة لأن ديكerman أجرى جراحة في الركبة في الأسبوع الفائت، ولم يكن يستطيع الخروج. وكان براند يعتقد أن توأجه تومي ضروري كي يطرح جميع الأسئلة التي يريد طرحها. وذلك لم يكن تفكيراً سيئاً أيضاً.

و جداً إحدى مساعدات ديكerman تمسك بباب طوارئ مفتوحاً في القبو. فسار الثلاثة في المرات المظلمة نحو المملكة التي يحكمها ديكerman. وكان مو ديكerman، الشهير باسم ملك بصمات الأصابع، أكبر موظف في شرطة مقاطعة كابيندل الاتحادية - اثنان وسبعون عاماً - ومن دون أدنى شك أجلهم قدرأ. وكان أهم خبير في بصمات الأصابع في منطقة الغرب الأوسط، وله مؤلفات رائدة حول عدة تقنيات، وهو محاضر دائم في أكاديميات الشرطة حول العالم. والآن، وبعد أن أصبح علم الأدلة الجنائية مادة ساخنة في التلفزيونات، فنادرأ ما تقلب المحطات من دون أن تشاهد ديكerman يرفع نظارته ذات الإطار الأسود فوق أنفه في أحد برامج الجريمة الواقعية. في قسم يتسم دائماً - وليس نادرأ - بالتناقض بالفضيحة - مثل معظم مراكز الشرطة المدنية - لربما كان مو ديكerman هو الرمز الوحيد للنظافة غير القابلة للشك.

لكنه كان شخصاً مزعجاً في الوقت نفسه. ولقبه ملك بصمات الأصابع، لم يطلق عليه من منطلق الإعجاب فقط. فقد كان ديكerman يعتبر آراءه مُنزلة، ولم يكن يتحمّل حتى مجرد مقاطعة حدّيثه. فإذا أخطأ وأقاطعه، فهو ببساطة سينتظرك حتى تفرغ من كلامك ومن ثم يعود إلى البداية من جديد. كما أنه لم يكن محبوباً لدى كبار الضباط بسبب

الطريقة التي يرفع من خلالها من موقعه الشعبي بالتهديد بالاستقالة ما لم يجئ المختبر في قبو ماك غراث هول بأحدث الابتكارات. أموال ربما كان من الأفضل في بعض الأحيان صرفها على سترات واقية للرصاص أو على العمل الإضافي.

تقدّم مو على عكازيه للترحيب بهما.

قال براند: "هل أنت مستعد لمسابقة الرقص؟".

مو ديكerman، النيويوركي النحيل ذو الشعر الكثيف الذي بدأ يظهر لتوه فقط بعض المشيب، طوى مرفقه وهزهما بضع مرات على الجانبين. قدّم براند شكره الصادق على استجابة مو السريعة لطلبهما قبل أن يقودهما الأخير نحو مختبره، وهو عبارة عن صالة باهتة الإضاءة مقسّمة إلى مقصورات مزدحمة وصناديق مُسندة على أعمدة وعدة مساحات تضم معدات مو الثمينة.

وقف أمام الجهاز المفضل لديه حالياً، ويدعى وحدة الترسيب المعدنية الفراغية. اعترض كبار القادة على هذا الجهاز عدة سنوات لأنهم كانوا يخشون أن يشرعوا المجلس المدينة أو للعامة سبب حاجتهم إلى ماكينة تُظہر - حرفاً - بصمات الأصابع في الذهب.

عندما كان تومي محامي ادعاء متدرباً، لم تكن بصمات الأصابع أكثر من رطوبة ذات شكل مميز تُظہر بواسطة النينهايدرين أو بعض الböدرات الأخرى. فإذا جفت البصمة، فلم يكن باستطاعتك فعل أي شيء في العادة. ولكن، بدءاً من الثمانينيات، عرف خبراء مثل مو كيف يُظہرون الأحماس الأمينية التي يخلفها عرق الإنسان. وفي هذه الأيام، إذا ظهرت بصمة مخفية، فتّمة إمكانية في بعض الأحيان لاستخراج الحمض النووي منها أيضاً.

وحدة الترسيب المعدنية الفراغية حجرة فولاذية ارتفاعها قدمان وعرضها ثلاثة أقدام. وكل شيء داخلها كان يكلف ثروة: كأطباق تبخير مصنوعة من الموليبيديوم، ودوّار للمزدوج، ومضخات تنتج خلأً في أقل من دقيقتين؛ ومبرد سريع الدوران لتسريع العملية من خلال

إزالة الرطوبة؛ وحاسوب يتحكم بالعملية برمتها.

وبعد وضع جسم ما داخل الوحدة من أجل فحصه، تُرَشّ بضعة ميلigrامات من الذهب على أطباق التبخير. ثم تقوم المضخات بإحداث الفراغ، ويمر تيار هوائي جارف على الأطباق فيُخَرِّ الذهب الذي امتصته بقايا بصمات الأصابع. وبعد ذلك يُخَرِّ الزنك، الذي يتَسَقَّ - لأسباب كيميائية - في الأودية بين خطوط البصمات الحلزونية. وكانت الصور الفوتوغرافية الشديدة الوضوح لبصمات الأصابع الذهبية الناتجة تذهل لجان المحلفين على الدوام.

أصرّ مو على شرح العملية كلها من جديد، بالرغم من أن تومي وبراند سمعا هذه المحاضرة عدة مرات من قبل. لكن ما وضعه مو في الوحدة يوم أمس كان قارورة بلاستيكية من وصفة الفينيلازين التي جلبها راستي. ولقد خَلَفَ أربع بصمات واضحة: واحدة في الأعلى وثلاثة في الأسفل. وكانت القارورة البلاستيكية الرمادية، المغبرة بالذهب، موضوعة في كيس من النايلون مغلق على طاولة بجانب الجهاز.

قال تومي: "لمن هذه؟".

رفع مو سبابته في الهواء. كان سيرجيب في الوقت الذي يراه مناسباً.

"قارناها مع بصمات أصابع المتوفاة. مع مشاكل متوقعة. إنني أتحدث مع الشباب في مكتب أخصائي الأمراض منذ عشرين عاماً، لكنهم ما زالوا يأخذون بصمات الموتى كما لو أنهم يمسحون الأرض. إنهم لا يديرون الأصابع، بل يسحبونها". أراهما ديكرمان البطاقات العشر التي أعدّها التقنيون كجزء من عملية التشريح. "لا يوجد شيء يشبه بصمة مميزة على الإصبع الوسطى أو الإصبع الصغرى من اليد اليمنى". ضمن جميع البطاقات المربيعة الشكل التي أشار إليها ديكرمان لم يكن هناك أكثر من لطخة حبر. فهز ديكرمان رأسه بشيء من اليأس. "على أي حال، يمكنني أن أقول لكم بصورة قطعية إن البصمات الأربع على القارورة التي أردتما أن أفحصها لم تكن ناتجة عن ثمانٍ

من أصابع السيد سايبি�تش العشر".

قال براند: "إذاً، هل يمكن أن تكون أصابع باربارا؟".

قال مو وهو يشير إلى البصمة الكبرى في الصور: "ليست هذه، لأنها بصمة إبهام بكل وضوح. ولكن، في هذه المرحلة، لا يمكنني أن أقول إن البصمتين الباقيتين آتيتان من إصبع باربارا الوسطى، أو حتى ربما الإصبع الصغرى".

قال تومي: "والآن، ما الذي تقصده؟". رجع براند خطوة إلى الخلف وراء ديكerman، وحرك عينيه بشكل دائري نحو الأعلى. لم يعجبه أسلوب مو.

"إذاً، تمثلت الخطوة التالية في معرفة الشخص الذي تعود إليه هذه البصمات. وأعتقد أنكما تظنان أنها لشخص محدد، لكن جيم وروري لم يشاءاً أن يعطيانني أي اسم. ولهذا، مررنا البصمات عبر نظام AFIS. قال مو مشيراً إلى نظام تمييز البصمات من خلال الحاسوب، والذي يحوي صوراً لجميع البصمات في البلد، والتي جرى جمعها على مدار عدة عقود. "وقارنا البصمات مع بطاقتي بضمات مختلفتين". وضع مو البطاقتين اللتين أخذهما من أرشيفه الخاص. واحدة تحوي البصمات التي قدمها راستي عندما بدأ العمل لصالح البلدية منذ خمسة وثلاثين عاماً. والبصمات الأخرى أخذت عند اتهامه بالقتل. "جميع البصمات الأربع على القارورة تعود إليه". تحسس مو البطاقتين برقعة ثم أضاف: "لطالما أحببت راستي".

رسم جيم ابتسامة صغيرة راضية. لقد عرف منذ البداية، وتومي سيعرف له بهذا كلما تحدث حول القضية في السنوات القادمة.

قال تومي: "وكيف نعرف أن سايبيش لم يخرج القارورة من علبتها لمساعدة زوجته فقط؟".

كانت لدى مو الإجابة على هذا السؤال. لقد أخذ الأوراق التي كانت بحوزة روري في ذلك اليوم في قاعة القاضي والاش.

"أشارت الوصفة الطبية إلى عشرة أقراص. ولكن، عندما جرد

رجال الشرطة خزانة الأدوية، كان في القارورة ستة أقراص فقط".
القطط مو الكيس الذي يحوي القارورة، وأرى تومي الأقراص البرتقالية
الستة في أسفلها. "إذاً، فقد أخذ شخص ما أربعة أقراص منها. وما أراه
هنا هو أن الشخص الوحيد الموجودة بصمات أصابعه هنا هو القاضي".
قال تومي: "هل يمكن أن تكون قد لمست القارورة من دون أن
ترى بصمات؟".

ابتسم مو وقال: "أنت تعرف الإجابة عن ذلك يا توم. بالتأكيد.
ولكن وحدة الترسيب المعدنية الفراغية هي أفضل طريقة حصلنا عليها
لتمييز البصمات. وإذا كنت قد فهمت ما قاله جيم منذ قليل، فهذا يعني
بأن السيدة ساينتتش لمست القارورة أربع مرات من دون أن تترك
بصمات. فلدينا قارورات أخرى من خزانة الأدوية التي بدأنا بمعالجتها.
وحتى الآن، لدينا بصماتها على ثمان من تسع قوارير اختبرناها. وفي
النinth، البصمات ملطخة".

"هل يمكن أن تكون بصماتها؟".

"ممكن. ثمة نقاط تشابه، ولكن يبدو أن شخصاً آخر لمسها أيضاً،
ما يعني بأن فحص الحمض النووي يصبح أصعب، بتمييز الأشكال
الجينية وأخذ ما يكفي للاختبار".

قال براند: "هذا سيكون برهاناً صعباً بالنسبة إلى أي محامي دفاع؛
بالقول إنها اقتربت من الفينيلزين، إذا، كانت بصماتها تظهر على كل
الزجاجات الأخرى، ما عدا هذه".

سألك تومي وبراند المخرج الخلفي نفسه الذي دخل منه. فكان
تومي لا يزال غير راغب في مصادفة أي من رجال الشرطة الكثر الذين
يعرفهم، لأنهم حتماً كانوا سيتساءلون عما يفعله المدعى العام هنا. وعند
الباب، بقي براند لبعض الوقت كي يشكر ديكرمان مجدداً ويناقش معه
الجولة التالية من الأخبارات، في حين خرج تومي إلى الهواء البارد
ليفكر فيما سمعه للتو. فالسماء فولاذيّة اللون التي ستسود في مقاطعة
كايندل طوال الأشهر الستة القادمة - كما لو أن المدن الثلاث وقعت

تحت غطاء قدر من الحديد الصلب - كانت تطبق عليهم شيئاً فشيئاً.
"لقد فعلها مرة أخرى". الكلمات ، الفكرة ، ترددت داخل توسيع
مرة بعد مرة. راستي فعلها مجدداً. ابن الساقطة فعلها مجدداً. فلم يتعلم
من الخطأ الأول. وكان توسيع غاضباً. لطالما كان الغضب يتراافق مع
راستي بالنسبة إلى توسيع ، بالرغم من أن حدته قلت بمرور السنين.
لكنه كان يفكر أيضاً في تبرئة ساحتة. لقد انتظر طويلاً. وراستي أظهر
معدنه الحقيقي. عندما سمعت كل شيء في المحكمة ، فما الذي سيقوله
الناس لتوسيع؟ أولئك الذين ظلوا العقود ينظرون إليه بازدراء على أنه
رجل شرطة فاسد أفلت بفعلته كما يفعل رجال الشرطة الفاسدون غالباً.
لكن الغريب في الأمر ، وسط ردود الفعل المتوقعة هذه ، هو ذاك
الخاطر الذي خطر في ذهن توسيع فجأة. لو لم يتمكن من العيش مع
دومنغا ، ماذا كان سيفعل؟ هل كان سيرتكب جريمة قتل؟ لا يوجد شيء
يريده الناس في حياتهم أكثر من الحب. لقد فهم توسيع كل شيء: لا بد
أن راستي كان يحب تلك الفتاة.

الفصل التاسع عشر

آنا ، 25-24 أيلول 2008

أنا أحب نات. أحبه فعلاً، وبكل جوراهي. وقبل الآن، كنت أعتقد في أغلب الأحيان أنني كنت على حافة المهاوية، لكنني الآن أستيقظ مذهولة بالروعة المطلقة لهذا الحب. لقد تعلقنا ببعضنا منذ اليوم الذي جاء فيه إلى المحكمة العليا، ونحن نمضي كل ليلة معاً، باستثناء رحلة وحيدة إلى هيوستن اضطررت للقيام بها. تبيّن أن الكساد الجديد - الذي تسبب بهلع في دنيا الأعمال، و يجعلني في أوقات الهدوء أقلق بخصوص عملي بالذات - كان مباركاً بالنسبة إلى علاقتي مع نات، فأنا أستطيع مغادرة العمل في الخامسة مساء في معظم الأيام. نحن نطهو. نغوص بالحميمية. ونتبادل الأحاديث لساعات وساعات. وكل ما يقوله نات يرضيني، أو يؤثّر فيّ، أو يضحكني. ولا نخلد للنوم قبل الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. وفي الصباح ، بالكاد نستطيع جرّ نفسينا من السرير للذهاب إلى العمل. وقبل المغادرة، أنظر إليه بجدية وأقول: "لا يمكننا القيام بذلك دائمًا، بل يجب أن ننام هذه الليلة". فيجيب قائلًا: " صحيح ". ونمضي ساعات النهار بطينة ومعذبة بالنسبة إلى إلى أن أتمكن من العودة إليه، وعندها تبدأ دورة السعادة الخالية من النوم من جديد.

انتقل نات للعيش معي في الأسبوع الأول، ولم تتحدث مطلقاً حول المكان الذي سيذهب إليه في نهاية الشهر. إنه سيكون معي. هذا يشبه ما يقوله لي الجميع دائمًا: عندما يحدث ذلك، فستعرفين. سألني معالجي النفسي ، دينيس - لأن ذلك هو عمله - عما إذا

كانت استحالة وضعنا جزءاً من سبب حبي له، أو إذا كنت قادرة على منح نفسي فقط لأنه لا ينبغي عليَّ فعل ذلك. لا يمكنني الإجابة عن مثل هذه الأسئلة. هذا لا يهم. فأنا سعيدة، وكذلك نات.

أما بالنسبة إلى راستي، فقد قررت تتبئه فقط. لقد استبدَّ به الغضب عندما كان جالساً على ذلك الكرسي المرتفع في فندق دولسيمر. فلم أستغرب ذلك، ليس لأنني كنت أتمنى هذه النتيجة، كما أدعى، ولكن لأنني أحسست دائماً بأن هناك لبناً منصهاً خلف ذلك المظهر الخارجي المتحفظ. ولكتنا مع الوقت سمعتاد على الوضع، فلدينا شيء واحد جوهري مشترك. كلانا نحب نات.

في هذه الأثناء، قررت أن أبقى بعيدة عن راستي، وهو أمر ليس سهلاً كما كنت أتوقع. باربارا تتصل بابنها نات كل يوم، وهو يرفع السماعة ويحاول اختصار المكالمة قدر الإمكان. وغالباً ما تقصر حواراتها على أشياء عملية مثل، أخبار العائلة والحملة الانتخابية، أسئلة حول البحث الذي يجريه، أو حول ترتيباته المعيشية التي يتوقعها في نهاية الشهر. وأخر هذه الاستجوابات أوحى بأنه سيضطر عاجلاً أم آجلاً لإخبارها عنِّي. وقد حذَّرني بأنه لن يكون أمامه خيار آخر، لأن أمِّه كانت فيما يبدو تأمل بعودته إلى البيت مجدداً. ومع ذلك، رجوته ألا يفعل.

"لماذا؟".

"يا الله، نات! ألا يبدو ذلك كثيراً لقوله لها دفعة واحدة. نحن نتقابل، وبعد ذلك نحن نعيش معاً. سيبدو ذلك جنوناً. ألا يمكنك إخبارها بأنك ستسكن مع صديق وحسب؟".

"أنت لا تعرفين أمِّي. من هو الصديق؟ ماذا يعمل؟ أين نشأ؟ في أي مدرسة تعلم؟ ما نوع الموسيقا التي يستمع إليها؟ هل لديه صديقة؟ أعني، إنني لن أفلت منها أبداً".

وهكذا، اتفقنا على أن يخبرها بشأن علاقتنا. أصررت على الوقف بجانبه كي أستمع للمحادثة بينهما، لكنني دفت رأسِي في إحدى وسائد

أريكتي عندما وصف نفسه بأنه "زومبي حب".

قال بعد إنتهاء المكالمة: "إنها مبتهجة؛ مبتهجة تماماً. تريدنا أن نأتي على الغداء".

"نات، رجاء. لا".

أحسست من الطريقة التي ضم بها حاجبيه بأنه بدأ يستشعر غرابة في حدة موقفي من والديه.
وكأنك لا تعرفينهما".

"سيكون الأمر غريباً، نات. نظراً لحداثة علاقتنا. لا تظن أن علينا التواصل مع بعض الأشخاص العاديين أولاً؟ لست مستعدة لهذا بعد".
"أعتقد أنه يجب علينا الانتهاء من هذا الأمر. ستطلب مني ذلك كل يوم. راقيبي".

هذا ما قامت به بالفعل. رفض دعوتها بتهذيب مستخدماً الأعذار العادية؛ مثل عمله أو عملي. لكنني بدأت أفهم ، يوماً بعد يوم ، الترابط المتتبادل بين نات وأمه. فباربارا تحوم حول حياته مثل شبح متطلب لا يملك وجوداً أرضياً خاصاً به. وهو يشعر بالحاجة إلى إرضائهما. وهي تريد أن ترانا معاً، لكنها تجد مشقة في مغادرة منزلها. ولهذا يجب أن نذهب نحن إليها.

قلت له الأسبوع الماضي: "بإمكانك أن تقول لها لا ببساطة".
ابتسم وقال: "حاولي أنت". وبالفعل، في الليلة التالية ، مد هاتفه الخلوي في اتجاهي قائلاً: "تريد التحدث معك".

اللعنة، قلت بتحريك شفتي من دون إصدار أي صوت. كان حواراً سريعاً. أخبرتني بحماسة وعاطفة واضحتين كيف أنها وراستي يشعران بالرضى لعلاقتي مع نات. ألن تأتينا وتسمحا لنا بمشاركتكما سعادتكما للليلة واحدة فقط؟ مثل الكثير من الأشخاص اللامعين الذين يعانون مشاكل، باربارا ماهرة جداً في حشرك في الزاوية. فما كان مني إلا الموافقة.
وبعد انتهاءي من التحدث معها، دفت رأسى بين يدي وجلست.
قال نات: "أنا لا أفهم هذا. ظلت أمي سنةً ونصف السنة تطلب

مني أن أطلب منك الخروج معي. أنت الفتاة الوحيدة التي استحسنت أمري علاقتي بها. فكانت ترى كات غريبة الأطوار، وتعتقد أن بالوما كان لها تأثير سيئ عليّ.

"ولكن، ما رأي أبيك بهذا الأمر، نات؟ ألا تظن أن هذا سيكون غريباً بالنسبة إليه؟".

"تقول أمي إنه راض تماماً ومحمس جداً.
"هل تحدثت معه؟".

"سيكون على خير ما يرام. خذيهما مني. سيكون جيداً." لكنني لا أستطيع أن أتصور أن حماسة باربارا حيالنا أنا ونات، أو فكرة رؤيتنا معاً، يمكن أن تفعل أي شيء سوى تدويخ راستي. وهذا اليوم في المكتب، عندما دخلت الإنترن特 لأتحقق من بريدي الإلكتروني، خفق قلبي بقوة عندما رأيت رسالتين في صندوق بريدي من حساب راستي. وعندما فتحتهما، تبين لي، بصورة تدعو لل裳غраб، أنهما إبلاغان باستلام رسالتين إلكترونيتين كنت قد أرسلتهما في أيار 2007، أي منذ ستة عشر شهراً.

استغرقت بعض الوقت لربط الأمور معاً. فعندما كنت على علاقة مع راستي، كنت أنا من يحجز الغرف في الفنادق بما أنه لم يكن يستطيع استخدام بطاقة اعتماده. وكنت أرسل تثبيت الحجز له بواسطة البريد الإلكتروني، وأطلب إبلاغاً بالاستلام كي أتأكد من أنها وصلت وكى لا يتකبد عناء الرد عليّ. وغالباً ما كنت أرسل هذه الرسائل على مراحل: التثبيت الأولى تذكر بالموعد في صباح اليوم الذي سنلتقي فيه، ومن ثم رسالة تحوي رقم غرفة الفندق بعد الحجز. وبما أنني كنت أستلم ردوداً منه، فقد أدركت أن الرسالة الوحيدة التي كان يفتحها، في أغلب الأحيان، هي الرسالة الأخيرة، حيث كان يقرؤها على جهازه محمول وهو في طريقه إلى الفندق، من دون الاضطرار للمجازفة بمراجعة الرسائل الأخرى بوجود أشخاص حوله.

و والإبلاغان اللذان وصلااليوم هما من تلك الرسائل الإلكترونية

التي ذهبت من دون أن تُفتح في السنة الماضية. وفي البداية، اعتبرت هذا ضرباً من ضروب الملاحمات المنحرفة؛ محاولة لذكرى بما كان عليه ليس قبل وقت طويل. ولكن، بالتفكير في الأمر مرة أخرى، أتجه للظن أنه ربما لا يعرف أن الرسالتين آتنيان إلى. فعندما تفتح رسالة إلكترونية طلب مرسلها إبلاغاً بالاستلام، تظهر نافذة تنذرك بأن الإبلاغ سيرسل. وهذه النافذة تحوي نافذة صغيرة تقول، "لا تُظهر هذه الرسالة ثانية لهذا المرسل". لعله اختار هذا الخيار منذ وقت طويل. وفي النهاية، أقرر أنه ربما ثمة تفسير إيجابي هنا، وهو أن راستي يقوم أخيراً بما توجب عليه فعله منذ ستة عشر شهراً؛ أي محو كل رسائل.

وفي العاشرة من صباح اليوم التالي، أجده ثلاثة رسائل أخرى. والأسوأ من ذلك، أدرك حينئذ أن محو الرسائل لا يستتبع إرسال إبلاغات بالاستلام، لأن المقصود من الإبلاغات تبيان أن الرسائل قد قرئت. وأتصور راستي في مكتبه يعيد عيش هذه التفاصيل فأشعر بالقلق، وحتى بالخوف. فأقرر أن الحل الوحيد يمكن في مفاتحة راستي بالأمر صراحةً. فأرفع سماعة الهاتف وأتصل برقمه الداخلي فترد عليّ مساعدته بات.

"آنا! كيف حالك؟ نحن لا نراك كثيراً."

وبعد دقيقة من المجاملات، أقول لها إن لدى سؤالاً لأطرحه على القاضي بخصوص واحدة من قضائياً، وأطلب منها التحدث معه.

"أوه، سيبقى في المحكمة طوال فترة الصباح يا عزيزتي. لقد غادر منذ أكثر من ساعة. ولديهم مرافعات متالية. فلن أراه حتى الثانية عشرة والنصف".

احتفظ بهدوئي قائلة إنني سأتصل بويلسون، زميلي في الشركه، للحصول على المعلومات التي أحتاج إليها، لكنني عندما أعيد السماعة إلى مكانها،أشعر بالذعر والتشویش لدرجة أنني أبقي يدي ممسكة بالسماعة لبعض الوقت. وأقول لنفسي إنني فهمت الأمر خطأ، وإنه لا بد أن يكون هناك تفسير آخر. أعود إلى حاسوبي وأدقق في إبلاغات الاستلام

مجدداً، لكن الرسائل الثلاث كلها أرسلت من حساب راستي منذ أقل من نصف ساعة، في حين أن بات يقول إنه موجود في المحكمة وبعيد عن حاسوبه الشخصي.

عندئذ يأتيني الإدراك المرعب. فالكارثة التي كانت متوقعة دائماً وقعت الآن: إنه شخص آخر. شخص ينظر إلى سجل لقاءاتي مع راستي: الفنادق والمواعيد. ولوهلة مفزعـة أخـشى الأسوأ، متسائلـة عـما إذا كان هـذا الشـخص هو نـات. لكنـه كانـ في اللـيلة المـاضـية رـقيقـاً وـمحـباً إـلى أـبعد الـحدودـ، وـهو أـصدق وـأنـقـى سـرـيرـة منـ أـن يـقدـر عـلـى الـاحـفـاظ بـمـثـل هـذا النـوعـ منـ الـاكـتـشـاف لـنـفـسـهـ.

بيـدـ أنـ اـرـتـياـحـي لاـ يـدـوـمـ أـكـثـرـ مـنـ ثـانـيـةـ وـاحـدـةـ، وـعـنـدـئـذـ أـدـرـكـ الإـجـابـةـ بـتـأـكـيدـ لـاـ يـقـبـلـ الشـكـ فـيـتـجـمـدـ قـلـبـيـ فـيـ صـدـريـ. فـهـنـاكـ شـخـصـ وـاحـدـ يـمـلـكـ الـقـدـرـةـ لـغـزـوـ حـسـابـ رـاستـيـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـ، وـالـوقـتـ الـكـافـيـ لـلـقـيـامـ بـهـذـاـ التـدـقـيقـ الـمـجـهـدـ.

إنـهاـ تـعـرـفـ.

بارـبارـاـ تـعـرـفـ.

مـكـتبـةـ

t.me/t_pdf

الفصل العشرون

تومي، 31 تشرين الأول، 2008

بعد لقائهما بديكرمان في ماك غراث هول ، لم يتحدث تومي وبراند بكلمة واحدة إلى أن دخل المرسيدس .

قال براند حينئذ: "نحن بحاجة إلى حاسوبه الموجود في المنزل. وإنها الفرصة الحقيقة الوحيدة لمعرفة الفتاة. وأريد إصدار مذكرة بحث اليوم. ونحن بحاجة إلى التحدث مع الولد بسرعة لنرى ما سيقوله بشأن ما كان يجري بين الأم والأب".

"هذا هو المربع الأول يا جيمي. إنه سيخسر الانتخابات".
"ول يكن. إننا نقوم بعملنا فقط".

"لا، اللعنة". صمت نومي ليستجتمع نفسه. إنه يعرف أن براند قام بعمل عظيم في هذه القضية، وأنه كان محقاً عندما كان هو نفسه على خطأ. ولم يكن لديه أي سبب للغضب منه. "أعرف أنك ترى ذلك الشخص شيئاً ومعتوهأ ولعيناً وقاتلاً متسلسلاً يتبايناً منصباً رفيعاً جداً، وأنا أفهم ذلك، ولكن فكر، فكر. فإذا أبعدت راستي عن المحكمة فأنت تغذى نظرية الدفاع".

"أقصد نظرية المدعى العام الساعي للانتقام؟ هذا هراء. أخبرتك كيف نعالج هذا الأمر".

كان يشير إلى الحمض النووي . فحص بقايا المني من المحاكمة السابقة.

"هذا ما ستفعله في المرحلة التالية".

"اعتقدت أنك لا تريدين الحصول على أمر محكمة".
"لسنا بحاجة إلى أمر محكمة".

رمق براند الرئيس بنظرة عابسة، ثم شغل محرك السيارة، وبدأ بالقيادة. وفي الشارع ، بالقرب من قيادة الشرطة، كان هناك ستة أطفال تعبيدهم والدتاهم إلى المدرسة الابتدائية بعد فتره الغداء. وكلهم كانوا يرتدون الزي المدرسي. واثنان من الصبية كانوا يرتديان قناعين لباراك أوباما.

ففكر تومي أولأ في ما كان سيشرحه لبراند قبل عشر سنوات. في تلك الأيام ، كان قد انتقل للعيش مجدداً مع أمه لرعايتها في سنواتها الأخيرة. وكان ضجيجها - في الغالب سعالها جراء إصابتها بالنفاخ الصدري - يواظه من نومه على السرير القابل للطي في غرفة الطعام. وعندما كانت تهدأ من جديد، كان تومي يفكر في كل الأشياء التي آلمته في حياته، ربما كطريقة لإنقاص نفسه بأنه قادر على تجاوز هذه المحنة أيضاً. وبين الحين والآخر ، كان يفكر في محاكمة راستي التي تسببت بأذى معنوي كبير له. وكان يعرف أن تحليل الحمض النووي يمكن أن يرضي الجميع ، سواء أكان راستي قد نال حكماً عادلاً أم أفلت بجريمه. وكان يبحث نفسه على التفكير في كيفية القيام بذلك . ولكنه كان يحذر نفسه من التماادي في هذا الأمر في الصباح . فاللهُمَّ قتل القطة . آدم ، حواء ، والتفاحة . وبعض الأشياء ليس مقدراً عليك اكتشافها . لكنه الآن يعرف وأخيراً . فقد راجع الخطة مجدداً في رأسه مرة أخرى ، ثم أخبرها لبراند بالتفصيل .

في هذه الولاية - مثل معظم الولايات - قانون يفرض جمع قاعدة بيانات الحمض النووي . المواد الوراثية المجمعة في أية قضية قدمت فيها أدلة على وجود عنف جنسي يفترض أن تُصنَّف وتضاف إلى ملف القضية . وأئتم راستي بارتكاب جريمة قتل ، وليس جريمة اغتصاب ، لكن نظرية الولاية قالت بإمكانية تعرض كارولين لانتهاك جنسي كجزء من الجريمة . وعلى هذا الأساس ، بوسع شرطة الولاية - من دون أمر

من المحكمة أو أي نوع من أنواع التخويل - أن تسحب عينات الدم والمني من محاكمة راستي الأولى من ثلاثة أخصائي الأمراض التابع للشرطة غداً. وبوسع براند، على سبيل التغطية، أن يطلب من تقنيي الأدلة إرسال جميع العينات المحفوظة من قبل 1988 إلى شرطة الولاية، مفسراً ذلك بأنهم يريدون الأقدم أولاً لمنع المزيد من التحلل.

أحب براند الفكرة. فقال: "بوسعنا القيام بذلك الآن أو غداً. ويمكننا الحصول على نتائج خلال بضعة أيام. هذا عظيم. وإذا تبين أنه كان مذنباً، فبوسعنا الهجوم على نطاق واسع: مذكرة تفتيش لحاسوبه واستجوابات. أليس كذلك؟ يمكننا فعل ذلك مع نهاية الأسبوع. ولا بد أن نفعل هذا، أليس كذلك؟ ولن يتمكن أحد من معارضتنا. هذا عظيم. هذا عظيم!". وضع ساعده التقيل على كتف مولتو وهزه بابتهاج وحماسة بينما كان يقود السيارة.

"لقد فهمتني خطأ يا جيمي. هذا هو الخبر السيئ".

ذهل براند من كلمات الرئيس. هذا ما كان تومي يفكر فيه لعدة ليالٍ من الأسبوع الماضي.

"جيمي، لدينا خبر سيئ وخبر أسوأ هنا. فإذا لم نحصل على تطابق العينة مع راستي فسنفشل فشلاً ذريعاً ذريعاً، وستُنْقَل القضية. أليس كذلك؟".

لم يجب براند بل اكتفى بالنظر إلى تومي.

"الأمر دقيق جداً يا جيمي. وأريد منك فقط أن تفهم قبل أن نهرع إلى المختبر أنتا في وضع ليس فيه حل وسط، إما أن تصلحه أو تكسره". قال براند: "يا الله!". ثم راح يعيد على مسمع تومي جميع الأدلة من جديد؛ إلى أن قاطعه تومي.

"جيمي، كنت محقاً طوال الوقت. إنه شخص سيئ. لكننا إذا أثبتنا أنه لم يرتكب الجريمة الأولى، فلن نتمكن من اتهامه الآن. وسنكون مثل أحمقين راغبين بالانتقام يحاولان إعادة صياغة حقيقة لا تعجبهما. وهذه القضية بسماكة ورقه. وإذا أضفنا حقيقة أن راستي أتهم خطأ من

قبل المكتب نفسه، إلى جانب كونه رئيس محكمة الاستئناف، ووجود الجميع كشهود محابين له، فلن نحصل على إدانة أبداً. لذا، فنحن بحاجة إلى أن نعرف ما سيكشفه تحليل الحمض النووي الآن. لأنه إذا برأه في القضية الأولى، فسنكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق".

كان براند يحدّق إلى حركة المرور التي كانت تزداد كثافةً مع اقترابهما من مركز المدينة. وكان الموظفون يخرجون من وظائفهم لتناول الغداء وهم يرتدون شتى أنواع الأزياء الرسمية.

قال براند: "حتى لو برأته نتيجة الحمض النووي من القضية الأولى، فليكن. لا بأس، نحن فاشلون أغبياء. ولا علاقة لدّوافع المذعّين العامين بالقضية".

"لكن دوافع المتهم موجودة. فأنت تريدين تقديم قضية ظرفية، وتحاول إقناع الآخرين بأن هذا الشخص سيجازف بقتل زوجته. ألا تظن أنه قادر على إظهار أنه اتهم ذات مرة بجريمة قتل لم يرتكبها؟ ألا تعتقد أنه سيسغّل مثل هذه الفرصة الآن؟".

"اللعنة، لا معرفة لي بهذا المعنوه. ربما سيسغّل الفرصة، أجل. نحن أمام شخص يفهم النظام تماماً. فلعله ذكي بما يكفي للاعتقاد أننا لن نستطيع ملاحقة بسبب القضية الأولى. ولعله يعتقد أن الحمض النووي سيمنحه محاولة مجانية هذه المرة".

"وهو سيكون مصيّباً". نظر كل منهما في عيني الآخر إلى أن تراجع براند للنظر في ساعته. أقسم له إنه فعل ذلك لأنّه كان متّاخراً. فكر تومي في أن يعرض عليه رَكْن السيارة بدلاً منه، ولكنه رأى أن براند لن يتقدّم أي مزاح في حالته تلك.

قال براند: "سندينه في القضية الأولى. أراهن بخمسين أننا سندينه". "وهذا سيكون الخبر السيئ. وأفضل شيء يمكن أن يحدث معنا هو أن نحصل على مبرر للخروج من هذه القضية. والخبر السيئ حقاً هو أن يتبيّن أن عينة المني تعود لراستي منذ عشرين عاماً. لأنه إذا كان هو الفاعل، فهذا يعني بأننا لن نقبل بالسماح له بالوصول إلى المحكمة

العليا. لا نستطيع".

"هذا ما أقوله لك. وسيتفهم الجميع. وسيعرفون أننا لا نطارد أشباحاً".

"لكننا سخسر. وهذا هو الخبر السيئ حقاً. ولدينا قضية سخسرها ينبغي علينا تقديمها. لأن الحمض النووي ليس في يد الادعاء أبداً. أبداً. إنه طريق ذو اتجاه واحد. لقد بُرئ. فلا نستطيع استخدام الدليل القديم الآن. ولن يكون له أي معنى من دون إعادة المحاكمة في القضية القديمة، ولن يسمح أي قاض بذلك. إضافة إلى ذلك، كانت هناك شكوك كثيرة بخصوص العينة مع نهاية تلك المحاكمة، وتسعة قضاة من أصل عشرة لن يعترفوا بها الآن. وإذا كانت نتيجة تحليل الحمض النووي لصالح راستي، فسيقبلونها، وإذا كانت ضده فستُرَفَض. لذا، فإننا أمام قضية ضعيفة، حتى مع الحمض النووي، بحيث سنرجو الله ألا يطلب منا تقديم جميع الأدلة على ارتكاب الجريمة، لأننا لا نملك برهاناً كافياً على وجود جريمة".

"لا". هز براند رأسه الرابض على رقبته التخينة، "مستحيل. إنك تصعب الأمور أيها الرئيس. لدينا أدلة كافية".

"لا يا جيمي. لقد قتلها من قبل. وهذا الشخص ذكي؛ ذكي جداً. وإذا كان هو من قتلها، فهذا يعني أنه فكر في الأمر ملياً، ثم فكر كيف سيقوم بذلك من دون أن يُدان. وهذا ما سيحصل".

وصل في ذلك الحين إلى المحكمة. فنظر براند إلى تومي وقال: "هذا سيكون خبراً سيناً بالفعل".

الفصل الحادي والعشرون

نات، 28 أيلول، 2008

لا تكون على علاقة مع شخص ما إلا حينما يرى كل منكما الأشياء الخاصة للآخر. على سبيل المثال، أحياناً، لا تستطيع التحدث لساعة كاملة بعد التعامل مع والدي. وفي ما يتعلق بي، إنها تفقد عقلها تماماً عندما آتي فقط على ذكر بريموند هورغان؛ الشخص الذي كانت ترتبط معه بشيء ما. وفي بعض الأحيان، يستغرق الأمر بعض الوقت لدخول زوايا الجنون الصغيرة التي يحاول الجميع إخفاءها. وكان قد مضى على ارتباطي بكاث عام كامل تقريباً، وكانت تعتقد أنها طبيعية أكثر من اللازم معي، فإذا بها تستيقظ من نومها ذات صباح وهي تشكو من ألم في ركبتيها. وعندما سألتها كيف تلتقت هذه الإصابة، نظرت إلى بجدية واضحة وقالت: "لقد ضربت بصولجان عندما كنت جندية صليبية في واحدة من حيواني السابقة". وفي تلك المرحلة، يتعلق كل شيء بمدى توافق توافهك مع توافهها. فهل يمكنكم أن تأخذوا نفسكم على محمل الجد بالرغم من ذلك وتحافظوا على انسجامكم؟

إن حياتي مع أنا، بصدق، رائعة إلى حد كبير، ولكن الشيء الوحيد الذي يجعلها مختلفة هو وجود والدي. وأعتقد أن الطريقة التي تفرض فيها أمي نفسها على تزوج أنا بالقدر الذي تزعجني فيه شخصياً. كما أن أنا، فيما يبدو، غير واثقة من علاقتها مع والدي. ولعلها مقنعة بأنه لن يراها إلا كواحدة من مساعديه. داخلياً، أعتقد أن إعجابها العابر بريموند له علاقة بهذا الأمر أيضاً. وأظن أنها تعتقد أن أبي يعرف، ولذلك فهي

شعر بخرج أكبر من التوажд بقربه.

بسبب كل هذا، انفعلت أنا بشدة عندما أخبرتها بأنني سأضطر لإخبار أمي بعلاقتنا، لأنها كانت لجوجة جداً في سؤالها عن المكان الذي سأعيش فيه في نهاية الشهر. وقد تساءلت في نفسي لوهلة إذا كنت سأحتاج إلى الاتصال بالنجدة بعد أن أخبرت أنا بأن أمي دعتنا لتناول الغداء. وفي النهاية، تكلمت أمي مع أنا فاضطررت الأخيرة للموافقة مرغمةً. ولكن، حتى بعد موافقتها على الدعوة، بدت أنا متوترة جداً من الفكرة بحد ذاتها. ليلة الخميس الماضي، عدت من المدرسة فوجدتها في المنزل جالسة في الظلمة تبكي، وبجانبها علبة سجائر وما لا يقل عن ثمانى سجائر في المنفضة.

سألتها: "ماذا؟". فلم أتلقَّ أي إجابة. كانت متجمدة بجانب طاولة المطبخ. وعندما جلست على الكرسي بجانبها، مدت يديها، وأمسكت بيديَّ.

"أحبك كثيراً جداً". وبالكاد تمكنت من إخراج الكلمات من خلال البكاء.

"وأنا أحبك أيضاً. لماذا تبكي؟".

رمقتني بنظرة غير مصدقة، متعنة في وجهي لمدة طويلة. وكانت الدموع تنهر من عينيها الخضراء مثل جواهر. "أنا، لا لا لا أريد لهذا أن يفشل. وسأفعل أي شيء لمنع هذا من الحدوث".

قلت: "إنه لن يحدث". بدا لي أنها استعادت توازنها خلال اليومين التاليين، لكنها اضطررت مجدداً اليوم، ونحن نستعد للذهاب إلى منزل أبي.

وفي أثناء عبورنا فوق جسر نيرينغ، تقول أنا: "ربما سأتفقاً". ومن المعلوم أن هيكل التعليق يتارجح في الهواء الشديد، لكنه يوم صاف جداً، وكأننا في فصل الصيف وليس الخريف، والشمس المائلة تلقي شبكة ذهبية على وجه الماء.

الجديدة، من طراز بريوس، إلى الغابة العامة ثم تخرج من السيارة

بسربعة. فألحق بها في الوقت المناسب لأمسكها من الخلف بينما هي تتقيأ في برميل زيت صدى يستخدم كبرميل قمامه. أسألها عما إذا كانت قد أكلت شيئاً ما أزعجها، على الرغم من علمي أنه ليس السبب.

"إنه هذا الأمر كله يا نات".

"يمكننا إلغاء الموعد، وإخبارهما بأنك مريضة". لا تزال ممسكة بالبرميل، لكنها تقول بإصرار: "دعنا ننتهي من هذا الأمر. دعنا ننتهي منه فقط".

وعندما شعر بتحسن كاف لتخطو بعض خطوات، نتوجه إلى طاولة رحلات متداعية ويجانبها مقعد يصدر صريراً مزعجاً، زُين سطح الطاولة بشعارات كُتبت بواسطة بخاخ طلاء وكل من براز الطيور.

تقول أنا: "يا الله!".
"ماذا؟".

تقول أنا بألم واضح وهي تمسك بخصل شقراء من شعرها: "لقد تقيأت على شعري".

أجلب من السيارة زجاجة نصف مشروبة من الماء ومنديلين ورقين باقين من وجبات سريعة سابقة، فنقوم بما في وسعها لتنظيف نفسها.

"قل لوالديك إنك وجذبني تحت جسر".

أقول لها إنها تبدو جميلة. ولكنها ليست كذلك في الواقع، فقد فقدت لونها كله، وشعرها يبدو وكأن مجموعة من الفئران خاضت سباق مضمار فيه.

تطلب مني القيادة عنها، وهذا يعني أنها ستتولى دوري في حراسة الكعكات الأربع العملاقة التي خبزتها أنا لكل منا بمبادرة طوعية منها، وكل واحدة تحمل اسم واحد منا عليها. وأبى سيحصل على كعكة الجزر التي يعشقها، وأمي على كعكة عناب مصنوعة من طحين الصويا. أما بالنسبة إليَّ وإليها، فقد أعدَّت شيئاً أقل نوعية بما لا يقاس، حيث اكتفت

بتحضير كعكتين بالشوكولا . فأمسكت بالصحن من الطرفين في حضنها ووضعت علبة آيس كريم اشتراها بين قدميها .

تقول لي آنا بينما أستعد لتشغيل المحرك : " هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً واحداً؟ لا تتركني لوحدي مع أي من والديك . هل أنت موافق؟ مزاجي لا يسمح لي بمبادلة الأحاديث الصريحة الآن . واطلب مني أن أراففك إلى الطابق العلوي لرؤية غرفتك أو شيء من هذا القبيل لابعادي عنهم ، أتوافق؟ ".

" موافق ". في الحقيقة ، لقد طلبت مني هذا الطلب عدة مرات من قبل .

وبعد دقائق قليلة نصل إلى المنزل الذي نشأت فيه . وفي هذه الأيام ، وفي كل مرة آتي إليه أجده مختلفاً: أصغر ، أقدم ، نوعاً ما يشبه المنازل في الحكايات الخرافية . ومنذ طفولتي وأنا أسمع أمي تقول إنها تنتظر العودة إلى المدينة بفارغ الصبر ، ولم تغير رأيها إلا عندما اقترح أبي عليها هذا الأمر منذ عدة سنوات . وحقيقة بقائهما هنا تعكس الجمود الطويل الأمد بينهما . إنها تفوز ، وهو يمتنع من ذلك .

تفتح أمي الباب حتى قبل أن أضع قدمي على العتبة . إنها تضع مكياجاً بسيطاً وترتدى بدلة رياضية خفيفة ، وهذا يعتبر تأنقاً كبيراً بالنسبة إليها عندما تكون في المنزل . فتعانقني وتستفسر بحماسة عن الكعكات المخبوزة بينما تأخذ الصحون من أنا ، وتطبع قبلة خاطفة على خدتها في السياق . وتعذر ونحن ندخل من الباب قائلة إنها تأخرت في إعداد الطعام لأنها أمضت ووالدي النهار بأكمله في العمل في الحديقة .

" أرسلت أباك إلى المخزن يا نات وسيعود سريعاً . تفضلاً إلى الداخل . آنا ، هل يمكنني أن أجلب لك شيئاً تشربينه؟ ".

أخبرتُ أنا بأن أمي تفضل الشراب الفرنسي الأحمر ، فاشترت زجاجة فاخرة لهذه المناسبة . لكن أمي قررت أن تتركها للغداء . ونأخذ أنا وأنا علىبني شراب شعير من الثلاجة في الوقت الحالي .

مزاج أمي لا يمكن توقعه أبداً . ولهذا السبب ، غالباً ما أتصل بوالدي

قبل توجهي إلى المنزل لأناقش معه حالتها، كما لو كانت باللون طقس. ولكنها نادراً ما تُظهر إثارة واضحة للعيان كما يبدو عليها اليوم وهي تتنقل بحيوية في أرجاء المطبخ. الحيوية ليست - في العادة - من ضمن مزاجتها المزاجية.

ولم يسبق لأنّا أن جاءت إلى هنا من قبل. وأمي، في الواقع، لا تفتح المنزل إلا للعائلة فقط. أقود أنا لأريها غرفة الجلوس وغرفة الاستقبال، وأعرّفها على أجدادي المتوفين كلهم الآن، وعلى أقاربها من خلال صورهم، وأدعها تتخسى مداعبة بينما أريها صور طفولتي. تقول أمي مشيرة إلى الغداء: "إنه بسيط. كما وعدت تماماً: ستيك. ذرة. سلطة. وربما مع القليل من الآيس كريم".

أتولى وأنا معاً أمر تحضير السلطة. فتشرع أنا، وهي الطباخة الماهرة، في إعداد المرق، مستخدمة زيت الزيتون والليمون الحامض. وفي هذه اللحظة يدخل أبي حاملاً أكياساً تحمل الشعار البرتقالي لشركة ميفادراغز للأدوية. ويضع الأكياس على حوض غسل الصحنون، ثم يمد يده إلى أنا، ويهنئني عناقًا سريعاً.

"لم أكن لأنتوقع هذا قطًّا. وهذا منطقى زيادة عن اللازم".
تضحك جميعنا، ثم تطلب أمي من أبي أن يلقى نظرة إلى الأشياء التي خبزتها أنا. يقطع جزءاً صغيراً من الطبقة العلوية من إحدى الكعكات فتصرخ أمي وأنا في الحال.

تقول أمي: "هيي، هذه لي".

يقول أبي: "أنت تملkin الاسم الأطول".

أرى أبي يخرج وهو يمشي في المطبخ فأسألة عن حال ظهره.
"سيئ حالياً. جعلتني أمك أحفر من أجل شجرتها التزيينية الجديدة طوال فترة بعد الظهر".

ترد عليه أمي: "إليك. خذ أقرانـص الأدفـيل هذه وتوقف عن الشـكوى. فالـتمرـين جـيد بالـنسبة إـليـك. وبـسبـبـ الحـملـةـ الـانتـخـابـيـةـ وكـنـفـ جـورـجـ مـاسـونـ المصـابـةـ، أـعـتـقـدـ أـنـكـ لمـ تـمـارـسـ أيـ نوعـ منـ الـرـياـضـةـ

طوال الشهر". يلعب أبي عادة كرة اليد مرتين في الأسبوع مع القاضي ماسون، وبالفعل فهو يبدو بدنياً أضعف قليلاً من المعتاد. فيضع الأقراص التي أعطته أمي إياها على حوض غسل الصحنون، ثم يذهب إلى غرفة الجلوس ويعود حاملاً كأساً من الشراب الفرنسي لأمي.

تسأله أمي بينما هو يفتح الثلاجة لأخذ علبة شراب شعير: "هل تذكريت المقبلات؟".

"أجل". لقد اشتري جبن تشاردر معنقاً وسجقاً متبللاً - المقبلات المفضلة بالنسبة إلى العائلة - وبالرغم من أن أمي لن تأكل الكثير منها. وهي تحب أيضاً سمك الرنة المحفوظ بالخل الذي جلبه إلى المنزل، لكنها ستأكل قطعة أو قطعتين فقط لأن الملح سيئ لضغط دمها. وقد جلب أبي أيضاً علبة لبن، وهو يمزجه الآن مع عصير البصل من أجل المرق، بينما تقوم أنا وأنا بقطع الجزر والكرفس.

وبينما نحن نك في العمل، تسأله أمي أنا عن عملها ثم تنتقل مباشرة - ومن دون رابط واضح مع ما سبق - لتسأله عن عائلتها.

"أنا وحيدة لأبوبي".

"مثل نات. ربما هذا شيء مشترك هام بينكمَا".

تقطع أنا البصل للسلطة فتساقط الدموع من عينيها، فتفعل مازحة: "لم تكن طفولة سيئة إلى هذه الدرجة".

نضحك ثلاثة بصوت عالٍ على هذه الملاحظة. ويبعدوا أن أنا عادت إلى طبيعتها. وأفهم سبب ذلك على الفور. ففي كل ربيع، ولسنوات عديدة لا يمكنني إحصاؤها، كنت مفتنتاً بأنني لا أذكر كيف أضرب كرة قاعدة، فإذا بي أجده نفسي مذهولاً من المرة الأولى التي أشعر فيها بصوت الارتطام وأسمع رنين المضرب.

تجنب أنا المزيد من الاستفسارات عبر سؤالها أبي حول الحملة الانتخابية.

يحبها أبي من دون أن يتوقف عن تقطيع السجق: "لقد سئمت كثيراً من سماع الأحاديث عن جون هارناسون".

تلقت أمي إليه من موقعها أمام حوض غسل الصحنون، وترمهه بنظرة حازمة ثم تقول: "ينبغي علينا عدم الخوض في أي من هذا. أبداً". أغمر أنا محذراً - كان ينبغي أن أفعل ذلك مسبقاً - من الخوض في هذا الموضوع.

يقول أبي: "سأنتهي قريباً يا باربارا".

"ليس قريباً بما يكفي. لم يتم والدك خلال الليل طوال هذا الشهر". يتصرف أبي كما لو أنه لم يسمع شيئاً، فهو أذكي من المجازفة بإبداء أي تعليق إضافي. يقدم لها طبق المقبلات الذي أعده هو وأنا وأنا. ثم يخرج قطع اللحم من الثلاجة ويبدأ في تتبيلها. يقول لنا إنه يحتاج إلى المزيد من مسحوق الثوم ويتوجه إلى القبو لجلبه.

يسألني أبي وهو يستعد لمواجهة النار: "أهذا اختصاص الرجال؟".

"ماما، هل تمانعين إذا ألقت أنا نظرة على الطابق العلوي بينما نحن

في الخارج؟ أريدتها أن ترى غرفتي".

"افعل أي شيء تحبينه هنا، أنا. تصرّ في بحرية. فنات لا يسمح لي برمي أي شيء. ألا تعتقدين أن رفأ ملينا بكؤوس كرة القاعدة هو ما يحتاج إليه منزلك الجديد؟".

تضحك جميعاً مرة أخرى. من الصعب معرفة ما إذا كان هذا المرح كنایة عن توتر أو استمتاع حقيقي، لكنه أمر غير مألوف في المنزل الذي تربيت فيه. ومن دون أن يراها أحد، تغمزني أنا بطرف عينها من السلم، بينما أحق بأبي إلى الشرفة. فالشمس تغرب، وثمة برودة قليلة في الهواء.

أحرك وأبي قطع الفحم إلى أن تشتعل، ثم تتوقف ونراقب النيران وهي تنتشر بين القطع الأخرى، كما لو أنه طقس ديني. فعندما كنت طفلاً، كانت أمي تحيط بي دائماً، بطريقة لا تحتاج إلى تفسير، ونتيجة لذلك ربما لم أكتسب مهارة التحدث مع أبي. بالطبع، لم أكن أتحدث كثيراً مع أي شخص قبل أنا؛ الأمر الذي يجب أن يعني شيئاً، كما أظن. فتحصل بينما حوارات بشكل طبيعي، لكنها غالباً ما تكون مقتضبة ولهدف

معين، إلا إذا كنا نتحدث عن القانون أو فريق ترابيرز، الموضوعين اللذين يجعلاننا ننسجم معًا في الحديث. ولا يختلف وضمنا الآن عن حالتنا عموماً، حيث يقتصر تواصلنا على تعليقات متفرقة حول النار أو طريقة إنجاج اللحم.

وفي السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية، أدركت أنني لم أكن أضمر شغفاً خاصاً بكرة القدم. وفي تلك المرحلة، كنت ألعب في مركز وسط الميدان في فريق نيرينغ، على الرغم من افتراضي بأنني كنت سأخسر موقعي لصالح لاعب رائع من الصف العاشر، يدعى جو هيفينز. وما توضح في ذهني في لحظة واحدة عندما كنت أتدرب على رمية مقوسة آتية باتجاهي هو أنني كنت أشاهد مباريات كرة القدم على التلفاز، وأذهب إلى الملعب كل صيف منذ أن كنت في السادسة من عمري فقط لكي أتحدث حول ذلك مع أبي. ولم أكن أشعر باستثناء أو حزن، لكنني ببساطة لم أرغب في الاستمرار باللعب حالما أدركت ذلك. وعندما تركت اللعب، اعتقاد الجميع - بمن فيهم أبي - أنني فعلت ذلك لأنني لم أكن أحب البقاء كلاعب احتياط، ولم يزعجي هذا الاعتقاد أيضاً.

وخلال وقوفنا أمام الشواية، يسألني أبي عما سأفعله في الأسبوع القادم عندما ينتهي تدريسي المهني. كنت قد قررت العودة للعمل كمدرس إضافي أثناء عملي على إتمام أطروحتي في مراجعة القانون، التي حققت فيها تقدماً في الأيام الأخيرة. فيهز رأسه مستحسناً الخطة.

"وكيف حالك بصورة عامة؟".

"أنا سعيد حقاً، أبي".

عندما ألتفت إليه كان قد توقف عن النظر إليّ، راسماً تعبيراً غير مفهوم على وجهه، وتاركاً سُحب الدخان تحيط به. فأدرك فوراً أنني لم أجِب أبداً من والدي بهذه الطريقة منذ وقت طويل جداً، فقد كنت معتاداً على تفاديه أسئلتها حول حالي بالإجابة ببساطة: "لا بأس".

لتجنب انتباه أبي الآن، أتناول جرعة من شراب الشعير، وأنظر إلى الحديقة الصغيرة حيث كنت ألعب عندما كنت طفلاً. فقد كانت ذات

يُوْمَ تَبَدُّو وَاسِعَةً مِثْلَ سَهْلٍ فَسِيحٍ. أَمَا الْآنَ، فَقَدْ قُطِّعَتْ هَذِهِ الْفَسَحةُ
الصَّغِيرَةُ بِشَجَرَةٍ تَزَبِّينَ صَغِيرَةً، بَارِتَفَاعٍ سَتِينَ سَنَّةً مُتَّرًا تَقْرِيبًا؛ قَلْبُ أَبِي
الْأَرْضِ وَغَيْرُهَا إِلَى غَيْرِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ. كُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ،
وَأَحْيَانًا نَحْوُ الْأَفْضَلِ. أَمَا أَنَا فَفَخُورٌ لَأَنَّ أَنَا مَعِيْ هَذَا، وَأَشْعُرُ بِالرَّضَا
لِمَعْرِفَتِي أَنَّهَا سَتَكُونُ مَنَاسِبَةً جَدًّا لِي، وَأَشْعُرُ بِالرَّضَا أَيْضًا لِأَنَّنِي لَا حَقَّتْهَا
وَجَعَلْتَهَا تَحْبِنِي. وَأَنَا سَعِيدٌ لِأَنَّنِي جَمَعْتُهَا مَعَ الشَّخْصَيْنِ الْآخَرَيْنِ الَّذِيْنِ
أَحَبَّهُمَا. إِنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنَ الْلَّهُظَاتِ الَّتِي آمَلَ أَنْ أَذْكُرَهَا دَائِمًا. وَفِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ، كُنْتُ سَعِيدًا جَدًّا.

الفصل الثاني والعشرون

تومي، 4 تشرين الثاني، 2008

على مر السنوات، طور مكتب المدعي العام، مثل أي مؤسسة أخرى، بروتوكولاً غريباً خاصاً به. فكان المدعي العام يدخل مكتبه في الصباح حاملاً حقينته ولا يخرج منه، إلا لتناول الغداء أو للذهاب إلى المحكمة. وكانت هذه إشارة إلى الاحترام. وكل من كان يحتاج إلى التحدث معه، كان يأتي إلى مكتبه. لكن هذه الممارسة، في الوقت نفسه، حمت حرية التصرف خارج مكتب محامي الادعاء. فقد كان باستطاعة الشباب الوقوف في الممرات، التي تبعد نحو عشرين متراً، والتحدث حول قضية ما بينما يتقدفون كرة ناعمة فيما بينهم. وكان بوسعهم أيضاً التفوّه بكلمات نابية وبصوت عالٍ إذا أرادوا. وكان باستطاعة مساعد المدعي العام التحدث بشكل سيئ عن القضاة، وبوسع رجال الشرطة الثرثرة بالقدر الذي يشاوون. وضمن معنكته الداخلي، كان المدعي العام يعامل نفسه بوقار لا يعكس أبداً طبيعة الحياة خارج مكتبه.

ونتيجة لذلك، غالباً ما كان تومي يشعر أنه موجود في سجن. وهو الآن لا يطيق صبراً على الانتظار. لقد غادر براند في الصباح إلى مختبر الجريمة لكي يحصل على نتائج تحليل الحمض النووي لبقايا المني المحفوظة من محاكمة سابتشن الأولى. وقد خرج تومي من مكتبه ست مرات ليرى ما إذا كان براند قد رجع أم لا.

وفي تلك اللحظات، لم تعد حقيقة أن نتيجة التحليل كانت تمثل بالنسبة إلى تومي إما خبراً سيئاً أو خبراً أكثر سوءاً كما تبدو بالأهمية التي

كانت تبدو له في السابق. ولا كان يكتثر حقاً بالفكرة التي بدأ يرُوِّج لها جيئي فجأةً، وهي أنها حالماً يمكنها من إدانة راستي سابيش، فسيكون باستطاعته تومي الترشح لمنصب النائب العام في السنة القادمة. وفي الحقيقة، إذا حصل ذلك فهذا يعني أن تومي سيترك منصبه لبراند. ولكن، كلما كان براند يفصح عن ذلك علناً، كان تومي يعمد إلى إسكاته. فهو لم يكن شغوفاً بالسلطة قطًّا. وما كان يهم تومي هو الشيء نفسه الذي كان يهمه دائماً عندما كان محامي ادعاء، ألا وهو العدالة.

لذا، فإذا كانوا قد اتهموا رجلاً بريئاً منذ عشرين عاماً، فإنه سيكون أول من يعتذر لراستي. أما إذا كان العكس هو الصحيح، أي أن يكون راستي هو من قتل كارولين، فعندئذ... عندئذ ماذا؟ لكنه أدرك على الفور. أدرك أن هذا سيكون شيئاً بزواجه. مثل تعرُّفه بدومنغا ووقوعه في حبها ومن ثم إنجاب توماسو. فاللطخة الوحيدة الباقية على سجله المهني ستُرفع. والأهم من ذلك أن تومي نفسه سيعرف أخيراً. لذا، إن إحساسه بالذنب، الذي كان يقض مضجعه بين الحين والآخر، لتسرييه معلومات سرية لنيكو، سينتهي، لأنه حينئذ سيكون على حق، على الأقل في نظره هو. فإنه سيكون في التاسعة والخمسين من العمر، ومع ذلك سيشعر بأنه ولد من جديد. فالله وحده قادر على فعل ذلك. ولهذا السبب، أغمض عينيه ثم تمتم شاكراً الله مسبقاً.

وعندئذ سمع براند يدخل مكتبه المجاور، فلحق به على الفور. وكان جيئي لا يزال ممسكاً بحقينته، ومعطفه نصف مخلوع، ومندهشاً لرؤيه تومي على عتبة بابه. السيد في غرفة الخادم. حدق فيه لثانية وابتسم، ثم قال ما كان تومي يعرف دائماً أن شخصاً ما سيقوله في النهاية.

"إنه هو".

الابن الـ٢ـاني

القسم الثالث

الفصل الثالث والعشرون

نات ، 22 حزيران ، 2009

"اذكر اسمك من فضلك ، وهجئ كنيتك من أجل السجل". من مقعده أمام طاولة الدفاع ، ينحنج ساندي شتيرن حنجرته . وفي هذه الأيام ، أصبح ذلك منعكساً يسبق ويتلو حديثه دائماً ، خشخة بلغمية لا تبدو طبيعية أبداً.

"روزات ك. سابيتش. س، ا، ب، ي، ت، ش".

"هل تعرف بأي اسم آخر؟".

"راستي".

على منصة الشهود ، يحافظ أبي بذلتة الزرقاء على مظهر مثالي وسلوك هادئ.

يقول شتيرن بتهذيب: "وهل يمكننا أن ندعوك راستي؟". يوافق أبي ، فيطلب منه شتيرن إخبار لجنة المحلفين كيف تم قبوله في وظيفته . "انتُخبت إلى المحكمة العليا في تشرين الثاني الماضي ، لكنني لم أؤذ قسم المنصب بعد".

"ولماذا يا سيد؟".

"لأنني اتهمت بهذه الاتهامات ، وشعرت أن من الإنصاف بالنسبة إلى جميع المعنيين انتظار نتيجة هذه المحاكمة . وحتى ذلك الحين ، لا أزال رئيس قضاة محكمة الاستئناف لمنطقة الاستئناف الثالثة هنا في مقاطعة كايندل ، على الرغم من أنني أخذت إجازة إدارية".

يشرح شتيرن أن المحكمة العليا ومحكمة الاستئناف يدعوهما جميع

المحامين محكمتي المراجعة، بمعنى أنهم تسمعون قضايا الاستئناف.
"أخبرنا من فضلك ماذا يعني أن تكون قاضياً في محكمة مراجعة؟".
يفصل أبي الواجبات، وعندما يصل إلى القول إن الاستئناف في
القضايا الجزائية لا يعطي القضاة، في العادة، أي حق لتقضي قرار هيئة
المحلفين، يقف تومي مولتو للاعتراض.

ومن الواضح أن القاضي بأسيل بي يقيّم المسألة، إذ إنه يميل رأسه
الأشيب من جانب إلى جانب. فقد عيّنت المحكمة العليا في الولاية القاضي
بي، القادر من بلدة وير، خصيصاً لترؤس هذه القضية بعد أن تناهى
عنها جميع قضاة محكمة التمييز في مقاطعة كابيندل، الذين كان راستي
يراجع قراراتهم بشكل روتيني منذ أكثر من عقد. إنه مهاجر تايواني
قدم إلى وير كولر - وهي بلدة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف
نسمة - في عمر الحادية عشرة، عندما استلم والداته إدارة المطعم الصيني
الم المحلي في البلدة. ويكتب القاضي بي اللغة الإنكليزية من دون أخطاء،
لكنه لا يزال يتحدث بها كلغة ثانية، حيث تبدو الل肯ة الآسيوية واضحة
في حديثه، وفي بعض الأحيان يتغافل بعضاً من الأنسجة الرابطة في
اللغة كأدوات؛ أحرف جر وأفعال كون. لم ترافقه كتابته الاعتبادية إلى
المحكمة، والطريقة المزعجة التي تقاطعه فيها جيني تيلدن باستمرار طالبة
منه تهجئة ما قاله للتو جعلت كلامه أقل.

يحكم القاضي بي لصالح والدي، الذي يستغل الفرصة - كما خشي
مولتو - محاولاً إفهام هيئة المحلفين أنهم هم من سيقررون مصيره في
النهاية.

يقول شتيرن: "حسناً". يسعل ثم يمسك بالطاولة لتساعده على
الوقوف. كان شتيرن قد حصل على إذن القاضي بي باستجواب الشاهد
جلوساً كلما أراد ذلك. وفي واحدة من العواقب العجيبة التي قد لا يفهمها
الطب لسنوات طويلة، يُعرف عن نوع سرطان الرئة الذي أصابه أنه
يسبب التهاب مفاصل في إحدى الركبتين؛ الأمر الذي جعله يعرج.
تضع مارتا، ابنته وشريكته القانونية، الجالسة بجانبه، يدها اليسرى

بشكل تلقائي تحت مرفقه لتساعده على النهوض. أسمع عن سحر ساندي ستيرن في قاعات المحاكم منذ أن كنت صبياً صغيراً. مثل الكثير من الأشياء، يصعب على أي شخص تفسير هذا الأمر، فهو من ناحية الشكل الخارجي، قصير القامة - حوالي متر وسبعين سنتيناً - وسمين أيضاً، ويمكن أن تمر بجانبه في الشارع ألف مرة من دون أن تلاحظه، ولكنه عندما يقف في قاعة المحكمة، فإنه يصبح كالمنارة عندما تضيء. وعلى الرغم مما فعله المرض به، إلا أنه لا يزال قادرًا على رسم تحركاته وكلماته بدقة بالغة بحيث يجعل من المستحيل على أي شخص إبعاد عينيه عنه.

"والآن، أخبرنا من فضلك، يا راستي، قليلاً عن خلفيتك". يمر ستيرن مع والدي سريعاً على سيرته الذاتية: ابن مهاجر. منحة للتعليم الجامعي، والعمل في وظيفتين أثناء الدراسة في كلية الحقوق.

"وبعد كلية الحقوق؟". يسأل ستيرن.

"عُيِّنت كمحامي ادعاء مساعد في مقاطعة كايندل".

"أهذا هو المكتب الذي يرأسه السيد مولتو الآن؟".

"صحيح. بدأت والسيد مولتو العمل هناك مع فارق سنتين بيننا". وبهدوء ومن دون أن يرفع رأسه عن الكرآسة حيث يدون بعض الملاحظات، يقول مولتو: "اعتراض". يعرف مولتو ما يريد أبي وستيرن الوصول إليه، وهو أنهمما يحاولان تذكير هيئة المحلفين بأن لأبي ومولتو تاريخاً مشتركاً، وهو شيء ربما تعرفه مسبقاً من الصحف التي تعيد يومياً سرد تفاصيل المحاكمة الأولى. وعلى الرغم من أن المحلفين يقسمون كل يوم على أنهم أبعدوا أنفسهم عن أية روايات صحفية، ولكن بالنسبة إلى مارتا والدها، فإن الأخبار تسرب في معظم الأحيان إلى غرفة المحلفين.

يقول القاضي بي: "يكفي هذا الموضوع، كما أظن".

يهز تومي رأسه راسياً، وهو لا يزال منكباً على كراسيه. أحتمل تومي مولتو، بوجهه الذابل وأسلوبه الحزين، أكثر مما كنت أتوقع، لكن

مساعده الأول، جيم براند، هو الذي يثير حنقى. فالعدائية تبدو جليّة عليه معظم الوقت، إلا عندما يدخل المحكمة محاولاً الظهور بمظهر اللطيف، غير أن هذا يصبح أسوأ في الواقع.

يمر شتيرن مع أبي على مراحل تطوره المهني من المكتب الذي يدعى عليه الآن إلى حين وصوله إلى سدة القضاة، من دون أن يذكر اتهامه الأول أو محاكمته الأولى، كما أمر القاضي.

"هل أنت متزوج، يا راستي؟".

"كنت. لقد تزوجت باربارا منذ أكثر من ثمانية وثلاثين عاماً.".
"هل لديك أولاد؟".

"ابني نات. إنه جالس هناك في الصف الأول". يلتفت شتيرن إلى الخلف بفضول مفعول، كما لو أنه لم يكن هو من حدد لي أين أجلس. إن براعته في تمثيل دوره في قاعة المحكمة تجعلني أحياناً أمل أن صحته المتداعية جزء من العرض أيضاً، لكنني أعرف أكثر من ذلك. لاحقاً، سيأخذني بعض الزملاء جانياً في المحكمة ليسألوني بصوت منخفض عن حالة شتيرن، مفترضين أن شخصاً دافع عن أبي مرتبين في قضية قتل لا بد أن يكون صديقاً مقرباً من العائلة، فأعطي الجميع الإجابة ذاتها. ويُظهر شتيرن شجاعة سائق منحدرات جبلية، ولكن بالنسبة إلى حالته الصحية، فأنا أعرف القليل عنها. إنه متكم جداً في هذا الخصوص. ولا تقل مارتا، التي تتمتع بعقل فلوفي، كتماناً عن والدها، على الرغم من أنها انسجمنا بصورة فورية تقريباً كولدي محاميين وصقرين قانونيين محللين.

لكنك لا تحتاج إلى شهادة في الطب لتعرف أن حالة شتيرن خطيرة. وفي العام الماضي، استحصل جزء من الفص الأيسر من رئته المصابة، الأمر الذي اعتبر إشارةً جيدة على أن المرض لم ينتشر. ولكنه خلال الأشهر الأربع أو الخمسة الماضية، خضع لما لا يقل عن مجموعتين منفصلتين من العلاج الكيماوي والإشعاعي. وقد توقع صديقي من أيام الدراسة الثانوية، الدكتور هال ماركتو، المقيم الآن في أحد

المستشفيات لإنها اختصاصه في الجراحة، أن شتيرن يعني انتكاسة، مضيفاً ببرودة لا تُصدق - ألا يلاحظها أيضاً على بعض زملائي في كلية الحقوق بقصد إظهار أنهم تطوروا من كائنات بشرية إلى محترفين - أن عمره الباقي التقريري ينبغي ألا يزيد عن العام. فليس لدى علم بذلك، لكن ما أعرفه هو أن المعالجات المختلفة تركت شتيرن في حالة متداعية. إنه يعني سعالاً دائمًا وتنفساً سريعاً، ليس بسبب السرطان، بل نتيجة العلاج بالأشعة. ويَدْعُى أنه يستعيد شهيته، لكنه لم يأكل شيئاً خلال الفترة التي سبقت المحاكمة. والرجل الذي نشأت وأنا أعرفه سميَّاً حتى في أكثر مراحل حياته نحافةً، نحيل تماماً الآن. وفوق كل ذلك، إن الدواء الأخير الذي تناوله تسبب بانتشار طفح جلدي أبيض اللون في جسده بأكمله، بما فيه وجهه ورأسه الأصلع.

"والآن، يا راستي، لقد استدعيت كشاهد أول للدفاع في هذه القضية".

"صحيح".

"أنت تفهم أن دستور الولايات المتحدة يحميك من الإجبار على الإدلاء بالشهادة في محاكمتك الشخصية".

"أفهم ذلك".

"ومع ذلك، اخترت الإدلاء بشهادتك".

"أجل".

"وأنت كنت هنا خلال الفترة التي أدلى فيها شهود جهة الادعاء بشهاداتهم؟".

"أجل".

"هل سمعتم جميعاً؟ أقصد هل سمعت السيد هارناسون، والسيد ستراك، وأخصائي السموم، والدكتور جورفيتيش؛ خبير الكمبيوتر، وجميع الأشخاص الأربع عشر الذين استدعاهم المدعى إلى المنصة؟".

"أجل".

"هل فعلت ذلك يا راستي؟ هل قتلت السيدة سابيتش؟".

"لا".

"هل كان لديك أي دور من أي نوع في التسبب بموتها؟".
"لا".

لقد اجتذبت غرابة هذه القصة - التي يُتهم فيها قاضٌ منتخب في المحكمة العليا بارتكاب جريمة قتل للمرة الثانية، ومن قبل المكتب نفسه - الصحافة من مختلف أنحاء العالم. وكل يوم، يقف الناس في الصالات خارج قاعة المحكمة من أجل الحصول على مقعد. ومع وجود هذا الحشد المهتم بكل تفصيل يجري أمامه، تشعر بجو من التوتر يسود المكان. والآن، مع ارتداد كلمة أبي لافـي أرجاء القاعة، يتلفـت شـتـيرن حوله وهو يتراجـع ببطء، وكـأنـه يـكتـشـفـ الآنـ فـقـطـ أـمـرأـ يـعـرـفـ المـطـلـعـ فـقـطـ آـنـهـ خطـطـ لهـ مـسـيقـاـ.

"ليست لدى أسلة أخرى".

قضية والدي هي المحاكمة الأولى التي أحضرها من البداية وحتى النهاية. سلط عملية المحاكمة الضوء على الكثير من مفاصل حياة أبي، كمحامي ادعاء وكقاضٍ، بحيث أجد جلوسي الدائم هنا - على الرغم من شدة وطأة الأمر برمنته علىي - مفيداً لما يقدمه من معلومات. وأخيراً، أجد دليلاً على ما كان يفعله في الساعات الكثيرة التي كان يمضيها خارج المنزل، وإشارة إلى ما كان يجده فاتناً للغاية. وعلى الرغم من أن قاعة المحكمة لن تكون المكان المناسب لي أبداً، إلا أنني مذهول بطقوسها وجوانبها الدرامية، وخصوصاً تلك اللحظات الكثيرة والمملة التي لا يمكن تمثيلها في التلفزيون أو في الأفلام. ويتوقف النظر على كمبيوتر كاتب المحكمة، فيتململ المحلفون على مقاعدهم، ويحكـونـ أيـ شـيءـ يـحـكـهمـ، ويـتـنـحـنـحـ الحـضـورـ. فـتـصـطـكـ الأـورـاقـ عـلـىـ طـاوـلـتـيـ الدـفـاعـ وـالـادـعـاءـ بـيـنـماـ يـجـمـعـ المحـامـونـ أـورـاقـهـمـ.

تجري المحاكمة والدي في واحدة من القاعات الأربع الأكثر قدماً في هذا المبني، حيث تقع محكمة الاستئناف في الطابق العلوي. يصل

والدي كل يوم ليحاكم بتهمة القتل في مكان لا يزال يشغل فيه أعلى منصب قضائي، اسمياً على الأقل، وبجانب القاعة التي أطلق فيها سراحه منذ أكثر من عشرين عاماً.

يجلس والدي من دون افعال فوق منصته في انتظار بدء استجواب تومي مولتو له. وللمرة الأولى، يرنو بعينيه الزرقاء إلىي، ثم يغمضهما للحظة واحدة قبل أن يفتحهما من جديد. ويبدو وكأنه يقول لي: ها قد بدأنا. إن الرحلة الفضائية الشاقة التي جمعتنا معاً منذ وفاة أمي قبل تسعه أشهر ستنتهي الآن وتمنحنا مظلة للعودة إلى الأرض مجدداً، حيث سنعيش إما نوعاً أضيق فسحةً من الحياة التي عشناها من قبل، أو أرضاً بائسة جديدة سأجري فيها أحاديثي الأسبوعية مع والدي لبقية حياته عبر لوح من الزجاج المضاد للرصاص.

بما أن ما حدث لأبوي كان في كل الحالات أشد وطأة عليهم مما كان علىي، فقد يبدو غريباً أن أصف ما اختبره الآن بأنه محنة. ولكنها محنة بالفعل. وبالطبع، إن فقدان أمي المفاجئ كان الضربة الأقسى. ولكن التهم التي يواجهها أبي تركتني في معضلة، قلة من الناس يمكن أن يفهموها. وكان أبي شخصية عامة طوال حياتي تقريباً، ما يعني أن ظله كان دائماً ملقى علىي. وعندما انتسبت لكلية الحقوق كنت أعرف أنني أزيد من الوضع سوءاً، وأنني سأعرف دائماً بابن راستي، وسأجرّ سمعته وإنجازاته ورائي دائماً مثل عروس تحاول إيجاد طريقة لإخراج ذيل فستانها الطويل عبر باب دوار. ولكنه لم يعد مشهوراً الآن، بل مشوه السمعة، وعرضة لسهام الحقد والسخرية. وعندما أرى صورته في التلفزيون أو على شبكة الإنترن特 - أو حتى على غلاف إحدى المجلات القومية -أشعر أحياناً بأنه لم يعد ينتمي إلىي. وبالطبع، لا أحد يعرف كيف يتعامل معي، أو ما يقوله لي. فلا بد أن ذلك يشبه مصاباً بالإيدز بهذه الناس؛ فمع أنهم يعرفون أنه لم يقترف أي ذنب لكنهم لا يستطيعون كبح دافع يأمرهم بالابتعاد عنه.

لكن الجانب الأسوأ هو ما يجري داخلي، لأنني بين الحين والآخر

لا أعرف كيف أشعر، أو كيف يجب أنأشعر بخصوص هذه المسألة. في هذه القاعة، ثمة سؤال واحد: هل فعلها أم لا؟ ولكن، بالنسبة إليّ، ومنذ أشهر، كانت المسألة أشد تعقيداً بكثير، حيث إنني كنت أحاول معرفة ما يمضي معظم الأولاد عمراً بأكمله كي يعرفوه، أي بالتحديد حقيقة أبي، وليس ما كنت أعتقد أنها حقيقة أبي.

هذه العملية بدأت يوم الانتخاب مع يد غاضبة تدق على باب شقة آنا؛ امرأة ضئيلة الحجم تبرز شارتها ثم تقول: "شرط مقاطعة كايندل المتحدة. فهل لديك دلائل لتحدث؟".

كان ذلك أشبه بمسلسل تلفزيوني، لذا عرفت ما سأ قوله لها. ما الأمر؟ لكنها في الحقيقة، دخلت الشقة من دون أي دعوة. امرأة قصيرة مكتنزة الجسم تتأبّط قبعتها، وترتبط شعرها الأسود على شكل ذيل فرس. "ديبي دياز". قالت، ثم مدّت يدها مصافحة، وجلست على مقعد مبطّن أزرق اللون اشتراه آنا منذ أسبوعين. "أعرف والدك منذ زمن بعيد. وكنت حاجبة عندما بدأ العمل في محكمة التمييز. في الواقع، أنا أذكرك".

"آنا!".

"أجل. عُيّنتُ في تلك القاعة عدة مرات عندما كنت تأتي إلى هناك. وكانت معتاداً الجلوس على مقعده على سدة القضاة أثناء فترات الاستراحة. ولم أكن حقيقة أستطيع رؤيتها من موقعي في أسفل القاعة، لكنك كنت تدق بتلك المطرقة أيها الشاب. والحمد لله أنك لم تكسرها". كانت سعيدة فعلاً بهذه الذكرى، وأنا تذكرة بالفعل كل ما وصفته، بما في ذلك الصدى الموسيقي الذي كان يتتردد في القاعة عندما كنت أفرع بالمطرقة على القاعدة الخشبية. "كنت شابة ونحيلة في ذلك الوقت، وأنظر قبولي في الشرطة".

"أعتقد أنك نجحت في ذلك". قلت ذلك لأنني لم أستطع التفكير في أي شيء آخر، لكنها اعتبرته مزاحاً فابتسمت قليلاً.

"هذا ما أردته، أو ظننت أنني كنت أريده". هزت رأسها قليلاً أسفًا

على أخطاء الشباب. ثم عادت للتركيز على بحثة مفاجئة ومثيرة للقلق: "نحن نحاول الاستيقاظ حول موت أمك".
"أتقولين الاستيقاظ؟".

"هناك بعض الأسئلة التي نريد إجابات عنها. تعرف كيف يكون الأمر. شيء لعين يحدث طوال شهر، ثم فجأة يُراد الانتهاء منه خلال أسبوع. لقد أخذ بعض الشباب إفاده طويلة من والدك. ولكن، لم يفكر أحد في التحدث إليك. وعندما سمعت اسمك، فكرت في المجيء إلى هنا والقيام بذلك بنفسك".

ثمة أشخاص تقابلهم وتعرف أنهم معنادون على عدم قول ما يعنيونه حقاً، والحقيقة دياز واحدة من هؤلاء بالتأكيد. تسألت لوهلة كيف وجدتني، ثم تذكرت أنني تركت هذا العنوان عندما انتهت المحكمة. وعلى أي حال، كنت سعيداً لأنني أتحدث معها في المنزل يوم الانتخاب وليس في الجامعة، فلا يزال هناك الكثير من الأشخاص في الكلية الذين يتذكرون سنواتي في مدرسة نيرينغ الثانوية، ويجدون صعوبة في التصديق أنني يمكن أن أكون مثالاً يحتذى.

"ما زلت لا أفهم عن أي شيء تريدين أن تسألي".
راحت تشير بيديها محاولة البحث عن الكلمات المناسبة وكأن ما تريده قوله غامض أو سري بحيث يصعب قوله، وفي النهاية قالت: "اجلس، وستفهم". ثم أشارت إلى من مكان جلوسها كي أجلس على كرسي بجاني.

"توفيت أمي بسبب فشل قلبي".
"صحيح".

"إذا، عمَّ تريدين أن تسألي؟".

"نات، يمكنني أن أدعوك نات، أليس كذلك؟ شخص ما يقول إنه ينبغي علينا مقابلة الابن كي تنتهي هذه القضية، وللهذا السبب أنا هنا. وهذا كل ما في الأمر". أخذت مجلة - نسخة من مجلة بيبول تركتها آنا هنا - وقلبت بعض صفحات فيها. "الآن يمكنني أن أرتاح من أخبار براد

وأنجي؟". ترمي المجلة على الطاولة ثم تصيف: "هل كان الوضع هادئاً بين أمك وأبيك قبل وفاتها؟".

لم أستطع منع نفسي من الابتسام، لأن هذه الكلمة - "هادئ" - هي الكلمة التي تصف الوضع بين أبي وأمي بصفة عامة. ثم قلت: "كما كان دائماً".

"وكيف حال أبيك الآن؟ ألا يزال ممزقاً؟". كانت قد أخرجت من جيبها دفتر ملاحظات وبدأت الكتابة فيه.

"أبي، أعني، إنني لا أعرف أبداً ماذا يجري مع أبي. إنه كثوم جداً. لكنني أعتقد أننا ما زلنا مصدومين. لقد علق معظم أنشطته المتعلقة بالحملة الانتخابية. ولو كنت مكانه، لفعلت المزيد من أجل شغل ذهني عن التفكير".

"هل يقابل امرأة ما؟".

"بالتأكيد لا". إن فكرة وجود أبي مع امرأة أخرى، والتي ذكرت على لسان عدة أشخاص مخربِي الدماغ في الأسابيع التي تلت وفاة أمي، أز عجنتي تماماً.

"هل أنت على علاقة جيدة مع والدك؟".

"بالتأكيد. هل هذا هو سبب مجيئك؟ هل هو أبي؟ هل هناك من يحاول التسبب بمشكلة له؟".

عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي، حوكم والدي بتهمة القتل. وعندما أسترجع تلك الحادثة الآن، تذهبني المدة التي استغرقتها حتى أستوعب الأبعاد الكاملة لهذه الفكرة البسيطة. وفي تلك الفترة، أخبرني والدai بأن أبي تخاصم بحدة مع أصدقاء له في العمل، مثل الخصومات الحادة التي كانت تحصل لي مع أصدقائي في المدرسة، وأن أولئك الأصدقاء السابقين كانوا غاضبين جداً منه ويحاولون الانتقام منه بشكل دنيء. ولقد تقبلت هذا بصورة طبيعية، وما زلت كذلك حتى الآن في الواقع. لكنني أدركت أن ثمة أشياء أخرى تتعلق بذلك الحادثة، إن لم يكن لأي سبب سوى أن جميع البالغين الذين كنت أعرفهم كانوا يعاملونني

بحذر أكبر، وكأنني كنت أنا أيضاً مُشتَبِهَا فيه بارتکاب شيء ما: آباء أصدقائي، المدرسين والأوصياء في المدرسة. وما يثير الشك أكثر، والدai بالذات، اللذان كانا يحيطان بي بشكل وقائي كما لو كانا يخسيان من إصابتي بمرض فطيع. وفي تلك الفترة، لازم أبي المنزل ولم يعد يذهب إلى العمل. وذات يوم، امتلأ منزلنا بحشد من رجال الشرطة. وفي النهاية، علمت، إما عن طريق السؤال أو بالسمع، أن أمراً سينأ جداً يمكن أن يحصل لأبي، فقد يغيب لسنوات وسنوات، وربما لن يعيش معنا بعد ذلك. فقد كان مرعوباً - كان بوعي الإحساس بذلك - وكذلك أمي. ولهذا السبب، أصبحت مرعوباً أيضاً. أرسلاني إلى مخيم في الصيف. ولكن إبعادي عن المنزل زاد من خوفي. صحيح أنتي كنت ألعب الكرة وأركض مع أصدقائي في النهار، لكن شيئاً ما كان يواظبني دائمًا على حقيقة أن أمراً فطيعًا يمكن أن يكون جارياً في البيت. و كنت أبكي مثل الجنون كل ليلة إلى أن قرراً بإعادتي إلى منزلي. وعندما عدت كان ذلك الشيء الذي يسمونه المحاكمة قد انتهى. عرف الجميع أن أبي لم يقترب أبداً، وأن الأشياء السيئة قد ارتكبها أصدقاؤه السابقون؛ تماماً كما كان والدai يقولان لي منذ البداية. ولكن هذا لم يكن صحيحاً، فوالدي لم يكن يعمل، وبدا أنه وأمي غير قادرين على استعادة العلاقة الطبيعية التي كانت تجمعهما قبل المحاكمة. ولهذا السبب، لم أشعر بأي استقرار عندما أخبرتني أمي بأننا أنا وهي فقط سنغادر المنزل.

"هل تعتقد أن والدك يستحق المشاكل؟".

"بالطبع لا".

"نحن لا نخلق الأشياء". ولم أكن قد جلست بعد، فأشارت إلى مجدداً كي أجلس، هذه المرة بواسطة قلم. "رجل مثل والدك، إنه موجود منذ أن بدؤوا يستخدمون الزمن، والجميع لديهم رأي فيه. وكل الناس، كما تعلم، من هنا وهناك، يملكون أهدافاً شخصية. ولكن، هذه هي الحياة، أليس كذلك؟ فالقضاء، ومحامو الادعاء، ورجال الشرطة، عقبة دائماً في طريق شخص ما. لكن والدك يترشح للمحكمة العليا. وهذا

هو الأمر الجوهرى . شخص ما نظر إلى الملف وقال : علينا أن نستوضح هذا الأمر قبل أن يدللي بالقسم ، ونريد إجابات عن جميع الأسئلة ". طلبت مني أن أخبرها بما حصل في ذلك اليوم عندما توفيت أمي . أو في الواقع ، في اليوم الذي تلاه .

" هل هذا هو الأمر ؟ هل يبدو ذلك غريباً ؟ أقصد جلوسه مع الجثة يوماً كاملاً ".

" لا أعرف . أمي إيرلندية الأصل . إنهم يضعون الجثة في غرفة المعيشة مع الشموع ويجلسون حولها طوال الليل . أعني ، الناس يفقدون شخصاً ما ، ليس ثمة كتيب إرشادات بخصوص ذلك . وكل شخص يقوم بذلك بطريقته الخاصة . لكنك تعلم ، إذا أراد شخص ما أن يتسبب بالمشاكل ، فإنه قد يقول : "الآن ، هذا غريب ، لنضع كل شيء جانباً ".

أنت تعرف كيف يفكر الناس : مازا كان يفعل ؟ ما الذي يخفيه ؟ ".

هزّت رأسي موافقاً . كان كلامها منطقياً ، بالرغم من أن هذه الأسئلة لم تخطر على ذهني قط .

" كتب أحد رجال الشرطة ملاحظة تفيد أنك قلت إن والدك لم يرد الاتصال بالشرطة ، وهذا صحيح ؟ ".

" لقد نسي . هذا كل ما في الأمر . وأعني أنه خبير بما يكتفي ليعرف أنه ينبغي على شخص ما الاتصال بالشرطة ، أليس كذلك ؟ ".

" يبدو لي ذلك ".

" أجل ، لكن الوضع ، أعني مرض القلب كان يجري في دماء عائلتها ، مع أن أمي كانت في حالة ممتازة ، فهي تمارس الرياضية ، وتحافظ على لياقتها . فهل فقدت شخصاً تحبّينه من دون إنذار ؟ يصبح الأمر وكأن الجاذبية اختفت فجأة ، وكل شيء يطير حولك . ولا تعلمين ما إذا كان يجب عليك الوقوف أم الجلوس ، فلا تستطعين حقاً التفكير في فعل أي شيء . فتكونين فقط بحاجة إلى التماسك ".

" هل لاحظت أي شيء في غير مكانه عندما وصلت إلى هناك ؟ ". كان ثمة شيء في غير مكانه بالتأكيد : كانت أمي مستلقية على

سريرها الزوجي بعد أن فارقت الحياة. فكيف يمكن لهذه المحقيقة أن تعتقد أنتي قد أتذكر أي شيء آخر؟ كان والدي قد وضع يديها الائتنين خارج الأغطية، وكانت شاحبة، وهذا بحد ذاته لم يدع لي مجالاً للشك في أنها ميتة. ولا أعرف في أي عمر يعرف الابن أن أمه وأباء سيموتان قبله. ولكن الزمن لم يكن قد ترك أثراً كبيراً على أمي. وإذا كان ينبغي علىي أن أتوقع موت أحدهما، فإنني كنت سأتوقع موت أبي الذي كان يبدو ضعيفاً، ويشتكي كثيراً من ظهره ومن الكولسترول.

"ومتى كانت آخر مرة اجتمعـت فيها مع أمك؟".

"الليلة التي سبقت موتها. فقد تناولنا طعام العشاء في المنزل. أنا وصديقي".

"وكيف كان الوضع حينئذ؟".

"كانت تلك هي المرة الأولى التي تناول فيها الطعام نحن الأربعة. وكلنا كنا متورعين نوعاً ما، وهذا كان غريباً لأن صديقتي كانت تعرف والدي قبل بدء علاقتنا. ولكن، كما تعلمـين، أحياناً هذا الأمر يمكن أن يصعب الوضع أكثر، وأظن أن والدي كانا دائمـاً يخشيان سراً من أن ينتهي بي المطاف وحيداً. فأنا مزاجي وأشياء من هذا القبيل، ولذلك، كانت تلك مسألة هامة. فهل لديك أولاد؟".

"أجل. كلهم نضجوا الآن، مثلـك تماماً". وبـدا لي تعبيرـها هذا غريباً نوعاً ما، لأنـتي لا أعتقد أنـيا من والدي كان سـيصفـني بالناضـج. وفي الحقيقة، لا أظن أنـتي سـاستخدم هذه الكلمة أيضاً. "ابني يعملـ في شركة فورد، ولديه ولدانـ. لكنـ ابنتـي ليست متزوجـة، ولا أعرفـ ما إذا كانت ستتزوجـ يومـاً. فهي مثلـ أمـها، أعتقدـ أنها ستخوضـ غمارـ الحياة لوحدهـاـ. أبوـهاـ، ذلكـ الرجلـ كانـ قـدرـاً كـبـيراًـ. ولكـنـي الانـ أـتـمنـيـ في بعضـ الأـحيـانـ لوـ أـنـيـ لمـ أـخـبـرـهاـ بـخـصـوصـ ذـلـكــ. إنـهاـ تـعـمـلـ فيـ الشـرـطةـ الانــ. وـحاـولـتـ إـقـنـاعـهـاـ بـعـدـ فـعـلـ ذـلـكــ، لـكـنـهاـ لـمـ تـسـمـعـ إـلـيــ". والـطـرـيقـةـ التيـ هـزـتـ فـيـهاـ رـأـسـهـاـ مـسـتـغـرـبـةـ جـعـلـتـنـاـ نـضـحـكـ مـعـاـ، لـكـنـهاـ عـادـتـ مـبـاشـرـةـ لـتـسـأـلـنـيـ حولـ اللـيـلـةـ التيـ سـبـقـتـ وـفـةـ أمـيــ".

"كيف بدت أمك لك؟ أكانت سعيدة أم حزينة؟ وهل هناك أي شيء علق في ذهنك؟".

"أمي، كما تعلمين، كانت تعالج لسنوات بسبب الاكتئاب الثاني القطب. وأحياناً، يمكنك أن ترى أنها تعاني. وبوسعي ملاحظة ذلك. وأظن أن كل شيء بدا طبيعياً جداً بالنسبة إلىي. وأمي كانت متحمسة أكثر من المعتاد، وأبى كان هادئاً أكثر من العادة، أيضاً، وصديقي كانت متواترة".

"قلت إن ذلك حدث أثناء العشاء. فهل تتذكر ما أكلتموه كل يوم؟".
"ما أكلناه!".

نظرت إلى مفkerتها، وقالت: "أجل، شخص ما يريد أن يعرف ما أكلتموه". رفعت كتفيها مستغربة، وكأنها تريد القول، لا تأسليني، إنني أعمل هنا فقط.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أمي، ولهذا السبب ظللت أستذكرة تلك الليلة لأسابيع، وبقيت التفاصيل حية في ذهني بصورة مذهلة. فلم أجد أي صعوبة في الإجابة عن أسئلة المحقق فيما يتعلق بمن طهى الطعام وما أكلناه، ولكنني لم أجد ذلك منطقياً، ولهذا السبب، في نقطة ما وسط الحديث، وجدت أنه ينبغي عليّ ألا أبوح بال المزيد.
"ومن صب الشراب الفرنسي لأمك عندما كنتم تتناولون عشاءكم؟
أهو أبوك مرة أخرى؟".

رمقتها بنظرة مستغربة، فأجبت: "إنني أحاروأ أن أفك في أي سؤال يمكن أن يطرحه أي شخص. لا أريد أن أضطر لإزعاجك من جديد".

"من صب الشراب لأمي؟ ربما أبي. لديه مفتاح سدادات من نوع راببي لم تعرف أمي قط كيف تستخدمه. ولكنني لست متأكداً. قد أكون أنا".

ثم طرحت ديببي دياز سؤالاً أو سؤالين آخرين ورددت عليهما بإجابتين غامضتين مشابهتين. ولعلها أدركت في ذلك الحين أنني لم أعد

مت gio باً معها. وفي النهاية، ضربت فخذيها بكفيها ثم وقفت واتجهت نحو الباب. وعندما فتحته، توقفت فجأة ثم طقطقت بإصبعيها.
"أريد أن أقول، ماذا كان اسم صديقتك؟ قد أحتاج إلى التحدث إليها".

اضطررت لمنع نفسي من الضحك. يا لها من محققة! تقف في شقة الفتاة وليس لديها أي فكرة عن ذلك. ولكنني هززت رأسى رافضاً الإجابة، فرمقنتي بنظرة حادة. وكنا قد توقفنا كلانا عن الادعاء حينئذ.
"حسناً، هذا لا يمكن أن يكون سراً. لا تجعلني أضطر لاكتشافه بمنفسي".

طلبت منها أن تترك بطاقة لأعطي صديقتي إياها.
اتصلت بوالدي على رقمه الداخلي قبل أن تصلك المحققة إلى مدخل البناء. وكان قد أدى بصوته، ثم ذهب إلى عمله كما لو كان يوماً عادياً. بدا سعيداً جداً لسماعه صوتي. وفي الحقيقة، إنه ينتهج دائماً عندما أتصل به. ولكنني لم أستطع التحدث لوحله، فأنا لم أكن قد فكرت فيما سأقوله حتى تلك اللحظة.

"بابا، بابا، أخشى أن تكون في ورطة حقيقة".

الفصل الرابع والعشرون

تومي، 22 حزيران، 2009

لطالما انتابت تومي مولتو أحاسيس متناقضة حيال ساندي شتيرن. وكان ساندي رجلاً صالحًا من دون أدنى شك. وإذا كنت إسكافياً وتشعر بالفخر بحرفتك، فلا بد أنك ستاحترم رجلاً وجده جدًا فاخرًا، وصنع حذاء متينًا كالحديد، ناعمًا ومريناً على القدم كالمholm. وكان ساندي أشبه بالمايسترو في قاعة المحكمة. ولا يزال ساندي يحتفظ بأسلوب رجل لاتيني نبيل - على الرغم من مرور ستين عاماً على قدومه إلى هنا من الأرجنتين في أواخر الأربعينيات، خلال الاضطرابات التي ثارت في عهد بيرون - مع لكنة تضفي على حديثه سحرًا خاصاً، وتهذيب طوافم الفنادق الفاخرة.

ومع ذلك، فقد كان عليك أن تتوكى الحذر من ساندي. وتومي كان يعرف أن كل الأشياء السيئة التي وقعت على رأسه خلال محاكمة راستي سابينش الأولى - الاتهامات غير المباشرة بأنه كان جزءاً من مؤامرة ت يريد الإيقاع براستي - كانت من تدبير ساندي الذي تصرف مع تومي في السنوات التالية، وكأنه لم تنتهي عن ذلك أي عواقب، سوى أن حياة تومي بقيت معلقة بطريقة ما بتلك الحادثة حتى الآن.

وفي المحاكمة الثانية، كان ساندي يصارع مرض السرطان. ومن مجرد النظر إليه، كنت تعرف أن الأمور لم تكن تجري على خير ما يرام. فقد كان شعره يشبه تسلية شعر شخصية دادي وورباكس في فيلم آني، وقد نحو نحو ثلاثين كيلوغراماً من وزنه، إضافة إلى الطفح

الجلدي الملتهب الذي أحدثه الأدوية. وقبل أن تستأنف المحكمة عملها ببعض دقائق، سأل تومي ساندي عن حالته.

"مستقرة. سنعرف المزيد خلال بضعة أسابيع. وثمة إشارات جيدة في جلسة العلاج الأخيرة. على الرغم من حشيشة العلق هذه". أشار بيده إلى خده.

لا يُدلي المتهم بالشهادة أولاً أبداً، بل يكون دائماً الفصل الأخير في المحاكمة، وذلك لكي تُقيّم الشهادة في ضوء جميع الأدلة الأخرى، وكيف يترك المتهم الانطباع الأقوى على هيئة المُحلفين خلال مداولاتهم. ولكن، هذا لا يعني بأن تومي تفاجأ بذلك. فهو كان يعرف منذ البداية أن راستي سيظهر، منذ أن أُنْ حُكِمَ القاضي بي قبل المحاكمة بعدم ذكر أي شيء عن المحاكمة السابقة - لا نتائج الحمض النووي الجديدة، ولا جريمة قتل كارولين بوليروس، ولا أي من الإجراءات القانونية المتعلقة بالمحاكمة السابقة - في هذه القاعة. غير أن ذلك أثر على خطط تومي الذي كان ينوي تمضية بضع ليالٍ في التحضير، أي ترتيب استجواب راستي، وتمثيل الدور كله مع براند. وهكذا، فإن وضعه الآن يشبه الفترة التي أمضاها تومي في محكمة المخدرات منذ ثلاثين عاماً عندما كان هناك عدد كبير من القضايا بحيث لم يكن بوسع التحضير بشكل كامل لأي منها، وحيث كنت تضطر لاستجواب المتهم بصورة ارتجالية. وفي تلك الأيام، أول طلب كنت تطلبه من المتهم هو أن يذكّر باسمه. وبينما كان يقف بجانب طاولة الدفاع، متظاهراً بتفحص ملاحظاته كما لو أن ثمة ترتيباً معيناً للأشياء التي كتبها، سيطرت على تومي حالة من البرودة رافقته منذ بدء القضية. ولم يسبق أن وصف شخص ما تومي بالاسترخاء عندما يكون في قاعة المحكمة، لا في هذه القضية ولا في أي قضية أخرى، ولكنه لسبب ما كان يشعر بنوع من الارتياب ويُنام طوال الليل بجانب دومينغا، بدلًا من الاستيقاظ عدة مرات كما كان يفعل في السنوات الماضية لما تخلّفه إجراءات المحاكمات في نفسه من قلق. وإن تأثير الحكم في هذه القضية على مستقبله ومستقبل عائلته،

وعلى الطريقة التي سينظر بها إليه، كان كبيراً جداً ما جعله يدرك أن عليه أن يقبل إرادة الله وحسب.

كما أن أدلة الادعاء - التي تبيّن أنها أكثر عدداً مما كان يتوقع - ساهمت في تعزيز شعور تومي بالارتياح. وكان يعرف أنه، في هذه المرحلة من المحاكمة، بحاجة إلى الاعتقاد أنه سيفوز إذا أراد أن تكون له فرصة لإقناع المحقفين، على الرغم من أنه كان مضطراً للبقاء في قبضة الشك. ولهذا السبب، كان تومي حذراً. فلم تكن هناك أي إشارة على ما سيقدم عليه شتيرن، ولكن من خبرته الطويلة مع الرجل، فقد كان تومي يتوقع غير المتوقع.

وفي المرافعة الافتتاحية التي أدلّى بها ساندي عندما بدأت المحاكمة قبل أسبوعين، استحضر مصطلح "البرهان الظري" ليس أقل من ثمانية عشرة مرة: "لن تُظهر الأدلة اعترافاً، شاهد عيان، بل ستتألف بأكملها تقريباً من تخمينات لعدد متتنوع من الخبراء حول ما يمكن أن يكون قد حدث. ستنسمعون لخبراء من جهة الادعاء، وبعد ذلك لخبراء من جهة الدفاع مكافئين لهم في العلم - هذا إن لم يكونوا أفضل - سيقولون لكم إن خبراء الادعاء مخطئون تماماً. وحتى خبراء الادعاء، سيداتي وسادتي، لن يكونوا قادرين على القول بصورة مؤكدة إن السيدة سابيتش قُتلت، دعكم من مسألة من قتلها". ثم سكت ساندي متوجهة كما لو كان قد خطر على باله للتو فقط كم هو أمر بشع اتهام شخص ما بارتكاب جريمة قتل على هذا الأساس الهش. وكان يمسك بالحاجز الخشبي الذي يجلس خلفه المحقفون كي يسند نفسه. وعلى الرغم من حرارة الصيف في الخارج، إلا أن شتيرن كان يرتدي بدلة من ثلاثة قطع، وكانت بلا شك من المرحلة التي كان فيها بديناً جداً، إذ كانت فضفاضة على جسده مثل رداء مستشفى. وهذه ليست مصادفة، فساندي شتيرن لم يكن يتورع عن استغلال أي شيء يحدث في الحياة لمصلحته في قاعة المحكمة. وحتى ظهره المنفر - بدا مثل شخصية من شخصيات أفلام الرعب - فكرَ جيداً كيف يستغلها لمصلحة موكله. وإن مجرد تواجده

في القاعة كان يوحى بأنه نهض من سرير موته فقط ليمنع وقوع ظلم مجحف. وكان لسان حاله يقول: أطلقوا سراح راستي، وعندها يمكنني أن أموت بسلام.

وبعد بعض الجدل، استدعي المحققون ابن راستي، نات، للبدء في القضية. وكانت تلك مجازفة، وخصوصاً لأن القاضي بي حكم، بعد نزول نات من منصة الشهادة مباشرةً، بالسماح له بالبقاء في القاعة لمساندة والده، على الرغم من أنه كان سيشهد مجدداً لصالح الدفاع. ومع ذلك، فمن المفید أن تحصل على أدلة من الجانب الآخر، ونات كان شاباً صادقاً، ومن جلوسه الدائم في القاعة كان يبدو وكأنه يملك شكوكاً خاصة به. وعندما كان على المنصة، اضطر نات للإفصاح عن عدة أمور مفيدة للطرف الآخر: عدم اتصال والده بالشرطة بعد وفاة باربارا، وأنه هو من قام بشيء اللحم قبل الوفاة بيوم واحد، وهو من صب الشراب الفرنسي لزوجته.

وبعد نات، استدعي محامو الادعاء نيني ستراك، التي أدت بشكل أفضل مما فعلت في مكتب تومي، لكنها مع ذلك تراجعت عن كل شيء تقريباً عند استجوابها من قبل محامي الدفاع. ولكن فريق الادعاء كان مرغماً على الاحتفاظ بها، إذ لو استدعي أخصائي سموم آخر، وكانت قد شهدت لصالح الدفاع، مقللة من شأن الشخص الآخر بقولها إنها أعربت عن كل تلك الشكوك لمحامي الادعاء. وبدلاً من ذلك، نظفت براند الفوضى مع طبيب التشريح، الدكتور راسل، الذي قال إن باربارا ماتت مسممة بالفينيلزين. ولكن رأي هذا الطبيب كانت فيه عدة ثغرات، ومارتا شتيرن كشفتها واحدة تلو الأخرى، حيث أكدت أن الدكتور راسل كان يعتقد في البداية أن باربارا ماتت ميتة طبيعية، ولا يزال - نظراً لنظرية إعادة توزيع ما بعد الموت - غير قادر على استبعاد هذا الاحتمال بصورة قاطعة.

ومن تلك الانكasaة، استعادت جهة الادعاء عافيتها مجدداً. وصعد صيدلاني باربارا إلى منصة الشهادة لفترة وجيزة ليقول إنه حذرها

مراراً من مخاطر الفينيلزين والأطعمة التي كانت بحاجة إلى تفاديهما خلال تناول الدواء. وأما هارناسون فقد التزم بما قيل له بالحرف. فكان حكمه سينقص من مائة سنة إلى خمسين مقابل الإدلاء بشهادته، ولكنه بدا الشخص الوحيد في قاعة المحكمة الذي لم يكن يدرك أنه سيموت في السجن. وكان هو الشاهد الأول الذي يستجوبه ساندي بدلاً من مارتا، ولكن الأداء كان غير فاعل بصورة تدعو للاستغراب. فهو لم يكتب نفسه عناء مضايقة هارناسون بالواقع البشعة التي اعترف بها بنفسه خلال استجواب براند له. وهي أنه كان كذاباً ومخادعاً خيراً، وهارباً من العدالة انتهك قسمه للمحكمة بعدم فعل ذلك، وقاتلأً كان ينام بجانب صحيته ليلة بعد ليلة، وفي الوقت نفسه كان يدس السم في طعام الضحية. وبدلاً من ذلك، أمضى شتيرن معظم الوقت في الحديث عن محاكمة هارناسون الأولى قبل ثلاثين سنة، مشجعاً الرجل على التحدث بإسهاب عن الظلم الذي لحق به من جراء الحكم عليه بالسجن، وكيف دمر قرار راستي حياته. ولكن شتيرن لم يواجه مباشرةً شهادة هارناسون بأن راستي أعلم بقرار محكمة الاستئناف وسأله عن شعور المرء حين يسمم شخصاً ما.

وكان القاضي جورج ماسون، الرئيس المؤقت لمحكمة الاستئناف، قد أتبع شهادة هارناسون بشرح مطول للمبادئ القضائية، وكان ذلك مضراً لسابتش، بالرغم من أنه كرر - خلال استجواب الادعاء - تقديره العالي لنزاهة راستي ومصادقيته.

شهد برأيما دانا مان، الحاذق ولكن المتوتر، بأن عمله كان يقتصر على المسائل الزوجية، واعترف بتشاوره مع راستي مرتين، واحدة منها جرت قبل ثلاثة أسابيع من وفاة باربارا.

ثم أنهى الادعاء مرافعته بأفضل المعطيات التي كان يمتلكها: راستي هو الذي كان يجلب الفينيلزين، ونتائج البصمات من خزانة أدوية بارياما، وتبضع راستي قبل يوم من وفاتها، وأخيراً ميلو جورفيتش، خبير الحواسيب، الذي كشف جميع المعلومات المجرّمة التي استخلصها

إثر مصادرة حاسوب راستي المنزلي.

وعندما استراح الادعاء، قدّمت مارتا برهاناً حماسياً على أن الادعاء فشل في تقديم أدلة يمكن للمحلفين من خلالها أن يتثبتوا بما لا يرقى إليه الشك من وقوع جريمة. فأجل القاضي بي الحكم، وهذه في العادة إشارة إلى أن القاضي يفكّر في رفض القضية إذا لم يفعل المحلفون ذلك، بيد أن تومي كان يميل للاعتقاد أن هذا كان يعود إلى طبيعة باسيل بي بالذات؛ المتحفظ والحريرص دائماً.

وعندما كان تومي يقلب صفحات كراسته الصفراء بينما كان يقف بجانب زاوية طاولة الدفاع، قرّب براند - الذي كانت لا تزال تفوح منه رائحة عطر ما بعد الحلاقة - كرسيه وأمال نفسه ليقترب أكثر من تومي، ثم قال: "الآن نسأل حول الفتاة؟".

لم يكن تومي يتوقع الكثير بشأن هذه النقطة، لكنه اقترب من منصة القاضي مع ذلك. وكان القاضي بي يقرأ في بعض الأوراق أمامه قبل أن ينتبه إلى تومي الواقف أسفل المنصة.

"سيدي القاضي، هل يمكن أن تسمعوا قبل أن أبدأ؟".

عرف المحلفون الذين دخلوا الأسبوع الثالث من هذه القضية ما كان يعنيه ذلك فتعلموا في أماكنهم. وبدافع الاحترام لشتين، الذي لم يكن يستطيع الوقوف لفترة طويلة في أي من الأحاديث الجانبية الهاامة بين القاضي والمحامين، طلب القاضي بي من المحلفين إخلاء القاعة للتشاور. وبعد خروجهم، اقترب تومي خطوة أخرى من سدة القاضي وقال: "سيدي القاضي، بما أن المتهم اختار الإدلاء بشهادته، أود أن يُسمح لي بسؤاله حول العلاقة الغرامية التي أقامها في العام الماضي".

هبت مارتا على الفور للاعتراض. وكان القاضي بي قد منح الدفاع - في مداولات ما قبل المحاكمة - إمكانية منع الادعاء من تبيان أن راستي كان يقابل امرأة أخرى في ربيع العام 2007. في ذلك الوقت، جادلت مارتا قائلةً إنه حتى مع قبول أدلة الدولة غير المؤكدة حول عدم إخلاص راستي - مشاهدته في الفنادق، واختبار الأمراض

المنقوله جنسياً - وسلوکه، وخصوصاً أخذه مبالغ من رواتبه من أجل تمويل العلاقة، فإن كل ذلك توقف قبل خمسة عشر شهراً من وفاة السيدة سابيتش. وفي غياب أي شيء يبيّن أنه كان يقابل تلك المرأة عندما توفيت باربارا، فإن الدليل يصبح غير ذي أهمية.

حينئذ احتاج تومي قائلًا: "سيدي القاضي، إنه يظهر وجود دافع".
فأله القاضي: "كيف؟".

"لأنه ربما كان يريد العيش مع هذه المرأة، سيدي القاضي".
"أتفول ربما؟ إثبات أن القاضي سابيتش كانت لديه علاقة غرامية منذ بعض الوقت ليس برهاناً على أنه قاتل، سيد مولتو. إذا كان برهاناً، فإن نصف الرجال قتلة". فضجت القاعة بضحكات الصحفيين المتواجددين في الصف الأمامي، كما لو أن القاضي الريفي الهاجري كان يقدم عرضاً كوميدياً فردياً.

والآن، ها هي مارتا تنتقد لتعترض محاولة تومي الramie لطرح الأسئلة نفسها التي منعها القاضي قبل المحاكمة.

"سيدي القاضي، من الواضح أن هذا أمر مسيء بصورة غير مقبولة. وإنه يوحى بأن القاضي سابيتش كان يعيش علاقة غرامية، وهو أمر أدركت المحكمة مسبقاً أنه غير ذي صلة بهذه القضية. وهو مجحف بالنسبة إلى المتهم، الذي اختار أن يشهد بالاستناد إلى أحكام المحكمة السابقة".

قال تومي: "سيدي القاضي، كان القصد من حكمك هو أنه لم تكن هناك أدلة على أن المتهم كان يقابل تلك المرأة، كائناً من تكون، عند حدوث الجريمة. والآن، بوجوده هنا، ألسنا مخولين على الأقل لسؤاله عن هذه النقطة بالذات؟".

نظر القاضي بي إلى السقف ووضع يده على ذقنه ثم قال: "الآن". لم يفهم تومي قصد القاضي بي، فقال: "غفوا؟". بسبب افتصاده في الكلمات، كان القاضي بي يبدو غامضاً على الدوام.
"أسأل الآن. من دون وجود المخلفين".

"الآن؟". تلفت تومي حوله محتاراً، وبطريقة ما التفت عيناه عيني راستي الذي بدا مذهولاً مثله تماماً.

قال القاضي: "ترى أن تسأل. اسأل".

لفترة وجيزة لم يستطع تومي - الذي لم يكن يتوقع حدوث ذلك - إيجاد الكلمات المناسبة، إلى أن قال أخيراً: "حضره القاضي سابيتش، هل ارتبطت بعلاقة غرامية في ربيع 2007؟".

هز القاضي بي رأسه عدة مرات مثل أستاذ مدرسة صارم قديم الطراز، قائلاً: "لا، لا، لا". كان القاضي بي زائد الوزن قليلاً، ودائري الوجه، وشعره أبيض خفيف ملتصق برأسه، ويضع نظارة سميكة. وكان تومي، مثل راستي، على معرفة به منذ عقود، ومع ذلك، لم يكن بوسعك أن تقول إنك تعرفه لأنك اعتاد الانعزال. ولقد نشأ في بلدة وير كولد فريد من نوعه، يتحاشاه الجميع، ليس فقط لأنه كان - وفقاً للمقاييس الريفية - غريباً جداً في المظهر والحديث، ولكن أيضاً لأنه كان واحداً من أولئك التلاميذ الغربيي الأطوار الذين لم يكن باستطاعة أي شخص فهمهم، حتى لو كان يتحدث الإنكليزية بطلاقة. أما لماذا قرر بي أن يصبح محامياً - أي شخص يتمتع بعقل سليم ربما كان سينصحه بالابتعاد عن هذه المهنة بالذات - فهذا كان لغزاً. ومع ذلك، لم يستطع مكتب المدعي العام في مقاطعة مورغان أن يرفض توظيفه، فهو شاب محلي كان سجله في كلية الحقوق - الأول في صفه في الولاية - الأفضل بين سجلات جميع المتقدمين للعمل في المكتب منذ ما لا يقل عن عشرين عاماً. وكان معروفاً بتصرفاته العفوية خلال المؤتمرات القضائية. وكان يشرب أكثر من الحد الطبيعي ويلعب البوكر لوقت متأخر من الليل، وهو واحد من أولئك الرجال الذين لم يكونوا يستطيعون الإفلات من زوجاتهم كثيراً، لكنهم إذا فعلوا، استغلوا الفرصة لأقصى الحدود.

وعندما عُيّن بي في هذه القضية من قبل المحكمة العليا، تحمس براند لذلك كثيراً، فسجل بي في المحاكمات العادلة - من دون لجنة محلفين -

حين كان يقر بنفسه براءة أو ذنب المتهمن، كان دائمًا وبصورة تدعوه للاستغراق لمصلحة الادعاء. ولكن تومي تعلم من خبرته الطويلة أن هناك ثلاث مصالح مهددة في كل محاكمة؛ مصالح الادعاء، ومصالح الدفاع، ومصالح المحكمة. ودوافع القاضي تكون في الغالب غير ذات صلة بحيثيات القضية. من المرجح أن اختيار بي لهذه المهمة قد تم على أساس الإحصاءات فقط، فهو أقل قاض تُبطل أحکامه في الولاية؛ وهذا أمر يفخر به بي بشدة. وكان القاضي بي لا يزال في صميمه محامي ادعاء. وإذا أدانوا راستي، فإنه سيحكم عليه بالسجن المؤبد.

قال القاضي مبتسماً: "من الأفضل أن أسأل أنا، سيد مولتو. سيكون ذلك أسرع. حضرة القاضي سايبتش، عندما توفيت زوجتك، هل كنت تعيش علاقة أو قصة حب، أو أي نوع من أنواع الارتباط مع امرأة أخرى؟".

استدار راستي على كرسيه ليواجه القاضي ثم قال: "لا يا سيدي". "و قبل ذلك، لنقل ثلاثة أشهر، هل كانت هناك أية علاقة، قصة حب؟".

"لا يا سيدي".

هزَ القاضي بي رأسه وجسده العلوي بأكمله ثم رفع يده مشيراً لتومي بطرح المزيد من الأسئلة.

كان تومي قد رجع للجلوس بجانب براند، الذي همس له قائلاً: "اسأله إذا كان يأمل في مقابلة أي امرأة بصورة رومانسية".

عندما فعل تومي ذلك، رد عليه بي بالطريقة السابقة نفسها. "لا، لا، سيد مولتو. ليس في أميركا. لا يُسجن الرجل لما يوجد في رأسه". نظر بي إلى راستي ثم تابع، قائلاً: "حضره القاضي، هل تحدثت مع امرأة أخرى حول الحب في وقت، لنقل قبل ثلاثة أشهر من وفاة زوجتك؟".

"لا يا سيدي".

قال القاضي: "الحكم نفسه سيد مولتو".

رفع تومي كتفيه وهو يلتفت إلى براند الذي بدا وكأن بي غرز سكيناً في جسده.

قال القاضي: "أدخلوا المخلفين".

همس تومي لبراند قائلاً: "كيف أخاطبه؟ شتيرن قال إنه سيدعوه راستي".

همس براند: "حضرة القاضي". هذا صحيح. إذا دعاه باسمه الأول فهذا سيأتي منسجماً مع نظرية الانتقام.

زرّر تومي سترته التي كانت ضيقة قليلاً عند وسطه، كالعادة.

ثم قال: "حضرة القاضي سابيتش".
"سيد مولتو".

من مكانه على منصة الشهادة، حنى راستي رأسه قليلاً مع ابتسامة تشبه ابتسامة موناليزا، ما يعكس وجود معرفة عمرها عقود بين الرجلين. وكانت إيماءة بالغة الدقة ولكن هادفة، من النوع الذي لا يخطئ معانيها المخلفون أبداً. فتذكر تومي فجأة ما أبعده عن ذهنه طوال أشهر. لقد جاء إلى مكتب المدعي العام بعد سنة أو سنتين من مجيء راستي، لكنهما مع ذلك كانوا قريبيين بما يكفي ليكونا ندين متساوين، ما يجعلهما مؤهلين للتنافس على المحاكمات والترقيات نفسها. بيد أن ذلك لم يحصل. فقد كان نيكو ديلا غارديا - صديق تومي المفضل - هو المنافس الأساسي لراستي، وليس تومي. وكان واضحاً للجميع أنه كان يفتقد لذكاء راستي وفطنته. فالجميع كان يعرف ذلك - تذكر تومي - بمن فيهم هو نفسه.

الفصل الخامس والعشرون

نات، 22 حزيران، 2009

حالما أسمع ما يريد تومي مولتو أن يثيره مع القاضي بي، أتوجه نحو طاولة الدفاع وأقول هامساً لشتين إنني سأخرج لبعض الوقت. في يومي شتين موافقاً، فأندفع إلى الخارج بسرعة قبل أن يتمكن مولتو من الذهاب بعيداً.

وبعد بعض ساعات من زيارة ديبى دياز في يوم الانتخاب، عرف أبي أنه سينتهي. وفي الأسبوع الأول الذي تلت وفاة أمي، علق والدي الكثير من الأنشطة المتعلقة بالحملة الانتخابية. وهذا كول حذوه لفترة وجيزة، لكنه بدأ ببث دعاياته الهجومية على الهواء في منتصف تشرين الأول. وردد والدي بدعایته القاسية أيضاً، لكن النشاط الفعلي الوحيد الذي شارك فيه مناظرة مباشرة لصالح اتحاد الناخبات.

لكن ليلة الانتخاب كانت تحتاج إلى حفلة، ليس من أجل أبي، وإنما من أجل فريق الحملة الذي طرق الأبواب لأسابيع. وجئت لفترة وجيزة قبل الساعة العاشرة مساء، لأن ريموند هورغان طلب مني المجيء والتقاط بعض الصور مع والدي. ولعلمي بوجود ريموند هورغان لم أضغط على أنا كثيراً عندما طلبت مني الذهاب بمفردي.

كان ريموند قد حجز جناحاً كبيراً في فندق دولسيمر، وعندما وصلت إلى هناك كان يوجد نحو عشرين شخصاً يشاهدون التلفاز بينما هم يحلقون حول قدور الطعام حاملين بأيديهم صحون المقبلات. ولم أجد أبي في الجناح فأشاروا لي إلى غرفة مجاورة، وهناك وجدته

منخرطاً في حديث جدي مع راي. وكانا وحيدين في الغرفة، وبحسب تصوري، قطع ريموند الحديث حالما رأني. وكانت ربطة عنق والدي غير معقودة وكان يبدو أكثر إرهاقاً وحزناً مما كان عليه في الأسابيع الأولى التي تلت وفاة أبي. وصحيح أن علاقة والدي لم تكن ممتازة، لكن رحلها بدا وكأنه استنزف طاقته تماماً.

عائقته وهنائه، وعندما سأله عما إذا كان قد عرف ما تريده ديفي دياز، قال لي: "أجل". ثم أشار إلى كي أجلس. فأخذت قطعة من الجبن من الصينية الموجودة على طاولة القهوة بيننا. قال أبي: "يخطط تومي مولتو لاتهامي بقتل أمك".
هذا جنون".

"أجل، هذا جنون. أتوقع أنهم سيستدعونك في النهاية كشاهد. وذهب ساندي إليهم اليوم وحصل على عرض مجاني موجز لأدتهم".
أنا! ولماذا أكون شاهداً؟".

"أنت لم تفعل أي شيء خاطئ، نات، لكن ساندي سيشرح لك. ولا ينبغي على مناقشة الأدلة معك. ولكن، ثمة أشياء قليلة أريدك أن تسمعها مني".

نهض أبي، وأغلق التلفاز ثم عاد إلى كرسيه المرريح. وكان يبدو مثل العجائز عندما يحاولون جاهدين فهم شيء ما، حيث تنتشر ملامح عدم اليقين على وجوههم. وأنا لم أكن أفضل حالاً، في الواقع. فكنت أعرف أنني قد أبكي في أي لحظة، مع أنني أشعر دائماً بالإحراج من البكاء أمام والدي؛ ربما لأنني أعرف أنه أمر لن يفعله أبداً.

"أنا متأكد من أن الاتهام سيعُلن في الأخبار هذه الليلة وفي الصحف غداً. لقد فتشوا المنزل قرابة السادسة، مع إغفال صناديق الاقتراع. وكان ساندي لا يزال في مكتب المدعي العام. لمسة جميلة". قال والدي وهز رأسه.

"عمَ يبحثون؟".

"لا أعرف بالتحديد. وأعرف أنهم أخذوا حاسوبي. وهذه مشكلة

لأن هناك الكثير من المواد الداخلية الخاصة بالمحكمة. وتحدث ساندي عدة مرات مع جورج ماسون". وأشار بنظره إلى الستاير الثقيلة قليلاً، ثم نفَض رأسه لأنَّه عرف أنه خرج عن الموضوع، ثم قال: "نات، عندما تتحدث مع ساندي حول القضية، ستسمع أشياء سخيفٌ أمُّك".
"أي نوع من الأشياء؟".

شبك يديه ووضعهما في حضنه. لطالما أحببت يدي والدي، الكبيرتين والسميكتين والقاسيتين.

"في العام الماضي كنت أقابل امرأة أخرى يا نات".
"كنت تقابل امرأة أخرى؟".
"هذا صحيح".

"هل كانت أمي تعرف؟".
"لم أخبرها بذلك".
"أبي".

"أنا آسف يا نات. فلن أحاول حتى أن أفسر لك".

"لا، لا تفعل". كان قلبي يدق بقوة وتدفق الدم إلى وجهي، ففكَّرت في داخلي، لماذا بحق الله أشعر بالحرج؟ "أبي. من هي؟".
"هذا ليس مهمًا، أليس كذلك؟ إنها أصغر مني بكثير. وأنا واثق بأن أي طبيب نفسي سيقول إنني كنت أطارد شبابي. لقد انتهت العلاقة قبل وقت طويل من وفاة أمك".
"هل أعرفها؟".

هز رأسه نافياً بصورة قطعية.

لم أكن سريعاً في اتخاذ المواقف قط في حياتي. إنني أصل إلى رأي ما، مهما كان هذا الرأي، بعد أن أقلب الأمور في داخلي لفترة طويلة، وقد أدركت حينئذ أنني سأفكر في هذا الأمر لوقت طويلاً. كل ما كنت متأكداً منه هو أن هذا كان شيئاً وأنني أريد المغادرة. ووقفت وقلت أول شيء خطر على ذهني: "أبي، لماذا لم تنشر سيارة سباق لعينة؟". رفع عينيه، ونظر إليَّ ثم أخفضهما. كان بوسعي رؤية أنه كان

يعدُّ للعشرة. وأنه يظن أنه كنوم وغير مقروء، لكنني أستطيع دائمًا تمييز شعوره عندما يكون غاضبًا. ويكون تأثير ذلك على دائمًا قاسياً كلسعة سوط. وحتى في ذلك الحين، عندما كنت متأكداً من أنني أملك كل الحق في أكون غاضبًا، فقد شعرت بالخجل والإرباك مما رأيته في ملامح أبي. أخيراً قال بهدوء: "لأنني أعتقد أنني لم أكن أريد سيارة سباق لعينة".

رميت بمنديل ورقي، وكنت قد كُوِرتَه في قبضة يدي، على الطاولة.

"هناك شيء آخر يا نات".

كنت قد بلغت درجة من الاضطراب بحيث لم يكن باستطاعتي التحدث.

"أنا لم أقتل أمك. وستضطر للانتظار حتى تفهم كل ما يحدث الآن، ولكن هذه القضية قديمة مثل شراب معنق في زجاجات جديدة. وإنها مجرد هراء عفن من شخص مهووس لم يعرف قطَّ كيف يستسلم". وبدا أبي، المعتمد على الدوام، كما لو أنه ذهل لإطلاق هذا التقييم الفج لمولتو. "لكنني سأقول لك هذا الأمر. إنني لم أقتل أحداً. وبالتأكيد ليس أمك. أنا لم أقتلها يا نات". كان في ذلك الحين ينظر إلى مجدداً. لم أكن أريد سوى الرحيل، لذا لم أستطع سوى أن أقول: "أعرف"، قبل أن أغادر.

تمد مارتا رأسها خارج باب قاعة المحكمة. شعرها ذو ضفائر حمراء لولبية، وتضع قرطين مرصعين بزجاج ملوئٌ، وبيدو عليها شحوب شخص كان بديناً سابقاً وأصبح نحيلًا عن طريق ممارسة الرياضة بجنون. إنها تعاملني، في هذه المحاكمة، كما لو أنها كانت مسؤولة عنني، شيء ما بين الملك الحارس والمشرف.

تقول لي بينما أدخل من الباب بجانبها: "إنهم مستعدون". تمسك بذراعي، ثم تضيف هامسة: "لم يغير القاضي بي حكمه".

أرفع كتفي وأقول: "دعينا ننتهي من هذا الأمر".

مع عودة المحلفين إلى القاعة، أعود وأجلس في مكاني في الصف الأول. تومي مولتو يقف مسبقاً أمام أبي، تقريباً مثل ملاكم خرج من زاويته قبل أن يقرع الجرس. وبجانب أبي، فتحت شاشة عرض، استخدمها محامو الادعاء كي يرى المحلفون صوراً حاسوبية لوثائق متعددة قبلت كأدلة.

حالما يجلس المحلفون الستة عشر - أربعة بدلاء - على مقاعدهم الخشبية الفاخرة، يقول القاضي بي: "تابع سيد مولتو".

يقول مولتو: "حضرة القاضي سايبتش".

يجيب أبي: "سيد مولتو".

"سألك السيد شتيرن خلال استجوابه لك ما إذا كنت قد سمعت شهادات شهود الادعاء".

"أذكر ذلك".

"وأنا أريد أن أسألك المزيد حول الشهادات التي سمعتها وكيف فهمتها".

"بالتأكيد". بصفتي شاهداً في هذه القضية، فلا يمكنني أن أكون أحد محامي والدي، لكنني أساعد في إعادة بعض الأشياء إلى مكتب شتيرن بعد المحاكمة. والآن، وبعد أن أدليت بشهادتي أمام الادعاء، أميل للبقاء هناك في المكتب إلى أن تكون أنا مستعدة لمقابلتي بعد العمل. وخلال الليالي الثلاث السابقة، أجري الفريق القانوني لوالدي تدريباً على استجواب الادعاء في مكاتب شركة شتيرن آند شتيرن. وكان ريموند هورغان موجوداً هناك ليذهب أبي، وبعد ذلك شاهد ريموند وشتيرن ومارتا المستشاره التي وظفواها، مينا أوبرلاندر، شريط فيديو. فطلبوا من والدي أن يجيب باقتضاب وبشكل مباشر، وأن يحاول مخالفة محامي الادعاء، عندما يفعل ذلك، من دون أن يبدو أنه غير متعاون. فعند الاستجواب المعاكس، وخاصة للمتهم، يجب أن يبدو عليه بأنه ليس لديه أي شيء يخفيه.

"لقد سمعت شهادة جون هارناسون؟".
"أجل".

"وهل صحيح حضرة القاضي أنك في محادثة جرت بينما كنتما الاثنين فقط أشرت للسيد هارناسون بأنه كان سيخسر استئنافه؟".
"هذا صحيح". أعرف هذه الواقعة منذ تشرين الثاني المنصرم، لكن تأكيد أبي يعتبر خبراً مثيراً في القاعة، والدليل على ذلك هو الحركة التي أسمعها في القاعة؛ بما في ذلك المكان المخصص للمحلفين، فأنا واثق بأن الكثير منهم اعتبروا هارناسون شخصاً غير موثوق. يقلب تومي مولتو شفتيه باستغراب واضح. وبوجود ميل تولي كشاهد إضافي، لا بد من أن مولتو كان يتوقع أن يفاجئ أبي به إذا أنكر إبلاغ هارناسون.
"سمعت شهادة القاضي ماسون في قضية الادعاء والتي تفيد أن فعل

ذلك ينتهك عدة قواعد تتعلق بسلوك القضاة، أليس كذلك؟".

"سمعت شهادته".

"هل تختلف الرأي؟".
"لا".

"كان من غير اللائق، حضرة القاضي، أن تخرط في محادثة خاصة مع منهم حول قضيته قبل أن يصدر الحكم فيها، أليس كذلك؟".
"بالتأكيد".

"ذلك ينتهك قاعدة نسميتها الاتصال بأحد الأطراف - من دون الطرف الآخر - أليس كذلك؟".
"صحيح".

"كان يجب أن يتواجد هناك شخص ما من مكتبي. أليس كذلك؟".
"بالتأكيد".

"وبصفتك قاضياً في محكمة الاستئناف، فهل يحق لك أن تكشف قرارات المحكمة قبل أن تُعلن؟".

"ليست هناك قاعدة واضحة تمنع ذلك، سيد مولتو، لكنني كنت سأشعر بخيبة الأمل إذا فعل ذلك أي عضو آخر في المحكمة، وأنا أعتبر

ذلك خطأ جسيماً في التقدير من جانبي".

"والآن، كم سنة مرت على وجودك على كرسي القضاء، حضرة القاضي؟".

"بما في ذلك المدة التي كنت فيها قاضياً في محكمة التمييز؟".
"بالضبط".

"أكثر من عشرين عاماً".

"وخلال هذين العقدين بأكملهما، حضرة القاضي، كم مرة كشفت
قراراً لم يكن قد أعلن بعد لجهة واحدة فقط؟".
"لم أفعل ذلك سيد مولتو".

"إذا، فقد كان هذا انتهاكاً جسيماً ليس فقط للقواعد، وإنما أيضاً
لطريقة ممارستك للمهنة أليس كذلك؟".
"كان خطأ فادحاً في التقدير".

"بل كان أكثر من خطأ في التقدير، حضرة القاضي، أليس كذلك؟
كان أمراً غير لائق".

"كما قلت سيد مولتو، ليس هناك قانون محدد، لكنني أواافق مع
القاضي ماسون أنه كان خطأ واضحاً أن أخبر السيد هارناسون بالنتيجة.
وبدا لي أنه أمر شكلي في تلك اللحظة لأنني كنت أعرف أن القضية بُتّ
بأمرها نهائياً. ولم يخطر بيالي قط أن السيد هارناسون قد يهرب نتيجة
ذلك".

"هل كنت تعرف أنه أخرج بكفالة؟".
"بالطبع، فأنا من منحه ذلك".

" تماماً، هذه هي النقطة التي كنت سأثيرها"، يتنسم توسيع قليلاً
بينما يواجه المحقفين، "أكنت تعرف أنه سيغادر السجن بقية حياته
عند تثبيت إدانته؟".
"طبيعي".

"ولكن، ألم يخطر بيالك أنه قد يهرب؟".
"لم يكن قد هرب بعد، سيد مولتو".

"ولكن، مع قرار محكمتك، لم تكن لديك أي فرصة، أليس كذلك؟ كنت تعتقد أن المحكمة العليا لن تقبل القضية، أليس كذلك؟ لقد أخبرت هارناسون بأنه في نهاية الطريق، أصحى ما قلته؟".
"صحيح".

"إذا، أنت تقول لنا إنك كنت محامي ادعاء لفترة. ما هي المدة؟ أهي خمس عشرة سنة؟".
"خمس عشرة سنة".

"محامي ادعاء لخمس عشرة سنة وقاض لعشرين سنة، ألم يخطر ببالك أن هذا الرجل كان يريد أن يعرف القرار مسبقاً كي يتمكن من الهرب؟".

"بدا غاضباً جداً، سيد مولتو. لقد أخبرني، كما اعترف عندما أدلى بشهادته، بأنه كان قلقاً للغاية".
"هل خدعاك؟".

"أظن أن السيد هارناسون قال إنه قرر الهرب بعد معرفة النتيجة. فلا أنكر أنه لم يكن ينبغي علي إبلاغه، سيد مولتو. ولا أنكر أن واحداً من الأسباب الكثيرة لكون ذلك خطأ هو أنه كان يفتح المجال له للهرب. ولكن، لا، في تلك اللحظة، لم يخطر في ذهني أنه سيهرب".
"أيرجع سبب ذلك إلى أنك كنت تفكّر في شيء آخر؟".
"ربما".

"وما كنت تفكّر فيه، حضرة القاضي، هو تسميم زوجتك، أليس كذلك؟".

هذه هي الحيلة الذكية في قاعة المحكمة. مولتو يعرف أن والدي ربما يشعر بالقلق من أن يكون قد أمسك متلبساً برفة صديقه في أحد لقاءاتهما الحميمة، لكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يقول ذلك. لذا، فلا بد من أن يكون راضياً بالإجابة ببساطة: "لا".

"هل يمكنك أن تقول، حضرة القاضي، إنك كنت تصدّي السيد هارناسون معرفة؟".

"لا أعرف ماذا يمكن أن أسمى هذا".

"حسناً، كان يطلب منك شيئاً غير لائق وأنت حفقت له ذلك، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"وبالمقابل، حضرة القاضي، بالمقابل، سأله: كيف يشعر المرء حين يسمم شخصاً ما، أليس كذلك؟".

"لم يكن هناك شيء بالم مقابل سيد مولتو".

"حقاً؟ هل تخبرنا أنك انتهكت كل هذه القواعد لكي تقدم للسيد هارناسون معلومة كان بحاجة ماسة إليها، وأنت فعلت ذلك من دون أن تظن أن السيد هارناسون كان سيفعل شيئاً من أجلك؟".

"فعلت ذلك لأنني شعرت بالأسى حيال السيد هارناسون، وبالذنب بخصوص واقعة أتنبي، عندما كنت أنا وأنت محامي ادعاء شابين، أرسلته إلى السجن لحريمه أرى الآن أنها لم تكن تستحق تلك العقوبة".
يرمق تومي أبي بنظرة ذات مغزى . وإنه يعرف - وكذلك الجميع في القاعة - أن أبي يحاول تذكر المحففين ليس فقط بعلاقتهم السابقة وحسب ، وإنما أيضاً بأن محامي الادعاء يتجاوزون حدودهم أحياناً.
"والآن ، لقد سمعت شهادة السيد هارناسون ، أليس كذلك؟".
"لقد سبق واتفقنا على ذلك".

هذا الرد، المستفز نوعاً ما ، يعكس للمرة الأولى أن والدي ليس مسيطراً تماماً على مشاعره . ويُسند شتيرن ظهره على مسند الكرسي وينظر إليه مباشرةً ، كإشارة كي يضبط نفسه .

"وهل تخبرنا بأنه كذب عندما قال إنك بعد أن كشفت القرار في قضيته ، سأله كيف يشعر المرء حين يسمم شخصاً ما؟".

"أنا لا أذكر المحادثة تماماً كما يذكرها السيد هارناسون ، لكنني أذكر بالفعل أن هذا السؤال طُرِح".
"أطْرَحَ من قبلك؟".

"أجل ، لقد سأله ذلك . كنت أريد...".

"اعذرني حضرة القاضي. أنا لم أسألك عما كنت تريده. كم محاكمة شاركت فيها أو رايتها كمحامي ادعاء أو كقاضي محاكم عادلة أو كقاضي محكمة استئناف؟".

يتسم أبي قليلاً عندما يتذكر انقضاء هذه المدة الطويلة، ثم يقول: "الله أعلم. آلاف".

"وبعد آلاف المحاكمات، حضرة القاضي، هل تفهم أنه يفترض بك الإجابة عن الأسئلة التي أطربها أنا عليك، وليس الأسئلة التي تتمنى أن أطربها؟".

يقول شتيرن: "اعتراض".

يقول القاضي بي: "غير مقبول". لو كان راستي شاهداً عادياً، لكان يمكن أن تدعوه طريقة مولتو ترهيباً، لكنها حركة عادلة بوجود قاض على منصة الشهادة.

"أفهم ذلك، سيد مولتو".

"سألتك هذا السؤال فقط: هل سألت السيد هارناسون كيف يشعر المرء حين يسمى شخصاً ما؟".

يقول أبي على الفور: "أجل". تضج القاعة بواحدة من تلك الهممات الصغيرة التي لطالما اعتبرتها سخيفة ومتذلة في مسلسلات تلفزيونية مثل Law & Order، الذي كنت أشاهده دائماً عندما كنت فتني، وكان هذا ثانياً أفضل شيء بالنسبة إلىَّ بعد تسجيلات الفيديو لأبي في المحكمة. سُجل تومي نقطة.

يشير براند لمولتو كي يأتي إلى طاولة الادعاء، فيفعل. ويهمس براند في أذن تومي شيئاً ما فيهز الأخير رأسه.

"أجل، السيد براند ذكرني للتو. كي أكون واضحاً حضرة القاضي، السيد هارناسون لم يكن قد أعيد القبض عليه بعد، عندما توفيت زوجتك، أليس كذلك؟".

"أعتقد أن ذلك صحيح".

"كان قد مضى على غيابه أكثر من عام؟".

"أجل".

"إذاً، عندما توفيت زوجتك، حضرة القاضي، لم يكن لديك سبب للقلق من أن السيد هارناسون يمكن أن يخبر الشرطة بأنك سأله عن شعور المرأة عندما يسمم شخصاً ما؟".

"بصراحة، سيد مولتو، لم أفكر قط بهذا الجزء من حديثنا. و كنت أكثر قلقاً لأنني أعطيت هارناسون من دون قصد سبباً للهرب". وبعد ثانية، أضاف: "جرى حديثي مع السيد هارناسون قبل أكثر من خمسة عشر شهراً من وفاة زوجتي، سيد مولتو".

"قبل أن تسممها".

"لم تسممها، سيد مولتو".

"حسناً، دعنا نلقي نظرة على هذه، حضرة القاضي. الآن، هل قرأت سجل محاكمة السيد هارناسون عندما حكمت في قضية استئنافه؟".

"بالطبع".

"هل يمكننا القول إنك قرأت السجل بعناية؟".

"آمل أنني أقرأ كل سجل بعناية عندما أقرر حكمي في أي قضية استئناف".

"وما فعله السيد هارناسون، حضرة القاضي، هو تسميم شريكه بالزرنيخ. فهل هذا صحيح؟".

"هذا ما ذكرته الولاية".

"وماذا أخبرك السيد هارناسون حول ما فعله؟".

"إن هذا صحيح، سيد مولتو. ظننت أننا كنا نتحدث حول ما كان موجوداً في السجل".

يهز تومي رأسه، ثم يقول: "تصحيح مقبول، حضرة القاضي".

"هذا هو السبب من وراء سؤالي للسيد هارناسون عن شعور المرأة حين يسمم شخصاً ما؛ لأنه اعترف بقيامه بذلك".

ينظر مولتو إلى الأعلى، ويضع شتيرن قلمه على الطاولة. فالحوار الذي جرى بين والدي وهارناسون، فيما يتعلق بمحاكمة هارناسون

الأولى ، مفتوح للنقاش بحسب أمر القاضي بي . ومع أن والدي يستعيد شيئاً من النقاط التي فقدها لصالح مولتو من قبل ، إلا أن ساندي يبدو فلماً من أن يتوجه ويفتح الباب أمام موضوع أكثر خطورة . ويبدو أن مولتو يفكر في هذا أيضاً ، لكنه يختار المضي في ما كان قد بدأ به .

"حسناً ، هناك شيء كان موجوداً بالتأكيد في السجل ، حضرة القاضي ، وهو وصف مفصل للأدوية التي اختبرها المخبر المركزي - بموجب عقد مع طبيب التشريح في مقاطعة كايندل - في سياق فحص روتيني للمواد السمية على عينات الدم المأخوذة من الجثة . فهل تذكر قراءتك لهذا؟".

"أسلم بأنني قرأته سيد مولتو".

"وتبيّن حضرة القاضي أن الزرنيخ مادة ليست مشمولة باختبار السميات الروتيني . فهل هذا صحيح؟".

"أذكر ذلك".

"وبسبب ذلك ، كاد أن يفلت السيد هارناسون بفعلته ، أليس كذلك؟".

"حسبما أذكر ، حكم طبيب التشريح في الأساس بأن وفاة السيد ميلان كانت طبيعية".

"وهذا ما فعله في الأساس طبيب التشريح في مسألة وفاة السيدة سابيش ، أليس كذلك؟".

"أجل".

"والآن ، حضرة القاضي ، هل لديك معرفة بصنف من الأدوية يُسمى مثبطات إنزيم أوكسيداز أحادي الأمين؟".

"هذا المصطلح لم أكن أعرفه تماماً من قبل ، لكنني بالتأكيد أعرفه الآن ، سيد مولتو".

"وماذا عن دواء يُدعى فينيلزين؟ فهل تعرفه؟".

"بالتأكيد".

"وماذا سمعت عن الفينيلزين في البداية؟".

"الفينيلزين نوع من مضادات الاكتئاب وكانت زوجتي تأخذه من

وقت لآخر. لقد وصف لها لعدة سنوات".

"والفينيلزين، حضرة القاضي، مثبت من مثبتات إنزييم أوكسيداز أحادي الأمين، أليس كذلك؟".

"إنني أعرف ذلك الآن، سيد مولتو".

"كنت تعرفه منذ بعض الوقت، أليس كذلك؟".

"لا يمكنني أن أقول ذلك حقاً".

"حسناً حضرة القاضي، لقد سمعت الشهادة خلال استجواب الادعاء للدكتور جورفيتيش، أليس كذلك؟".

"أجل".

"وأنت تذكر، وأنا واثق، أنه وصف قيامه بفحص شرعي لحاسوبك الشخصي بعد نقله من منزلك. فهل تذكر ذلك؟".

"أذكرشهادته وأذكر أن منزلي فُتش وصودر حاسوبي بأمر منك".

ويحاول أبي بكل ما في وسعه ألا يبدو عليه الشعور بالمرارة، لكنه قال ما قاله عمداً.

"وتذكر شهادة الدكتور جورفيتيش بأن ذاكرة مستعرض شبكة الإنترنت لديك تُظهر وجود محاولات بحث في موقعين كانا يصفان الفينيلزين، وقد حدد ذلك في أواخر أيلول 2008".

"أذكر تلك الشهادة".

"وبالنظر إلى تينك الصفتين، حضرة القاضي . . . " يلتفت مولتو إلى مساعد له موجود أمام طاولة الادعاء ويعطيه رقمًا لأحد الأدلة، فتضاء شاشة العرض الفارغة بجانب والدي، ويستخدم تومي مؤشر ليزر ليحدد السطور التي يقرؤها. "الفينيلزين هو أحد مثبتات إنزييم أوكسيداز أحادي الأمين (MAO)، فهل ترى ذلك؟".

"بالطبع".

"هل تذكر قراءتك لهذا في أواخر أيلول 2008، حضرة القاضي؟".

"لا أذكر سيد مولتو، ولكنني أقبل ما ترمي إليه".

"والصفحة 463 من سجل هارناسون، التي أضيفت سابقاً إلى الأدلة

تحت رقم دليل الشعب رقم 47، والتي أعتقد أنك اعترفت للتو بأنك قرأتها، تلك الصفحة تذكر أن مثبطات إنزيم أوكسيداز أحادي الأمين لا يجري اختبارها كجزء من اختبار السمية الروتيني الذي يتم عند فحص شخص ما توفي بشكل غير متوقع؟".

"أجل، إنها تذكر هذا".

بعد ذلك، يطلب مولتو أن يعرض على الشاشة رأي القاضية هاملين والقاضي ماسون في قضية هارناسون، واللذان يشيران أيضاً إلى أن الزرنينغ والكثير من المركبات الأخرى، بما فيها مثبطات إنزيم أوكسيداز أحادي الأمين، غير مشمولة في الفحص الروتيني للمواد السمية عند تشريح الجثث.

"هل قرأت رأي القاضية هاملين؟".

"أجل يا سيدى".

"إذاً، أنت تعرف حضرة القاضي أن جرعة زائدة من الفينيلزين لن تُكتشف من خلال فحص روتيني للمواد السمية، أليس كذلك؟ مثل الزرنينغ الذي استُخدم لقتل صديق السيد هارناسون؟".

يقول شيرن على سبيل الاعتراض: "جدلي".

يهز القاضي بي رأسه وكأنه يريد أن يقول إنه ليس أمراً هاماً، لكنه يقول مع ذلك: "مقبول".

"حسناً، دعني أصوغه لك على الشكل التالي: حضرة القاضي سابيتش، ألم تسمم زوجتك بالفينيلزين، لعلك بأن ذلك لن يُكتشف بواسطة الفحص الروتيني للمواد السمية آملاً أن يُعتبر موتها طبيعياً؟".

"لا يا سيد مولتو، لم أفعل ذلك".

يصرّ مولتو عندئذ ويتجول قليلاً ثم يقول: "الآن حضرة القاضي، لقد سمعت شهادة الشرطي كريليك حول إزالة محتويات خزانة أدوية زوجتك من منزلك بعد يوم من وفاتها؟".

"أذكر أن الشرطي كريليك سألني ما إذا كان بوسعي فعل ذلك بدلاً من كتابة لائحة بالأدوية عندما كان في منزلنا، وأذكر أنني أذنت له

بالقيام بذلك سيد مولتو".

"كان الأمر سيبدو مشبوهاً فيما لو رفضت، أليس كذلك حضرة القاضي؟".

"قلت له إنه بإمكانه أن يفعل كل ما يحتاج إلى القيام به، سيد مولتو. وإذا أردت أن أمنعهم من فحص قوارير الأدوية تلك، فأنا متأكد من أنه كان بوسعي التفكير في سبب يجعلني أطلب منه كتابة أسماء الأدوية عندما كان موجوداً هناك".

عند طاولة الادعاء، يتظاهر جيم براند بأنه يلمس ذقنه لكنه يشير بأصابعه لمولتو كي يتتابع. وسجّل والدي نقطة للتوك.

"دعنا نصل إلى لب الموضوع حضرة القاضي. تلك بصمات أصابعك على قارورة الفينيلازين من خزانة أدوية زوجتك، أليس كذلك؟". يطلب تومي رقم أحد الأدلة فيُظهر المساعد عند طاولة الادعاء سلسلة من الصور تحوي عدة بصمات ذهبية على خلفية زرقاء.

"لقد سمعتْ شهادة الدكتور ديكerman".

"كلنا سمعناه يقدم رأيه، حضرة القاضي، وهو أن تلك بصمات أصابعك. ولكن، الآن أمام المحلفين" - يشير تومي بيده للمحلفين الستة عشر الجالسين خلفه - "أنا أسألك إذا كنت تعترف بأن هذه في الواقع بصمات أصابعك على قارورة الفينيلازين الخاصة بزوجتك؟".

"كنت أنا من يجلب أدوية باربارا من الصيدلية في العادة، وغالباً ما كنت أضعها بنفسى على رفوف خزانة أدويتها. وليس لدى أي سبب للشك في أن هذه بصماتي. ما ذكره يا سيد مولتو أن باربارا خلال الأسبوع الذي سبق وفاتها كانت في الحديقة عندما جئت إلى المنزل، وكانت يداها متسختين فطلبت مني أن أريها قارورة جلبتها معى ثم أن أضعها في خزانة أدويتها، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك بقيناً أن تلك القارورة هي الفينيلازين".

يحدق تومي بابتسامة ساخرة، مستمتعاً بمنطقية التفسير ثم يقول: "إذا، أنت تقول إن البصمات جاءت عندما أريت زوجتك القارورة التي

جلبها لها؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"أنا أقول لك إن هذا محتمل".

"حسناً، دعنا نتعمق في الأمر بعناية أكبر، حضرة القاضي". يعود تومي إلى طاولة الادعاء ثم يرجع حاملاً قارورة دواء حقيقة مغلفة بكيس شفاف. و"بالإشارة إلى دليل الشعب رقم 1، الفينيلزين الذي جلبته من الصيدلية قبل أربعة أيام من وفاة زوجتك، أنت تقول إنك أريتها إياه، شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟". يمد يده تجاه أبي حاملاً القارورة الصغيرة ضمن الكيس.

"مرة ثانية، أجل، إذا كان هذا هو الفينيلزين الذي أريتها إياه".
"وأنا أمسك بالقارورة بين إبهامي الأيمن وجانب سبابتي اليمنى، أليس كذلك؟".
"صحيح".

"وإبهامي الأيمن، حضرة القاضي، يشير نحو الأسفل؛ إلى البطاقة على مقدمة القارورة، أليس كذلك؟".
"أجل".

"ولكن، مع لفت انتباحك أيضاً إلى الدليل 1A، صورة البصمات التي ظهرها الدكتور ديكرمان، فإن ثلاثة من البصمات الأربع، إبهامك الأيمن، سبابتك اليمنى، وإصبعك الوسطى اليمنى؛ كلها تشير إلى الأعلى نحو البطاقة، حضرة القاضي، أليس كذلك؟".

ينظر أبي إلى الصورة ثم يومئ موافقاً، لكن القاضي يبي ذكره بقول ذلك شفهياً من أجل السجل.

"كان علىي أن أمد يدي داخل الكيس لإخراج القارورة، سيد مولتو".

"لكن البصمات موجودة على أسفل القارورة، أليس كذلك حضرة القاضي؟".

"ربما كانت مقلوبة رأساً على عقب في الكيس، سيد مولتو".
"في الواقع، حضرة القاضي، شهد الدكتور ديكرمان بأن طول

وعرض كل تلك البصمات يشيران إلى أنك أمسكت القارورة بقوة كي يصبح بالإمكان فتح الغطاء المصنوع كي لا يفتح من قبل الأطفال. فهل سمعت الشهادة؟".

"أجل، ولكن يمكن أن أكون قد أمسكتها بقوة كي أخرجها من الكيس".

يحدق مولتو إليه بنظرة مختلفة هذه المرة. لقد تعامل والدي مع هذه الأسئلة بطريقة جيدة إلى حد ما، متجاهلاً حقيقة أن بصمات أبي لا تظهر في أي مكان على القارورة.

"حسناً، لنتحدث عن الصيدلية، حضرة القاضي سابيتش، عشرة أقراس فينيلزين أخذت من صيدليتكما في 25 أيلول 2008، قبل أربعة أيام من وفاة زوجتك".
"ذلك كان الدليل".

"والتوقيع على ورقة بطاقة الاعتماد، حضرة القاضي، دليل الشعب 42، هو توقيعك، أليس كذلك؟". تظهر صورة الورقة، التي مررت على المحلفين في مغلق شفاف آخر، على الشاشة المحاذية لمنصة الشاهد. يقول والدي من دون أن يكبد نفسه عناء الالتفات: "أجل".

"أنت جلت الفينيلزين، حضرة القاضي، أليس كذلك؟".
"لا أذكر ذلك سيد مولتو. ويمكنني أن أوفق فقط على أن هذا توقيعي. وأقول لك إنني كنت أجلب الوصفة غالباً في طريق عودتي إلى المنزل، إذا طلبت مني باربارا فعل ذلك. والصيدلية موجودة في الجانب الآخر من الطريق حيث أستقل الباص يومياً إلى عمله".

يتحقق مولتو لائحة أدلة ويهمس ببعض الإرشادات من أجل الصورة التالية.

"وبالإشارة إلى الدليل 1B، صورة فوتوغرافية. لقد سمعت الشرطي كريليك يشهد بأن قارورة الفينيلزين صُورت هناك بالوضعيّة نفسها التي كانت عليها قبل أن تُؤخذ؟".
"أجل".

"أطلب منك الانتباه إلى الدليل B1. أعتقد أنك تستطيع رؤية أن هناك ستة أقراص فقط في القارورة، أليس كذلك؟".
في الصورة، المأخوذة من الأعلى، تظهر الأقراص الستة مستقرة في الأسفل. ومن الصعب تصديق أن أقراص دواء عادية المظهر يمكن أن تقتل شخصاً ما.

"صحيح".

"وهل تعرف أين ذهبت الأقراص الأربعه الناقصة؟".
إذا كنت تسأل، سيد مولتو، ما إذا كانت لي أي علاقة بإخراج هذه الأقراص، فالجواب هو لا".
لذلك سمعت شهادة الدكتورة ستراك، والتي تفيد أن تناول أربعة أقراص معاً يمكن أن يشكل جرعة قاتلة".
"سمعت ذلك".

"هل لديك أي سبب للاختلاف مع هذا الكلام؟".
أنا أفهم أن تناول أربعة أقراص دفعه واحدة يمكن أن يشكل جرعة قاتلة. لكنك أوضحت أنني جلبت الوصفة في 25 أيلول، والجرعة اليومية الموصوفة قرص واحد فقط. الخامس والعشرون، السادس والعشرون، السابع والعشرون، الثامن والعشرون". يقول أبي وهو يعُدُ على أصابع يده اليسرى.

"إذاً، أنت تؤكد، حضرة القاضي، أن زوجتك تناولت الفينيلزين يومياً قبل موتها؟".

"أنا لست هنا لأؤكد أي شيء، سيد مولتو. وأعرف أن الدكتورة ستراك، خبيرتك، اعترفت بأن تناول قرص واحد من الفينيلزين بالترافق مع أطعمة أو مشروبات معينة يمكن أن يثير ردة فعل مميتة".
"إذاً، هل كانت وفاة زوجتك حادثة؟".

"سيد مولتو، كانت حية عندما ذهبت لأنام، وكانت ميتة عندما استيقظت. كما تعلم، لا يمكن لأحد من الخبراء أن يقول بيقيناً إن الفينيلزين هو الذي قتل باربارا. ولا يمكن لأحد منهم أن يقول إنها لم تمت من

ردة فعل ناجمة عن ارتفاع في ضغط الدم مثل والدها".

"حسناً، لنتمعن في احتمال أنها كانت حادثة حضرة القاضي، فهل يمكننا ذلك؟".

"كما تريده سيد مولتو. فأنا هنا لأجيب على أسئلتك". مرة أخرى، ثمة حدة كبيرة في رد والدي. ونومي وأنا - والمحلفون الآن - نعرف جميعاً هذا الأمر حول أبي. وبعد عشرين عاماً كقاض واثني عشر عاماً كرئيس قضاة، إنه ليس معناداً على الإجابة عن أسئلة أي شخص.

"تقول إن هناك ردة فعل سمية شديدة عندما يؤخذ الفينيلزين مع أطعمة معينة، أليس كذلك؟".

"هذا ما علمته".

"بالحديث عما تعلمته، ألم يدهشك، حضرة القاضي، ما شهد به الدكتور جورفيتيتش؛ أن المعلومات حول خطر الفينيلزين عندتناوله مع واحد من عدد من الأطعمة التي تحتوي التيرامين - شراب فرنسي أحمر وجبن متعق وسمك الرنة وسجق مجفف - متوفرة للجميع على الإنترنت؟".

"كنت أعرف يا سيد مولتو أن أحد الأدوية التي كانت باربارا تأخذها من وقت لآخر يمكن أن تتفاعل مع أطعمة معينة. كنت أعرف ذلك". "هذا ما أقصده بالضبط. ونحن نعلم حضرة القاضي، أليس كذلك، بسبب شهادة الدكتور جورفيتيتش، أن الموقعين اللذين زرتهم أواخر أيلول يصفان هذه التفاعلات، أليس كذلك؟".

يهز مولتو رأسه مع ظهور الصفحتين على الشاشة، مسلطًا أشعه الليزر على الأسطر المقصودة المعلمة باللون الأصفر.

"يمكنني أن أرى ما هو موجود على الصفحتين يا سيد مولتو". "هل تنكر زيارتك هذين الموقعين في أواخر أيلول من العام الماضي؟".

"لا أعرف بالضبط ما حدث يا سيد مولتو. فقد كانت زوجتي تتناول نحو عشرين دواء مختلفاً، وبعضها كان أشد خطراً من بعضها الآخر.

ولم يكن أمراً غير عادي بالنسبة إلى أن أدقق في الإنترن特 بعد شراء أدوية باربارا لمعرفة خصائص بعضها، وذلك كي أتمكن من مساعدتها على الالتزام بها. ولكن، إذا كان سؤالك يتعلق بما إذا كنت قد زرت هذين الموقعين باستخدام حاسوبي المنزلي خلال الأيام التي سبقت وفاة باربارا....".

"هذا بالضبط ما أسأل عنه حضرة القاضي".
"ما ذكره هو أنني لم أفعل".

"لم تفعل؟". تومي مندهش. وأنا أيضاً. لقد قدم أبي تفسيراً معقولاً لزيارتة هذين الموقعين، فلماذا ينكر الأمر. ولم يتوقف شتيرن عن الكتابة. ولكن، من الطريقة التي زم بها شفتية، يمكنني أن أخمن أنه ليس راضياً.

"حسناً". يمشي تومي بضع خطوات، ممرراً يده على طاولة الادعاء، قبل أن يواجه أبي مجدداً، ثم يتبع قائلاً: "لكننا غير مختلفين، حضرة القاضي، أليس كذلك، حول أنك، في الليلة التي سبقت وفاة زوجتك، خرجت واشترت شراباً فرنسيأً أحمر، وجبن تشيدار معنقاً، وسمك رنة محفوظاً بالخل، وسجقاً متبللاً. أليس كذلك؟".

"اذكر أنني فعلت ذلك".

"هذه تذكرها!". واحدة من الحركات المألوفة في قاعات المحاكم، والتي يقصد منها إظهار عدم الانسجام في ذاكرة أبي.
"أجل. كانت لدى زوجتي وصفة أخرى ترید أن أجلبها، وقد طلبت مني أنأشتري تلك الأشياء عندما كنت في المخزن".
"أنت لا تملك لائحة التبضع التي سلمتك إليها، حضرة القاضي، أليس كذلك؟".

يقول شتيرن: "اعتراض". لكن أبي يجيب على أية حال قائلاً: "لم أقل إنه كانت هناك لائحة تبضع، سيد مولتو. لقد طلبت مني زوجتي أنأشتري زجاجة من الشراب الفرنسي الأحمر الذي تحبه، وجبنا معنقاً من نوع تشيدار، وسجقاً، وبسكويتاً مملحاً لأن ابننا الذي كان سيأتي على

العشاء يحب هذه الأشياء، وأن أشتري سمك رنة - كانت تحبه - ولبناً
لصنع مرق للخضراوات التي كانت موجودة عندها مسبقاً.

إنتي أحب الجبن والسبحه مذ كنت في الرابعة أو الخامسة من
عمرى، هذا صحيح. ونقول أسطورة العائلة إنتي لم أكن آكل الكثير
سوى هذا عندما كنت في ذلك العمر، وسأقول هذا عندما أستدعى ثانية
للشهادة لاحقاً في هذا الأسبوع. ومنذ أن زارتني ديببي ياز أول مرة،
أصبحت أتذكر بوضوح أمي وهي تخرج تلك المواد من أكياس السيلوفان
الأبيض التي جلبها أبي في تلك الليلة وتتفقدها واحدة واحدة. وعلى الرغم
من إنتي أشك أحياناً في ذاكرتي الضعيفة، وكيف يمكن أن يؤثر أملی
أن يكون أبي بريئاً فيها، إلا إنتي أذكر، بما يقرب من اليقين، أن أبي
سألها: "هل هذا ما أردته؟". سأقول هذا أيضاً عندما أعود إلى المنصة
مجدداً. ولكن، ما لا أعرفه هو ما إذا كانت أمي قد طلبت تلك المواد
أو أخبرته ببساطة أن يجلب بعض الشراب والمقبلات، أو إذا كان أبي
هو من اقترح عليها تلك المقبلات أساساً. وكلها احتمالات ممكنة، على
الرغم من إنتي أرجح أن تكون أمي، كونها أمي، هي من سمت الأشياء
التي تحبها بالتحديد، بل وطلبت من أبي ماركات تجارية بعينها وحدّدت
له الأماكن التي سيجدها فيها.

"والآن، حضرة القاضي، من الذي كان يضع النظام الدوائي
لزوجتك فيما يتعلق باكتئابها الهوسى؟".

"زوجتي. إذا كانت لديها أسللة، كانت تتصل بالدكتور فولمان".

"هل كانت امرأة ذكية؟".

"لامعة، برأبى".

"وهل سمعت شهادة الدكتور فولمان بأنه حذرها مراراً من أن عليها
أن تكون حذرة جداً مما تأكله عندما تتناول الفينيلزين؟".

"أجل سمعته".

"في الواقع، شهد الدكتور فولمان بأنه اعتاد على تحذيرك أنت
أيضاً. فهل تذكر أنه حذرك بخصوص الفينيلزين؟".

ينظر أبي إلى سقف قاعة المحكمة بألوانه الخشبية المتقاطعة، ثم يقول: "إن الأمر مشوش، سيد مولتو، ولكن أجل، أعتقد أنني أذكر ذلك". هذه واقعة أخرى لم يكن أبي مضطراً للاعتراف بها. فأتسائل إذا كان المخلفون سيقدرون صراحته، أو سيعتبرون ذلك أسلوباً ماكراً لشخص أمضى معظم حياته البالغة في قاعات المحاكم.

"إذا، أنت يا حضرة القاضي تريدين أن نصدق أن زوجتك طلبت منك أن تحضر الشراب الفرنسي والجبن والسبق وسمك الرنة بالرغم من علمها بأنها كانت تتناول الفينيلزين؟ وأكثر من ذلك، أتريدين أن نصدق أنها شربت الشراب وأكلت الجبن والسبق؟".

"عذراً سيد مولتو، لكنني لا أعتقد أن أحداً شهد بأن زوجتي شربت الشراب أو أكلت الجبن. وأنا لم أفعل بالتأكيد لأنني لا أذكر أن ذلك حصل".

"ابنك، حضرة القاضي، شهد أن زوجتك شربت الشراب، سيدتي".
"ابني شهد أنني صببت كأساً من الشراب لزوجتي. ولكنني لم أر زوجتي تحتسي الشراب. فأنا ونات ذهبنا إلى الخارج لنشوي اللحم، لذا فأنا لا أعرف من أكل، وماذا أكل".

يصمت تومي. هذه هي المرة الأولى التي يحضره فيها أبي. وأبي يتحقق أيضاً بخصوص كل هذا. ولكنني عندما أفتش في ذاكرتي حول تلك الليلة، فإني أذكر أمي تحمل كأساً من الشراب في يدها، خلال العشاء حتماً.

"ولكن، دعنا نكن واضحين حضرة القاضي. لنفترض أن زوجتك كانت تأخذ الفينيلزين مرة في اليوم كما أوحيت لنا. فهل تبدو شهادتك بالذات منطقية لك يا سيدتي، وهي أن ترسلك إلى المخزن مع لائحة تبضع مليئة بمواد يمكن أن تقتلها؟ وأن تطلب منك سمك الرنة، على سبيل المثال، وهو ما تقول إنها كانت تنوي أكله؟".

"أنت تطلب مني أن أخمن، سيد مولتو، لكنني أراهن أن باربارا كانت تعرف تماماً إلى أي حد يمكنها أن تغض من دون أن تحدث ردة

فعل عكسية . ولعلها بدأت برشفة من الشراب ، أو نصف قطعة من سمعك الرنة ، وبمرور السنوات اكتشفت المقدار الذي يمكن أن تتحمله . وكانت تأخذ هذا الدواء من فترة إلى أخرى على مدار مدة طويلة " .

" شكرأ حضرة القاضي " . تبدو نبرة مولتو ظافرة بشكل مفاجئ بينما هو واقف هناك يحدق في أبي . " ولكن ، إذا لم تشرب زوجتك الشراب ولم تأكل السجق ولم تأكل الجبن أو الرنة أو اللبن ، حضرة القاضي ، إذاً فليس هناك أي احتمال ، صحيح ، بأن تكون قد ماتت بالصدفة؟ " . تمر ثانية واحدة فقط قبل أن يجيب أبي . هو - وأنا - ندرك أن شيئاً هاماً قد حدث للتو .

" سيد مولتو ، أنت تطلب مني أن أتوقع أشياء حدثت عندما كنت خارج الغرفة . وسيكون غريباً بالنسبة إلى باربارا أن تتناول أيّاً من تلك الأشياء بأية كمية . وأنا لا أذكر أنها فعلت ذلك . لكنها كانت متحمسة جداً لرؤيه ابني وصديقه . وكانت تعتقد أنهما متناسيان تماماً . لذا ، لا يمكنني أن أقول إنها لم تنس نفسها . ولهذا السبب يسمونها حادثة " .

" لا يا حضرة القاضي ، أنا لا أطلب منك أن تخمن . فأنا أحاول مواجهتك بمنطق شهادتك بالذات " .

يقول شيرن : " اعتراض . جدلي " .

يقول القاضي بي : " غير مقبول " . وكأنه يقول إن أبي أقحم نفسه في هذه الفوضى .

" أخبرتنا إن زوجتك ربما كانت تأخذ جرعة منتظمة من الفينيلزين ، وأنها ماتت بشكل عَرضي ، أليس كذلك؟ " .

قلت إن هذا محتمل " .

" أخبرتنا إن زوجتك هي من طلبت منك إحضار كل تلك المواد الخطرة عليها ، على الرغم من أنها كانت تتناول الفينيلزين ، أليس كذلك؟ " .

أجل " .

" ومن ثم أخبرتنا إنها ربما فعلت ذلك لأنها لم تكن ستأكل أيّاً منها ،

أو كميات ضئيلة كانت تعرف أنها لن تؤذيها، أليس كذلك؟".

يقول شتيرن: "اعتراض. إنه يطلب رأي خبير من الشاهد".

ينظر القاضي بي إلى الأعلى ليفكر ثم يقبل الاعتراض. ولكن

هذا ليس مهمًا، فأبى حشر نفسه في الزاوية وتلقى ضربة موجعة نتيجة

لذلك. ويقوم مولتو بعمل رائع من خلال تكرار الأجزاء الصغيرة من

الأدلة التي لطالما أزعجتني. ويترك محامي الادعاء ما أجزه ليتغلغل

في الأذهان بينما يقلب في كراسته.

"الآن، حضرة القاضي، من الأسباب التي تجعلنا نجري هذا

الحديث حول ما يمكن أن تكون زوجتك قد أكلته أو شربته هو أن

تحليل البقايا في معدتها لم يجب على تلك الأسئلة، أليس كذلك؟".

"أنا أتفق، سيد مولتو. محتويات المعدة لم تكشف شيئاً".

"لم تُبين ما إذا كانت قد أكلت جبناً أم قطعة لحم. أليس كذلك؟".

"صحيح".

"ولكن في الحالة الطبيعية، حضرة القاضي، لو أجري التشريح

خلال أربع وعشرين ساعة من وفاتها، لكننا قد حصلنا على فكرة أفضل

عما أكلته في الليلة التي سبقت، أليس كذلك؟".

"لقد سمعت شهادة طبيب التشريح، سيد مولتو، لكنك تعلم أن

خبرينا، الدكتور ويكر من لوس أنجلوس، يختلف معه، وخصوصاً

فيما يتعلق بمدى سرعة تحلل السجق أو سمك الرنة في العصارة المعدية".

"ولكن، أنا وأنت، حضرة القاضي، والخبراء يمكننا أن نتفق

على التالي، أليس كذلك؟ إن الساعات الأربع والعشرين التي أمضيتها

مع جثة زوجتك من دون أن تعلم أحداً بموتها، ذلك التأخير صعب

عملية تحديد ما أكلته".

ينتظر أبي قليلاً. من الطريقة التي يحرّك فيها عينيه، يمكنك أن

ترى أنه يحاول إيجاد طريقة للإفلات.

"لقد جعل الأمر أصعب. أجل". تسجيّل هذه النقطة أيضاً لدى

المحلفين. مولتو يقوم بعمل ممتاز.

"والآن دعنا نرجع إلى ما أخبرتنا به قبل دقيقة فقط، حضرة القاضي. قلت إن زوجتك كانت متحمسة في تلك الليلة لرؤيه ابنكما وصديقه".

"صحيح".

"هل بدت سعيدة؟".

"سعيدة مصطلح نسيبي، سيد مولتو، عندما نتحدث عن باربارا. بدت مسورة للغاية".

"لكنك أخبرت الشرطة، حضرة القاضي، أن زوجتك لم تبد مكتتبة في العشاء، أو في الأيام التي سبقت. هل هذا ما قلته؟".

"أجل، قلت لهم ذلك بالفعل".

"وهل كان ذلك صحيحا؟".

"هذا كان انطباعي في ذلك الحين".

و"الفينيلزین"، حضرة القاضي، لقد سمعت شهادة الدكتورة فولمان وهو يصف ذلك الدواء بأنه قبلة ذرية، وبأنه يستخدم في أسوأ حالاتها المزاجية".

"سمعت ذلك".

"والأعوام الخمسة والثلاثون التي قضيتها مع زوجتك، حضرة القاضي، هل تسمح لك بأن تعتقد أنك كنت خبيراً في تحديد حالتها المزاجية؟".

"في أغلب الأحيان، كانت حالات اكتئابها الحادة واضحة. لكنني أتذكر مناسبات أساءت فيها تقدير وضعها الذهني تماماً".

"ولكن مرة أخرى، حضرة القاضي، مع قبول حقيقة أن الفينيلزین كان يحفظ لأيامها الأسوأ، أنت تقول إنك لم تر أي إشارة في تلك الليلة - بينما كنتم أنتم الأربعة تتناولون العشاء - على أنها كانت في تلك الحالة، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"ولم تر ذلك في الأيام التي سبقت، أليس كذلك؟".

"صحيح".

لقد شهدت أيضاً على الشيء ذاته من قبل. في الواقع، عندما أسترجع في ذاكرتي تلك الليلة، يمكنني القول إن أمي كانت في حالة معنوية ممتازة.

"ولهذا السبب حضرة القاضي، بالاستناد إلى ما لاحظته وأبلغت الشرطة إياه - بالاستناد إلى ذلك حضرة القاضي - لم يكن هناك أي سبب لتأخذ زوجتك جرعتها الدوائية اليومية".

"مرة أخرى، سيد مولتو، لم أعتقد يوماً أن تقديراتي لحالتها العاطفية كانت صائبة كلباً".

"ولكن، عندما جلبت الفينيلازين قبل ثلاثة أيام من وفاتها، هل سألتها إذا كانت تشعر بالاكتئاب؟".

"لا أذكر مثل هذا الحوار".

"ألم تسألها بالرغم من أنك جلبت لها قنبلة ذرية؟".

"لا أذكر أنتبهت لما جلبته".

"بالرغم من أن بضمائك موجودة على القارورة!".

"كان ذلك ميكانيكيأً، سيد مولتو. وكنت أجلب الوصفات إلى المنزل، وأضعها على الرف".

"وبالرغم من أنك زرت موقع وبحثت عن معلومات حول الدواء في أواخر أيلول، أتفقون إنك لم تلاحظ ما جلبته؟".

يقول شتيرن: "اعتراض. طرح هذا السؤال وأجيب عنه. لقد شهد القاضي مسبقاً بخصوص ما يذكره حول زيارة تلك المواقف".

التوقف وحده يشوش إيقاع مولتو، ولهذا السبب يجاهد شتيرن للوقوف على قدميه. ولكن الجميع يعرف أن توسيع يسدد ضربات قاسية إلى أبي. لعله أخطأ في تحديد مزاجها. وكان من الصعب في بعض الأحيان، وبخاصة عندما تكون أمي غاضبة، أن تعرف ذلك قبل أن يظهر غضبها على السطح. وبما أنتي كنت أذهب إلى الصيدلية بنفسي عندما كنت أعيش في المنزل، يمكنني أن أوافقه على عدم ملاحظة أي

من الأدوية الكثيرة التي كان يجلبها. وأما البحث في الإنترنط، فهذا هو الأمر المدمر. وأفضل شيء يمكن قوله في هذا الخصوص، وأنا واثق بأن هذا ما سيفعله شتيرن في مرافعته الختامية، هو أنه سيكون أمراً غريباً بالنسبة إلى قاض ومحامي ادعاء سابق يخطط عمداً لارتكاب جريمة قتل أن يستخدم حاسوبه الشخصي بتلك الطريقة. لكن مولتو سيرد على هذا بقوله إن أبي لم يكن يخطط لأن يُكشف أمره، بل كان يخطط لتمرير جريمته على أنها وفاة طبيعية.

لكن كل هذا يعتمد على إبستمولوجية قاعة المحكمة، حيث الملابين من تفاصيل الحياة اليومية ترقى فجأة لتصبح أدلة على الجريمة. والحقيقة هي أن أبي يمكن أن يكون قد لاحظ الفينيلزين، عبر زيارته لذينك الموقعين قبل ثلاثة أيام من الوفاة كي يذكر نفسه بأن هذا الدواء هو القنبلة الذرية، ومن ثم نسي الأمر، وخصوصاً في الزيجات التي تشبه زواج والدي. كانت هناك أشياء لا تُعد ولا تُحصى تمضي من دون أن تُذكر في منزلنا. وأمي لم تكن تحب أن تُسْتجوَب بخصوص أدويتها. لقد سمعتها ملابين المرات تقول إنها قادرة على الاهتمام بنفسها.

يرفض القاضي بي الاعتراض فيكرر أبي بهدوء أنه بحث في ذاكرته لكنه لا يتذكر زيارته للموقعين. وهذا الجواب يزعج نومي. "من كان يعيش في المنزل، حضرة القاضي، في أواخر أيلول 2008؟".

"زوجتي وأنا فقط".

"أنتول إن زوجتك بحثت عن الفينيلزين في حاسوبك؟".

"إنه احتمال إذا كان لديها سؤال ما".

"هل كانت تملك حاسوباً خاصاً بها؟".

"أجل".

"هل كانت تستخدم حاسوبك بشكل روتيني؟".

"ليس بشكل روتيني. وليس على فترات متباudeة. ولكن حاسوبي كان خارج غرفة نومنا مباشرة، ولهذا فإنها في بعض الأحيان كان

طلب مني استخدامه لفترة قصيرة".

لم يسبق لي أن سمعت حدوث ذلك، لكنه أمر ممكناً مع أمي. ويبدو أن مولتو يثبت صحة واحدة من حكم قاعات المحاكم وهي عدم محاولة تحسين شيء جيد في الأساس، فسلسلة الأسئلة الأخيرة تبدو وكأنها ساعدت أبي، ويظهر أن مولتو، الذي لا يحسن كبح شعوره الداخلي من الظهور على ملامحه، يعرف هذا أيضاً، لأنه يمشي في القاعة معقود الحاجبين. وليس من الصعب معرفة سبب نجاح مولتو في عمله كمحام؛ إنه رجل صادق.

"كي أكون واضحاً، حضرة القاضي، فهل توافق على أن زوجتك لم تمت بشكل عرضي؟".

بما أن أبي طلب من ساندي أن يكون صريحاً معي بخصوص الأدلة، فأنا أعرف مسبقاً كل ما سمعته في المحكمة تقريباً. ولم يشا أبي أن أفاجأه. وأنا قبلت الأمر في ذهني كثيراً، وتحدثت حول الأمر مع آنا عندما كانت قادرة على الإصغاء، حتى إنني دوّنت بعض الملاحظات بين الحين والآخر. ولكن، أن تفكري في أن أباك قتل أمك، فهذا أسوأ من التفكير في أنها أقامتا علاقة حميمية. وجزء من دماغك سيقول لك: "يا رجل، هذا مستحيل". ولهذا السبب، لم أستطع أن أرى بوضوح كيف تتسلسل هذه الأحداث زمنياً. وإذا لم يكن موت أمي حادثاً، فمن المحتل أيضاً أنها لم تكن تأخذ الفينيلزين بصورة يومية. وإذا لم تكن تأخذ الفينيلزين يومياً، فليس هناك سبب يدعوها لتجديد الوصفة الطبية. وهذا يعني - أو يبدو أنه يعني - أن أبي هو الذي أراد الفينيلزين. وهناك سبب واحد لذلك.

"سيد مولتو، مرة أخرى، أنا لست طبيب أمراض أو أخصائياً في المواد السمية. لدى نظرياتي وأنت لديك نظرياتك. وكل ما أعرفه بتقة هو أن نظريتك غير صحيحة. فأنا لم أقتلها".

"إذَا، ما زلت تقول إنه يمكن أن يكون حادثاً؟".
"الخبراء يقولون إن هذا ممكناً".

"إذا، إذا كانت زوجتك تأخذ قرصاً واحداً في اليوم ، فهذا يعني أنها تعاملت مع تلك القارورة في أربع مناسبات ، أليس كذلك؟".
"هذا صحيح".

"ومع ذلك ، حضرة القاضي ، لم تترك زوجتك أي بصمات على تلك القارورة ، فهل هذا صحيح؟".
"هذا ما قاله الدكتور ديكerman".

"والآن ، حضرة القاضي ، هناك ما مجموعه إحدى وعشرون قارورة تحوي أقراصاً أخذت من خزانة أدوية زوجتك وجُردت من قبل الشرطي كريليك".
"لقد شهد بذلك".

"ووفقاً للدكتور ديكerman ، تظهر بصمات أصابع زوجتك على سبع عشرة قارورة من تلك القوارير . وعلى اثنتين آخرين ، هنالك بصمات مشوهة لا يمكن تحديدها؛ على الرغم من أنه وجد فيها نقاط مقارنة مع بصمات زوجتك . هل كل هذا صحيح؟".
"اذكر أن هذا ما ورد في الشهادة".

"حضره القاضي ، كم عدد المرات التي كنت فيها محامي ادعاء ، وقاضياً من دون لجنة محلفين ، وقاضي استئناف في قضايا قدّمت فيها بصمات الأصابع كأدلة؟".

"مئات المرات بالتأكيد . وربما أكثر".
"وعلى هذا الأساس ، فهل من الإنصاف القول ، يا سيدى ، إنك بمروor السنين تعلمت الشيء الكثير حول بصمات الأصابع؟".
"يمكن أن نتجادل حول مدى معرفتي ، ولكن أجل ، لقد تعلمت الكثير".

"على مدى خمسة وثلاثين عاماً كنت تحكم بدرجة من القدرة أو بغيرها على نوعية أو بطلان بصمات الأصابع كأدلة . أليس ما أقوله صحيحاً؟".

"صحيح بما يكفي".

"هل يمكننا أن نسميك خبيراً؟".

"لست خبيراً بقدر الدكتور ديكرمان".

"ليس هناك أحد مثله".

"إذاً، ما عليك إلا أن تسأله". قد تعتبر هذه ضربة ماكرة، لكن المخلفين رأوا ديكرمان على منصة الشهادة، ولهذا السبب يضحك بعضهم الآن بصوت عال. حتى إن القاضي بي يطلق فقهية خاطفة. ويبدو أن مولتو أيضاً أعجبته الملاحظة، إذ إنه يلوح بإصبعه في وجه أبي إعجاباً. "لكنك تعلم، حضرة القاضي، أن بعض الأشخاص يتذرون بصورة مميزة بصمات على أسطح متقبلة مثل هذه القارورات، أليس كذلك؟". "أعرف يا سيد مولتو أن هذا يعتمد على مدى تعرّق يديك. وبعض الأشخاص يتعرّقون أكثر من غيرهم. وكمية التعرّق تختلف من شخص لآخر".

"حسناً، فهل يمكنك أن توافق على أن شخصاً ما ترك بصماته على تسع عشرة، أو سبع عشرة قارورة من غير العادي بالنسبة إليه أن يتعامل مع قارورة الفينيلزين هذه أربع مرات" - يرفع مولتو الآن مجدداً القارورة الحقيقية المغلقة بخلاف بلاستيكي الصق عليه شريط كتب عليه كلمة دليل - "ولا يترك أية بصمة؟".

"لا يمكن أن أقول لك بصورة مؤكدة، سيد مولتو. وبصراحة، فأنا لا أذكر أن الدكتور ديكرمان قال ذلك أيضاً".

كان واضحاً أن ما قدّمه ديكرمان لجيم براند الذي استجوبه كان أقل مما كان براند يأمله في هذا الموضوع. وقد قال أبي وشتيرن، عندما كنا نلتقي في المكتب، إن هذا يحدث مع ديكرمان عادة.

"وبالمناسبة، هل الدكتور ديكرمان صديقك؟".

"يمكنني القول أجل. تماماً كما هو صديقك أنت. وكلانا نعرفه منذ زمن طويل".

"حسناً، فلنكن واضحين حضرة القاضي: هناك زجاجتان فقط في خزانة أدوية زوجتك يمكننا القول من دون أدنى شك إنها لا تحملان

بصماتها، أليس كذلك؟".
"هذا واضح".

"وإداتها هي زجاجة الأقراص المنومة التي جلبتها قبل يوم واحد من وفاتها، أليس كذلك؟".
"أجل".

"وذلك الزجاجة مليئة، أليس كذلك؟".
"صحيح".

"إذا، إذا تركنا جانبًا زجاجة الأقراص المنومة، فإن الزجاجة الوحيدة في خزانة أدوية زوجتك التي يمكن للخبراء أن يقولوا بصورة قاطعة إن بصماتها ليست موجودة عليها، حضرة القاضي، والقارورة الوحيدة هي قارورة الفينيلزين، أليس كذلك؟".
"ليست هناك آثار واضحة لبصمات باربارا على زجاجة الفينيلزين،
وكما بيئت أنت، على ثلاثة قارورات أخرى".
"هذا تهرب من الإجابة".

يطلب القاضي بي إعادة قراءة السؤال والجواب ثم يقول: "يمكن أن يبقى الجواب، ولكن، أيها القاضي، هناك زجاجة مفتوحة واحدة فقط يمكن للخبراء أن يقولوا بصورة مؤكدة إنها لا تحمل أثراً لبصمات أصابع زوجتك، أليس كذلك؟".
"هذا منصف بما يكفي".

"حسناً". يشير القاضي بي لمولتو كي يتتابع.
"ولكن، على قارورة الفينيلزين، على تلك الزجاجة، حضرة القاضي، البصمات الوحيدة التي تظهر هي بصماتك، أليس كذلك؟".
"بصماتي موجودة على تلك القارورة وعلى سبع قارورات أخرى، بما فيها قارورة الأقراص المنومة غير المفتوحة".
"هذا تهرب من الإجابة".

"مقبول". يقول القاضي بي ذلك بحزم هذه المرة. لقد منح القاضي بي أبي فرصة لعدم التلاعيب لكنه لم يستغلها.

"ووفقاً لما يمكننا أن نستنتجه من البصمات، فإنك الشخص الوحيد الذي تعامل مع الفينيلزين".

يجيب أبي هذه المرة بحرص أكبر، قائلاً: "استناداً إلى البصمات فقط، هذا صحيح، سيد مولتو".

"جيد جداً". ويعود مولتو إلى طاولة الادعاء ويقلب في كراسه القانونية الصفراء. إشارة إلى أنه سيغير الموضوع مرة أخرى. يقول القاضي: "هل هذا الوقت مناسب لأخذ استراحة؟".

يهز مولتو رأسه موافقاً. فيطرق القاضي بمطرقه ويعلن فترة استراحة لمدة خمس دقائق. يقف الحضور على الفور مثيرين ضجة كبيرة. سمه ما شئت، سمه تعطشاً للدماء أو فضولاً صارخاً، لكن الكثيرين منهم جاؤوا إلى هنا ليروا سقوط أحد الأشخاص المتنفذين في المقاطعة، ولتعزيز اعتقادهم بأن السلطة تفسد الأشخاص وأنك أفضل بكثير من دونها. أنا واثق أنه ليس هنا شخص غيري لا يزال يأمل أن يكون أبي بريئاً.

الفصل السادس والعشرون

نات، 22 حزيران، 2009

عندما يكون الشاهد على المنصة، لا يُسمح لأحد بالتحدث معه حول شهادته، بمن في ذلك محاموه. ومن مكانهما خلف طاولة الدفاع، يهز شترين ومارتا رأسيهما تشجيعاً لأبي، ثم يرفع شترين قبضته وكأنه يريد أن يقول له أصمْ. ولكنني أشعر بالسوء حيال ذلك، كما لو أن الجميع يأتوا يتحاشونه، ولهذا السبب أتوجه نحوه لأسأله ما إذا كان يريد كأساً أخرى من الماء، فيرفع كتفيه نافياً.

أقول له: "هل أنت بخير؟".

"مجروح لكنني ما زلت واقفاً. إنه يحاصرني من جميع الجهات". لا يفترض بي أن أجيب على هذا، وماذا عساي أقول في كل الأحوال؟ لذا أقول الجملة الغبية نفسها التي اعتناد أن يقولها لي صارخاً من مكانه في المدرجات عندما كان فريقي في دوري الصغار خاسراً بنتيجة 12 مقابل لا شيء في الجولة الثانية.

"لا يزال هناك متسع من الوقت".

يقول مع ابتسامة صغيرة: "لا يهم". لقد أصبح قدرياً بصورة حادة في الأشهر الأخيرة، وهذا يخيفني كثيراً. ومهما حصل فلن يعود أبي كما كان في السابق أبداً، حتى لو أرسل زيوس صاعقة تطلق سراحه الآن. فيضع يده على كتفي لثانية ثم يقول: "سأذهب لأنbow".

حدينا هذا صورة عن الأسلوب الذي تتبعه أنا وأبي في الحوار مؤخراً. ولم أتوقف عن التحدث مع أبي تماماً، لكنني فقط لا أقول له

أي شيء يمكن أن تكون له عواقب، حتى بالمقارنة مع أحاديثنا المختلفة التي كنا نجريها في السابق. وأنا واثق بأنه لاحظ ذلك، على الرغم من أن القانون لم يتخ لنا خياراً آخر. إنني شاهد في القضية ولا يمكنني التحدث معه حول الأدلة أو طريقة سير المحاكمة. وفي هذه المرحلة، لا يبدو أنه يفكر في أي شيء آخر، والشيء ذاته ينطبق علي. ولا أعلم إذا كان أبي مذنباً أم لا. وإذا كان مذنباً فإن جزءاً كبيراً داخلي لن يتقبل ذلك. ولكن حدي يبنبني بصورة شبه يقينية بأن موت أبي له صلة بعلاقة أبي الغرامية. وقد سألتني أنا - التي لا تهتم بالانحرافات في أحاديث مطولة حول هذا الموضوع لأنها لا تحب الدخول بيبي وبين أبي - أكثر من مرة عن السبب الذي يدعوني للتفكير بهذه الطريقة. والجواب هو أنتي أعرف أمري. وعلى أي حال، أعتقد أن أبي يريد حقاً أن يعرف شيئاً واحداً مني، وهو رأيي فيه وما إذا كنت لا أزال أحبه. وفي بعض الأحيان، أشعر بأن عليَّ أن أرسل له بطاقة تقول: "سأدعك تعرف عندما أكتشف الحقيقة".

لطالما كان فهم والدي أمراً شاقاً بالنسبة إليَّ. ويبدو وكأنه يحب أن يكون غامضاً معي، وهو أمر قلُّ اكتراه به بمراور السنين. ولكنني بالطبع أعرفه بشكل طبيعي، بالطريقة القاسية التي يعرف بها الأطفال آباءهم. وإنني أعرف جميع عاداته المزعجة، مثل شروده في منتصف الحوار، كما لو أن ما يخطر على ذهنه أهم من جميع الموجودين في الغرفة، أو صمته عندما يتحدث الناس حول أي شيء شخصي؛ حتى لو كان أمراً مؤلماً بالنسبة إليهم، أو الأسلوب المتعالي الذي يتعامل به معى، وكان مجرد كونه أبي يُعتبر مسؤولية تساوي أهمية حمل رموز جميع الصواريخ النووية الأمريكية. بيد أن المحاكمة، والتهم، والعلاقة السرية، كلها تؤكِّد حقيقة أنتي لا أعرف أبي جيداً.

وعندما أفكِّر في هذا الأمر، تتنابني مشاعر متناقضة تماماً. وأحياناً، أشعر بالرعب من أن يؤدي القلق المفرط ، الذي أنهك أبي واستنزف كل طاقته، إلى قتله فأخسر والدي خلال سنة واحدة. وفي لحظات أخرى،

أشعر بأنه يستحق كل ما يحدث معه. ولكن، في أغلب الحالات بالطبع، ينتابني شعور بالغضب من الحيرة التي أعيشها لأن حياتي انقلبت رأساً على عقب بشكل مفاجئ بحيث لم أعد أعرف ما أصدقه.

يقول مولتو عندما تستأنف المحاكمة: "هناك بضعة مواضع أخرى حضرة القاضي".

"كما ترید سيد مولتو".

"حسناً أيها القاضي. أخبرني الآن. هل كنت سعيداً في زواجك من السيدة سابيش؟".

"كان يشبه الكثير من الزيجات، سيد مولتو. فكانت هناك فترات سعيدة وأخرى تعيسة".

"وفي الفترة التي سبقت وفاة زوجتك، هل كنتما سعيدين أم تعيسين؟".

"كنا نعيش حياة عادلة، سيد مولتو. ولكنني لم أكن سعيداً بصفة خاصة".

"وبالحياة العادلة أيها القاضي، هل تعني أنه لم تكن هناك خلافات عائلية؟".

"لا يمكنني أن أقول نهائياً، سيد مولتو، ولكن بالتأكيد لم تحصل أي شجارات كبيرة في ذلك الأسبوع".

"لذلك أخبرتنا بأنك لم تكن سعيداً. فهل ثمة سبب محدد لذلك حضرة القاضي؟".

يأخذ أبي وقته قبل أن يجيب على هذا السؤال. أعرف أنه يفكر في حقيقة أثني موجود على بعد عدة أمتار منه.

"كان تراكمًا لعدد من الأشياء، سيد مولتو".

"مثل ماذا؟".

"حسناً، أحد تلك الأشياء هو أن زوجتي كان تكره حملتي الانتخابية. وكانت تشعر بأنها مكشوفة بسبب ذلك بطريقة وجذبها غير واقعية مطلقاً".

"هل كانت تتصرف بشكل مجنون؟".
"نوعاً ما".

"وكنت قد سئمت من ذلك؟".
"أجل".

"وهل كان هذا أحد الأسباب التي دفعتك لاستشارة دانا مان قبل ثلاثة أسابيع من وفاة زوجتك؟".
"أظن ذلك".

"هل صحيح، أيها القاضي، أنك كنت تفكّر في إنهاء زواجك؟".
"أجل".

"ولم تكن المرة الأولى، أليس كذلك؟".
"لا".

"هل قابلت السيد مان في تموز 2007؟".

ثمة حرص شديد من جانب الطرفين هنا. إن حوارات أبي مع دانا مان محمية بموجب حق الحفاظ على سرية ما يجري بين المحامي والزبون. فطالما كان أبي يتتجنب الخوض في أي نقاش يتعلق بما أخبر دانا مان إياه. لذا، إن مولتو لا يستطيع أن يسأله حول ذلك، لأن إرغام أبي أو شتيرن على اللجوء إلى هذا الامتياز أمام لجنة المحلفين قد يؤدي إلى بطلان المحاكمة. ولكن، في الوقت نفسه، ينبغي على أبي أن يكون حريراً، لأنه إذا كذب بخصوص ما قاله لدانا، أو حتى أعطى انطباعاً مضللاً في هذا الخصوص، فقد يلزم القانون دانا مان بالمجيء إلى المحكمة لتصحيح أقوال أبي. وكان واضحاً تماماً عندما أدلى دانا بشهادته خلال مرافعة الادعاء أنه كان مرعوباً من مولتو وبراند ومن الوضع برمته؛ على الرغم من أنه لم يبقَ على المنصة سوى خمس دقائق. لقد اعترف بإجراء مقابلتين مع أبي، وبالفاتورتين اللتين أرسلهما في أيلول وتوز من العام الماضي، وبالشيكيين المضمونين اللذين أرسلهما أبي بالمقابل.

"وفي الحقيقة، حضرة القاضي، إن محادثاتك مع السيد مان في

صيف 2007 حدثت بعد وقت ليس بطويل من سؤالك للسيد هارناسون حول شعور المرأة حين يسمم شخصاً ما، أليس كذلك؟".

"خلال شهرين، أكثر أو أقل بقليل".

"وماذا حصل حينئذ، أيها القاضي؟ لماذا لم تستمر في عملية إنتهاء زواجك؟".

"كنت أفكرا في الخيارات، سيد مولتو. عملت بنصيحة السيد مان وتوقفت عن السعي للطلاق".

"والآن، لقد قابلت السيد مان مرة أخرى في الأسبوع الأول من أيلول عام 2008، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"وهل كان تسميم زوجتك من بين الخيارات في ذهنك هذه المرة، كما حصل سابقاً عندما تحدثت مع السيد هارناسون في فترة قريبة من زيارتك الأولى للسيد مان؟".

أرى مارتا تنفس ذراع أبيها، لكن شتيرن لا يأتي بأي حركة. وأظن أنه من الواضح أن السؤال جدلي ولهذا فهو لا يستحق الاعتراض. وعند تحضيري عاطفياً لرؤيه أبي في مكانه الآن، قالت لي مارتا إن أبي بصفته قاضياً سيبدو بشكل أفضل إذا كان هو من يدافع عن نفسه، بدلاً من أن يجهد محامي للدفاع عنه. وهذا ما يفعله أبي الآن، حيث يقول بشيء من الامتعاض: "بالطبع لا".

"هل كنت أكثر تصميماً على إنتهاء زواجك هذه المرة عندما رأيت السيد مان في أيلول 2008؟".

"لا أعرف سيد مولتو. كنت مضطرباً. لقد عشت أنا وباربارا معاً لزمن طويل".

"لكنك تعرف أنك تلقيت نصيحة من السيد مان في تموز 2007، أليس كذلك؟".

"أجل".

"ولهذا، حضرة القاضي، من المنصف الاستنتاج أنك عدت لأنك

كنت مستعداً لخطي النصيحة وإنهاء الزواج".

يواصل مولتو هجومه متجنباً طرح المسألة الجوهرية، وهي: ماذا طلب أبي من السيد مان؟

"أعتقد يا سيد مولتو أنتي لفترة وجيزة كنت عازماً على إنهاء زواجي، ولكنني هدأت بعد ذلك وأعدت النظر في الأمر".

"ترددت لأنك كنت في ذروة حملتك الانتخابية للوصول إلى المحكمة العليا، أليس كذلك؟".

"حتماً لم أكن لأرفع قضية طلاق قبل الرابع من تشرين الثاني".
"كان ذلك سيبدو سيناً، أليس كذلك؟".

"كنت مهتماً أكثر بحقيقة أنتي كنت سأجعل من الأمر خبراً عاجلاً إذا رفعت قضية الطلاق حينئذ، بدلاً من أن يكون خبراً لا يعني أي أحد باستثناء عائلتي بعد الانتخاب".

"لكنك تعرف، حضرة القاضي، أليس كذلك، بأن بعض الناخبين لن يكونوا سعداء إذا علموا بأنك كنت تريد إنهاء زواجك؟".
"أتصور أن ذلك صحيح".

"في حين أنهم قد يكونون متعاطفين معك إذا وجدت نفسك أرملاً على حين غرة، أليس كذلك؟".

لا يجيب أبي على هذا السؤال، بل يكتفي برفع كتفيه.

"هل أخبرت زوجتك، حضرة القاضي، أنك كنت تفكّر في إنهاء زواجك؟".

"لا، لم أخبرها".

"وما هو السبب؟".

"لأنني كنت متردداً. ولأن مزاجي تغير مرة أخرى بعد أن قابلت السيد مان. ولأن غضب زوجتي كان خطراً. وكان يمكن أن تصبح شديدة الغضب. فلم تكن هناك أي فائدة من مناقشة الأمر قبل أن أصل إلى قرار نهائي".

"ألم تكن تسعى للتحدث حول هذا الأمر معها حينئذ، حضرة

القاضي؟".

"مطلقاً. لأن ذلك سيكون مزعجاً إلى حدٍ كبير".

"إذا، يمكننا القول أيها القاضي إن موت زوجتك في ذلك التوقيت
بدا وكأنه أنقذك من مواجهتها أو مواجهة الناخبين، أليس كذلك؟".
"بوسعك قول ذلك إذا أردت، سيد مولتو".

"باختصار، أيها القاضي، جاء موت السيدة سايبيش في توقيت
ملائم تماماً، أليس كذلك؟".

يقول شتيرن بحده: "اعتراض".

يجيب القاضي بي بهدوء: "يكفي الآن. حان الوقت للتحول إلى
موضوع آخر".

"جيد جداً". يقول مولتو ثم يعود مجدداً إلى كراسيه. فترسم على
وجهه ملامح الرضا قليلاً. "فلتتحدث قليلاً أكثر حول حاسوبك".

في الليلة التي علم فيها أبي أنه سُلِّمَ - الرابع من تشرين الثاني
2008، تاريخ لن أنساه على الأرجح، اليوم الذي كان يفترض أن يبلغ
فيه أبي الذروة في حياته المهنية - فتشت شرطة مقاطعة كابيندل الاتحادية
منزلنا في نيرينغ. فأخذ رجال الشرطة كلا الحاسوبين من المنزل،
وجميع ملابس أبي، إضافة إلى جميع أدوات المطبخ - كل طبق، وكل
كأس، وكل زجاجة مفتوحة أو وعاء مفتوح في البراد أو في الخزائن
- وجميع أدوات أبي. ولم يفهم ذلك. فخلال التفتيش الأولي، اكتشفوا
رقعة إسمنتية كان أبي قد صنعها قبل بضعة أشهر في القبو - كان والدai
يكافحان تسرُّب المياه دائماً - فعادت الشرطة وفتحت الجدران بوساطة
طارق ضخمة. ثم رجع رجال الشرطة مجدداً بمذكرة أخرى وقلعوا
أرض الحديقة الخلفية، لأن أحد الجيران قال إنه كان متأكداً من أن أبي
كان يحفر هناك بالقرب من الفترة التي توفيت فيها أمي. وفي الواقع،
كان يزرع لها نبتة الزينة تلك يوم تناولنا طعام العشاء نحن الأربعة.
وعلاوة على ذلك، لم يكن المحققون بتقنيش منزلنا، بل رفضوا أيضاً
إعادة أي شيء قاموا بمصادرته، أي أن أبي بقي لأشهر من دون ألبسة

ومن دون حاسوب شخصي وحتى من دون وعاء لغلي الماء في المطبخ. لكن الحاسوب بصفة خاصة كان محل نزاع، لأن أبي، الذي كان يعمل كثيراً في الليل، كان دائماً يحمل فيه وثائق خاصة بالمحكمة. وكان في حاسوبه العشرات والعشرات من مسودات الآراء، والكثير منها كان مكتب المدعي العام في مقاطعة كابيندل طرفاً فيها، إضافة إلى الكثير من المذكرات التي تُظهر الأعمال الداخلية لمحكمة الاستئناف، حيث يبدو فيها القضاة عفوين نوعاً ما ويفصحون عن آرائهم الصريحة بالمحامين، وبالحجج، وببعضهم الآخر في بعض الأحيان. ولهذا السبب غضب قضاة محكمة الاستئناف بشدة عندما علموا أن هذه الأمور وقعت بأيدي محامي الادعاء.

وجورج ماسون، الذي أصبح رئيساً مؤقتاً، لم يشأ أن ينظر إلى محكمة الاستئناف على أنها تحمي أبي، لكنه فعل ما بوسعه لإقناع مولتو الذي وافق في النهاية مع جورج على أن ينشئ المحققون نسخة طبق الأصل عن القرص الصلب، ومن ثم أن يتفحّصوه تحت إشراف جورج أو شخص معين من قبله، لكي لا تُكشف أي وثيقة داخلية. وطبقوا الاتفاق ذاته على الحاسوب الذي كان موجوداً في مكتب أبي في المحكمة.

بعد تحليل حاسوب أبي الشخصي سلم الحاسوب إلى جورج ماسون، وبقي كلا الحاسوبين - من المنزل والمحكمة - في مكتب جورج جنباً إلى جنب طوال الشهر الذي استغرقه تعيين القاضي بي. وخلال تلك الفترة، سُمح لأبي بالحصول على ما يريده من القرصين الصليبين من أجل إنهاء آرائه المتعلقة أو الالتزام بمواعيده الهامة، ولكن شريطة تواجد جورج أو ممثله وكتابة تقرير مفصل حول كل نقرة مفتاح. بيد أن والدي لم يذهب إلى هناك سوى مرة واحدة، لأنه وجد عودته إلى المملكة التي اعتاد أن يحكمها مهينة ومذلة بحيث لم يستطع تكرارها تحت هذه الظروف. وبعد ذلك، انفق محامو الادعاء على أن أي عملية نسخ أخرى من الحاسوبين يمكن أن تتم بواسطة مبعوثين يوافق عليهم القاضي ماسون ومحامو الادعاء، وكانت أنا أحد هذين المبعوثين أو

أنا، باقتراح من القاضي ماسون، لأنه كان يعرفها ويثق فيها نظراً إلى كونها كانت متدرية سابقة عند أبي وخبرة ممتازة في الكمبيوتر. ولكن القاضي بي، وبعد تعينه، وقف إلى جانب محامي الادعاء وأمر بتسليم الحاسوبين إليهم. ولم يكن حاسوب أبي الموجود في مكتبه في المحكمة يحوي أي شيء ذي أهمية - مثل حاسوب أمي - لكن حاسوبه الشخصي كان أشيء بمنجم ذهب بالنسبة إلى المحققين، وهم يحملونه معهم يومياً إلى المحكمة ملفوفاً بالغلاف البلاستيكي الوردي الشفاف الذي بقي فيه منذ أن جاء خبيرهم، الدكتور جورفيتنيش، إلى محكمة الاستئناف ليستعيده في كانون الأول.

"والآن، وقبل يوم واحد من وفاة زوجتك، حضرة القاضي، قمت بحذف عدة رسائل إلكترونية من حاسوبك الشخصي في المنزل، أليس كذلك؟".

"لم أفعل ذلك يا سيد مولتو".

"حسن". يهزُّ مولتو رأسه كما لو أنه كان يتوقع الإنكار، ويمشي قليلاً مثل أب على وشك توجيه صفعة لولده. "مزود الإنترن特 الخاص بك هو كليركاست، فهل هذا صحيح؟".
"أجل".

"والآن، لكي نكون جميعاً متفاهمين، عندما يرسل شخص ما رسالة إلكترونية إليك، فإنها تذهب إلى مخدم كليركاست، ومن ثم تقوم أنت بسحبها إلى حاسوبك المنزلي عبر بريدك الإلكتروني، أليس كذلك؟".
"لست خبير كمبيوتر، سيد مولتو، لكن ذلك يبدو صحيحاً".

"وبالعودة إلى شهادة الدكتور جورفيتنيش، أنت أنشأت حسابك في كليركاست بحيث تُمحى تلك الرسائل الإلكترونية من مخدم كليركاست بعد ثلاثة يواماً، أليس كذلك؟".

"لا أريد أن أكون غير متعاون، سيد مولتو، لكن زوجتي هي التي كانت تهتم بهذا النوع من الأمور. وكانت تحمل شهادة دكتوراه في الرياضيات، وتعرف أكثر مني بما لا يقاس في أمور الحواسيب".

"ولكن، يمكننا أن نتفق أيها القاضي على أنك، بعكس حاسوبك في المحكمة، كنت تحمل الرسائل الإلكترونية من مخدم كليركاست إلى بريديك الإلكتروني في المنزل".

"إذا كنت قد فهمت ما قلته، فإنك تعني أنتي عندما كنت في العمل، كنت أدخل موقع كليركاست لرؤية بريدي الإلكتروني الشخصي، ولكن في المنزل، فإن تلك الرسائل الإلكترونية كانت تأتي مباشرة إلى برنامج البريد الإلكتروني في حاسوبي وتخزن هناك".

"هذا ما أقوله بالضبط. وبعد ثلاثة أيام، ذلك هو المكان الوحيد الذي بقيت فيه تلك الرسائل، أليس كذلك؟".

"أنا مضطرك لأن أقبل بكلامك حول هذا الموضوع. يبدو ذلك صحيحاً".

"والآن، فهل كنت تحذف الرسائل الإلكترونية بشكل روتيني من حاسوبك الشخصي في المنزل؟".

"لا. أحياناً كنت أرسل وثائق من المحكمة إلى حسابي الشخصي، ولم يكن باستطاعتي تقدير أي منها ساحتاج إليه لاحقاً، لذا كنت أميل إلى ترك الرسائل الإلكترونية تتراكم".

"وبالمناسبة، حضرة القاضي، أخبرتنا سابقاً أن زوجتك كانت تستخدم حاسوبك في بعض الأحيان".

"قلت إنها أحياناً كانت تستخدمه للقيام ببحث سريع في شبكة الإنترنت لأنه كان موجوداً خارج غرفة نومنا مباشرة".

"ذكرني السيد براند خلال الاستراحة بأمر ما. ألم يكن هناك الكثير من المعلومات السرية من محكمة الاستئناف في حاسوبك الشخصي؟".

"صحيح. ولهذا السبب كان هناك حاسوبان في منزلنا يا سيد مولتو. وكانت باربارا تتفهم أنه لا يفترض بها أن تنظر إلى وثائق أو رسائل الإلكتروني".

"فهمت"، ترسم على وجهه مولتو الابتسامة الصغيرة الساخرة نفسها التي يُظهرها كلما وجد أن تفسير أبي منطقى. "ولقد سمعت الدكتور

جورفيتيش يشهد بأنه بعد إجراء فحص شرعي على حاسوبك الشخصي، استنتج أن عدة رسائل إلكترونية حُذفت من بريدك الإلكتروني، وأن ذلك حصل قبل يوم واحد من وفاة زوجتك، بالاستناد إلى التواريخ في موقع التسجيل، هل سمعت ذلك؟".
أجل".

"وفي الحقيقة، هو يقول إنها لم تُمحَّ وحسب، بل قام شخص ما بتنصيب برنامج يُدعى "مزيل الأدلة" واستخدمه لإكمال المهمة كي لا يصبح بالإمكان إجراء إعادة بناء شرعية لما كان موجوداً في كمبيوترك.
هل سمعت ذلك؟".

أجل".

"وأنت، هل تنكر القيام بذلك؟".
أجل".

"ومن كان يعيش في المنزل سواك، حضرة القاضي؟".
زوجتي".

"وأنت قلت إن زوجتك كانت متفهمة بأنه لا يفترض بها الاقتراب من بريدك الإلكتروني".
هذا صحيح".

"شهادتك ليست منطقية، يا حضرة القاضي، أليس كذلك؟".
سيد مولتو، ليس في هذا كله أي شيء منطقي، بصرامة. أنت تقول إنني أزلت بحرص الرسائل الإلكترونية من حاسوبي الشخصي كي لا يُعاد بناؤها، وفي الوقت نفسه، لم أزعج نفسي بإزالة آثار بحثي في الإنترنت عن الفينيلازين، من دون ذكر ترك بصماتي على قارورة الدواء. لذا، أجل يا سيد مولتو، كل هذا يبدو غير منطقي".

لا يمكن أن يُصنف كلام أبي هذا على أنه نوبة غضب، لأنه أخرجه بنبرة حلية إلى حدّ كبير. كما أنه محق. ثم إن الناقضات في نظريات محامي الادعاء مشجعة، وهذه هي المرة الأولى التي ينجح فيها أبي في صد هجمات مولتو الذي يحدّق إليه بينما يقول للقاضي بي: "تهرب

من الإجابة، حضرة القاضي. سيرحظى المتهم بفرصة ليعطي شرحه الخاتمي".

يقول القاضي بي للكاتبة: "أعیدي القراءة من فضلك". لكن هذا سيجعل الأمر أسوأ بالنسبة إلى الادعاء لأن المحقفين سيفضطرون لسماع كلمات أبي مرة أخرى.

عندما تنتهي الكاتبة من القراءة، يهز القاضي بي رأسه قائلًا: "لقد أجاب يا سيد مولتو. من الأفضل لك ألا تسأل عما يبدو منطقياً. وأيتها القاضي" - يوجه كلامه إلى أبي بالتهذيب واللباقة نفسيهما اللذين أبداهما حتى الآن - "رجاءً من دون جدال".

"أنا آسف سيد القاضي".

يهز القاضي بي رأسه دلالةً على عدم وجود داع للاعتذار، ثم يقول: "جواب عادل، وسؤال سيئ. الكثير من الأسئلة الجيدة، ولكن ليس هذا".

يقول مولتو: "أنا أوفق، سيد القاضي".

يقول القاضي: "حسناً، الجميع سعداء". تثير هذه الكلمات - وسط محاكمة في جريمة قتل - نوبة ضحك هisterية في القاعة، بمن فيهم القاضي بي نفسه، الذي يقول عندما يستعيد الجميع هدوءهم: "لا بأس". يستأنف مولتو استجوابه قائلًا: "الآن، حضرة القاضي، هل كانت هناك رسائل إلكترونية في حاسوبك لم تكن تريد أن يراها أي شخص آخر؟ أي قبل أن يتم حذفها؟".

"كما قلت، الكثير من الوثائق السرية الخاصة بالمحكمة".

"عنيت رسائل خاصة".

"البعض منها".

"ما هي بالتحديد؟".

"منها رسائل تثبت مواعيد مقابلاتي مع السيد مان، كما شهد بذلك بنفسه".

"أيها القاضي، هل كانت رسائل السيد مان الإلكترونية موجودة في

حاسوبك الشخصي عند مصادرته، على قدر معلوماتك؟".
"أعلم من الشهادة أنها لم تكن موجودة".

"في الواقع، استطاع الدكتور جورفينيش تحديد استخدام برنامج مزيل الأدلة من أجل إزالة تلك الرسائل لأنه تمكّن من تحديد تواريخ تلك الرسائل".

"هذا ما يدعى".

"هل تشك فيه؟".

"أعتقد أن خبيرنا سيناقش استنتاجه القائل إنه قد جرى استخدام برنامج مزيل الأدلة. ومن الواضح أن الرسالة لم تكن موجودة".
"وهل تنكر أنك حذفتها؟".

"لا أذكر أنني حذفت رسائل السيد مان، على الرغم من أنني كنت أملك سبباً لفعل ذلك. وأعرف أنني لم أنصب أو أستخدم أي برنامج حذف نهائي في حاسobi".

"إذاً، من دون استخدام مزيل الألة، هل سيفهم أي محقق ببحث في بريدك الإلكتروني أنك كنت تفكّر في هجر زوجتك؟".
أرى الآن ما يريد مولتو أن يصل إليه. إنه سيحاول إثبات أن أبي يحاول تنظيف حاسوبه في حال أدركت السلطات مسألة التسمم بالفينيلزين. وإذا ذهبت الأمور في هذا الاتجاه، فأنا أعتقد أن أبي في ورطة كبيرة.
"محتمل".

"أنقول إنه محتمل؟". يعود مولتو إلى المشي مجدداً، ثم يقول:
"الآن أيها القاضي، في 29 أيلول، إذا كنت قد فهمت ما قلته للشرطة، استيقظت لتجد زوجتك ميتة. أليس كذلك؟".
"صحيح".

"ولما يقرب من أربع وعشرين ساعة، لم تتصل بأي شخص.
هل هذا صحيح؟".
"أجل".

"لم تتصل بالمسعفين ليروا ما إذا كان بالإمكان إنعاشها؟".

"كانت باردة عند اللمس، سيد مولتو، ولم يكن هناك أي نبض؟".

"لقد قمت بنفسك بإصدار الحكم الطبي ولم تتصل بالمسعفين. أليس كذلك؟".

"أجل".

"لم تعلم ابنك أو أيّاً من أقارب زوجتك أو أصدقائها بأنها توفيت، أليس كذلك؟".

"ليس حينئذ".

"ووفقاً لما قلته للشرطة، جلست هناك لمدة يوم كامل وأنت تفكّر في زوجتك وفي زواجك. أصحّح ما أقوله؟".

"لقد أجريت بعض الترتيبات كي تبدو بشكل أفضل حين يراها ابني. ولكن، أجل، لمعظم الوقت، اكتفيت بالجلوس والتفكير".

"وأخيراً، وبعد يوم كامل عملياً، اتصلت بابنك".

"أجل".

"وبحسب شهادته، عندما تحدثت مع ناتانيل" - أرتجف قليلاً لدى سماعي اسمه يخرج من فم مولتو - "تجادلت معه حول مسألة الاتصال بالشرطة".

"إنه لم يسمّها مجادلة ولا يمكنني أن أسمّيها كذلك أنا أيضاً. فلم يخطر في ذهني حينئذ أنه يجب علي الاتصال بالشرطة، وبصراحة، لم أكن أود مجيء الغرباء".

"كم سنة بقيت فيها محامي ادعاء، حضرة القاضي؟".

"خمس عشرة".

"وأنت تقول إنك لم تدرك أنه ينبغي استدعاء الشرطة في حال كانت الوفاة مريبة!".

"لم تكن مريبة بالنسبة إلي، سيد مولتو. فقد كانت تعاني ارتفاعاً في ضغط الدم ومشاكل قلبية. لقد مات أبوها بالطريقة نفسها".

"لكنك لم تكن تريد الاتصال بالشرطة؟".

"كنت مرتبكاً، يا سيد مولتو، بخصوص ما سأفعله. فلم تتوفّ لي زوجة مؤخراً". أسمع صوت ضحكات ساخرة هامسة من المخلفين، وهو أمر مستغرب نوعاً ما. ويعقد شتيرن حاجبيه. إنه لا يريد لأبي أن يكون متذللاً.

"الآن، أنت تقول إنك كنت تعرف أن زوجتك كانت تعاني مشاكل صحية. لكنها كانت في حالة جسدية مذلة، أليس كذلك؟".

"صحيح. لكنها كانت تمارس التمارين الرياضية لأنها كانت تعرف أنها معرضة للخطر وراثياً. وبالكاف تخطى أبوها الخمسينات".

"إذاً، أنت لم تقم بالحكم على زوجتك طيباً بأنها توفيت وحسب، من دون أي مساعدة من جهة مؤهلة، بل قررت أيضاً سبب الوفاة".
"أنا أخبرك بما فكرت فيه. وإنني أشرح لك سبب عدم اتصالي بالشرطة".

"ألم يكن ذلك لتأخير إجراء تشريح شرعي؟".
"لا".

"ألم يكن ذلك للسماح للعصارة المعاوية بازالة كل آثار الأطعمة التي أطعمنتها إياها، والتي تفاعلت مع الفينيلازين الذي وضعته في النبيذ الذي شربته؟".
"لا".

"وأنت تقول، حضرة القاضي، إنك أجريت بعض الترتيبات. فهل كانت تلك الترتيبات تتضمن، ربما، غسل الكأس التي حلت فيها الفينيلازين في الليلة السابقة؟".
"لا".

"من غيرك يمكن أن يقول إنك لم تغسل الكأس التي كانت تحوي آثار السم الذي أعطيت زوجتك إياه؟".
لا يجيب أبي على هذا السؤال.

"من يقول لنا غيرك، أيها القاضي، إنك لم تمضِ تلك الأربع والعشرين ساعة في فعل ما بوسنك لاخفاء أي أثر يكشف أنك قمت

بتسميم زوجتك؟ من أيها القاضي؟ من لدينا غيرك؟".
أصبح مولتو الآن على بعد بضع أقدام من منصة الشهادة، يحذّق
في أبي مباشرة.

"أنا أفهم يا سيد مولتو. لم يكن هناك أي شخص سواي".
"أنت فقط". يحذّق مولتو في أبي للحظات، ثم يعود أدراجه إلى
طاولة الادعاء ليرتّب أوراقه قبل أن يجلس على مقعده.

الفصل السابع والعشرون

تومي، 22 حزيران، 2009

في الضوء الباهت لقسم المدعي العام ، الذي يبدو وكأنه لا يعرف سوى فترتين من اليوم: الغسق والظلام ، وقف عدة أشخاص من طاقم تومي بانتظاره ، وكلّ منهم متلهف ليكون أول من يصافح يد الرئيس . فتح باب المصعد نحاسي اللون ، وخرج براند أولاً جاراً عربة المحاكمة أمامه . وكانت هذه العربة ، المفتوحة من الأعلى والمصنوعة من شبكة من الأسلاك الفولاذية المضادة للصدأ ، تُستخدم لنقل ملفات المحاكمة وحاسوب راستي الشخصي إلى المحكمة الواقعة في الجانب المقابل من الشارع كل يوم . وخلف جيم بخطوة واحدة سارت المرأتان اللتان كانتا تتواجدان يومياً مع محامي الادعاء؛ المحققة روري جيسلينغ ، والمساعدة القانونية روتا ويز . وحالما فتح باب القسم المقوى بالفولاذ علا صوت تصفيق من صفين متقابلين من الموظفين ، فالكثيرون منهم كانوا في قاعة المحكمة يسمعون استجواب الادعاء للمتهم . تابع تومي سيره وراء العربة متقدلاً مصافحات ونقرات قبضات الموظفين باتجاه مكتبه الواقع في الزاوية .

بدأ المساعدون يطلقون النكات حول راستي .

"كان يدور مثل دجاجة حول قضيب الشيء أيها الرئيس" .

"أهلاً بكم في بيبيانا . الشيف تومي سيقوم بالتعليق والفرم" .

حتى إن القاضي بي نظر في عيني مولتو لبرهه عندما رفع الجلسة وحنى رأسه احتراماً . وفي الواقع ، كان الجميع تقريراً ينظرون إليه

شيء من الإعجاب لما فعله. ولكنه أدرك منذ زمن طويلاً أنه من ذلك النوع من الرجال الذين لا يشعرون بالارتياح عندما يحققون نجاحاً ما. وكان هذا واحداً من أسراره الصغيرة المحرجة، وإن أصبح أقل حدة في السنوات الأخيرة عندما أدرك أن الأشخاص الذين يشبهونه في هذه الصفة أكثر بكثير مما كان يتوقع. وعندما كانت الأمور تسير في صالحه بشكل استثنائي، فإنه غالباً ما كان يشعر بالذنب، مفتئعاً في أعماقه بأنه لم يكن يستحق ذلك. حتى حب دومينغا كان في بعض الأحيان يشعر بأنه غير جدير به. وبالطريقة نفسها تماماً، كان تومي قد بدأ يشعر بالقلق مسبقاً بسبب الجروح الخطرة التي كان يصيب راستي بها.

ولكن، بالرغم من أن أحداً لا يمكن أن ينكر أنه قام بعمل جيد حقاً في قاعة المحكمة، إلا إن تومي كان يملك من الخبرة الكافية ما يجعله لا يعزى لنفسه الكثير من الفضل. فاستجواب الخصم، بالرغم من كل التحضير الذي تستطيع القيام به، أشبه بالمشي على خط مشدود، قد تمشي عليه بخطوات واثقة في بعض الأحيان، لكنك قد تسقط على رأسك في أحيان أخرى. وفي الغالب لا يمكنك توقع ما سيحصل. فإلى أن حاول سابيتش تسجيل نقطة عبر القول إنه لم ير باريبارا تأكل الأطعمة التي من الواضح أنها تسببت بقتلها، لم يكن تومي قد أدرك تماماً الإدراك كم من السخف الاعتقاد أنها توفيت بصورة عرضية. وكانت تلك لحظة عظيمة بالنسبة إليه - إضافة إلى بعض لحظات مشابهة أخرى - لكنه ارتكب بعض الأخطاء أيضاً. وفتح الباب واسعاً بعض مرات، وهذا كله يحدث على الدوام. ولكن، بالمحصلة، كانت الكلمة العليا للادعاء بكل وضوح. حتى إن الصحفيين المجتمعين خارج المحكمة بدوا أخيراً متأثرين بأداء تومي الذي لم يكن يحظى بالكثير من المعجبين بينهم. وكان مولتو يبدو متصلباً أمام عدسات الكاميرات، والشخصية العنيفة التي خدمته بصورة ممتازة في قاعات المحاكم لم تكن ترقى للصحفيين الذين يكرهون معاملتهم كخصوم، على الرغم من أنهم غالباً ما يكونون كذلك. فعلى أية حال، كان تومي في تلك الأيام يلعب واضعاً إحدى يديه خلف

ظهره. وبعد تعيين القاضي بي مباشرة، قدم شترين طلباً مختوماً يتعلق بنتائج تحليل الحمض النووي من المحاكمة الأولى. وكما توقع تومي، حكم بي - في مكتبه، بعيداً عن الإعلام - بعزل النتيجة، وطلب من الادعاء تحديد أي شخص يعلم بأمرها، ووضع كل واحد منهم تحت أمر المحكمة بعدم مناقشة التحليل إلى حين إصدار الحكم. ولم يكتف بذلك، بل أعلن أنه سيتم القيام بإجراءات قضائية إذا سرّبت نتائج التحليل. في تلك الأثناء، كانت الصحف تنشر نظرية الانتقام كل يوم - بتشجيع من شترين، من دون شك - وتخوض في تفاصيل المحاكمة الأولى، مشددة على الطريقة التي انهارت بها القضية، ومشيرة بصورة متكررة إلى ما حدث لتومي لاحقاً، حين خضع لاستجواب لمدة عام كامل قبل أن يعود إلى عمله مجدداً. وكان بوسع تومي - الذي توقف منذ زمن طويل عن توقع النزاهة من الصحافة الأميركيّة - أن يرد على ذلك، لو لا أن السجل سيصبح نظيفاً بحلول نهاية القضية. ولكن، بعد أدائه اليوم، وخصوصاً عندما ستتصبح نتيجة تحليل الحمض النووي علنية، كان تومي يعرف أن أحداً من المحامين أو الصحفيين لن يقول شيئاً سوى أنه وبراند فعلاً ما يتوجب عليهما فعله.

استمر بعض المساعدين بإلقاء التحية وعبارات المديح على تومي أثناء سيره في قاعة الانتظار. وعندما وصل إلى باب مكتبه، توقف لبرهة مثل مضيف متعدد، ثم سمح لفريق عمله فقط بالدخول. فتقبل بعض المصافحات الأخرى ثم صفق بيديه عدة مرات مشجعاً الجميع للعودة إلى العمل. وكان الموظفون في مكتبه يعرفون جيداً أنه من المبكر إعلان النصر في منتصف المحاكمة؛ مع أن الكثيرين منهم كانوا يريدون الاحتفال بأداء رئيسهم في الاستجواب المضاد، إلا أنهم بذلك كانوا يخونون شكوكهم بالذات، ربما لأنهم لم يكونوا يتوقعون ذلك. والكثير من المحامين الكبار ذوي الخبرة كانوا يعرفون أن احتمال عدم احتسائهم الشراب احتفالاً بعد إصدار الحكم لا يزال ممكناً.

قالت روري جيسلينغ بعد عودة تومي من إجراء اتصال سريع

مع دومينغا: "عشرة من عشرة". لم يتمكن تومي من التحدث طويلاً مع دومينغا بسبب ابنهما توماسو الذي كان قد بدأ يتكلم وأصبح مشاكساً مع أمه في تلك الفترة.

قال تومي: "تعرفين". لكنه لم يضف شيئاً. كان الأربعة يجلسون حول طاولة تومي الكبيرة. كان تومي وبراند قد خلعاً معطفيهما ووضعوا أقدامهما على الطاولة. قالت روري: "أعتقد أنه كان ينبغي على بي أن يسمح لنا بالتطرق إلى الفتاة".

قال تومي: "بي لن يدعنا نتطرق إلى الفتاة، وأعتقد أنتي أعرف السبب".

قال براند: "لأنه لا يريد لحكمه أن يُبطل". قال تومي: "لأنه يعرف أتنا لنحتاج إلى هذا. لدينا اثنا عشر شخصاً في غرفة المحلفين. ومجموع السنوات التي عاشوها حتى الآن، لنقل خمسمائة سنة على الأقل. ما هو أول شيء سيقوله الناس بخصوص شخص في أواسط عمره يتخلى عن حبيبته من أيام الجامعة؟".

ضحك روري وقالت: "لا بد أنه مرتبط بعلاقة جانبية". "هذا بالضبط ما سيقوله نصف المحلفين في تلك الغرفة. وبصراحة، مهما كانت النتيجة التي ستنتهي إليها هذه المجموعة، فهي أفضل بكثير مما يمكن أن ثبتهن نحن".

أنزل براند قدميه، وانحنى إلى الأمام ثم قال: "إذا، لماذا أنت قلق؟".

كان براند الشخص الوحيد الموجود هنا الذي يعرف تومي بما يكفي ليرى ذلك. بحث تومي قليلاً في داخله لكنه كان لا يزال غير قادر على تحديد الإجابة.

ثم قال: "ساندي شتيرن قادر على الرد". وكان شتيرن يدرك منذ وقت طويلاً أن المحاكمات عبارة عن حرب توقعات، حيث لا يمكن لأحد أن يسيطر بصفة دائمة على مزاج قاعة المحكمة. وهو يعرف

أنه يستطيع الصمود لليوم - بل حتى لأسبوع كامل - قدّم فيه الادعاء أداءً جيداً، طالما أنه يستطيع العودة. وفي الواقع، أصبح واضحاً في ذلك الحين لماذا وضع شتيرن موكله في البداية؟ لأنّه كان سيعيد بناء مصداقية راستي من هنا. ارتاتب تومي بأن يكون شتيرن ي يريد أن يبدو راستي بصورة سيئة في بعض اللحظات، حتى يشعر المحتلفون بشيء من الخجل من شوكوكهم عندما يغير بعضهم رأيه. ولقد توقف تومي منذ وقت طويل عن الرد بالمثل على حركات شتيرن في قاعة المحكمة، لأنّه يعرف أنه لن يربح في لعبة ساندي. لذا، فهو كان يلعب لعبته الخاصة به. "رافق. يعيش شتيرن دائمًا ليقاتل في يوم آخر".

قال براند: "ستتعامل مع الأمر".

قال تومي: "أجل، ستفعل. لكنك تعرف، بعد أسبوعين من الآن ما سيذكره المحتلفون حول هذا اليوم هو أنّهم سمعوا راستي يقول إنه لم يرتكب الحريمة، وأنّه لم يُدْسِئَ، وكان هادئاً معظم الوقت. ولم يكن مراوغًا تماماً".

قالت روري: "قاوم كثيراً". كانت المساعدة القانونية روتا ترافق فقط، لتقتها أنها لا تستطيع أن تصيف شيئاً. كانت شقراء، قصيرة القامة، في التاسعة والعشرين من عمرها، وعلى وشك أن تبدأ دراستها في كلية الحقوق، وتشعر بإثارة بالغة لمجرد أنها موجودة في مكتب المدعي العام وتسمع هذه المناقشات.

قال تومي: "لقد قاوم كثيراً جداً. لكنه قام بعمل جيد؛ عمل جيد فعلاً نظراً لكل الأسئلة التي توجّب عليه الإجابة عنها. ولكن...". صمت تومي فجأة. لقد عرف في تلك اللحظة ما الذي كان يزعجه. لقد واجهه ضربات شديدة لراستي، لكنه كان عنيداً جداً. لم يُدْسِ على ولو للحظة واحدة أنه قتل أي شخص. فلم يرُف له جفن طوال الوقت. ولم يُدْسِ عليه أنه يحاول إثارة التعاطف. صحيح أن المنطق كان إلى جانب الادعاء، لكن الجو العاطفي في قاعة المحكمة كان أشد تعقيداً. وصحيح أيضاً أنه كانت هناك لائحة طويلة من الأشياء التي توجّب على راستي تبريرها

بعزوها إلى المصادفة فقط: هارناسون، البصمات، جلب الفينيلزين، اختبار الشراب الفرنسي والجبن، والبحث في شبكة الإنترن特 حول الدواء. ولكن، رغمًا عنه، أحس تومي لمرة أو مرتين بإحباط شديد من الطريقة الهدامة التي فسرَّ من خلالها راستي كل شيء. ربما كان راستي يستحق فصلاً خاصاً به في الكتاب التشيسي والإحصائي الخاص بالأمراض العقلية لتحديد اضطرابه الشخصي الخاص، ولكن بعد ثلاثة عاماً من عمله كمحامي ادعاء، كان يوجد في داخل تومي كاشف كذب يثق فيه أكثر من أفضل محللي ذبذبات جهاز كشف الكذب الحقيقي. ولا بد أن شخصاً ما بين المحلفين - ربما معظمهم - شاهد ما شاهده تومي. حتى إذا كان راستي هو الشخص الوحيد في القاعة الذي يصدق أنه بريء، فقد أقنع نفسه بذلك بطريقة ما.

سأله براند: "كيف وجدت تحميلاً الزوجة مسؤولية البحث في الإنترنط عن الفينيلزين في حاسوبه؟ هذا جنون. إنها تأخذ هذا الدواء منذ اثنتي عشرة سنة ولا تعرف كل شيء حوله".
قالت روري: "كان مضطراً لقول ذلك".

قال تومي موافقاً: "اضطرَّ لذلك. وإلا كيف كان ليفسر الذهاب إلى المتجر وشراء كل شيء يتحمل أن يقتلها؟ إذا قرأت ما كتب في ذينك الموقعين فلا بد أنك ستقول: لا، لا، يا حبيبي، سنشتري خبزاً مكسيكيَاً وهريسة الأفوكادو. على الأقل كنت ستسألها بخصوص ذلك".

قال براند: "لكنه حملها مسؤولية إزالة الرسائل الإلكترونية أيضاً".
هزت روري رأسها وقالت: "في الواقع، كانت تلك هي النقطة الجيدة الوحيدة التي أوضحتها. لماذا أزال الرسائل الإلكترونية ولم ينظر ذاكرة مستعرض الإنترنط لديه؟".

قال براند: "لأنه نسي ببساطة. ولأنه كان يستعد لقتل زوجته، وهذا يجعل أي شخص حتى لو كان شخصاً مثله متوراً ومشوشًا. هذه هي الحجة النافحة نفسها التي تسمعها في كل قضية. إذا كنت مجرماً ذكياً إلى هذه الدرجة، فلماذااكتشف أمر ي؟ إضافة إلى ذلك ، لعل الوقت نفد منه".

"لماذا؟".

"قبل أن تنتهي مدة صلاحيتها. إنه سافل مريض. من الواضح أنه قرر أن يدع الماما ترى ابنها مرة أخيرة قبل أن يرسلها إلى القبر. أعني، هذه فكرة سافل مريض عن الشفقة".

وبينما هو يستمع إلى هذا الحوار الجانبي، غاص تومي أكثر في مقعده. ولم يشعر بالراحة تماماً عندما دعا براند راستي بالسافل المريض. ليس لأن إطلاق الصفات على راستي كان عملاً غير مبرر - فماذا يمكن أن تقول بحق شخص خطط بشكل متقن لقتل امرأة ثانية بعد إفلاته من العقاب لقتله المرأة الأولى؟ - ولكن، في الحقيقة، في قاعة المحكمة تلك، لم يكن هناك شخص يعرف راستي سابقاً بعمق أكثر من تومي نفسه. لا محامي راستي، ولا حتى ابنه نفسه. لقد التقى تومي راستي قبل خمس وثلاثين سنة عندما كان تومي لا يزال طالباً في كلية الحقوق ويعمل على قضية ماتوزيك - محاكمة مفوّض في إحدى المقاطعات بتهمة تلقي رشى - حيث كان راستي القاضي المساعد الثالث لري蒙د هورغان. ومنذ ذلك الحين، راقب تومي الرجل من جميع الزوايا. فقد عمل في المكتب المجاور لمكتبه، وشاركه في محاكمة بعض القضايا، وعمل تحت إشرافه وبرئاسته، وتعامل مع راستي كمنهم ثم كقاض. وفي الأيام الأولى، وخاصة قبل ولادة نات، كانا مقرّبين من بعضهما. وعندما عُيّن تومي في المكتب، غالباً ما كان راستي وصديق تومي من المدرسة الثانوية نيكو ديلا غارديا يمضيان عطلات نهايات الأسبوع معاً، وكثيراً ما كان تومي ينضم إليهما. وكانوا يحضرون مباريات فريق ترابيرز، وقد تعرّضوا للضرب معاً أكثر من مرة. وبعد يوم واحد من ولادة ناتانيال، جلس الثلاثة في مكتب راستي، ودخنوا ثلاث سيجارات كوبية أحضرها نيكو معه. ومع الأيام، بدأ حب تومي لراستي يقل بشكل تدريجي. لأنه عندما بدأ راستي يترقى في المكتب - على حساب نيكو عموماً - أصبح منعزلاً ومزهواً بنفسه. وبعد محاكمة كارولين، وإثر عودة تومي إلى المكتب بعد تحقيق دام عاماً كاملاً، لم

يُكن تومي يرى وجه راستي أكثر من قناع غير متقن يُظهر ترحيباً غير مقنع كلما التقى.

مع ذلك، غالباً لم يكن تومي يسأل لماذا أو كيف في هذه المهنة. فأنت ترى أناساً يحيدون عن جادة الصواب. مليارات كانوا يملكون نوادي كرة قدم ومرافق تسوق انتزعاً بالغش خمسة عشر ألفاً من شخص ما لأنهم مضطرون للربح دائماً، وسياسيون انتخباً كإصلاحيين معروفين منذ وقت طويل مدواً أيديهم لتلقي رشى بالكاد بعد إدلائهم بقسم تولى مناصبهم. ولم يحاول تومي أن يفهم لماذا كان بعض الأشخاص بحاجة إلى تحدي أنفسهم. وكان واجبه يتمثل بتتبع الأدلة، وتقديمها لاثني عشر شخصاً، ومن ثم الانتقال إلى قضية أخرى. ولكن، بعد ثلاثة عقود ونصف العقد، فإنه كان يعرف شيئاً واحداً على الأقل بخصوص راستي ساببيتش؛ ألا وهو أنه لم يكن سافلاً مريضاً. حاد الطياع؛ ممكن. قابل للتعلق بشكل هوسي بأمرأة مثل كارولين حتى تصبح الحقيقة الوحيدة التي يعرفها أو يهتم بأمرها؛ أيضاً هذا يمكن أن يحصل. لربما ثار حنقه فخفتها ثم أخفى الآثار. ولكن الشيء الوحيد الذي كان تومي يطالب نفسه به دائماً بينما كان يجلس على المقعد الجلدي ذي الظهر العالي، الذي جلس عليه المدعون العامون خلال العقدين الأخيرين، هو النزاهة. وقد أفضت مواجهة راستي في قاعة المحكمة إلى إرغام تومي على طرح أسئلة كان يحاول إبعادها طوال سنة تقريباً. وما كان يزعجه أكثر من أي شيء آخر، هو أن جريمة محسوبة بدقة شديدة كهذه الجريمة، خطط لها لأشهر وتُنفذت على مدى أسبوع تقريباً، ولم تكن تبدو أنها تقع ضمن نطاق الرجل الذي عرفه تومي منذ زمن طويل.

وبينما كان براند وروري يتداولان التعليقات المازحة، رَكَّز تومي على فكرة لم تخطر في ذهنه منذ أشهر. وكانت فكرة معاكسة لكل الاحتمالات، ومعاكسة للأدلة، وضد المنطق، بيد أنه سأل نفسه على أي حال: ماذا لو كان راستي بريئاً؟

الفصل الثامن والعشرون

نات، 22 حزيران، 2009 مكتبة

t.me/t_pdf

نعود إلى مكاتب شركة ستيرن آند ستيرن الفاخرة كما نفعل كل ليلة. وساندي واحد من أولئك الأشخاص العصاميين الذين يحبون أن يكونوا محاطين بشواهد تدل على نجاحهم. ومارتا، بعفويتها التي تبدو مثل نقىض مقصود لأبيها، تتغول لي من وراء ظهره مازحةً إن ذلك كله يذكرها بمطعم متخصص بتقديم شرائح اللحم. فهناك الكثير من الخشب الغامق، وضوء خافت صادر عن مصابيح ذات زجاجات ملونة، وأثاث جلدي ذو ثنيات، وزجاجات كريستالية لتقطيم الشراب على الطاولات في غرفة الاجتماع. وثمة هدوء مميز هنا بالمقارنة مع معظم المكاتب القانونية التي زرتها. والهواتف تومنض بدل أن ترن، ولوحات مفاتيح الحواسيب مكتومة الصوت.

لكن نوعاً مختلفاً من الصمت سيطر علينا منذ أن كنا نلطم أشياءنا استعداداً لمغادرة المحكمة. وستيرن صارم تماماً بخصوص مناقشة أي شيء ضمن نطاق سمع أي شخص يمكن أن يكون حليفاً غير متوقع لمولتو أو قريباً لأحد المحلفين، ونتيجة ذلك تعلمت أنا عندما تكون في المحكمة، فإن الحديث في المصعد يقتصر على أحداث راهنة، ويُفضل أن تكون غير إشكالية؛ مثل الرياضة. لكننا في هذه الليلة بقينا طوال فترة ركوبنا في السيارة من دون أن ننبس ببنت شفة؛ ولا حتى الأحاديث العادية غير المؤذية. وعلى الرغم من أن مسافة العودة إلى بناء ليسبور لا تبعد سوى بضعة شوارع عن المحكمة، إلا أن ساندي يفضل أن يقود

بنفسه هذه الأيام، وقد طلب مني الانضمام إليه ووالدي في الكاديلاك لأنه يريد أن ينافس معي شهادتي لصالح الدفاع، والتي يُتوقع أن تبدأ في وقت متأخر من يوم غد. وفي بعض الأحيان، يُدلّي ساندي خلال خروجه من المحكمة بتعليق أو ملاحظة لجمع الصحفيين الذين ينتظرون المحامين من الطرفين في كل مساء؛ لكننا اجتنبناهم هذه الليلة وساندي لا يردد سوى عبارة واحدة: "لا تعليق".

وفي المبني، ينقلب الإجراء المعتاد الذي نقوم به بعد انتهاء من المحكمة، حيث يذهب والدي برفقة مارتا، في حين يقودني ساندي إلى مكتبه الكبير ويغلق الباب. فيطلب مشروباً خفيفاً لكلينا من إحدى مساعداته، ونجلس جنباً إلى جنب على كرسيين جلديين طوبيلين كستنائي اللون. وتشعر في مكتب شتيرن كما لو أنك في متحف، حيث الجدران مليئة برسومات مرسومة بقلم الرصاص لشتيرن في المحكمة، مع كثير من المعروضات من أشهر محكماته موضوعة في علب بلاستيكية على الطاولات. وأخشى أن أضع كأسى على الطاولة إلى أن يشير إلى قطعة واقية من الفلين.

وفي مقابلاتي الأولى حول القضية، حيث علمت بأمر الأدلة، كان ساندي هو الذي يقابلني، حيث فعل ما يسعه في ذلك الحين لتوضيح الجانب الماضي، وبخاصة لجهة أن مولتو لم يأتِ قطَّ على ذكر عقوبة الإعدام وأنه وافق على السماح لأبي بالكافala. ولكن، في العادة، عندما أكون في المكتب، فإنني أقوم بكل ما يسعني القيام به لمساعدة مارتا. ونتيجة لذلك، قرر هو ومارتا أن من الأفضل أن تهينني هي لتقديم شهادتي. وشتيرن يريد أن يتأكد من أنني لا أملك أي اعتراض. فأجيب قائلاً: "أنا أحب مارتا".

"أجل، تبدوان متواافقين"، يأخذ رشفة من كأسه، "إذا، ما هو القنبل من مقاعد الحضور؟ ما هو انطباعك عن إجراءات اليوم؟". ومن بين مزايا شتيرن العديدة، التي لاحظتها خلال الشهر الأخير، انعدام الخوف من الردود السلبية. ولكنني واثق بأنه يريد أيضاً أن يقرأ الحالة العاطفية

التي سأشهد فيها.

"أعتقد أن مولتو قام بعمل ممتاز".

"هذا ما أعتقده أيضاً". يسعل قليلاً، كما يحدث غالباً. "أصبح تومي محامياً أفضل بمرور السنين. ولكن هذا هو رأيي فيه على أية حال".
كنت أسأءل لماذا قرر هو ومارتا وضع والدي على منصة الشهادة أولاً، فسألته: "تقول آنا إن المتهمين في الغالب يدلون بشهادتهم في النهاية".

"صحيح. ولكن بدا من الأفضل هنا أن نغير السياق المألوف".
"لتشوиш تومي؟". كان هذا هو تخمين آنا.

"في الحقيقة، كنت أمل أن أفاجئ تومي، ولكن لم تكن هذه هي الغاية الأساسية". ينظر شتيرن في الفراغ لوهلة، محاولاً تحديد كمية ما يمكن أن يقوله لي، نظراً لأنني سأعود إلى منصة الشهادة غداً.
وتحت ضوء مصابح الطاولة بجانبنا، بدا لي أن الطفح الجلدي على الجانب الأيمن من وجهه قد تراجع قليلاً اليوم. "وبصراحة، نات، أردت أن أضمن أننا سنملك وقتاً كافياً للتعويض في حال كانت شهادة والدك كارثية".

تؤودي هذه الجملة بالكثير.

"هل هذا يعني أنك لم تكن تريده أن يشهد؟".

"بشكل عام، من الأفضل بالنسبة إلى المتهم أن يشهد. نحو سبعين بالمائة من أحكام البراءة، يا نات، تأتي في قضايا يصعب فيها المتهم للدفاع عن نفسه. ويريد المحلفون أن يسمعوا ما ينبغي عليه قوله بخصوص القضية، وهذا ينطبق بصورة خاصة على هذه القضية، فالمتهم خبير في القانون، ويعرف المحاكم جيداً، ومعتاد على التحدث علينا".
"أسمع ولكن هنا".

يبتسم ساندي ثم يقول: "في قضية ظرفية كهذه، يا نات، حيث الأدلة غامضة جداً، يمكنك أن تخاطر بالسماح لمحامي الادعاء بأن يقدم حججه الختامية من خلال الاستجواب المعاكس. ومن الصعب على المحلفين أن

يجمعوا كل الأجزاء معاً، ومن الأفضل لك ألا تسمح للادعاء أن يشرحوا هذا مرتين. ولكن، بصفة عامة، كنت أعتقد أن من الأفضل لوالدك ألا يشهد. ولا شك في أن ذلك كان أقل خطورة. بيد أن أباك اختار العكس".
"هل تشعر بخيبة الأمل؟".

"لا، لا. كان تومي أفضل تنظيمًا مما كنت أمل، وفي معظم الوقت بقي مركزاً، حتى عندما حاول أبوك إغاظته قليلاً. والكييماء بين الاثنين غامضة بعض الشيء، ألا تظن ذلك؟ إنهم عدواً منذ عقود، ومع ذلك فإن موقف كل منهما تجاه الآخر أكثر تعقيداً من أن يوصف بأنه حقد محض. ولكن بشكل عام، كل ما حدث اليوم كان ضمن نطاق التوقعات. وكان أداء أبيك جيداً جداً، وأداء تومي ممتازاً، لكن هذا محمول. فلو كنت أعلم مسبقاً أن الخسارة ستكون هامشية كهذه، لكنت أيديت شهادة أبيك منذ البداية. ولقد سمعه المحققون يقول إنه بريء..
وبدا هادئاً طوال الوقت".

"إذاً، مما كنت قلقاً؟".

يأتيه اتصال في هذه اللحظة، فيقف على قدميه بصعوبة. فيتحدث لمدة دقيقة فقط وبعد الانتهاء، يستغل فرصة وقوفه لتعليق معطفه وراء الباب. فمن المزعج رؤيته بهذا النحول؛ نصف الرجل الذي ذكره. وإنه يستخدم حمالات لدعم بنطاله الواسع جداً بحيث يبدو فيه مثل مهرج في السيرك. يعود إلى كرسيه ويتهاوى عليه؛ لقد أضعف التهاب المفاصل ركبته كثيراً. ولكن، على الرغم من آلامه، فإنه لا يزال يذكر سؤالي.
"لا نهاية للأشياء التي يمكن أن تسوء عندما يدللي المتهم بشهادته. واحد من الاحتمالات التي كانت تقلقني كثيراً هو أن يقوم مولتو بالمحاولة نفسها التي قام بها مع القاضي بي عند بداية الاستجواب". ويشير ساندي إلى محاولة مولتو استجواب أبي حول علاقته غير الشرعية أمام المحققين.
"وكلت واثقاً إلى حد بعيد بأن القاضي بي لن يغير رأيه، لكن المسألة لم تكن حالية تماماً من الشك. فالكثير من القضاة يمكن أن يستسلموا لحجج محامي الادعاء لجهة أن هذه الحوادث كانت جزءاً من القصة بأكملها".

أحسُّ بالانزعاج لدى تأملِي في هذا الاحتمال. وكان شتيرن قد أخبرني سابقاً: أنه من الضروري جداً أن يرى المحلفون أنني أساند أبي، لكن الجلوس هناك والاستماع إلى كل هذا كانا بالنسبة إلى معاناة فظيعة. وعندما أخبره بذلك يعبس قليلاً.

"لا أعتقد أن أباك سيسمح لهذا بالحدوث، نات. لم أضغط عليه قط بخصوص ذلك، لكنه كان مصمماً على عدم الإجابة عن أي سؤال يتعلق بتلك المرأة الشابة، وبصرف النظر عنمن تكون؛ حتى لو اعتبر القاضي بي ذلك بمثابة إهانة للمحكمة أمام المحلفين أو ألغىشهادته. وإذا حصلت أي من هاتين الحالتين، فلا حاجة إلى القول: إنها ستكون كارثة".

أجد صعوبة في فهم هذا الخبر، وشتيرن يراقبني.

يقول: "أنت فلق".

"أشعر بالغضب لأنه يمكن أن يحدد فرصه بالخروج حراً من أجل حماية تلك الفتاة".

" تماماً. وهذا ما يجعلني أشك في أنك أنت، وليس تلك الفتاة، هو من كان يريد حمايته".

هذا هو المحامي الذي يشبه الفنان. فالمحاكمة تشبه مسرحية عظيمة، حيث يكون الجو عابقاً بتباراتٍ من العاطفة. وكل سطر يتعدد صداه من مائة زاوية مختلفة. وشتيرن يشبه واحداً من أولئك الممثلين العظام الذين يبدون وكأنهم يمسكون بأيدي جميع الموجودين في المكان. وإخلاصه غير المعلن رائع، ولكنني لا أستطيع قوله الآن.

"ما زلت لا أستطيع أن أفهم ما الذي يفعله هناك إذا كان مستعداً للتخلٰ عن كل شيء. فهل كان يعتقد أنه لم يكن يملك أي فرصة إذا لم يشهد؟".

"أبوك لم يكن يشاركني أفكاره. لقد سمع نصيحتي واتخذ قراره. ولكنه لم يبُذ لي تكتيكاً".

"إذاً، ماذا كان؟".

يرسم شتيرن أحد تعابيره المعقدة، كما لو أنه يريد أن يوحي بأن

اللغة غير قادرة تماماً على التعبير عن شعوره.

"كان وحيداً، إذا أردت أن اختار كلمة واحدة".

أشعر بالحيرة، بالطبع.

"إنني أعرف أباك جيداً منذ ثلاثين عاماً، ويمكنني أن أصف علاقتنا بالوثيقة. ولكن بالمعنى المهني فقط. إنه يقول القليل القليل عن نفسه. دائمًا".

"مرحباً بك في النادي".

"أعني أنني أتعرف بأنني أعتمد فقط على تخميناتي الخاصة، وليس على أي شيء قاله لي. لكننا نقضي أمسيات ممتعة، أنا وأبوك. وبوعي القول إن فرصه في النجاة أفضل من فرصي". فيبتسم شتيرن بحزن، وتتحرك يده بضعة سنتيمترات باحثة عن السيجار المفقود. وإحدى الأفكار التي شاركتني فيها أبي هي أنه ليست هناك أي حاجة إلى السؤال عن فرص شفاء ساندي. وسنعرف أنه ليس هناك أمل في أول مرة يشعل فيها سيجاراً. "لكنني أشعر بأنني أكثر انخراطاً منه في هذا العالم". أهز رأسي موافقاً، ثم أقول: "إنه يبدو لي أحياناً وكأنه يعتقد أنه منفصل عن جسده، ويراقب كل هذا يجري مع شخص آخر".

"تماماً. لم يُظهر أي اهتمام بما إذا كانت شهادته ستساعد قضيته أو تضر بها. وكان يريد أن يخبر ما حصل فعلًا. أي شيء يعرفه".

"إنه لن يخبر أحداً بكل شيء".

يبتسم شتيرن مجدداً، ابتسامة حزن وحكمة. فثمة شيء واضح، وهو أن ساندي شتيرن يستمتع بهذا الحديث. ومن الواضح أنه أمضى ليالي عديدة - كما أفعل أنا صاحياً لوقت متأخر - وهو يفكر في الغاز أبي الكثيرة.

"لكنه أراد أن يخبرك، يا نات، بكل ما يستطيع".

"أنا!".

"أوه، ليس لدى أدنى شك في أنه أدلى بشهادته بصورة حصرية تقريراً كي يتمكن من تعزيز ثقتك به".

"لا أفتقر إلى الثقة به". هذه كذبة، إلى حد ما. وإن السياق المنطقى لقضية أبي ليس في صالحه، حتى معي أنا. ولكن، من المناقض لكينونتى تماماً أن أفكر في أن والدى قاتل، ولهذا السبب لا يمكننى أبداً أن أتجاوز هذه الثقة. ولو أتنى لم أنفق سنوات عديدة مريرة في التحدث إلى الأطباء النفسيين، لربما كنت لأتحدث إلى أحدهم الآن. ولكن، لا أحد يمكنه حقاً أن يساعدنى على الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة التي تواجهنى الآن. حتى لو كان أبي مذنبًا، فهذا لا يعني أنه منحنى حباً واهتمامًا أقل. لكن معظم عبر الحياة التي تعلمتها منه ستصبح لاغية. وهذا يعني أننى تربيت مع شخص متذكر، وأننى أحببت زياً تذكرياً، وليس هو.

"إنه يعتقد أنك تثق به فعلاً."

أرفع كتفى ثم أقول: "هل هناك أشياء سيئة؟".

"بالطبع".

"هل تعتقد أنه مذنب. سيد شتيرن؟". طلب مني مراراً أن أدعوه ساندي، ولكن بعد سنة من التواجد في المحكمة العليا، حيث كل محام سيد أو آنسة، وكل الرؤساء يملكون الاسم الأول نفسه - حضرة القاضي - لا يمكننى أن أحمل نفسي على فعل ذلك. وبدلاً من ذلك، أراقب شتيرن وهو يقلب سؤالى في ذهنه. وأعرف أن من غير الإنصاف ولا اللياقة أن أطرح هذا السؤال على محام يحاول الدفاع عن موكله. وأنتوقع أن يتتجنب شتيرن الإجابة. ولكننا قطعنا مسافة بعيدة عن الحدود القانونية المتفق عليها. وساندي أب يتحدث مع ابن صديق عزيز.

"في هذه المهنة، يتعلم المرء ألا يفترض الكثير. لكننى كنت على قناعة تامة بأن أباك كان بريئاً في القضية الأولى. ونتائج تحليل الحمض النووي الحديثة كانت صدمة مريرة لي، أعترف بذلك، ولكن لا تزال هناك عدة فرضيات مقنعة لبراءته في ذلك الحين".

"مثل ماذا؟".

"بصراحة نات، كانت العينة مشكوكاً بها كثيراً في قضية والدك الأولى، وليس هناك أجوبة أفضل الآن".

قالت لي أنا الشيء نفسه.

يتابع شتيرن قائلاً: "ولكن، حتى لو كانت العينة حقيقة، فهذا سيثبت فقط أن أباك كان عاشق المرأة التي قتلت. واعذرني لأنني سأكون صريحاً في هذه النقطة. وكانت الأدلة في المحاكمة تشير بوضوح إلى أن أباك لم يكن الشخص الوحيد الذي يحب تلك المرأة في فترة الجريمة. وثمة تخمين قوي جداً بأن شخصاً آخر رأى أباك معها في تلك الليلة وقتلها في نوبة غضب بداع الغيرة بعد مغادرته".

اعترفت لي أنا بهوسها الشديد بقضية أبي الأولى التي اهتمت بها منذ أن كانت طفلة. ومؤخراً عادت وقرأت نسخة شتيرن عن الملف، وفي الغالب لأنني لم أقدر على فعل ذلك بنفسي. وبعد انتهائهما، خرجت بنظرية مشابهة لنظرية شتيرن. صحيح أن الفكرة بدت معقوله تماماً حينئذ، لكنها تبدو أكثر إقناعاً الآن من فم شتيرن.

"إذاً، الآن يا نات، على الرغم من أنني يجب أن أكون مرتاباً، إلا أن قلبي يظل إلى جانب أبيك. وبالتأكيد، لست معجبأ على الإطلاق بالأدلة في هذه القضية. فالحكومة، بالنسبة إلي، لا يمكنها أن تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أمك توفيت متسماً. وإذا لم يتأثر القاضي بي بنتائج الحمض النووي، فإني أعتقد أن هناك فرصة كبيرة بأن يوافق على طلبنا بالبراءة في نهاية مرافعة الادعاء. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكثير من التفاصيل الأخرى لأنها لن تُفضي إلى ما يعتقده مولتو وبراند".

"لقد قام تومي بعمل جيد في نسج كل هذه التفاصيل معاً".

"لكن هذا النسج يستخدم كثيراً في القضايا الظرفية، ويمكنه أن يناسب كلا الطرفين. اسحب خيطاً واحداً فيتفكك الثوب بأكمله. وسنshed عليه قليلاً".

"هل يمكنني أن أسأل كيف؟".

يبتسم مرة أخرى، ثم يقول: "المزيد بعد انتهائك من الإدلاء بشهادتك".

"هل ستكون قادرًا على الإجابة عن تلك الأمور المتعلقة بحاسوبه؟"

فقد كانت مضرّة جداً".

يرفع سبابته ثم يقول: "جيد أنك أثربت هذه النقطة. فستناقش مارتا هذا الأمر معك، لكننا نأمل أن نحصل على مساعدتك قليلاً في هذا المجال".

أنا!

“كنا نفكر في طرح بعض الأسئلة حول الحواسيب عليك. فهل أنت ملم بها؟”.

"أنا جيد. لكنني لست مثل أنا أو الكثير من الأشخاص الآخرين الذين أعرفهم".

"والدك، هل لديه معرفة حيدة بها؟".

"إذا كنت تسمى تشغيل الحاسوب معرفة جيدة، فهو يقع ما بين الضعيف والجاهل كلياً".

يضحك شتيرن بصوت عالٌ، ثم يقول: "إذاً، فأنت لا تتصور أنه نصب ذلك البرنامج الخاص بالحذف النهائي وأزال الرسائل الإلكترونية؟".

ضحكت للفكرة. لا شك أنني أريد أن أصدق أن أبي بريء. ولكنني أعلم بقينا أن أبي لا يمكن أن يكون قد فعل شيئاً كهذا بنفسه.

"نعتقد أنه ينبغي علينا أن نقوم ببعض الإيضاحات حول حاسوب أبيك، كي تُرى المخلفين كم هي مستبعدة نظرية الادعاء. ويمكنك أن تكون الشاهد المناسب لأسباب متنوعة".
"مهما يكن".

ينظر شتيرن إلى ساعته، وهي كارتير ذهبية تبدو وكأنها تعكس كل الدقة البدعة التي يتمتع بها. ومارتا تنتظر.

عند الباب أقول: "شكراً على الحديث، سيد شيرن".
فيجيبني، قائلاً: "ساندي".

الفصل التاسع والعشرون

نات، 22 حزيران، 2009

عندما أخرج من اجتماعي مع مارتا، أجد أبي بانتظاري. وكما قميصه الأبيض مرفوعان على ساعديه وربطة عنقه المقلمة متسلية من ياقته، ويبدو منهكاً تماماً. كيف لا؟ وهو يقول إنه لا ينام كثيراً، إضافة إلى بقائه وقتاً طويلاً على منصة الشهادة. فلونه شاحب جداً، وثمة هالتان داكتنان حول عينيه. أعتقد أنه يشعر بمزيج شعوري هو الأسوأ على الإطلاق؛ اليأس والخوف.

أقول له: "مساء قاس".

يرفع كتفيه، قائلاً: "سيحدث شيء غداً يانات". فيصمت عابساً لبعض لحظات ثم يضيف: "لا يمكنني أن أتحدث حوله الآن. آسف". يقف في مكانه عاجزاً، لمعرفته أن القواعد لا تسمح له بقول أو فعل أي شيء، لكنه مع ذلك يبدو غير قادر على تقبّل هذه الحقيقة.

"هل تحتاج إلى أي شيء، بابا؟ هل تحتاج إلى أي شيء من المنزل؟".

يفكر لوهلة ثم يقول: "أود حقاً الحصول على ربطه عنق أخرى". يقول ذلك وكأنه يطلب بوظة، أو شيئاً يرغب به بشدة، "إنتي أضع الربطتين نفسهما منذ ثلاثة أسابيع. هلا ذهبت وجلبت لي أربعاً أو خمساً، من فضلك يانات. وأفضل ربطه العنق البنفسجية التي اشتريتها لي أملك من أجل الميلاد في العام ما قبل الماضي". أذكر أمي وهي تقول إن الرابطة ستحسن نمطه الرديء المعتاد.

واحدة من الخدمات المفيدة القليلة التي أؤديها لأبي هي الذهاب إلى المنزل من أجل جلب بعض الأغراض الشخصية التي يحتاج إليها. قبل نحو شهر من بدء المحاكمة، انتقل أبي للسكن في فندق يقع وسط المدينة. ولم يشاً أن يضيع وقته في التنقل قبل الساعات الطويلة وبعدها في المحكمة. والأهم من ذلك هو أنه كان قد سئم من الصحفيين المزودين بكاميرات، والذين كانوا يقفون من بين الأشجار كلما كان يدخل أو يخرج من مدخل المنزل.

وبالرغم من اسمه، لا يقع ميرamar - الفندق الذي ينزل فيه - بالقرب من أي بقعة مائية. وهو واحد من تلك الأماكن التي اختارت تغيير لافتاتها وزبائنها بدلاً من تجديد نمطها. فالآثار استعماري الطراز الموجود في صالة الاستقبال يبدو وكأنه هناك منذ عهد جورج واشنطن، وورق الجدران المعلق في زاويتين مختلفتين من غرفة أبي يتبدى مثل لسان كلب بلهث. ولكن أيّاً من ذلك لا يبدو مهمًا بالنسبة إلى أبي الذي يعود إلى الغرفة الصغيرة فقط كي ينام بعد أن يكون هو وشقيقه قد أنهيا التحضير لليوم التالي. وفي بعض الأحيان، يقول على سبيل المزاح - وإن بصورة غير موفقة - إنه بدأ يعتاد على الأماكن الضيقة.

لكنه في الحقيقة يعيش الآن في رأسه فقط، ورأسه لا تشغله تقريباً سوى تفاصيل القضية. وعندما لا يكون في قاعة المحكمة، فإنه يحذم القiam ببعض البحث القانوني والوقائي في مكتب شقيقه. وهو أمر مثير، إذ يبدو أنه لا يملك أي أمل في النتيجة، ولكنني أعتقد أن هذه هي طريقته للتأقلم. وكان الوضع سيكون أفضل فيما لو أن هناك بعض الأصدقاء حوله يشغلون ذهنه في أشياء أخرى غير القضية، ولكن أبي وجد نفسه وحيداً تماماً. وهذا النوع من التهم، وللمرة الثانية أيضاً، لا يجلب دعوات لحضور الحفلات، ولكنه على كل حال انزعالي في الأساس ولا يملك حياة اجتماعية حافلة؛ وخاصة بوجود أمي التي كانت تعاني رهاباً مرضياً من مغادرة المنزل. وزملاؤه السابقون نادراً ما يتواصلون معه. كان أبي شخصية منعزلة في قاعة المحكمة، وصديقه

ال حقيقي الوحد المتواجد هناك هو جورج ماسون . غير أنه شاهد مثل ، ويجب عليه الحفاظ على مسافة مع أبي في الوقت الحالي . ولعل الفكرة التي أثارت غضبي لأشهر - أي فكرة مواعدة أبي لامرأة أخرى - تبدو منطقية الآن ، حتى لو كان الأمر مجرد صحبة لتناول العشاء أو حضور فيلم سينمائي ، غير أنه يبدو غير مهم بأي شيء خارج قضيته ، ويفضل تمضية لحظاته القليلة الحرة مع ذاته .

حتى إنه يبدو غير مستمتع حين يمضى بعض الوقت برفقتي أنا وأنا . لقد حاولنا بضع مرات ، لكن اللقاءات كانت متكلفة . وبالرغم من أنه كان يحبها كثيراً عندما كانت متدربة عنده ، إلا أنه لا يبدو مرتاحاً معها في هذه المحنـة؛ لذا غالباً ما نلجمـا نحن الثلاثة للصمت عندما نكون معاً . وبين الحين والأخر ، عندما تتأخر أنا في العمل أو تكون خارج البلدة ، أتناول وأبي طعام الغداء معاً ، وهو أمر مسموح طالما يبقى بعيداً عن القضية . وكثيراً ما يذكرني أبي بصديقـي في كلية الحقوق ، مايك بيبي ، الذي هجرـته زوجـته من أجل رئيسـها في العمل ، والذي يتحدث كثيراً عن طلاقـه . وبعد نصف ساعة من حديث عصبي تهـديـي حول لي - آن والمحامـين ، يقول بيبي فجـأة: "دعـنا نـناقـش شيئاً آخر ". وهذا الشـيء الآخر يكون غير متوقع على الإطلاق ، مثل معارض صنع الملاـحف أو آخر الأوضاع الفلكـية لكوكـب بلوـتو ، ومن ثم يعود إلى الموضوع مباشرة . وهذا هو الحال مع أبي أيضاً . لعله يود أن يتناول بالتحليل التفصـيلي أي سؤـال وجـواب جاءـا في سياق إدلـائـه بالشهـادـة ، لكنـه لا يستطـيع التـحدث معـي حول هذه الأمـور ، ولـهـذا فهو يتحول للـحـديث عـما يـجـول في خـاطـره . إنه يقول دائمـاً إنـ هذه التجـربـة لا تـقارـن بـتجـربـته الأولى منذ أكثر من عـشرـين عامـاً . وفي ذلك الحـين ، حـسبـما يقول ، لم يكن يستطـيع تـصـديـق ما كان يـجريـ ، وكان يـأمل دائمـاً أنـ تـعود حـيـاته إلى ما كانت عليهـ في السـابـق . أما الانـ ، فإـنه يـشيرـ من دون اـكتـراتـ إلى أنه سيـذهبـ إلى السـجنـ . حتى لو تـمـ تـبرـئـته ، فإنـ نـتـائـجـ تـحلـيلـ الـحمـضـ النـوـويـ من المحـاكـمةـ الأولىـ ستـصـبحـ مـتـاحـةـ لـلـصـحـافـةـ بعدـ أنـ يـسلـمـ المـحـلفـونـ حـكمـهمـ .

إِذَا خَرَجَ أَبِي حَرَأً مِنْ جَدِيدٍ، فَإِنَّهُ سَيَصْبِحُ مَنْبُوذًا مِنَ الْجَمِيعِ.
أَعْانَقَ أَبِي خَارِجَ مَكْتَبَ مَارْتَا - أَقْوَمَ بِذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةَ قَبْلَ مَغَادِرِتِي
- وَأَقُولُ لَهُ إِنِّي سَأَجْلِبُ رِبَطَاتَ الْعُنْقِ فِي الصَّبَاحِ. فَسِيَارَةُ بَرِيُوسُ
الْزَّرْقَاءِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي اشْتَرَتْهَا آنَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي تَنْتَظِرُنِي عِنْدَ
الرَّصِيفِ.

أَقْبَلَهَا ثُمَّ أَقُولُ: "هَلْ تَمَانَعِينَ فِيمَا لَوْ ذَهَبْنَا إِلَى نِيرِينَغ؟ يَرِيدُ بَعْضُ
رِبَطَاتِ الْعُنْقِ".

هَلْ كُنْتَ سَتَضِعُ رِبْطَةَ عُنْقِ قَدْمَتْهَا لَكَ امْرَأَةً أَنْتَ قَتَلْتَهَا؟ أَوْ هَلْ أَبِي
خَبِيثٌ وَذِكِيرٌ بِمَا يَكْفِي لِيُتَوَقَّعُ أَنْتِي سَأْسَأُ نَفْسِي هَذَا السُّؤَالُ بِالْذَّاتِ؟ أَفَكَرَ
فِي مَا قَالَهُ لِي شَيْرِنَ بِخَصْوَصِ أَنْ أَبِي أَرَادَ أَنْ يَدْلِي بِشَهَادَتِهِ مِنْ أَجْلِ
أَنْ يَعْزِزَ ثَقْتِي بِهِ. فَأَعْرَفُ أَنَّهُ يَرِيدُ بِشَدَّةٍ أَلَا يَخْسِرَنِي. وَفِي الْحَقِيقَةِ،
كَانَ أَبِي وَأُمِّي تَوَاقِيْنَ لِحُبِّي بِحِيثِ بَدَا أَنَّ ذَلِكَ آلَّمَنَا جَمِيعاً. وَلَكِنْ، أَنْ
يَنْفَصِلُ عَنِ الْآنِ بِالْذَّاتِ، فَهَذَا قَدْ يَؤْدِي بِأَبِي إِلَى نِهايَةِ شَبِيهَ جَدَّاً بِنِهايَةِ
أَبِيهِ؛ الَّذِي مَاتَ وَحِيداً فِي وَاحِدَةٍ مِنْ تَلْكَ الْمَقْطُورَاتِ الصَّفِيحَةِ فِي مَنْطَقَةِ
نَائِيَّةِ غَربِ الْبَلَادِ.

تَسْأَلُنِي آنَا بَعْدَ وَقْتٍ لَيْسَ بِقَصِيرٍ مِنْ اِنْطَلَاقَنَا بِالسِّيَارَةِ: "كَيْفَ
حَالَهُ؟". لَقَدْ اعْتَادَتْ فَتَرَاتْ صَمْتِي الطَّوِيلَةِ، خَاصَّةً بَعْدَ الْمَحْكَمَةِ.
"مَمْتَازٌ. هَلْ قَرَأْتَ شَيْئاً مَا؟".

"فَرِينٌ. إِنَّهُ مَنْشُورٌ مُسْبِقاً عَلَى الإِنْتَرْنَتِ". يَكْتُبُ مَا يَكُلُ فَرِينُ عُمُوداً
فِي إِحْدَى الصُّفَحِ الْوَطَنِيَّةِ، مَعَ تَعْلِيقَاتٍ غَرَبِيَّةٍ حَوْلَ التَّقَافَةِ وَالْمَنَاسِبَاتِ
الْهَامَةِ، تَحْتَ عَنْوَانَ "دَلِيلُ الْبَاقِيِّ عَلَى قِيدِ الْحَيَاةِ". إِنَّهُ مَتْزُوجٌ مِنْ
قَاضِيَّةٍ فَدْرَالِيَّةٍ هُنَا، وَلَكِي يَتَجَنَّبُ السَّفَرَ، فَهُوَ يَهْتَمُ بِقَصْصِ مَحْلِيَّةٍ يُمْكِنُ
أَنْ تَسْلُي النَّاسَ مِنَ السَّاحِلِ إِلَى السَّاحِلِ. وَلَقَدْ كَتَبَ الْكَثِيرُ حَوْلَ قَضِيَّةِ
أَبِي، وَيَبْدُو أَنَّهُ مُتَيَّقِّنٌ مِنْ أَنَّ أَبِي أَفْلَتَ مِنَ الْعَقَابِ فِي قَضِيَّةِ قَتْلِ.
"أَهُو سَيِّئٌ؟".

"مَثْلُ قَصْفِ جَوِيِّ عَلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ".

"لَا أَعْتَدُ أَنَّ الْأَمْرَ كَانَ فَظِيئِاً إِلَى هَذِهِ الْدَّرْجَةِ". لَقَدْ تَلَقَّى أَبِي بَعْضُ

الضربات هناك وهناك. وثمة شيء يخفيه ساندي ولا يريد التحدث بشأنه قبل سعودي إلى منصة الشهادة مجدداً". ويتردد صدى كلماتها في أذني، "قصف جوي". أفكر فيما سمعته عصر هذا اليوم. فقد كانت مراقبة أبي وهو يُقر مثل بروميثيوس المقيد إلى تلك الصخرة أمراً مؤلماً للغاية، لكنني بعد حديثي مع ساندي، أحسست كما لو أن أبي اختبر طيراناً قاسياً، فهبط في نهايته بأمان؛ خافقاً أكثر منه مصاباً.

"هل تذكرين إذا كانت أمي قد احتست الشراب في تلك الليلة؟". لقد انتهكت القواعد بخصوص عدم التحدث حول القضية مع أنا منذ وقت طويل. فلا بد لي من التحدث مع شخص ما، فضلاً عن أنه ليس ثمة احتمال واقعي بأنها يمكن أن تستدعي إلى الشهادة.

وجدت المحققة ديببي ديماز أنا بعد يومين من زيارتها لي، ولكنني كنت قد حذرت أنا على الفور، وهي تعرف كيف تلعب اللعبة أفضل مني. فطلبت من ديماز أن تقابلها في مكتبها، وجلس واحد من شركائهما الكبار كمحام عنها. وعندما سألتها ديماز حول ما حصل في تلك الليلة قبل وفاة أمي، قالت أنها كانت مرتبكة جداً لقدومها معي للمرة الأولى بصفة حبيبتي بحيث إنها لا تذكر أي شيء بوضوح. وبعد كل إجابة عن أحد أسئلة ديماز، كانت دائماً تضيف قائلة: "لست واثقة"، أو "قد يكون عكس ذلك"، أو "لا أذكر حقاً". ولهذا السبب، توقفت ديماز عن متابعة الاستجواب في منتصفه. بيد أن المحققين وضعوا اسم أنا على لائحة الشهود على الرغم من ذلك، مثل جميع من تحدثت معهم الشرطة خلال تحقيقها الأولى، بمن فيهم الشخص الذي ينطف ثياب أبي بطريقة التنظيف الجاف. إنها لحيلة قديمة لإخفاء هوية من يريدون استدعاءهم للشهادة فعلياً. ونتيجة لذلك، فإنها ملزمة بالبقاء خارج قاعة المحكمة، لكنها متلهفة لسماع ما يحدث فيها.

رداً على سؤالي حول الشراب، تذكّرني أنا بأننا عندما جلسنا لتناول الطعام، أصرّت أمي على أن يقوم أبي بفتح الزجاجة الفاخرة التي جلبتها أنا، وأنه هو من صبَّ بعضاً من الشراب لكل واحد منا. ومع ذلك،

فكلانا لا نذكر بوضوح ما إذا كانت أمي قد رفعت تلك الكأس أو الكأس التي كانت تشربها في المطبخ.

"ماذا بشأن المقبلات، هل أكلت من أي منها؟".

"بالله عليك يا نات. لا أعرف. أعني، الخضروات والمرق، ربما. وأذكر أباك يعرض عليها الصينية بأكملها، ولكنني أعتقد نوعاً ما أنه أخذها إلى الخارج معكما، عندما ذهبتنا للشيء. من يدري؟ كيف تشعر، على أي حال، بعد كل هذا؟".

أقلب يدي في الهواء، ثم أقول: "تعرفين. لقد سمعت كل شيء، ولا يمكنني أن أقول لنفسي إن هذين الشخصين، مولتو وبراند، قد أضاعاً الخطيط، لأن ما يقولانه منطقى. ولكنني مع ذلك لا أستطيع تصديق ذلك". "هذا ما ينبغي عليك فعله". أنا، المعجبة رقم واحد بأبي دائمًا، شديدة الإخلاص في دفاعها عنه. "هذا مستحيل".

"أهو مستحيل؟ هذا لا يعني أن ذلك يخرق قوانين العالم الفيزيائية". وتميل عيناً أنا الخضراوات نحوه. إني لا أسجل النقاط أبداً معها عندما ألعب دور الفيلسوف.

"هذا ليس أباك".

أرن ما قالته للتلو لوهلة ثم أقول: "ادرك أنك عملت معه، ولكن من الناحية الداخلية، فأبى كان يُيقى السادة محكمة الإغلاق". أنا وهي نخوض هذه الحوارات بصورة روتينية، حيث أعبر فيها عن شكوكى فتساعدنى على تبديدها. "أتعرفين؟ ذات يوم، عندما كنت طفلاً - لا بد أننى كنت في الثانية عشرة، لأننا كنا قد عدنا للتلو من ديتزرويت، وأبى كان لا يزال قاضياً عادياً من دون هيئة ملحنين - كنت معه في السيارة في مكان ما. كان يحكم في قضية شغلت وسائل الإعلام كافة في حينه. فزوجة رجل دين محلي في واحدة من دور العبادة الكبرى قتلت زوجها. وتبيّن أن رجل الدين لم يكن سوياً جنسياً. ولم تكن في البداية تعرف ذلك، ولكنها حين علمت، قامت بقتله من خلال اجتنات - تعرفين ماذا - بينما كان نائماً، فنرفق حتى مات".

"أعتقد أن هذا يوضح الفكرة تماماً". تضحك آنا قليلاً. فدائماً تجد الفتيات مثل هذه الأمور مسلية أكثر من الشبان.

"أو أفسدتها. على أي حال، لم يكن هناك الكثير أمام محامي الدفاع ليفعلوه باستثناء الادعاء بأنها كانت مجنونة. فاستدعوا الكثير من الشهود الذين قالوا إن ما فعلته كان أمراً غريباً تماماً عن طبيعتها. فسألت أبي عن رأيه. وكان هذا رائعاً لأنني كنت أعرف أن أبي لا يجيب على هذه الأسئلة مهما كان الشخص الذي يطرحها، فقلت له: هل تصدق أنها مجنونة؟ نظر إليّ وقال: نات، لا يمكنك أبداً أن تتوقع ما يمكن أن يحدث في هذه الحياة، وما يمكن أن يفعله الناس. ولا تسأليني لماذا، لأنني كنت أعرف يقيناً أنه كان يتحدث عما حدث له قبل بضع سنين".

"لم يقل إنه كان قاتلاً".

"لا أعرف ما كان يقوله. وكان ذلك غريباً إلى حد كبير. فبدأ لي وكأنه كان يحدّرني من شيء ما".

توقف تحت جسر نيرينغ، حيث تتحول المسارات الثلاثة إلى اثنين فقط، وتتجدد حركة المرور في ساعة الذروة كل ليلة. فمنذ سنوات، كان لي صديق يدعى أنه يعرف نظرية النسبية ويقول: "إن كل كائن حي يترك صورة عنه بصورة دائمة. ولو تمكنا يوماً من تجاوز سرعة الضوء، فسيكون باستطاعتنا إرجاع الزمن إلى الوراء ومشاهدة أية لحظة في الماضي، مثل مشاهدة فيلم صامت ثلاثي الأبعاد". وغالباً ما أسئل في نفسي كم يمكنني أن أدفع لقاء فعل ذلك، لمشاهدة فقط ما حدث في منزل والدي في الساعات الست والثلاثين التي تلت مغادرتنا أنا وأنا. وأحاول أن أتصور ذلك بين الحين والآخر، ولكن شيء الوحيد الذي يخطر في ذهني هو صورة أبي وهو جالس على ذلك السرير.

"ساندي لا يزال يعتقد أن أبي بريء".

"هذا جيد. وكيف تعرف؟".

"سألته. وكنا نحضر لشهادتي فسألته عن رأيه. بالطبع، ماذا يمكن أن يقول لابن موكله؟".

"لا تخبره أنك إذا كنت لا تصدق ذلك، فإنك ستسكت وتتجنب السؤال". فانا محامية متدرية منذ سنتين فقط، ولكنني أقبل نصائحها في هذه المسائل من دون أي تردد. "ولا بد من أن يعني لك شيئاً ما بأن الأشخاص الذين يعرفون أفضل من الجميع بخصوص الأدلة ما زالوا واثقين في أبيك".

أرفع كتفي، ثم أقول: "لدى ساندي فكرتك نفسها بخصوص الحمض النووي من القضية الأولى". أعرف مما سمعته سابقاً أن ريموند هورغان، الذي كان عازباً في ذلك الحين، كان يواعد المرأة التي قتلت. ولا بد أن يكون المشتبه فيه - في حال لم يكن أبي - وخاصة عندما تأخذ بعين الاعتبار أنه انقلب على أبي وشهد لصالح مولتو آنذاك. ولكن قد تعتقد أن أبي لا بد وأنه أدرك ذلك. بيد أنه أصلح العلاقة مع ريموند الذي أصبح المدافع القوي عنه منذ ذلك الحين، في محاولة منه للتعويض.

أبقي كل هذا لنفسي. ويتنايني شعور سيئ دائماً عندما أذكر ريموند أو ما حدث بينه وبين أنا. وفي بعض الأحيان، أفكر في أن أبي كان بدوره مرتبطاً بعلاقة مع امرأة خلال الفترة نفسها. وإلى جانب كل الأفكار الأخرى غير المكتملة التي تدور في ذهني، جعلني هذا التزامن أفكراً مرة أو مررتين فيما إذا كنت قد أخطأت في التقدير، وأن أبي هو الرجل الذي كانت أنا تقابلـه، إلى أن استعدت وعيي مجدداً وأدركت أنـنا لم نكن لنجتمع إذا كان ذلك صحيحاً. وبدلـاً من ذلك، أحـاول التفكير في ما يحدث للرجال في أواسط العمر. لأنـ من الواضح أنـ عقولـهم تضعف في الوقت نفسه مع مؤخرـاتهم وبروتـستـاتهم.

"شكراً لك لقيامك بهذا". أقول لأنـا عندما نصل إلى بـاب منزل والـدي.

تردـ علىـ بـعنـاقـ صـغـيرـ. لقد رافقـتـيـ آـنـاـ فيـ عـدـدـ مـنـ هـذـهـ زـيـاراتـ الصـغـيرـةـ. وـتـواـجـدـيـ هـنـاـ يـخـيـفـنـيـ تـمـاماـ -ـ مـنـظـرـ الجـريـمةـ المـزـعـومـةـ -ـ حـيـثـ الـحـقـيقـةـ بـأـكـمـلـهـاـ مـدـفـونـةـ فـيـ الجـدـرـانـ،ـ وـالـسـيـائـرـ مـسـدـلـةـ جـمـيعـهـاـ لـمـعـنـعـهـ الـكـامـيرـاتـ الـفـضـولـيـةـ،ـ وـتـفـوحـ مـنـ الـمـكـانـ -ـ حـالـماـ نـصـبـحـ فـيـ الدـاخـلـ -ـ

رائحة شيء قلي منذ بضع ساعات فقط.

المحاكمة صعبة على كلينا، بل في الواقع، كل شيء كان صعباً خلال الأشهر التسعة الماضية، وفي بعض الأحيان أشعر بشيء من الاندهاش لأننا ما زلنا معاً. ومررت علينا أمسيات لم يكن بإمكانني - أو لم أكن أرغب - التحدث فيها. أما النقاشات المتكررة التي جريها حول أبي والمحاكمة فهي غالباً ما تكون متضاربة، ما يعني بأنني أخرج في نهايتها غاضباً منها.

أضف إلى كل ذلك معوقات الحياة الروتينية. فلا يزال التطور بطيناً في المؤسسة؛ على الرغم من أن الشركاء يعتمدون عليها كثيراً لإنجاز ما هو متوافر من أعمال. وثمة أيام كاملة تمر من دون أن أراها فامضيها مستذكرة انسمامي إليها في السرير في منتصف الليل. ولكنها تحب كل هذا وتقول لي باستمرار إنها، بسيبي أنا، واقفة بأنها تفعل ما تريد فعله. إنني أعيش اللحظات التي أكون فيها متوجهاً للقائهما فأراها قبل أن ترااني. إنها جميلة ومتألقة وتمشي في شوارع مركز المدينة بخطوات واسعة، وبثقة مطلقة.

أما أنا، فإنني أشبه بشخص مُلقى وسط بحر. لا أعرف ما إذا كنت سأعمل في اليوم التالي أم لا؟ ما زلت أعمل كمدرس إضافي في ثانوية نيرينغ، ولكن ليس أثناء المحاكمة، وقد تمكنت من تأجيل بعض القرارات المتعلقة بمهنتي في مجال القانون، بما أنني أكثر ثراءً بكثير مما كنت أعتقد؛ بعد انتقال أموال جدي لأمي إلى بعد وفاة أمي. نصعد السلم وندخل المنزل، ونبقى للحظات خارج غرفة والدي، بجانب باب غرفة البحث الصغيرة حيث كان حاسوب أبي يقع قبل أن يصادره تومي مولتو.

أقول لها: "بذا ذلك سينأ حقاً اليوم". كما يحدث دائماً، تكون كلماتي غامضة جداً بحيث يصعب عليها فهم مقصدي، فأضطر للشرح لها كيف كان وقع الرسائل الإلكترونية المهدوفة والبحث في شبكة الإنترنت عن الفينيلزيرين في قاعة المحكمة.

"ظننت أن هانز وفرانز سيشهدان بأنه ربما لم تكن هناك أي رسائل إلكترونية محفوظة".

هانز وفرانز هو اللقب الذي نطلقه على خبيري الحاسوب للذين استخدمنا شتيرن من أجل مواجهة الدكتور جورفيتيش ، أستاذ علم الحاسوب الذي يعمل لصالح الادعاء . إنهم بولنديان في أواخر العشرينيات من عمريهما ، واحد طويل والأخر قصير مع تسمية شعر واحدة لكليهما؛ تسمية شبيهة بالقنفذ . إنهم يتحداون بسرعة خيالية ولا تزال لكتابهما واضحتين تماماً . ويعتقد هانز وفرانز أن الدكتور جورفيتيش - أستاذهما السابق - مجرد أداة ، ويستمتعان بالسخرية من استنتاجاته . ومع ذلك ، فمن خلال تعليقاتهما الجانبية أشعر بأن جورفيتيش محق فيما يتعلق بتنصيب برنامج خاص لإزالة بعض الرسائل الإلكترونية بشكل نهائي . تهز آنا رأسها بينما أشرح لها ، وبعد انتهاءي من الكلام تقول : "لا أصدق أي اختبارات تخرج من مكتب مولتو . كما تعلم ، لقد أصبح راسخاً تماماً أنه لعب بالأدلة في المحاكمة الأولى".

"لا يمكنني أن أصدق أنهم يمكن أن يفعلوا ذلك".

تضحك آنا ثم تقول : "أحد الأشياء القيمة القليلة التي قالتها لي أم زوجي هي : لا تندهنسي أبداً عندما تجدين أن الناس لا يتغيرون".
وفي غرفة النوم ، نضحك قليلاً بينما ننظر إلى ربطات العنق في خزانة أبي . فلا بد أن عددها يبلغ خمسين ، وكلها متشابهة ، فهي حمراء أو زرقاء ، مع بعض التصاميم أو الخطوط . وربطة العنق البنفسجية التي طلبتها مني تبرز واضحةً مثل رودولف الوعول ذي الأنف الأحمر . وأجلب كيساً من النايلون وبعض المناديل الورقية من الطابق السفلي ثم نقوم بطي الربطات على سرير والدي .

"هل تريدين أن تسمعي شيئاً سيجعلك تستغربين تماماً؟ عندما كنت أنا وبالوما في المدرسة الثانوية ، كنا نتسلل إلى منزلها لفعل شيء تعرفين ما هو على ما أعتقد عندما يكون أبوها في العمل ، وهي كانت تظن ، لسبب ما ، أن القيام بذلك على سرير والديها أمرٌ مثيرٌ إلى أقصى الحدود".

تبتسم آنا قليلاً وهي تحرك رأسها ببطء إلى الجانبين. ومن الواضح أن هذا لا يبدو سيناً بالنسبة إليها.

"وفي الحقيقة، مجرد التفكير في ذلك الآن يصدمني. ولكن، كما تعرفين، عندما تكونين في سن السابعة عشرة فإنك تودين القيام بذلك في أي مكان. ولكن، بالطبع، وجدنا نفسينا ذات مرة هنا، فاقترحت علىي فعل ذلك على هذا السرير. وكان ذلك كثيراً عليّ. أعني، لم أستطع فعل أي شيء. صفر".

"هل هذا تحد؟". تقول آنا ثم تقترب مني وتبدأ بإغواتي. فأشعر بالإثارة على الفور، لكتني أبتعد عنها.
"إنك فتاة غير طبيعية تماماً".

تضحك ثم تعود إلى مجدداً: "هل أقول لك إنني أتحداك؟".

لقد أنهت وفاة أمي تلك المرحلة الممتعة التي كنا نمارس الحميمية فيها طوال الوقت، واستهلت مرحلة ممتعة أخرى نمارس فيها الحميمية معظم الوقت. فالحميمية تربط وتنسي، وهذا ما جعلنا نستمر معاً. ولكن، بعيداً عن رغبات أنا فوق الطبيعية، فإن القيام بالفعل الحميمي على السرير الذي توفيت عليه أمي أمر لا أقدر عليه أبداً، لذا أجذبها من يدها وأسير بها في الممر نحو الغرفة التي نمت فيها طوال خمسة وعشرين عاماً. وفي هذه الغرفة اختبرت نفسي للمرة الأولى، برفقة نفسي، في سن الثالثة عشرة، وفيها قمت بالفعل الحميمي للمرة الأولى؛ في الحقيقة، مع شقيقة مايك بيري. وأفكر في جولة ثانية عندما تنہض آنا فجأة.

"آناجائعة. دعنا نذهب". تتفق على تناول السوشي في مطعم محترم يقع في طريق عودتنا إلى المدينة.

نأخذ ربطات العنق ونخرج من المنزل خلال بضع دقائق. وعندما نصبح في السيارة، أشعر بوطأة كل ما يجري تعود لتنقل على كاهلي من جديد. هذه هي مشكلة الحميمية. مهما أطلت مدتها، فسيظل هناك ما يليها. "أتمنى لو تستطيعين المجيء لحضور شهادتي. يمكن أن يطلب شتيرن ذلك من محامي الادعاء، أليس كذلك؟".

تفكر في ذلك لثانية واحدة قبل أن تهز رأسها ثم تقول: "لا أظن أنها فكرة سديدة. إذا كنت موجودة هناك وانتهى بك الأمر وأنت تتحدث عما حدث في تلك الليلة، فلا بد أن شخصاً ما سوف يقف من وراء طاولة الادعاء ويسألني عما أذكره عن تلك الليلة أيضاً".

منذ البداية، كانت أنا تخشى أن تقول أي شيء يمكن أن يضر بأبي. وفي الحقيقة، يمكن لأي شيء أن يفعل ذلك. إن النزد اليسير الذي تذكرته هذه الليلة حول أبي وهو يصب الشراب لأمي على مائدة العشاء ويعرض عليها صينية من المقللات المحملة بالتiramis، سيستقبله براند ومولتو بفرقة نحاسية كاملة. ولهذا السبب، اتفق الجميع - شترين ومارتا وأبي - على أنه من الأفضل أن تبقى أنا واحدة من الشهدود الذين يخشى كلا الجانبين استدعاءهم.

"أحد الأشياء التي قالها لي ساندي اليوم هو أنه لم يكن يريد أن يدللي أبي بشهادته".

"أقال ذلك حقاً؟".

"كان يخشى أن يساعد ذلك مولتو على وصل النقاط ببعضها أمام المحلفين. وكان يعتقد أن هناك احتمالاً بعيداً بأن يغير بي حكمه بخصوص العلاقة ويسمح لمولتو بالنطريق إليها. وهو ما حاول القيام به".

"أنت تمزح!".

"لم أستطع حتى الجلوس هناك والاستماع إلى النقاش. أتعرفين؟ ما زلتأشعر بالغضب كلما تذكرت ذلك".

"أنا لست في مكانك، ولقد قلت لك ذلك من قبل. ولكن، عاجلاً أم آجلاً، ستتخطى الأمر".

هذا نقاش قديم، وهو يعودني دائماً إلى الاقتناع مجدداً بأن تلك العلاقة صلة بوفاة أمي.

"كان ذلك غباء مطلقاً، وأنانية مطلقة، ألا تعتقدين ذلك؟".

"صحيح. ولكن، إليك ما أعتقده حقاً. الشخص الذي قاتلته ووقع في حبه. ذلك الشخص...؟".

"أقصدين الشاب الفائق الروعة؟".

" تماماً. ذلك الشاب الفائق الروعة كان موظفاً قانونياً متدرجاً في المحكمة العليا في الولاية. والذي تصادف أنه المكان نفسه الذي كان والده مرشحاً له. وذلك الشاب الفائق الروعة اعتاد أن يذهب إلى العمل في المحكمة العليا حاملاً المخدرات في جيده، على الرغم من أنه إذا اكتُشف أمره، فإن ذلك سيُنشر على الصفحات الأولى. وعلى الرغم من أن ذلك كان يمكن أن يؤدي إلى فقدانه عمله، ورخصته لمزاولة المهنة بعض الوقت؛ ربما خسارة الانتخاب بالنسبة إلى والده".

"حسناً، لكنني كنت في حالة بائسة جداً".

"وكذلك كان أبوك، ربما. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفتاة. فأنا أفهم أن أبيك خير أملاك. لكننا جميعاً نقوم بأشياء غريبة وغير قابلة للتصديق بين الحين والآخر، ونؤذى الأشخاص الذين نعتقد أننا نحبهم. وإذا كان هناك شخص يقوم بذلك طوال الوقت، فلك كل الحق في أن تحقد عليه، لكننا جميعاً نقع في الخطأ في لحظات معينة. أنت لا ت يريد أن تسمع كل الأشياء الغبية التي قمت بها".

"أكيد". اثنان من قصص أنا كانتا كافيتين. لقد أمضت وقتاً طويلاً في البحث عن الحب في جميع الأماكن غير الصحيحة. "ولكن، يبقى هناك فرق بين الأشياء الغبية التي تفعلينها عندما تكونين شابة، وبين الأشياء الغبية التي تفعلينها عندما تكونين أكثر نضجاً".

"هذا مناسب تماماً، ألا تعتقد ذلك؟".

"لا أعرف ماذا أعتقد". تتشوش الأضواء المتلائمة على جسر نيرينغ. وأشعر بأنني سأبكي. "أنا أكره هذا، أكره كل هذا الوضع اللعين".

"أعرف يا حبيبي".

"أكرهه كله".

"أعرف".

"لنعد إلى المنزل. أريد الذهاب إلى المنزل".

الفصل الثلاثون

تومي، 23 حزيران، 2009

يوم آخر في قاعة المحكمة. من الواضح أن الدفاع حشد كواحد كلها. وعلى الرغم من اليوم الصعب الذي واجهه في الليلة السابقة، بدا على راستي الهدوء عندما وصل إلى القاعة، حتى إنه كان يضع ربطه عنق جديدة، بنفسجية وأنثقة، بدت وكأنها تُظهر أن معنوياته لم تتأثر. وكان ساندي يصدر توجيهاته من كرسيه، كما لو أنه كان عرشاً، ومارتا وبقية أفراد طاقم مؤسسة شتيرن كانوا يحومون في المكان.

توقفت مارتا أمام طاولة الدفاع. يبدو أن التقدم بالسن يأتي في صالح بعض الأشخاص. عندما بدأت مارتا بالتدريب مع ساندي، كانت أشبه بابريق شاي يغلي. فهي حادة المزاج ومثاررة دائماً. ولكنها هدأت كثيراً بعد أن أصبحت زوجة ومن ثم أمّا. فما زال بوسعها الانتفاخ في وجهك، ولكن ليس من دون سبب عادة. وبعد ولادتها ابنتها الأخير، فقدت نحو خمسة عشر كيلوغراماً، وحافظت على هذا الوزن منذ ذلك الحين. وفي الواقع، بالنسبة إلى مزاجها الحاد وكونها ابنة رجل ليس وسيماً جداً، فقد كانت مارتا جذابة حقاً، ومحامية بارعة أيضاً. صحيح أنها لم تكن استعراضية مثل والدها، لكنها كانت ذكية وقوية العزيمة، مع الكثير من حكمة ساندي الحدسية.

قالت لتومي: "نريد استخدام حاسوب راستي. ربما هذا المساء". لوح تومي بيده بنبل، وكان ذلك لا يعني له شيئاً، وكان أساليب الدفاع مزعجة، ولكن بطريقة تافهة مثل إزعاج البعوض. ولكنها عندما

النفقة مبتدأة عنه، دون في كراسته "حاسوب؟؟؟"، ورسم عدة خطوط تحت الكلمة. ونظراً للتدمير الذي تسبب به دليل الرسائل الإلكترونية المهدوفة والبحث في الإنترنط لجهة الدفاع، ركز الادعاء على جلب حاسوب راستي إلى المحكمة كل يوم في الغلاف البلاستيكي الزهري اللاصق الذي لف فيه منذ استعادته من القاضي ماسون في كانون الأول الماضي. وكان يقع على طاولة الادعاء كل يوم، أمام المخلفين مباشرة. مع جلبة تشبه جلبة قطار عابر، وصل براند مع عربته، ومن خلفه روري، وروتا المساعدة القانونية.

"من تكون بحق الله؟". قال براند بهمس عندما وصل إلى طاولة الادعاء.

لم يعرف تومي من التي كان براند يقصدها.

"هناك لاتينية قصيرة في قاعة الانتظار. أعتقد أنك ربما رأيتها".

وأشار براند إلى روري كي تقرب وطلب منها الذهاب ومعرفة ما يمكنها معرفته. وبعد ذهابها، ذكر تومي مسألة الكمبيوتر.

قال براند: "أيريدون تشغيله؟".

"قالت نستخدمه".

" علينا أن نتحدث إلى الدكتور جورفيتيس. فأنا أشعر بأن تشغيله سيخرّب كل شيء".

هزَّ تومي رأسه غير موافق، لكن براند لم يكن سعيداً بذلك.
"أيها الرئيس، لا يفترض أن يجري الأمر على هذا النحو. فالضغط على زر التشغيل سيحدث تغييرات في القرص الصلب".

"جيمي، هذه ليست مشكلة. إنه حاسوبه. ونحن من وضعناه كدليل. وبي لن يصغي إلينا إن أخبرناه بأنهم سيقومون بعملية محاكاة. وإذا أرادوا أن يبيّنوا للمخلفين شيئاً ما على الحاسوب، فنحن لا نستطيع أن نمنعهم من تقديم عرض باستخدام دليل فعلي".
"عرض ماذا؟".

"لم أحصل على هذه المعلومة".

عادت جيسلينغ حاملة بيدها بطاقة، فتجمع الأربعة حولها. روزا بيلانكويز، وهي مديرة خدمة الزبائن في فرع مصرف فيرست كابنديل في نيرينغ.

قال براند: "ماذا ستقول؟".

قالت روري: "تقول إنها موجودة هنا فقط لتشهد بخصوص السجلات". هذا لم يكن يعني أي شيء بالنسبة إلى أي منهم، فجميع السجلات التي استخرجتها روري من البنك في الخريف الماضي قد تم استبعادها من الأدلة بسبب صلتها بعلاقة راستي الغرامية. والاستثناء الوحيد هو الشيكات المضمونة التي أرسلها راستي إلى برايم دانا. نظر براند إلى تومي. هذا ما قاله تومي في الليلة السابقة. شتيرن كان يحضر الشيء ما.

قال براند: "ماذا لو أخفاها؟ لنقل لها إن شهادتها تنتهك مذكرة التسعين يوماً".

"جيسي!". لم يستطع تومي أن يخفض صوته بما يكفي، فإذا بشتيرن ومارتا ونات يحدقون فيهم. وكانت فكرة براند خطيرة وغبية. فأول شيء ستفعله روزا هو أنها ستأتي إلى شتيرن وتسأله، وهو سيذهب بدوره إلى القاضي ويتهم الادعاء بالإعارة. إن الإدلاء بالشهادة لا علاقة له بمذكرة التسعين يوماً.

ومع تقدم المحاكمة أصبح براند أكثر حدة. فقد كان النصر في مرمى النظر، وحقيقة أن إمكانية فوزهم في قضية بدت مثل رهان سبيئ منذ البداية زادت من تسرُّع براند بصورة غير صحيحة. وفي الواقع، فإن مستقبل تومي، وإرث تومي، هما المهددان. لكن جيمي كان مثل رجل ساموراي، إذ كان يعتبر مصالح تومي أشد أهمية من مصالحه الخاصة. هذا الجزء كان مؤثراً. بيد أن مزاج براند كان نقطة ضعفه الكبرى كمحام، وهي كانت كذلك دائماً. انتظرَ تومي - كما يفعل دائماً - حتى يستعيدُ جيمي توازنه.

قال براند: "آسف، آسف. أنا فقط لا أعرف ما ينوي شتيرن فعله".

صاحب الحاجب: "لِيقَفُ الْجَمِيعُ". وجاء بي قادماً من الباب الواقع
خلف سدة القضاة.
رَبِّتْ تَوْمِي عَلَى يَدِ بِرَانِدْ قَائِلاً: "سَتَعْرَفُ بَعْدَ قَلِيلٍ".

الفصل الحادي والثلاثون

نات، 23 حزيران، 2009

يأخذ أبي ربطه العنق البنفسجية ويعقدها ، مستعيناً بمرأة حمام الرجال ، ثم يلتقت إلى طالباًرأي فيها .
أقول : "متازة".

"شكراً لك مرة أخرى". نحدّق في بعضنا لوهلة فيرتسم على وجهه تعبر بؤس مكبوت ، "يا له من وضع مزر لعين!".
"هل رأيت فريق ترابس ليلة البارحة؟".

يقول بخيبة أمل: "منى سيلعبون مباراة ينافسون فيها؟". ينظر إلى نفسه في المرأة مرةأخيرة ثم يضيف: "حان وقت الرقص".
ينتظر أبي المهم دائمًا بالرسميّات في المحكمة حتى يطلب منه القاضي بي استئناف شهادته قبل أن يجلس على مقعده تحت الحاجز الجوزي ، وذلك كي يتمكّن المحلفون من مراقبته وهو يفعل ذلك. شترين ومارتا ومينا ، المستشاررة في شؤون هيئة المحلفين ، يعتقدون جميعاً أنهم حصلوا على مجموعة رائعة. وكانوا يريدون أشخاصاً سوداً من المدينة ورجالاً بيضاً من الضواحي بحيث يمكنهم تفهم وضع أبي ، وتسعة من مجموعة الاثنين عشر محفلاً الأولى يشغلها أشخاص من كلتا الفنتين . وأرافق بحرص كي أرى ما إذا كان أي منهم راغباً بالنظر إلى أبي بعد الهزيمة التي تلقاها البارحة. فيفترض أن تكون هذه إشارة إلى تعاطفهم ، وأشعر بغبطة كبيرة لرؤيه اثنين من الأميركيين من ذوي الأصول الأفريقية يتسمان له ويحبان رأسيهما قليلاً بينما هو يجلس في

في هذه الأثناء، يستخدم ساندي الطاولة ودعماً من مارتا لينهض ببطء على قدميه. والطفح الجلدياليوم أفضل بكثير من البارحة.
"الآن، يا راستي، البارحة عندما كنت تجيب على أسئلة السيد مولتو، بيّنت له عدة مرات أنه كان يطلب منك التخمين بخصوص أشياء مختلفة، وبخاصة سبب وفاة زوجتك. فهل تذكر تلك الأسئلة؟".
قال مولتو: "اعتراض". لكن القاضي بي رفض اعتراضه.
"راستي، هل تعرف بصورة أكيدة كيف توفيت زوجتك؟".
"أعرف أنني لم أقتلها. هذا كل ما في الأمر".
"هل استمعت إلى الأدلة؟".
"بالطبع".

"إذا، أنت تعرف أن طبيب التشريح قرر في البداية أنها ماتت ميتة طبيعية".
"صحيح".

"وأنت والسيد مولتو ناقشتما احتمال أن تكون زوجتك، في ظل سعادتها البالغة لزيارة ابنكما وصديقه الجديدة لتناول طعام العشاء، قد تناولت جرعة زائدة من الفينيلزين".
"أذكر ذلك".

"وقد تحدثتما أيضاً حول احتمال أن تكون قد أخذت جرعة اعتيادية من الفينيلزين، وتوفيت بطريق الصدفة بسبب تفاعل مميت مع شيء ما أكلته أو شربته".
"أذكر".

"راستي، بما أن السيد مولتو قد سألك، أي واحدة من هذه النظريات حول طريقة وفاة زوجتك - أسباب طبيعية، أو جرعة زائدة بشكل عرضي، أو تفاعل دوائي - أي منها تبدو متعارضة مع الأدلة؟".
"ليس تماماً. كلها تبدو معقوله".

"ولكن، هل تملك يا سيدتي تصوّراً مستنداً إلى الأدلة حول طريقة

وفاة زوجتك؟ تصوراً، بالاستناد إلى جميع الأدلة، يبدو الأكثر احتمالاً بالنسبة إليك؟".

يقول مولتو: "اعتراض. إنه يطلب رأياً من الشاهد، وهو ليس مؤهلاً لإعطائه".

ينفر القاضي بقلم رصاص على المنضدة مفكراً فيما قاله مولتو، ثم يقول: "هل هذه نظرية الدفاع؟".

يجيب شتيرن: "أجل سيدى الرئيس. من دون استبعاد الاحتمالات الأخرى، فهذه هي نظرية الدفاع فيما يتعلق بكيفية وفاة السيدة سابيتتش".

يُمنَح المتهمون حرية خاصة في تقديم فرضيات براءتهم.

يقول القاضي بي: "حسناً، الاعتراض مرفوض. تابع".

يقول أبي: "بالطبع". يأخذ ثانية لتعديل جلسته، وينظر مباشرة إلى المحلفين، وهذا شيء لم يكن يفعله إلا نادراً في السابق. "وأعتقد أن زوجتي قد قتلت نفسها بواسطة جرعة زائدة متعمدة من الفينيلزين". في المحاكم، بحسب ملاحظتي، يمكنك قياس مستوى الصدمة من خلال الصوت. وأحياناً تُنتَج إجابة معينة ضجيجاً يشبه أزيز خلية نحل. وفي أحيان أخرى، مثل هذه المرة، يعقب الإجابة صمت مطبق. فلا بد من أن الجميع هنا يفكرون. ولكن، في داخلي، تخرج هذه الإجابة خوفاً مدفوناً منذ وقت طويل في الجزء الأشد ظلمة من قلبي. وأعرف على الفور، مع شعور بالارتياح الصامت، أنها الحقيقة المطلقة.

يقول ساندي: "بالتأكيد أنت لم تقل هذا للشرطة".

"كنت أعرف جزءاً يسيراً مما أعرفه الآن".

يقول ساندي: " تماماً". يمسك بزاوية طاولة الدفاع ويدور خطوة أو اثنتين حول قبضته، ثم يضيف: "ألم تكن هناك أي رسالة يا راستي؟". "لا. أعتقد أن باربارا كانت تأمل أن يبدو موتها طبيعياً".

"كما استنتج طبيب التشريح في البداية تماماً".

يقول مولتو: "اعتراض". يقبل بي الاعتراض لكنه يتسم قليلاً إعجاباً بفن ساندي.

"ولماذا ترید السيدة سابيتش أن تحجب حقيقة أنها قتلت نفسها
برأيك؟".

"من أجل ولدي ، باعتقادي ".

"وبالنسبة إلى ولدك ، فهل تقصد هذا الشاب الوسيم الجالس في
الصف الأمامي؟".

"أجل". يبتسם أبي لي ، من أجل المخلفين ، فأجده لرسم ابتسامة
بالمقابل .

"ولماذا ترید زوجتك ألا يعرف ابنتها أنها قتلت نفسها؟".

"نات هو ابنا الوحيد. وأعتقد أن ابني سيكون أول من يقول إنه
عاني كثيراً في نشأته. إنه رجل رائع ويعيش حياة رائعة الآن. ولكن
أمه كانت شديد التعلق به وتبالغ جداً في حمايته. وأنا واثق أنها أرادت
وضع حد للمعاناة والضرر بالنسبة إلى نات بإنتهاء حياتها بهذه الطريقة".
يكفي ساندي بهز رأسه ببطء ، وكأن هذا التفسير منطقي بالنسبة
إليه ، كما هو بالنسبة إلى . أنا وأبي وأمي نعلم أن اكتئابي الخاص موروث
من اكتئاب أمي ، ولهذا السبب لم تشا أمي أن أعرف أنها لم تكن قادرة
على الاستمرار في الحياة . وسيكون ذلك توقعاً قاسياً جداً بالنسبة لي .

"راستي ، على حد علمك ، هل لزوجتك تاريخ في محاولات
الانتحار؟".

"بسبب عمق اكتئاب باربارا ، كان الدكتور فولمان ينصحني دائماً
بإبقاء عيني مفتوحتين . أجل ، أعلم بمحاولة واحدة وقعت في أو آخر
الثمانينيات عندما كنت وباربارا منفصلين ".

يقول مولتو: "إذاً ، حدث ذلك عندما كانا منفصلين ، ولا يمكن
للقاضي سابيتش أن يشهد على أساس المعرفة الشخصية".
يقول القاضي بي: "مقبول".

يهز ستيرن رأسه موافقاً ثم يقول: "إذاً ، سنجتر لاستدعاء شاهد
آخر".

يقف مولتو مجدداً ويقول: "الاقتراح نفسه ، سيد الرئيس . هذا لم

يُكن سؤالاً بل توجيهها من قبل الدفاع".

يُبتسِم بي ابتسامة كبيرة تكشف عن أسنانه الصغيرة، ثم يقول: "يا شباب، يا شباب".

يقول شتيرن: "سحب السؤال".

خلال هذه المسرحية الجانبية، ينظر والدي إلى مجدداً. وأعرف الآن لماذا كان يعتذر البارحة. إن الانتقال إلى ديترويت عندما كنت في العاشرة لم يسعد أمي قطّ، بصرف النظر عن آمالها. وكما يفعل الأطفال دائماً، عرفت أن ثمة مشكلة كبيرة وقعت. وكنت أرى كوابيس متكررة، وأستيقظ فأجد الفراش في حالة فوضوية وأصرخ منادياً أمي. وأحياناً كانت تأتي، وفي أحيان أخرى كنت أضطر للنهوض لأجدها. وغالباً ما كنت أجدها جالسة في الظلام في غرفة نومها، شاردة الذهن بحيث كانت تستغرق عدة ثوانٍ لتراني واقفاً أمامها مباشرة. وفي إحدى الليالي، لم أتمكن من إيجادها، فانتقلت من غرفة إلى أخرى وأنا أصرخ باسمها إلى أن فكرت في الحمام. فكانت هناك مستلقية في حوض مليء بالماء. وكانت لحظة لا تنسى. صحيح أنتي لم أكن معناداً كثيراً على رؤية أمي عارية في عمري آنذاك، لكن هذا لم يثر انتباхи قطّ بقدر ما أثارته رؤية ذلك المصباح الصغير في يدها، والذي كان موصولاً بالقبس بواسطة شريط كهربائي طویل.

أريد أن أقول إنني وقفت هناك دقيقة كاملة، لكنني واثق بأن الفترة كانت أقل من ذلك بكثير، ربما بضع ثوانٍ، لكنني أحسست بأنها انتظرت طويلاً جداً قبل أن تنتبه إلى وتعود إلى الحياة.

قالت لي حينئذ: "كل شيء على ما يرام. كنت أريد أن أقرأ فقط". قلت: "لا، هذا ليس صحيحاً".

"كل شيء على ما يرام، أردت فقط أن أقرأ، نات".
بكين بحرقة ويأس. فوقفت عارية تريد أن تعانقني، لكنني توجهت مباشرة إلى الهاتف لأنصل بأبي. وخلال بضعة أيام، شخصت حالة أمي بأنها اكتئاب ثنائي القطب. حينئذ، بدأ طريق عودتي إلى أبي، إلى

العائله، إلى حياتي السابقة. غير أن تلك اللحظة لم تخفي من مخيلتي تماماً في كل المرات التي جمعتني وأمي معاً.

"هل سبق وتحدثت مع زوجتك حول حقيقة أنها كانت تميل إلى الانتحار؟".

"اعتراض. أقاويل".

"هل سبق وتحدثت مع زوجتك حول إمكانية أن تقدم على الانتحار؟".

يعبس مولتو. لأسباب لم أتمكن من فهمها قط في كلية الحقوق، يُعتبر ما قالته أمي حول الماضي بمثابة أقاويل، وما قالته بخصوص المستقبل غير ذلك.

"عندما بدأنا نعيش معاً مجدداً في أواخر الثمانينيات، أكدت لي مراراً أنها لن تفعل ذلك بنات مرة أخرى؛ أي أنه لن يواجه مثل هذا الموقف مرة أخرى". هذا صحيح، لأن أمي قطعت لي هذا الوعود مئات المرات.

"هل كان نات يعيش في المنزل في العام الماضي عندما توفيت باربارا؟".

"لا".

"وهل وعد زوجتك بخصوص نات يعزز أيضاً قناعتك في السبب الذي جعلها تفضل أن يجعل انتحارها يبدو موتاً طبيعياً؟".

"صحيح".

"على حد علمك، راستي، هل قامت باري بارا بأي محاولة للانتحار عندما كنتما تعيشان معاً؟".

"لا".

"وعلى هذا الأساس، لم تكن لديك خبرة في السلوك الخارجي الذي يمكن أن تسلكه زوجتك إذا كانت عازمة على الانتحار، أليس كذلك؟".

"صحيح".

"ولكن، إذا كان سلوكها يُظهر عزمها على القيام بهذا الفعل بكل

وضوح ، فماذا كنت ستفعل؟".

يقول مولتو: "اعتراض ، تخمين".

يكمل ساندي: "هل كنت ستحاول إيقافها؟".

يجيب أبي: "بالتأكيد".

يقول يي: "مقبول ، مقبول".

السؤال الثاني والإجابة أقحما بسرعة قبل أن يتمكن القاضي بي من الحكم على الاعتراض.

"إذا ، إذا كانت باربارا قد عزمت على قتل نفسها ، يا راستي ، فإنها كانت مضطربة لإخفاء ذلك عنك وعن ابنكما ، أليس كذلك؟".

يقول مولتو بحدة: "حضررة القاضي!".

يلتفت أبي بسرعة باتجاه مولتو ويجيب: "نعم؟". ثم يرجع إلى وضعه السابق متدهشاً من خطئه ، قائلاً: "يا الله!".

القاضي بي ، الشخص المرح بطبعه ، يضحك من كل قلبه ، وتشاركه في ذلك القاعة بأكملها . ويستمر الضحك لبعض الوقت ، وفي النهاية يلوح بي بإصبعه لشتينر ، ويقول: "يكفي سيد شتينر . توضّحت الفكرة لنا كلنا".

يرد شتينر بانحناءة صغيرة قبل أن يكمل .

"هل كانت زوجتك على معرفة - على حد علمك - بقضية جون هارناسون؟".

"لقد تحدثنا حول القضية عندما كانت مرفوعة أمامي وفيما بعد أيضاً . وكانت مهتمة لأنها قرأت مسار القضية في الصحف ، وكذلك لأنني وصفت لها كيف تحرّش بي السيد هارناسون بعد المناقشة الشفهية . وبالطبع ، خلال الأسابيع القليلة التي سبقت وفاة باربارا ، كان السيد هارناسون موضوع الإعلانات التلفزيونية التي كانت تُبثّ من قبل منافسي في الانتخاب للوصول إلى المحكمة العليا في الولاية . وأنا أعرف أن زوجتي رأت الإعلانات لأنها تذمرت كثيراً أمامي بخصوصها".

"هل قرأت السيدة ساينتشر قرار المحكمة في قضية هارناسون؟".

"أجل. نادراً جداً ما أبدي رأياً معارضًا. وباربارا لم تكن تهم كثيراً بعملي، ولكن كما قلت سابقاً، كانت تتبع القضية وقد طلبت مني جلب نسخة عن القرار إلى المنزل".

"ولاستعراض الحكم السابق المرفق بالأدلة، ينافش القرار حقيقة أن أدوية معينة، بما فيها مثبطات إنزيم أوكسيداز أحادي الأمين، لا تغطي ضمن التحليل الروتيني للمواد السامة، أليس كذلك؟".

"صحيح".

يتحول شتيرن عندئذ إلى مواضيع أخرى. فيشرح أبي مطولاً بعض الشيء أنه وأمي أنها انفصالهما عام 1988 باتفاق يقضي بأن تداوم على أدويتها الخاصة بالاكتئاب ثنائي القطب، ولهذا السبب كان مهتماً بجلب أدويتها بنفسه وحتى بوضعها في مكانها. ومن الواضح أن المقصود من كل هذا هو تفسير سبب وجود بصماته على زجاجة الفينيلزيون. وبعد ذلك يهمس شتيرن لمارتا بشيء ما فنذهب وتحدث مع جيم براند، ثم تعود حاملة دليلاً موضوعاً في ظرف من النايلون الشفاف.

"والآن يا راستي، سألك السيد مولتو حول زيارتك إلى دانا مان. فهل تذكر ذلك؟".

"بالطبع".

"وهل كانت زوجتك على معرفة بالسيد مان؟".

"أجل. دانا وزوجته، بولا كير، كانا كلاهما زميين لي في كلية الحقوق. وكنا نجتمع معاً كثيراً كأزواج، وخصوصاً في تلك المرحلة".

"وهل كانت تعلم اختصاص السيد مان في مهنته؟".

"بالتأكيد. وأحد الأمثلة على ذلك، منذ خمس أو ست سنوات، عندما كان السيد مان رئيساً لرابطة محامي الزواج، طلب مني أن أدللي بخطاب أمام الرابطة. وقد حضرت بولا، وكذلك باربارا، حفل العشاء".

"والآن، لقد سألك السيد مولتو في استجواب الادعاء حول زيارتك إلى السيد مان. وأنا أعتقد أنك أشرت إلى أنك في الزيارة الثانية، 4 أيلول 2008، فكررت لفترة قصيرة في الطلاق. أليس كذلك؟".

"أجل".

"وقد أرسل لك السيد مان فواتير مقابل خدماته".

"بناء على طلبي. فلم أشأ أن يقدم خدماته هدية لي؛ لأسباب كثيرة".

"أنت تدفع لقاء ما تحصل عليه".

يُبَتَّسِمُ أَبِي وَيَهْزِرُ رَأْسَهُ، فَيَذْكُرُهُ الْقَاضِي يَبِي بِأَنَّ يَجِيبُ بِصَوْتٍ عَالٍ، فَيَقُولُ أَبِي: "أَجْلٌ".

"ومع لفت انتباحك إلى دليل الشعب 22، فهل هذه هي الفاتورة الأخيرة التي أرسلها إليك في أيلول 2008؟". تظهر الفاتورة على الشاشة.

"أجل".

"وهي مرسلة إلى عنوان منزلك في نيرينغ، أليس كذلك؟".
"صحيح".

"هل بهذه الطريقة تلقيت الفاتورة؛ أقصد في المنزل؟".

"لا. ما تلقيته نسخة مرسلة عبر البريد الإلكتروني. وكنت قد طلبت أن تُرسَل جميع المراسلات بواسطة البريد الإلكتروني إلى حسابي الشخصي".

"لذلك دفعت تلك الفاتورة، الدليل 22، أليس كذلك؟".

"لا، لقد قمت بسحب المال مرتين من الصراف الآلي، واشترت شيئاً مضموناً من البنك".

"ما هو ذلك البنك؟".

"فيirst كايندل في نيرينغ".

"وهذا هو الشيك المضمون الذي أرسلته، دليل الشعب 23، أليس كذلك؟".

"صحيح". يظهر الشيك على الشاشة. في قسم المذكورة يوجد رقم الشيك وعبارة "استشارة 08/9/4".

"مرة أخرى، راستي، لقد أرسلت شيئاً مضموناً بدلاً من شيك شخصي، لأي سبب؟".

"كي لا أضطر لإخبار باربارا بأنني قابلت السيد مان، أو عن سبب مقابلتي إياها".

"جيد جداً". يرمي ساندي تومي مولتو بنظرة خاطفة، ليدعه يعرف أنه استفاد من عرض البارحة. "وأخيراً، بلفت انتباهاك إلى دليل الشعب 24، والذي تم الاعتراف به أيضاً خلال شهادة السيد مان. ما هذا؟".

"هذا وصل بما دفعته".

"مرة أخرى، إنه مُرسَل إلى منزلك في نيرينغ. فهل تلقيته بهذه الطريقة؟".

"لا، لقد تلقيته بواسطة البريد الإلكتروني".

"والآن، راستي، كل هذه الأدلة التي تلقيتها بواسطة البريد الإلكتروني: الدليل 22، 23، 24، وتأكيدان على مواعيده؛ كل هذه السجلات حُذفت من حاسوبك الشخصي. فهل هذا صحيح؟".

"لقد سمعت شهادة الدكتور جورفيتش في هذا الخصوص".

"هل محوت تلك الرسائل الإلكترونية؟".

"يبدو منطقياً، سيد شتيرن، أن أفعل ذلك لأنني - كما قلت - لم أكن أريد أن تعرف باربارا بخصوص زيارتي للسيد مان إلى أن أكون متأكداً من أنني سأتابع إجراءات الطلاق. ولكن، ما أذكره حقاً هو أنني لم أفعل ذلك. وأنا متأكد من أنني لم أنصب أي برنامج مسح في حاسobi".

"ألم تناقش قط مع السيدة سابيتش مسألة تينك الزيارتـين إلى السيد مان أو حقيقة أنك كنت تفكـر في الطلاق؟".

"لا".

ينحنـي شـتيرن ليـتحدث مع مـارـتا. وأـخـيرـاً، يـقـول لـقاـضـي بيـ:

"ليـست لـديـ أـسـلـةـ أـخـرىـ".

يـومـيـ بيـ لمـولـتوـ فيـثـبـ وـاقـفـاـ عـلـىـ قـدـمـيهـ مـثـلـ دـمـيـةـ مـرـبـوـطـةـ بـنـابـضـ.

"حضرـةـ القـاضـيـ، بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ فـرـضـيـتـكـ الـتـيـ تـفـيـدـ أـنـ زـوـجـتـكـ قدـ قـتـلـتـ نـفـسـهـاـ عـبـرـ أـخـذـ جـرـعـةـ زـائـدـةـ مـنـ الفـيـنـيلـازـينـ. فـهـلـ هـنـاكـ أـيـ بـصـمـاتـ لـهـاـ عـلـىـ زـجاـجـةـ الفـيـنـيلـازـينـ الـتـيـ كـانـتـ فـيـ خـزانـةـ أـدوـيـتـهـاـ؟ـ".

"لا".

"بصمات من موجودة على الزجاجة، حضرة القاضي؟".
"بصماتي".

"بصماتك أنت فقط، أليس كذلك؟".
"صحيح".

"وموّعاً الإنترنـت حول الفينيلـزينـ الذين جـرت زـيارـتهـماـ، فـعلـىـ
أـيـ كـمـبيـوتـرـ فيـ أـواـخـرـ أـيلـولـ 2008ـ؟".
"كمبيوترـيـ".

"هل تم فحـصـ كـمـبيـوتـرـ زـوجـتكـ فـحـصـاـ شـرـعيـاـ أـيـضاـ؟".
"هـذاـ ماـ شـهـدـ بـهـ الـدـكـتـورـ جـورـفـيتـيشـ".

"هل جـرتـ أـيـ عـلـمـيـ بـحـثـ حولـ الفـينـيلـزـينـ عـلـىـ حـاسـوبـهاـ؟".
"لاـ".

"وـبـالـنـسـبـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ الـتـيـ تـفـيدـ أـنـ زـوـجـتـكـ قـتـلـتـ نـفـسـهـاـ،ـ حـضـرـةـ
الـقـاضـيـ.ـ لـمـدةـ عـشـرـيـنـ سـنـةـ،ـ مـنـ 1988ـ إـلـىـ 2008ـ،ـ لـمـ تـقـدـمـ عـلـىـ أـيـ
مـحاـوـلـةـ اـنـتـحـارـ،ـ أـلـيـسـ كـذـلـكـ؟ـ".ـ
"عـلـىـ حـدـ عـلـمـيـ".ـ

"وـفـيـ أـواـخـرـ أـيلـولـ 2008ـ،ـ هـلـ تـغـيـرـ أـيـ شـيـءـ مـعـ السـيـدـةـ سـابـيـتشـ،ـ
عـلـىـ حـدـ عـلـمـكـ؟ـ".ـ

يرـمـقـ أـبـيـ توـميـ بـنظـرـةـ حـادـةـ.ـ لـاـ أـعـرـفـ بـالـضـبـطـ مـاـ حـدـثـ،ـ وـلـكـ
مـنـ الـواـضـحـ أـنـهـ لـحـظـةـ كـانـ أـبـيـ يـنـتـظـرـهـاـ.ـ

"أـجـلـ،ـ سـيـدـ مـوـلـتوـ،ـ لـقـدـ طـرـأـ تـغـيـرـ كـبـيرـ".ـ

يـدـوـ توـميـ كـمـاـ لـوـ أـنـهـ تـلـقـىـ صـفـعـةـ.ـ فـقـدـ طـرـحـ سـؤـالـاـ اـعـتـقـدـ أـنـهـ آـمـنـ
فـإـذـاـ بـهـ يـسـقطـ مـنـ عـلـىـ قـمـةـ جـرـفـ عـالـ.ـ يـنـظـرـ مـوـلـتوـ إـلـىـ بـرـانـدـ فـيـفتحـ
الـأـخـيـرـ رـاحـةـ يـدـهـ،ـ تـحـتـ طـاـوـلـةـ الـادـعـاءـ،ـ وـيـنـزـلـهـاـ قـلـيـلاـ.ـ وـكـأـنـهـ يـرـيدـ أـنـ
يـقـولـ لـتـوـميـ:ـ اـجـلـ،ـ لـاـ تـزـدـ الـأـمـرـ سـوءـاـ.

وـهـذـاـ مـاـ يـفـعـلـهـ توـميـ،ـ إـذـ يـقـولـ لـلـقـاضـيـ يـيـ:ـ "لـيـسـ لـدـيـ أـسـئـلـةـ
أـخـرـىـ".ـ فـيـطـلـبـ القـاضـيـ مـنـ أـبـيـ النـزـولـ مـنـ الـمـنـصـةـ،ـ فـيـقـفـ وـيـغـلـقـ

معطفه ثم ينزل ببطء الدرجات الثلاث من المنصة. إنه يبدو مثل جندي فخور بنفسه: الكتفان إلى الخلف، الرأس مرفوع، والعينان تنظران إلى الأمام.

الفصل الثاني والثلاثون

نات، 23 حزيران، 2009

يطلب القاضي بي من ساندي أن ينادي على شاهده الثاني، فتنهض مارتا على الفور وتدعى روزا بيلانكويز، التي يتبيّن أنها ممثلة خدمة الزبائن في المصرف الذي يتعامل معه والدي.

بيلانكويز امرأة جميلة في العقد الثالث من العمر، ممثلة الجسم قليلاً، ومستعدة بصورة جيدة لدورها في هذا الحدث العظيم. ويتدلّى رمز النصارى الديني من سلسلة تطوق رقبتها، وتنظر ماسة دقيقة على خاتمها. إنها أميركا، أميركا الجميلة، امرأة جاءت إلى هنا، أو ربما والداها، وعملت بجد، وجرت الرياح في صالحها؛ عمل جيد في البنك، بعض النجاح، قليل من المال، ما يكفي لمساعدة عائلتها التي تربّيها بالطريقة التي تربّت بها، لتعمل بجد، ول تقوم بما هو صائب، ولتحب الله والناس. إنها امرأة لطيفة حقاً. ويمكنك معرفة ذلك من طريقة جلوسها على كرسيها في المنصة وابتسامتها لمارتا.

"في 23 أيلول 2008، هل حدث وتكلمت مع امرأة عرفت عن نفسها بأنها باربارا سابيش؟".

أقوم بالحساب في ذهني. 23 أيلول 2008 يصادف يوم الثلاثاء الذي سبق وفاة أمي. "صحيح".

"وماذا قالت السيدة سابيش؟ وماذا قلت أنت لها؟".
جيم براند، الضخم والصلب، الذي يرتدي بدلة ثقيلة في حرّ

الصيف، يقف معترضاً ويقول: "أقاويل".

تقول مارتا: "سيدي القاضي، لا يقصد من أي من هذا الحقيقة. من أجل إظهار المعرفة فقط".

يهز القاضي بي رأسه موافقاً، ثم يقول: "إجابة واحدة في كل مرة". إنه يقصد أنه سيحكم على اعترافات الأقاوين مع كل إجابة. وهذه أفضلية الدفاع الذي سيممر هذه المعلومات للمحلفين؛ حتى لو حكم القاضي في النهاية بأنه لم يكن ينبغي سماعها.

تقول مارتا: "في البداية، هل كانت السيدة سابيتش تحمل أي شيء معها؟".

"السيدة سابيتش كانت تحمل وصل استلام من مكتب محام".
"بلغت انتباهاك إلى ما سمعي واعترف به على أنه دليل الشعب 24،
فهل تتعرّفين على هذه الوثيقة؟". وصل الاستلام من مكتب دانا مان،
الذي عرض على الشاشة منذ بضع دقائق عند نهاية شهادة أبي، بظهر
مجدداً.

"هذا هو الوصل الذي كانت السيدة سابيتش تحمله".

"وهل أخبرتك السيدة سابيتش كيف تلقته؟".

يقول براند: "اعتراض. أقاوين".

تنظر مارتا إلى جيم مع ابتسامة متلطفة ثم تسحب السؤال.

"حسناً، هل تذكرين كيف أخرجت السيدة سابيتش الوصل؟".

"كانت تحمله في ظرف".

"أي نوع من الظروف؟".

"ظرف تجاري عادي".

"هل تذكرين ما إذا كان هناك طابع عليه؟".

"بيبني باوز، أظن".

"هل رأيت عنوان استعادة على الظرف؟".

"كيف حدث ذلك؟ لقد سلمتني الظرف وأنا أخرجت الوصل. فكان من البريد. ويمكّن رؤية ذلك".

يقف براند ليعرض مجدداً. فيضع مولتو يده على كمه فيجلس براند من دون أي كلمة. فلا يريد توسيع أن يبدو الأمر وكان الادعاء يخفي شيئاً. وبراند، أكثر من رئيسه، يميل إلى مناقضة حتى الواقع الواضح. لقد أخطأ مكتب برايمانا دانا وأرسل الوصل إلى منزل والدي مقابل الفاتورة التي دفعها أبي، وأمي التي كانت عادة تتعامل مع كل الفواتير، فتحت الظرف وذهبت إلى المصرف لكتشاف ما كان يجري.

"الآن أخبرينا، من فضلك، عن الحوار الذي دار بينك وبين السيدة سابيتش".

تدور السيدة بيلانكويز على كرسيها وتشير إلى الشاشة بجانبها: "هنا لك رقم شيك مضمون على الوصل. كانت تريد أن تعرف ما إذا كان ذلك رقمنا. قلت لها إنني أعتقد ذلك، لكنني كنت بحاجة إلى التأكد. فذهبت ونظرت إلى السجل، وبعد ذلك قلت لها إنني بحاجة إلى التحدث مع المدير".

تأخذ مارتا كيس نايلون من على طاولة الدفاع وتذهب إلى براند. يتمعن فيه ثم يقف على قدميه.

يقول براند: "سيدي القاضي، نحن لم نر هذا".

تقول مارتا: "سيدي الرئيس، أخرجت للدفاع من قبل الادعاء في تشرين الثاني الماضي خلال الكشف الأولي".

لا بد أن ذلك صحيح، لأن المحقق جيسلينغ تشير إلى براند وتهز رأسها. فتهمس مارتا لبراند، فينفض يده في الهواء، وتقبل الورقة كدليل، وتنظر صورة عنها على الشاشة ليراها المحفون بواسطة مساعدة ساندي. إنه الطلب الخاص بالحصول على شيك مضمون. ولقد رأيت الوثيقة في الخريف الماضي. وفي الحقيقة، لم يكن يفسر الكثير بالمقارنة مع الشيك المرسل للمؤسسة التي أجرت تحاليل الكشف عن الأمراض المنقولة جنسياً.

"ألفت انتباهاك إلى دليل المتهم 1، ما هذا؟".

"إنه السجل الذي نظرت فيه".

"الآن، قلت إنك تحدثت مع مديرك".
"أجل".

"وبعد أن تكلمت مع المدير، فهل تحدثت مع السيدة سابيتش أيضاً؟".

"أجل، بالتأكيد".

"وماذا أخبرتها؟".

"أخبرتها بما قاله لي المدير".

"وماذا قال؟".

يعترض براند بحجة أنها أقاويل.

يقول القاضي يي: "سامعه".

"حسناً، لقد اشتري القاضي شيك المصرف بنقود كان يحملها وثلاثمائة دولار سحبها من الصراف الآلي هناك. أعني يمكنك أن تعرفي ذلك من زمن سجل الصراف الآلي. إذا، إنه كان سحباً من الحساب. ونحن لم نكلفه ثمن إصدار الشيك المضمون لأنه كان يملك حساباً. لذا، فالسؤال كان: هل هذا سجل حساب مصرفي؟ وماذا يمكنها أن ترى؟ وماذا لا يمكنها أن ترى؟ لأنها، أي السيدة سابيتش، كانت في ذلك الحساب أيضاً. وقد قال المدير، إذا كنا قد أعطينا شيكاً مضموناً مجانياً فلأنه كان يملك حساباً، وهي في هذا الحساب. إذا، فهذا سجل حساب مصرفي، لذا أريها كل ما تريد رؤيته. وهكذا أخبرتها بذلك، وأريتها فاتورة الشراء لشيك المصرف والشيك الفعلي".

"ألفت انتباحك إلى دليل الشعب 23، فهل هذا هو شيك المصرف الذي أريته للسيدة سابيتش؟".

الشيك مُرسل إلى "مان ورابيني"، وكتب في قسم المذكورة، فاتورة - دفع 645332.

تجيب بيلانكويز بنعم. وتقول مارتا: "ليست لدى أسئلة أخرى". القاعة صامتة. الجميع يعرف أن شيئاً ما حصل للتو؛ شيئاً هاماً جداً. فقد قال أبي إن أمي انتحرت، والآن ثمة سبب لفعل ذلك. لأنها عرفت

أنه ذهب لمقابلة السيد مان، محامي الطلاق، وأنه كان يستعد لتركها".
جيم براند ليس سعيداً. ونادراً ما يسعد المدعون العامون عندما
يعرفون أن الدافع يعرف شيئاً لا يعرفونه. فيرمي قلمه في الهواء ويلقطه
ثم يخرج من مقعده مثل راعي بقر يهم بمطاردة قطيع غير منضبط.
"إذا، فهل كان ذلك هو كل حوارك مع السيدة سابيتش؟".
"لا. ليس تماماً."

"أخبرينا ماذا حدث غير ذلك". قال براند هذا وكأنه السؤال الأكثر
طبيعية في العالم، وكأنه لا يفهم لماذا لم تطرحه مارتا بنفسها. يواصل
فن قاعة المحكمة إثارته دهشتي؛ الارتجالات المسرحية والأساليب الخفية
للتواصل مع المخلفين.

ورداً على ذلك، تقف مارتا لكنها لا تنفوه بأي كلمة.
تقول بيلانكويز: "بعد أن شاهدت الشيك المضمون، أرادت أن
تعرف ما إذا كان هناك المزيد؟ ومن أجل ماذا دفعت؟ وأشياء من هذا
القبيل. وهكذا، كنا مضطرين للذهاب والمجيء بشيكات أخرى وكشفوف
حساب وقسيمة سحب وقسائم إيداع. والكثير من التعاملات. ففيينا هناك
معظم اليوم".

تقول مارتا: "سيدي القاضي، أعتقد أننا ابتعدنا كثيراً عن نطاق
توجيهك. فنحن نتحدث الآن حول وثائق حكمت يا سيدي الرئيس عدة
مرات بأن لا علاقة لها بهذه القضية".

يقول القاضي بي: "هل هناك شيء آخر سيد براند".
"لا أعتقد". يؤذن للسيدة بيلانكويز بالانصراف فتخرج من القاعة،
وفي طريقها تمنح مارتا ابتسامة صغيرة. فيفوح عطرها الثقيل في الهواء
عندما تمر بجانبي في الصف الأمامي.

لا أعتقد أن أيّاً من الحضور، بمن فيهم المخلفون، استوعبا تماماً
نتيجة شهادة السيدة بيلانكويز. ولكنني أشعر مجدداً وكأن قلبي يضخ
رساصاً مصهوراً. لا يفترض أن أكون مندهشاً. لقد قلت منذ وقت طويل
إن أمي كانت تعلم. ومع ذلك، فهذا لا يحتمل، وخاصة عندما أضيف

محتوى تلك الوثائق التي لن يعرف بشأنها المحلفون أبداً. وإنني أتخيل كل ما حدث: طاولة السيدة بيلانكويز في البنك، مع الأثاث الكولونيالي المزيف الاعتيادي ، والزبائن والموظفين يمرون بجانبها من كل جانب، وأمي التي كانت تحتاج أحياناً إلى عدة أقراص من دواء كزاناكس قبل أن تخرج من المنزل ، وكانت تكره الشعور بأنها ملاحظة أو مكشوفة. والآن، فها هي تجلس أمام السيدة بيلانكويز اللطيفة التي كانت تشرح لها ما كان يجري ، أولاً: ذهب أبي لمقابلة السيد مان ، محامي الطلاق ، للحصول على استشارة اختصاصية قبل بضعة أسابيع فقط . وقبل خمسة عشر شهراً. وثانياً: كان يهرب بذكاء المال من راتبه وينفقه على أشياء ، مثل دفعه لمخبر من أجل الكشف عن أمراض منقوله جنسياً . وإنها تعرف الآن أنه كان خائناً، وأنه كان يكذب عليها بأساليب كثيرة – بما فيها ، وأكثرها سوءاً – فيما يتعلق بأنه سيظل زوجها ، وهي مضطرة لتقبل كل هذا بوجه حجري وقلب مكسور ، بينما هي تجلس قبالة السيدة بيلانكويز ، عارفةً أن السيدة روزا بيلانكويز يمكنها رؤية خاتم الزواج في إصبعها ، وبالتالي ، مدى مذلتها.

أنا الآن أبكي في الرواق خارج قاعة المحكمة . فقد أصبح كل شيء واضحًا الآن . لقد عادت إلى المنزل يوم الثلاثاء ذاك ، وتصفحت بريد أبي الإلكتروني ، وعلمت أشياء أخرى حول من كان يعاشرها في السنة السابقة . فهل تشاينا في ذلك الأسبوع قبل وفاتها؟ وهل صرخاً وقلباً بعض قطع الأثاث ، ثم رسمًا ملامح لطيفة على وجهيهما عندما وصلنا أنا وأنا؟ أو هل أخذت أمي كل هذا معها؟ فلا بد من أن الأسلوب الأخير هو ما حدث فعلاً - حسب اعتقادي - لأنها عرفت قبل أسبوع تقريباً من مجئنا لزيارتها ، ومن الواضح أنها كبرت ما عرفته داخلها . وكانت تبتسم وتخطط ، وتفكر في الب戴ائل . أنا متأكد الآن ، من أنها كانت تخطط لموتها . لقد جلب أبي الفينيلزرين من أجلها بعد يومين من ذهابها إلى المصرف .

خرجت مارتا شتيرن إلى الرواق وجاءت إلى وعانتني . إنها تضع

عقدا ثقلياً من الذهب المشغول لم ألاحظه من قبل.
أقول لها: "كان كل ذلك خاطئاً". فلا أظن أنها تعرف ما أعنيه تماماً، لأنني قبل أن أتكلم، لم أكن واثقاً مما أعرفه. فأبكي لم يقتل أمي حسب القانون. ولكن ذلك لا يغير ما حدث. فهو يستحق الخروج من قاعة المحكمة، لكنه عندما يخرج، فإنه سيقع ملاماً بالنسبة إليّ.

الفصل الثالث والثلاثون

تومي، 23 حزيران، 2009

أرادت مارتا فترة استراحة لإعداد حاسوب راستي للشاهد التالي، والقاضي بي لم يبدِ راضياً. ففي اليومين الأخيرين، بدا واضحاً أن صبر القاضي بدأ ينفذ. فكان يعيش على بعد عدة مئات من الأميال عن بيته، وكان لا يزال يحاول إدارة مجموعة قضایاه المؤجلة في وير كولر عبر الهاتف. وكان سيحتاج إلى أشهر لإنتهاء التراكم عندما يعود. أمر القاضي بي المحامين بتجهيز الحاسوب في صباح اليوم التالي، بدلاً من استهلاك ساعة في إزالة الغلاف والأختام. أرسل المحلفين إلى منازلهم وأمضى بقية اليوم يتحدث على الهاتف مع مكتبه محاولاً إيجاد حل لطلبين عاجلين في البلدة.

كان هذا مناسباً تماماً لتومي وفريقه، فهم كانوا بحاجة ماسة إلى استراحة. فتوصل براند ومارتا لاتفاق قضى بأن يزيل تقيو المدعي العام الغلاف، وأن يقطع الخبراء من الجانبين آخر شريط، ومن ثم يعدون الجهاز قبل موعد المحاكمة في صباح اليوم التالي. وعلى هذا الأساس، أخذ فريق الادعاء العربية وعاد بها إلى المكتب الواقع في الجانب الآخر من الشارع حيث تقع المحكمة. وحالما دخلوا المصعد في مبني البلدية، بدأت روري جيسلينغ بالاعتذار.

"اللعنة، كان ينبغي عليَّ أن أعرف".

قال تومي: "هراء".

"كان ينبغي عليَّ أن أحس بذلك، فأسأل عن الأمر. فعندما جمع

موظفو البنك كل تلك الوثائق في جزء من الثانية، كان يجدر بي أن أعرف أنهم سبق أن فعلوا ذلك لشخص آخر".

قال تومي: "إنك محققة، ولست قارئة أفكار".

وما فعله ستيرن هو إظهار حقيقة أن باربارا كانت تعرف أن زوجها كان يخطط لتركها من دون ذكر أنه يخونها، الأمر الذي لن يعرف الملفون أي شيء عنه. فهل كانت تعرف؟ فليكن. إن ذلك يفتح الباب أمام مليون احتمال لمصلحة الادعاء. تاجر رasti وباربارا مثل ثعالب الماء، وانتهى به الأمر بقتلها. هدّته بفضحه أمام ولده، أو أمام المحكمة. أو الله يعلم بماذا. وكانوا سيجدون نظرية تنسجم مع الواقع إن حصلوا على استراحة ليوم أو يومين.

بيد أن الدفاع أثبت شيئاً أكثر أهمية بما لا يقاس، وهو أن الادعاء لم يكن يعرف كل شيء. وأولئك الرجال اللطفاء في القاعة كانوا يجهلون جزءاً رئيساً من الأدلة في قضية ظرفية. وكان الأمر يشبه قيام الادعاء برسم خارطة للعالم أغفلوا فيها معظم أميركا الشمالية. فقد قال المدعون إن راستي قتل باربارا، فجاء الدفاع وقال: أترون؟ هؤلاء الأشخاص لا يمكنون الصورة الكاملة. فقد اكتشفت باربارا خبراً شيئاً، ولهذا السبب قتلت نفسها بهدوء.

جلس الأربعاء - تومي وبراند وروري وروتا - في مكتب تومي بعد إغلاق الباب. وكان تومي ينظر في قصاصات ملاحظات على مكتبه، متظاهراً بأنه لم يكن منزعجاً كثيراً.

خرج براند ليجلب علبة كولا.

وعندما عاد، قال براند: "كيف يمكن أن تكون المياه الغازية من تلك الماكينة اللعينة بخمسة وثمانين سنتاً؟ لا يمكننا أن نتحدث مع الخدمات المركزية؟ تحصل جودي على العلبة في سيفاوي بعشرين سنتاً. إنهم صوص ملاعين".

وضع تومي يده في جيبه وأخرج ربع دولار وأعطى براند إياه، قائلاً: "قل لجودي إنني أريد علبة كولا ذات ، تلجم مضاعف، ولتحتفظ

بالباقي".

قالت روري: "فلتجـ هذا الاتصال ، وستجد نفسك في هذه القضية وحيداً".

كانت جودي محامية ادعاء مساعدة عندما قابلها براند ووضع صورتها في القاموس بجانب العبارة: "بسكونيت قاس".

قال تومي: "لا يمكنني أن أحمل الخدمات المركزية على طلي الجدران أو إصلاح التدفئة". فضحك الأربعـ قليلاً ثم عادوا إلى الصمت. ثم قال براند: "إذاً، كان هارناسون مصادفة". وكان يحاول معرفة ما سيقوله ساندي للمحلفين في مرافعته الخاتمية.

قالت روري: "لقد غطـوا ذلك". وكانت باربارا تعلم بشأن تلك القضية".

قال تومي: "صحيح. لقد غطـوا ذلك. قضية هارناسون هي التي أعطتها فكرة أنها تستطيع قتل نفسها بواسطة دواء، وسيبدو ذلك مثل موت طبيعي ولن يظهر في اختبار السميات. فكان بوعها الذهاب إلى العالم الآخر من دون أن تسبب للفتى المزيد من الضرر. وهذا ما سيقوله نات هناك؛ كم كانت أمه تحرص على حمايته. إنه سيدعم هذه القصة كلها". أدرك تومي أن هذا الأمر سيـ جداً. فمسألة الانتحار ستخرج راستي بريئـاً.

قال براند: "وماذا كانت بصماته تفعل على الفينيلزـ؟".

"حسناً، لديه الآن واقعة سيئة ليفسرها بدلاً من ست. وكل ما عدا ذلك يبدو منسجماً مع القصة. وسيجدون علاقة ما لها بحاسوبـه. تعرفـ، أليس كذلك؟ من أجل هذا سيعـدونـ الحاسوبـ. وسيبيـنـونـ أنها اطلعتـ على رسائلـهـ الإلكترونيةـ".

وكان براند جالساً ينظر إلى الحائط. إذ لم يكـمـلـ تـومـيـ فـرـشـ المـكـتبـ تماماً، وذـلـكـ لأنـهـ كانـ النـائبـ العـامـ المؤـقتـ، وـحـشـوـ الجـدرـانـ بـصـورـهـ ولوـحـاتـهـ الخـاصـةـ كانـ سـيـدوـ أمـراـ غـيرـ لـائقـ. ولـهـذاـ السـبـبـ اـكتـفـىـ بـتـعلـيقـ أـربعـ صـورـ لـطـيفـةـ لـدوـمـينـغاـ وـتـومـاسـوـ وـوـاحـدةـ قـديـمةـ لأـمـهـ وـأـبـيهـ بـرـفـقـتهـ

في حفل التخرج من كلية الحقوق . ولكن ، كانت هنالك عدة بقع انتزاع الطلاء والجص منها عندما أخلى موريل وابن المكتب قبل أربع سنوات ، ولم تأت الخدمة المركزية لترميمها ، على الرغم من الاتصالات العديدة بها . فكان براند يرکز على واحدة من تلك البقع .

قال فجأة : "لن نخسر هذه القضية العينة " .

قال تومي : "كانت صعبة منذ الأساس " .

"إنها تسير بشكل جميل . فلن تخسرها أبداً " .

"اهداً يا جيمي . لنأخذ استراحة هذه الليلة . فكر في الأمر " .

"ثمة ثغرة " ، قال براند ، مشيراً إلى نظرية الدفاع الجديدة .

"ربما أكثر من واحدة ، إذا أردت أن تعرف حقاً " .

قال براند : "لماذا تمسح حاسوبه؟ حسناً ، لقد قرأت ما هو موجود فيه . ولكن ، لماذا ستمحو الرسائل؟ " .

"صحيح " . سفكرون في أسئلة مشابهة كثيرة خلال اليوم التالي . وكانوا بحاجة إلى بعض الوقت للتعديل ، أو بالأصح ، للتدارك ، لأن ساندي ومارتا كانا يفكران في تلك الأسئلة وفي ابتكار الأجبهه منذ أشهر . ليشعر بالارتياح أكثر ، تابع براند قائلاً : "إذا كانت تخطط لقتل نفسها سراً ، من دون رسالة ، إلخ . . . فلماذا ترك آثاراً خلفها بمحو رسائله؟ " .

قالت روري : "كي يعلم راستي . فالرسائل التي كان يحتفظ بها ، احتفظ بها لسبب ما . فعله كان يجب إعادة قراءة رسائل الحب من عشيقته الشابة . ولكن ، بصرف النظر عن السبب ، فإنه عندما يعود ، سيجد أن كل تلك الرسائل قد اختفت . وسيعرف أن باربارا هي التي حذفتها واحدة واحدة . وبهذه الطريقة سيعرف أن زوجته اكتشفت كل شيء وقتلت نفسها . ولهذا السبب ، ربما ، بحثت عن الفينيلزين في حاسوبه ، كي يعرف كيف فعلت ذلك . لكنه سيكون الوحيد الذي يعرف هذا . أما الولد ، وبقية العالم ، فسيعتقدون أنها ماتت بسبب قلبها المريض . وراستي سيقتله الشعور بالذنب " .

قال براند : "اللعنة " . ثم قذف علبة الكولا الفارغة على الجدار . فلم

يكن أول من يفعل ذلك ، في الواقع . وكان هناك جص متضرر على شكل مثلث أحدهه توسيع ومساعده ، تارةً بواسطة قبضاتهم ، وتارةً أخرى برمي كرات الورق ، أو أجسام أخرى . بيد أن هدف براند كان أفضل ، فقد اصطدمت العلبة في المركز تماماً ، وسقطت في سلة المهملات التي وضعـت في الأسفل لالتقاط ما كان يرمى من حين لآخر .

الفصل الرابع والثلاثون

نات، 24 حزيران، 2009

إنها السابعة صباحاً، وشوارع مركز المدينة بدأت تمتلي بالسيارات والمشاة المستعجلين للالتحاق بأعمالهم. تُوقف آنا سيارتها البريوس الصامنة بجانب الرصيف، ثم تنزلني أمام مبني لسيور. تند يدها وتمسك بيدي، ثم تقول: "أمل أن تجري الأمور بصورة جيدة. راسلني حالما تنتهي". أقترب لأحظى بعناق سريع ثم نفترق. وقبل أن أدخل، أرتدي حقيبة ظهري فتتجعد بذلتني تحت حزاميها، لم أنجح حتى الآن في التخلّي عن مظهر الطالب تماماً.

كانت ليلة سيئة. أحست آنا بالانزعاج لسماعها شهادة موظفة البنك، وبدت وكأنها كانت متآلمة بقدر الألم الذي كنت أحس به. وقد كررت القول إنها كانت متآلمة عدة مرات بحيث جعلني ذلك أشعر بالضيق في النهاية، لأنني أحسست وكأنها كانت تتوقع مني أن أواسيها. فعلتها كانت تفكّر في ما كنت أفكّر فيه شخصياً؛ في أمي وهي تعدّ المائدة لنا نحن الأربع على الشرفة في تلك الليلة، وهي تعرف أن حياتها كانت على وشك الانتهاء.

لهذا السبب، لم أكن قادراً على مراجعة شهادتي المتوقعة مع مارتا ليلة أمس. وبدلاً من ذلك، قررنا المجيء إلى المكتب في هذا الصباح الباكر. وبوجود ثلاثة أطفال في المنزل، هذا ليس سهلاً عليها وعلى زوجها سولومون. ومع ذلك، فهي ترفض بتهدیب عبارات شكري بينما تقوّدني إلى ركن القهوة.

مراقبة مارتا في المحكمة في الأسابيع الأخيرة جعلتني أدرك أنها لن تحظى أبداً بالنجاح الذي حققه والدها في المهنة. فلديها ذكاء والدها نفسه، ولكنها تفتقر إلى جاذبيته وتأثيره. إنها دافئة وودود، في حين أن أبيها ربح من طبيعته الرسمية والمنعزلة. غير أن هذا لا يبدو أنه يمثل مشكلة بالنسبة إليها. فهي واحدة من أولئك الأشخاص الذين يحبون من يكونون، ويحبون ما حدث لهم في حياتهم. ولهذا السبب، أقول لها دائمًا إنها مثالى الأعلى.

وبعد جلوسنا، قلت لها: "ألم يكن أمراً غريباً عندما قررت التدرب مع أبيك؟". فمنذ أسبوعين خطر في ذهني هذا السؤال، لكن المحاكمة لم تترك لي الوقت لأطرحه عليها.

تضحك وتعرف بأنها لم تقرر تماماً. فمنذ سنوات، وقعت أزمة عائلية بعد وفاة أمها، على الرغم من أنها لا تذكر ذلك، ولكنني واثق بأن كلارا؛ أم مارتا وزوجة ساندي الأولى، كانت تميل للانتحار، إنها لفكرة غريبة في هذا الصباح. وكان ساندي مضطرباً في ذلك الحين، ووجدت مارتا نفسها تلعب دور المساندة لأبيها من دون كثير من التفكير. "ومع ذلك، فهذا ما يعنيه الناس حين يقولون إن الأمور سارت نحو الأفضل. إنني أحب التدرب مع أبي. وفي الحقيقة، لو لم تمت أمي، لما حدث ذلك ربما. وإنه أفضل محامرأ رأيته على الإطلاق، وثمة انسجام بيننا في المكتب، وهذا لا يمكن أن نجده في أي مكان آخر. فلا أظن أننا رفينا صوتينا أبداً هنا. ولكن، إذا جلبته إلى منزلي عندما تكون هيلين مسافرة، فأنا أبدأ بالصراحة عليه بعد دخوله من الباب مباشرة. إنه ينتبه كل قاعدة أضعها للأولاد. وأنا أحب أبي". تضيف مارتا الجملة الأخيرة وكأنها فكرة أنتهت بشكل مفاجئ، ثم يحمر وجهها بسرعة شديدة بحيث لا أدرك في البداية ما يحدث. إنه أوضح تصريح يقوم به أي شخص حتى الآن حول أن ساندي يختصر. تحدق في قهوتها.

"لم أتعاف بعد من موت أمي، وقد مرّ على ذلك عشرون عاماً تقريراً".

"حقاً! أنا ما زلت أنتظر حتى أشعر أنني طبيعي".
"طبيعي ولكن بصورة مختلفة".

أية مسافة مهنية يفترض أن تفصل بيني وبين مارتا تلاشت إلى حد كبير الآن. فلدينا أشياء كثيرة مشتركة. وكلانا محاميان، ووالدانا قابليا الموت قبل الأوان، ووالدانا المحامي - الذي يبدوا كبارين بما يكفي لحجب الشمس - كلها يتعرضان للخطر في الوقت الحالي. فأضع ذراعي على كتفها خلال عودتنا إلى المكتب. إنها ستكون واحدة من الأشخاص الذين سأطلب نصائحهم طوال حياتي.

نراجع شهادتي بسرعة. فالكثير منها بسيط بالمقارنة مع البارحة.
أسألها: "ما قصة الحاسوب؟".

"نحن نقوم بمحاولة صغيرة. إنها فكرة أبيك. فهو يقول: إنه ليس ثمة مخاطرة، وسنرى. لكنني أريدك أن تكون قادرًا على القول أمام الم浑身 إننا لم نناقش هذا الجزء مسبقاً. اتبع توجيهاتي وحسب. فلن يكون الأمر معقداً".

أخرج كي أستخدم المرحاض قبل التوجه إلى المحكمة فألتقي والدي، لكننا لا نجد - كالعادة - الكثير لنقوله.
"أنا آسف يا نات".

كانت أمي قصيرة، ولها بذا غريباً للجميع، ولها بصفة خاصة، عندما أصبحت أطول منه بخمسة سنتيمترات. لفترة طويلة جداً، كنت أشعر بالغرابة حيال حقيقة أنني كنت أنظر إليه من موقع أعلى، ولو بقليل فقط. يمسك بكتفي فأعانقه عناقاً سريعاً ثم يفترق كل منا في طريق.

عندما أدليت بشهادتي للمرة الأولى، كنت مضطرباً لأبعد الحدود. فلم أكن قد حضرت أي محاكمة من قبل، فإذا بي أكون الشاهد الأول في القضية، بدعوة من الادعاء، لأقدم أدلة ضد أبي لقتله أمي. لقد جلست مثل أبله، وأجبت على الأسئلة بأسرع قدر ممكن. فطلب القاضي بي مني مراراً أن أرفع صوتي. وعندما أنهى براند استجوابي، سألتني مارتا

بضعة أسئلة بهدف إظهار أن أبي كان في حالة صدمة عندما تجادل معه بخصوص الاتصال بالشرطة. ثم أخبرت القاضي بي أنها ستحفظ بالأسئلة المتبقية إلى أن أستدعى من قبل الدفاع.

هذه المرة، وأنا أصعد إلى المنصة لأجلس على كرسي الشاهد تحت الحاجز الجوزي، يبدو الأمر أكثر سهولة بما لا يقاس. وسأرني هذه القاعة في أحلامي لبقية حياتي، ومع ذلك فأناأشعر - مما يدعو للاستغراب حقاً - وكأنني في منزلي.

"من فضلك، اذكر اسمك وهجئ الكنية من أجل السجل".

"ناتانيال سابيتش، س، ا، ب، ي، ت، ش".

"أنت ناتانيال سابيتش نفسه الذي شهد خلال مرافعة الادعاء، أليس كذلك؟".

"الشخص نفسه". تبسم لي شابة لاتينية في الصف الأول من المحففين. ويبدو أنها وجدتني لطيفاً عندما أدليت بشهادتي في المرة الأولى.

"وبما أنك أدليت بشهادتك، فقد تواجهت هنا في المحكمة يومياً، أليس كذلك؟".

"صحيح. فلم يتبق لأبي من العائلة سواي. وقد قال القاضي بي إنني أستطيع المجيء لأسانده".

"ولكن، كي تكون واضحين، نات، هل ناقشت الأدلة في هذه القضية مع أبيك، أو شهادتك هنا اليوم؟".

"لا. فكما تعلمين، لقد أخبرني بأنه لم يفعل ذلك، وأنا أخبرته بأنني أصدقه. ولكن لا، نحن لا نتحدث حول ما قاله الشهود أو ما سأقوله".
لقد تدرّبت على هذه الأجوبة مع مارتا مسبقاً. وهي كانت تستشعر بسعادة أكبر إن رأت براند يعترض عندما قلت إنني أصدق أبي، وذلك كي تعيد التأكيد على هذه الحقيقة مرة أخرى أمام المحففين، ولكنني رأيت مولتو يمسك بمعصم براند بينما كان يهم بالوقوف. وهو يعرف أن المحففين شاهدوني هنا يوماً بعد يوم، ولا بد أنهم يدركون إلى جانب

من أقف. فالرجل أبي في نهاية الأمر. ومن سأصدق غيره؟
"وأنت محام مجاز، أليس كذلك؟".
"هذا صحيح".

"نات، دعني أسألك في البداية حول قضية جون هارناسون. فهل سبق لك وناقشت تلك القضية مع أمك؟".
"أمي!".

"حسناً، هل كنت متواجداً عندما تناقش أبواك في هذه القضية؟".
أخبرها بما حدث خلال عشاء ذكرى ميلاد أبي الستين، حيث كان واضحًا أن أمي قرأت حول القضية بنفسها. ثم نتحول إلى جولة التبضع التي قام بها أبي يوم توفيت أمي. فأشرح لها أتنى أحب السجق والجبن منذ كنت طفلاً، وصحيح أن أمي مثل أمهات الجميع كانت تحب أن تعطمني الأشياء التي أحبها، وصحيح أيضاً أن أمي كانت ترسل أبي دائمًا - أو أنا، في الماضي - كي يقوم بمثل هذه المهمات لأنها كانت تكره مغادرة المنزل؛ وأحياناً كانت تجلب بقالتها الأسبوعية عن طريق الإنترنت. وأخبر المخلفين بأن أبي كان دائمًا يجلب أدوية أمي، وفي معظم الأحيان كان هو من يضع الزجاجات في خزانة الأدوية أيضًا.
كل شيء هادئ وسهل؛ إلى أن نصل إلى محاولة الانتحار التي أقدمت عليها أمي عندما كنت في العاشرة. فيفتح محامو الادعاء أبواب الجحيم حتى قبل أن أتمكن من الوصول إلى الموضوع، فيضطر المخلفون للخروج، وهذا أمر مضحك لأن القصد من كل هذا هو تأكيد ما قاله أبي البارحة. ولكن، عندما يعود المخلفون، سرعان ما أفقد السيطرة على نفسي بعدما أبدأ بسرد وقائع تلك التجربة. وقبل هذا اليوم، ربما لم أخبر هذه القصة سوى لأربعة أشخاص في هذا العالم - حتى إن أنا لم تعرف بها سوى ليلة أمس - وها أنا الآن أجلس هنا أمام مجموعة من الصحفيين والرسامين الجالسين في الصف الأول في هذه القاعة الضخمة، وأعترف أن أمي كانت خارجة تماماً عن السيطرة.
"ودخلتُ الحمام..." أقول حالماً أستعيد هدوئي، ثم أبدأ بالبكاء

على الفور، مجدداً.

أحاول مرتين أو ثلاثة لكنني لا أستطيع المتابعة.

"هل كانت تحاول صعق نفسها بالكهرباء؟".

أومئ موافقاً.

يتدخل القاضي بي عندئذ، قائلاً: "الكتاب في السجل أن القصد من إيماءة الشاهد هو أجل. أعتقد أننا جميعاً نتفهم، آنسة شتيرن". ثم يأمر باستراحة لمدة عشر دقائق كي استجمع نفسي من جديد.

أبدى أسفه له ومن ثم للمحلفين قبل أن نخرج للراحة، فيجيب: "لا داعي للأسف".

أخرج من القاعة، وأقف وحدي في نهاية الممر، ناظراً إلى الشارع عبر النافذة. في الحقيقة، إن التحدث عن أمي لم يكن سهلاً علىَّ في أي يوم من الأيام. فقد كنت أحبها، ولا أزال، وسابقني على الدوام. وكان أبي بعيداً، يطوف في حياتي مثل القمر، ضخماً ولا معاً، يظهر حيناً ويختفي حيناً، غير أن الجاذبية التي أبقيتني ملتصقاً بالأرض هي أمي؛ على الرغم من أنني عانيت من حبها طوال حياتي. فقد كانت تحبني كثيراً لدرجة أنني كنت أجده دائماً للهرب من عباء اهتمامها. وعندما كنت صغيراً كانت تهمس لي دائماً. لم تكن تريد لأي شخص آخر أن يسمع ما كانت تقوله. وكانت الرسالة واضحة لتصرفها هذا: نحن فقط. لا يوجد أحد سوانا. ولقد أخبرتني ذات مرة: "أنت العالم بالنسبة إليّ، أنت العالم كله، يا ابني الصغير".

بالطبع، كنت سعيداً لسماعي هذه الكلمات. فمنذ أن كنت طفلاً صغيراً، أحسست وكأنني مسؤول عنها. ولقد أدركت منذ ذلك الحين أنني كنت أكثر من مهم بالنسبة إليها، وكانت شريان حياتها. فكنت أعرف أن الأوقات الوحيدة التي كانت أمي تشعر فيها بأنها متوازنة تماماً هي عندما أكون معها، تتحدث إليّ، وتهتم بي، أو تفكّر فيَّ.

وأنا أفكّر في كل هذا، أعتقد أنه من الواضح أن القضية الأهم بالنسبة إليّ عندما بلغت سن المراهقة كانت تتعلق بعواقب الابتعاد عنها.

وبينما أرافق مسيرة السيارات في الشارع ، أدرك فجأة شيئاً لم أواجهه من قبل . إنني ألوم والدي على موتها لأنني لا أريد أن ألوم نفسي . وكنت أعرف أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث عندما تركت المنزل . كنت أعرف ، ومع ذلك ، غادرت لأنني كنت مضطراً . وأمي نفسها لم تكن تريده أن أتخلى عن حياتي من أجل حياتها . ولكن أبي تصرف كوغد . ومع ذلك ، فأنا بحاجة إلى أن أغفر لنفسي . وعندما أفعل ذلك ، فربما سأكون قادرًا على أن أغفر له .

وعندما نعود إلى القاعة مجددًا ، تقول مارتا: "الآن ، دعنا نتحول إلى موضوع الحواسيب" . حاسوب أبي موضوع على طاولة في منتصف القاعة ومارتا تشير إليه . "على مر السنين ، نات ، هل رأيت والدك يستخدم حاسوبًا؟" .

"بالتأكيد" .

"أين؟" .

"في المنزل ، أو عندما كنت أزوره في مكتبه" .
"كم مرة؟" .

"عدد لا يُحصى من المرات" .

"وهل تحدثت معه حول حاسوبه؟" .
"غالبًا" .

"هل ساعدته في استخدام حاسوبه؟" .
"طبعي . بالنسبة إلى أشخاص في عمري ، هذه تشبه حالة معاكسة لمساعدة والديك لك كي ترکب دراجة هوائية . فنحن جميعاً نساعد آباءنا في استخدام الحواسيب" .

يبدو أن المخلفين أعجبهم هذا الكلام ، وكذلك القاضي بي ، الذي بدأت أشعر أكثر فأكثر بأنه شخص لطيف .
"وهل والدك ملم بالحاسوب؟" .

"إذا كانت معرفة الفرق بين التشغيل والإطفاء تجعلك ملماً ،

فالجواب أَجل. فِيمَا عَدَا ذَلِكَ، لِيُسْ كَثِيرًا".

تصدر ضحكة من جهة المخلفين.

"وَمَاذَا عَنْكَ؟ هَلْ أَنْتَ مَلِمْ بِالْحَوَاسِيبِ؟".

"بِالْمَقَارِنَةِ مَعَ أَبِيهِ؟ أَجَل. أَعْرَفُ أَكْثَرَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ".

"وَمَاذَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى أُمِّكَ؟".

"كَانَتْ عَبْرِيَّةً. فَقَدْ كَانَتْ تَحْمِلْ شَهَادَةَ دَكْتُورَاهُ فِي الْرِّياضِيَّاتِ. إِلَى أَنْ بَدَا أَصْدِقَائِيَّ يَدْرِسُونَ لَنِيلَ الدَّكْتُورَاهُ فِي عِلْمِ الْحَاسُوبِ، كَانَتْ أُمِّي تَعْرِفُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ أَعْرَفُهُ. وَهَنْتَ أَوْلَئِكَ الشَّبَانَ كَانُوا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَتَصَلَّوْنَ بِهَا لِيَطْرُحُوا عَلَيْهَا بَعْضَ الْأَسْئَلَةِ. فَقَدْ كَانَتْ ضَلِيعَةً فِي الْحَوَاسِيبِ".

"هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ كَلْمَةَ السِّرِّ الْخَاصَّةَ بِالْحَاسُوبِ أَبِيهِكَ؟".

"أَجَل، أَعْتَدَذُ ذَلِكَ. أَبِيهِ كَانَ يَسْتَخْدِمُ كَلْمَةَ السِّرِّ ذَاتَهَا فِي أَيِّ شَيْءٍ".

"وَمَا هِيَ؟".

"دَعَيْنِي أَفْسَرُ لَكَ، اسْمُهُ الْأَوَّلُ رُوزَاتُ. وَعِنْدَمَا تَكْتُبُهُ بِشَكْلٍ صَحِيحٍ، فَإِنَّكَ تَضَعِينَ تَلْكَ الْعَلَامَةَ الصَّغِيرَةَ فَوْقَ حِرْفِ "z"، وَلَهُذَا فَإِنَّهُ كَانَ يَهْجُئُ حَسْبَ الْلُّفْظِ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ، T، O، Z، H، A، R. هَذِهِ هِيَ كَلْمَةُ السِّرِّ لِبَرِيدِنَا الصَّوْتِيِّ فِي الْمُنْزَلِ، وَنَظَامُ الْإِنْذَارِ ضِدَّ السُّرْقَةِ، وَالصَّرَافُ الْآلِيُّ، وَحِسَابَاتُ الْبَنُوكِ. دَائِمًا rozhat. إِنَّهُ مِثْلُ الْجَمِيعِ.

كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَمْلِكَ سَتْ عَشَرَةَ كَلْمَةً سِرِّ مُخْتَلِفةً، وَتَحْفَظُهَا كُلُّهَا؟".

"وَهُلْ سَبَقَ لَكَ أَنْ نَاقَشْتَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ - وَهِيَ أَبَاكَ كَانَ يَسْتَخْدِمُ

كَلْمَةَ سِرِّ وَاحِدَةً - مَعَ أُمِّكَ؟".

"مَلَابِيَنِ الْمَرَاتِ".

"هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَذَكِّرَ أَيِّ مَنْاسِبَةَ مُحدَّدةً؟".

"يُمْكِنُنِي أَنْ أَتَذَكِّرَ أَنِّي كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِيهِ، مِنْذُ سِنْتَيْنِ، وَكَانَ أَبِيهِ

قَدْ اسْتَلَمْ بِطَاقَةَ اعْتِمَادٍ جَدِيدَةً بِوَاسِطَةِ الْبَرِيدِ، وَكَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى الاتِّصالِ لِتَفْعِيلِهَا. فَطَلَبُوا مِنْهُ كَلْمَةَ السِّرِّ الْخَاصَّةَ بِحِسَابِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى السِّمَاعَةِ وَسَأَلَ أُمِّي: مَا هِيَ كَلْمَةُ السِّرِّ الْخَاصَّةِ بِي؟ فَنَظَرَتْ إِلَى السُّقُفِ وَكَانَهَا

كانت ترید أن تقول: بالله عليك يا رجل! ثم التفتت إليّ ورمقتني بنظره يائسة، فأحسست وكأنني سأسقط من على الكرسي، وأبى كان لا يزال محترراً، ثم قلنا له كلامنا في وقت واحد: روزات فبذا وكأنه يقول: أوه، اللعنة؟! وعندما أنهى الاتصال، كان أبي يهز رأسه متعجباً من نفسه فانفجرنا ثلاثة بالضحك".

أبى يضحك للمرة الأولى منذ بدأت المحاكمة. والمحلفون أيضاً استمتعوا بالقصة، فأقول لهم: "عذراً لأنني استخدمت تلك الكلمة".

تقول مارتا: "والآن يا نات، هل أنت مدرك أنني سأطلب منك أن تقوم بعرض على حاسوب والدك؟".

"أجل".

"وهل تعرف ما أريد أن أطلب منك فعله؟".

"لا".

"هل علمت يوماً أن أباك نصب برنامج حذف نهائي؟".

"هذا مستحيل".

يعتراض براند فتحذف إجابتي.

"آسف"، أقول موجهاً اعتذاري للقاضي بي.

يرفع يده ببطف، ثم يقول: "فقط أجب عن السؤال".

تقول مارتا: "نات، سأطلب منك أن تنزل من منصة الشهود وتشغل حاسوب أبيك. وسأطلب منك أن تدخل كلمة السر، روزات. وإذا قبلت، أن تنصب برنامج الحذف النهائي المذكور من قبل الادعاء لنرى إذا كنت تستطيع استخدامه".

يقول براند: "اعتراض".

يضطر المحلفون للمغادرة مجدداً. ويجادل براند بقوله إنني إذا كنت أعرف كلمة السر، فهذا لا يعني أن أمي كانت تعرفها، وحتى إذا واجهت صعوبة في استخدام برنامج الحذف، فهذا لا يعني أن أبي لم يكن باستطاعته التدرب عليه.

يحكم القاضي بي لصالح مارتا، قائلاً: "أولاً، دعنا نرى ما إذا كانت

كلمة السر صحيحة، لأن السيدة سايبتش كانت تعرف تلك الكلمة. وبما أن الادعاء يقول إن القاضي استخدم برنامج الحذف هذا، فللدفاع الحق بأن يبين ما يتطلبه فعل ذلك. وإذا صادف سايبتش الابن مشاكل في القيام بذلك، فالدفاع لا يمكن أن يجادل بأن ذلك يثبت أن القاضي سيصادف المشاكل نفسها. ولكن يمكن للدفاع أن يقول إن هذا صعب جداً بالنسبة إلى القاضي. ويمكن للادعاء أن يدفع بالعكس. جيد، أدخلوا المحلفين". أنا واقف أمام الحاسوب. والمحلفون جميعاً جالسون على مقاعدهم، والقاضي بي نزل ليلى عن قرب، وجميع أفراد طاقم الادعاء متخلقون حولي أيضاً. فتطلب مارتا من القاضي السماح لها بإدارة شاشة الحاسوب نحو المحلفين، فيسمح القاضي بذلك؛ على الرغم من أنها ظاهرة على شاشة العرض بجانب منصة الشهود. فأضغط على زر التشغيل فتدبر الحياة في الجهاز. ثم تظهر شاشة ساطعة طالبة إدخال كلمة السر. تقول مارتا: "سيدي القاضي، سأطلب من سايبتش أن يكتب الأحرف R، O، Z، A، H، T، بعد إذن المحكمة". أكملي".

تنجح كلمة السر، بالطبع. تُسمع نغمة البدء المعتادة، ثم تظهر بطاقة معايدة بمناسبة الميلاد موجهة إلى أبي. والصمت مطبق في القاعة. عنوان البطاقة يقول: "تهنيات موسم 2008"، وضمن حدود البطاقة، يظهر نص مكتوب بخط مزركش سطراً بعد سطر. يتمتم الحضور مع كل كلمة.

الورود حمراء

أزهار البنفسج زرقاء،
أنت في ورطة مرة أخرى
وأنا من أوقعك فيها.

مع الحب، أنت تعرف من.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الخامس والثلاثون

تومي، 24 حزيران، 2009

إن أول شعور ينتاب تومي كان يشبه انفجار أنبوب داخل جدار أو إصابة الشخص الذي يتحدث معك على الهاتف بنوبة قلبية. فهذا كل ما تحسه لوهله. فالحياة العادمة توقفت تماماً.

وعندما كان تومي يقرأ الرسالة أحس بحركة تضطرب بجانبه. وكان المخلفون قد تركوا مقاعدهم وانحنتوا لرؤية الحاسوب عن قرب، وبفعلهم ذلك، تجاوز عدة صحفيين الحد الافتراضي إلى وسط القاعة كي يتمكنوا من الرؤية أيضاً. وهذا أدى ببعض الحضور للتجمُّع في الأمام لاكتشاف ما كان يحدث. وكان الحجَّاب ينتقلون من شخص لآخر طالبين منهم الرجوع إلى أماكنهم. ولم يدرك تومي أن القاضي بي - الذي كان قد نزل ليشاهد العرض - قد عاد إلى سنته إلا عندما تردد صوت مطربته في أرجاء القاعة.

قال القاضي: "ليجلس الجميع. الجميع إلى مقاعدهم". ضرب بمطربته مجدداً، وأعاد الأمر مرة أخرى.

عاد الجميع باستثناء ابن راستي الذي كان يقف وحيداً في منتصف القاعة والحيرة بادية على وجهه. وفي الوقت المناسب، أشارت له مارتا كي يعود إلى منصة الشهود.

ضرب القاضي بمطربته مرة أخرى، وقال: "هدوء، من فضلكم، هدوء". لكن الضجة استمرت، فضرب القاضي بالمطربة بقوة أكبر هذه المرة وقال بحدة: "الزموا الهدوء، وإلا فسأطلب من الحاجب أن

يخرجكم. هدوء!".

مثُل صُف في مدرسة ابتدائية، هدأت القاعة أخيراً.

قال القاضي: "حسناً. أولاً، سيد سابيش، أريد منك أن تنزل مجدداً وتقرأ ما هو مكتوب على الكمبيوتر من أجل كاتب المحكمة، حتى يكون لدينا سجل واضح".

نزل نات مجدداً، ووصف الموجود على الشاشة بصوت رتيب. "هناك بطاقة ميلاد ذات إطار أسود، مع بعض أكاليل الزهور، كما في الهالوين، على الشاشة. كُتب على البطاقة: تمنيات موسم 2008، وفي الأسفل هنالك نص". قرأ نات القصيدة الصغيرة.

قال القاضي: "فكرة جيدة. حضرة المحامين، من فضلكم تعالوا إلى المكتب".

تبع المحامون الأربعه القاضي بي، وخرجوا من الباب المحاذي لمقهده، واتجهوا نحو الجانب الآخر من الممر الداخلي الذي يفصل قاعات المحكمة عن جناح القضاة. وكان ساندي يمشي بصعوبة لوحده، وتومي ومولتو يتقدمان عليه وابنته بعدة أمتار. وكان براند غاضباً بشدة ويردد وهو يمشي قائلاً: "هذه سخافة مطلقة".

كان القاضي بي يستخدم مكتب القاضي مالكولم مارش الذي كان في إجازة لندرس إحدى مواد القانون في جامعة أسترالية. فخلع القاضي بي رداءه وأشار للمحامين كي يجلسوا في حين بقي هو واقفاً وراء طاولة مالكولم.

قال بي: "حسناً، فليخبرني أحدهم، ماذا يحدث؟".

ساد صمت طويلاً قبل أن تقول مارتا: "سيدي القاضي، يبدو أن شخصاً ما زرع رسالة في حاسوب القاضي سابيش قبل متصادرته، ويبدو أن الرسالة تقول إن الشخص الذي كتبها نصب فخاً للقاضي سابيش ليلصق به هذه التهم".

قال براند: "هذا هراء".

رفع القاضي بي إصبعه بحزم قائلاً: "من فضلك، براند". فاعتذر

جيم أكثر من مرة.

"هذا غباء مطلق"، كرر جيم هذه الجملة عدة مرات.

قال بي: "ما العمل؟".

فقالت مارتا: "أظن أنه ينبغي علينا أن نفحص الكمبيوتر. ويجب أن نطلب من الخبراء من كلا الجانبين أن يأتوا، وأن يقوم كل طرف، بوجود الطرف الآخر، بما يمكنه من اختبارات تشخيصية من دون أن يتسببا بتغيير المعلومات، ومن ثم أن يخبرونا عن الوقت الذي وضعت فيه الرسالة في الكمبيوتر، وما إذا كانت تبدو شرعية أم لا".

قال بي: "جيد". لقد أعجبته الفكرة. فسيستدعي آل شتيرن خبيريهما الشابين على عجل، وسيفعل تومي وبراند الشيء ذاته مع البروفيسور جورفيتيش. وقف ساندي ومارتا ليقوما بالاتصالات اللازمة. اتصلت مارتا بالشابين باستخدام هاتفها الخلوي، في حين تبين أن براند كان يحتفظ برقم الدكتور جورفيتيش في المكتب في الجهة المقابلة من الشارع، فخرج ليحضره. وفي تلك الأثناء، طلب القاضي بي من الحاجب أن يطلب من المحلفين المغادرة إلى منازلهم، واتفق المحامون على العودة إلى مكاتبهم وانتظار النتيجة التي سيخرج بها الخبراء. سيعقى الكمبيوتر في القاعة تحت حراسة رجال أمن المحكمة.

وفي أثناء خروجهم، نظر ساندي إلى تومي راسماً على وجهه واحدة من تلك الابتسamas الصغيرة الغامضة. كان ساندي يبدو أفضل بالفعل، حيث كان وجهه أكثر امتلاء، وكان الطفح في طريقه للتللاشي بوضوح. قال تومي في داخله: في الوقت المناسب، في الوقت المناسب اللعين. يبتسم ساندي للكاميرات عندما ينتصر.

قال ساندي: "قضية مثيرة".

في القاعة، كان تومي وروري وروتا يرجعون الأدلة إلى عربة المحاكمة. ولأن براند كان يكره بشدة بعثرة الترتيب الذي خرّن وفقه تلك الأدلة، فهم كانوا يحاولون تذكير أنفسهم بما كان جيم يريد، غير

راغبين بإغضابه في تلك اللحظة، لأنه سيفضّل إن لم يجد كل شيء كما يحب.

وصل ميلو جورفيتنيش عندما كان تومي على وشك العودة إلى المكتب في الجهة المقابلة من المحكمة. وكان ميلو رجلاً قصيراً، أقصر من تومي ومن ساندي أيضاً، ذا شعر أبيض وسكسوكة بيضاء مبقة بالأسفل بسبب غليونه. وكان براند هو من اقترح استخدامه، لأن ميلو درسه مادة البرمجة قبل عقدين. ولأنه كان أول عضو في فريق كرة القدم في الجامعة يحضر فصل جورفيتنيش، فقد حظي براند بالكثير من اهتمام البروفيسور. لكن جورفيتنيش أصبح رجلاً مسنًا الآن وقد الكثير من ذكائه. ولقد وضع خبيراً ساندي الشابين دوائر حوله، ولم يعد تومي يثق به تماماً. وحين أخبر ميلو بما حصل، اتسعت عينا الرجل العجوز، فخشى مولتو أن يكون غير عالم بمثل هذه الأشياء.

عبر تومي الشارع برفقة المرأتين. وجد براند في مكتبه واضعاً قدميه على المكتب ويمضغ عود ثقاب. وكان براند يمتلك الكثير من الصفات الجسمانية التي ظل تومي لسنوات يحسد المحامين الآخرين لامتلاكها. فقد كان ضخماً وقوياً ووسيماً، ويمتلك الصفات التي يحب المحفرون أن يروها في محامي الادعاء بصفة خاصة. ولكن تومي كان يتتفوق على جيم في ميزة جسدية واحدة كانت جوهرية للمحامين، وهي أنه كان قادراً على العمل بشكل ممتاز من دون نوم. أما جيم فقد كان يحتاج لثمان ساعات من النوم، وإذا لم يحصل على هذه الفترة، فإنه يصبح عصبياً مثل طفل صغير. وكان واضحاً أنه بقي في المكتب لوقت طويلاً في الليلة السابقة، يعمل مع التقنيين، ويحاول إيجاد ثغرة في نظرية الانتحار الجديدة التي خرج بها الدفاع. وكانت أوراق السيلوفان من العشاء الذي جلبه من ماكينة البيع مختلطة في سلة المهملات مع الغلاف البلاستيكي الوردي الذي نزعوه عن حاسوب راستي، قبل إزالة الأختام في قاعة المحكمة ذلك الصباح.

قال براند: "هل هذا واقعي تماماً أم ماذا؟ فالضحية تعود من الموت

لتعلن أنها أوقعت بالمتهם. أعني، لا تؤاخذني، هذا هراء لعين. ففي اليوم الأول، يقولون إنه انتحار. وفي اليوم الثاني، تقول هي: أجل، أنا فعلت ذلك كي أنقذ منه".

جلس تومي على الكرسي الخشبي بجانب طاولة مكتب براند. وكانت هناك صورة جديدة لجودي والفتاتين، وتمعن تومي في الصورة قليلاً.

"سأء جميلات".

ابتسم جيم قليلاً. أخبره تومي بوصول جورفيتيش، فسألته براند: "ماذا قال؟".

"قال ينبغي أن يلقوا نظرة إلى المفكرة ليعرفوا متى جرى إنشاء الكائن. لم أفهم تماماً، لكنني توقعت أنك ستفهم. كائن يعني البطاقة، أليس كذلك؟".

"صحيح". فكر براند قليلاً بينما كان يمضغ عود الثقب. "أعتقد أن برنامج المفكرة يخزن تاريخ إنشاء الكائن كجزء من العمل. وأعتقد أنه قال لي ذلك على الهاتف".

"لكننا كنا نملك ذلك الشيء - حاسوب راستي - تحت القفل والمفتاح منذ تشرين الثاني الماضي، أليس كذلك؟".

"تقريباً. في بداية كانون الأول، في الواقع. لقد بقي في محكمة الاستئناف لمدة شهر مع جورج ماسون عندما كنا نتشاجر حول ما يمكننا تفحصه. أتذكر؟".

ذكر تومي فعلاً.

"حسناً، ولكن، إذا كانت البطاقة حقيقة...".

فاطعه براند قائلاً: "إنها ليست حقيقة".

"حسناً، حسناً. ولكن، سايرني لثانية...".

قال براند مجدداً: "إنها ليست حقيقة". كانت فتحنا أنفه تتسعان مثل فتحتي أنف ثور هائق. ولم يكن قادرًا على تقبيل فكرة أن الرئيس كان مستعداً للتفكير في هذا الاحتمال. والسبب واضح كل الوضوح. إما أن

تكون البطاقة مزروعة، وفي هذه الحالة ينتهي أمر سابيتش، أو يتبيّن أنها حقيقة وفي هذه الحالة، لن تبقى خيارات كثيرة سوى سحب القضية. كان الأمر بهذه البساطة.

جلس تومي وبراند صامتين لبعض الوقت. ثم طرق مساعد تومي، مالفيرن، الباب ليخبره بأن دومينغا على الهاتف. لعلها سمعت خبر حدوث تطور دراميكي في قضية سابيتش.

قال تومي وهو ينهض ليقف: "أخبرني عندما يتصل جورفيتش". كان هاتف براند يرن أيضاً فهز رأسه موافقاً بينما كان يرفع السماعة.

و قبل أن يصل تومي إلى الباب، سمع براند يقول: "جورفيتش". فالتفت ليرى إصبع براند مرفوعة في الهواء طالباً منه الانتظار. راقب تومي جيم بينما كان يستمع إلى جورفيتش. وكانت عيناه الداكنتان ثابتتين، ووجهه عابساً. "حسناً". ثم كرر عبارة أنا أفهم عدة مرات. وفي النهاية، وضع جيم السماعة مكانها بقوة وأغمض عينيه. قال تومي: "ماذا؟".

"لقد انتهوا من إجراء فحص أولي".
"إلام توصلوا؟".

"الكائن أنشئ قبل يوم من وفاة باربارا". فكر قليلاً ثم أضاف: "إنها حقيقة". ثم ركل سلة المهملات بجانب طاولته فتطايرت المحتويات في المكان. "إنها حقيقة".

الفصل السادس والثلاثون

نات، 24 حزيران، 2009

بعد أن صرف القاضي بي المحامين من مكتبه، عدت وأبي وساندي ومارتا إلى مكتب ساندي الكبير. وبعد أسبوعين بدا خلالها ساندي مثل رجل ميت يمشي، ها هو يحاول الآن احتواء حماسته البالغة، من أجل أبي. ولا يكف هانقه عن الإضاءة باتصالات من صحفيين، فيخبرهم بأن الدفاع ليس لديه تعليق في الوقت الحاضر. وأخيراً، يرن جرس سكرتيرته ويطلب منها ألا تمرر له أي شخص بعد الآن.

يقول ساندي: "جميعهم يسألون السؤال نفسه؛ إذا كنا نظن أن مولتو سيسحب القضية".

فأسأله أنا: "هل سيفعل ذلك؟".

"مع مولتو، لا يمكنك أن تعرف أبداً. قد يوتفه براند بكرسيه كي لا يسمح لذلك بالحصول".

تقول مارتا: "مولتو لن يستسلم. وسيخترعون نظرية حول كيفية زرع راستي هذه البطاقة في الحاسوب".

يقول ساندي: "لم تلمس يدا راستي الحاسوب منذ ما قبل اتهامه". ينظر ساندي إلى أبي الذي يجلس محدود الظهر على كرسيه، يستمع ولكن من دون أن يتكلم. إنه أكثرنا صدمةً وهدوءاً منذ أن خرجنا من المحكمة قبل ساعة ونصف. فمنذ سنوات، في إطار دراستي لمادة علم النفس، زرت مستشفى للأمراض العقلية، ورأيت عدة أشخاص أجريت لهم عمليات استئصال للفصوص الجبهوية في الخمسينات. فكانت

أعينهم متراجعة عدة سنتمترات داخل رؤوسهم. وحالة أبي تشبه قليلاً تلك الحالة الآن.

يقول ساندي: "أي نظرية شبيهة بهذه ستكون مربكة لهم".

تقول مارتا: "هذا ما أقوله. والصحفيون يفترضون أنها بارバラ".
يقول ساندي: "ومن غيرها؟".

إنني أسأل نفسي هذا السؤال طوال الدقائق التسعين الماضية. لقد تخليت عن الاعتقاد بأنني أفهم أبي تماماً منذ وقت طويل. من يكون كل منها بالنسبة إلى الآخر، أو ذلك الجزء من حياتهما الذي لا ينقطع مع حياتي، أمر لن أفهمه بشكل جيد أبداً. فأنا أقول إن هذا يشبه الوضع مع أمها كثيراً.

لكن الحقيقة القاسية هي أنني عندما أسأل نفسي عما إذا كنت حقاً أصدق أن أمي قتلت نفسها، ونصبت لأبي الفخ كي تقع مسؤولية موتها عليه، فإن شيئاً ما داخلي يقول إن هذا الاحتمال ممكن تماماً. إذ كانت نوبات غضب أمي قاتلة، وكانت تأخذها إلى مكان تصبح فيه شخصاً مختلفاً إلى حد بعيد.

وهذه النظرية تؤكد الواقع تماماً. ولهذا السبب لا توجد سوى بصمات أبي على زجاجة الفينيلزين. ولهذا السبب أيضاً أرسلته كي يأتي بالشراب والجبن. وللسبب نفسه لم تُحذف ملفات البحث عن الفينيلزين من الكمبيوتر.

وأخيراً يقول والدي: "ولكن، لماذا تسمّ نفسها بشيء يمكن أن يجعل الموت يبدو أنه موت طبيعي؟".

"أعتقد"، يتوقف ساندي ليسعى قليلاً ثم يكمل، "لأن هذه الطريقة تورّطك أكثر. وبالطبع، فإنها تدخل أيضاً قضية هارناسون التي كانت تحت يدك، والتي كانت تعرف عنها الكثير".

يقول أبي: "إنها ورطة في حال اكتشفت فقط".

"أدخل هنا تومي مولتو. واستناداً للماضي بينكمَا، فهل سيسمح مولتو لموت قبل الأوان لامرأة أخرى مقرّبة منك أن يمر من دون

تحقيق؟ فمن المؤكد أن باربارا كانت تعتبر تومي عدوك اللدود".
يبدو أن والدي، بعكس ساندي وابنته، لا يصدق هذه النظرية تماماً، فهو يهز رأسه مرة واحدة ثم يقول: "لماذا لم تكتب اسمها؟".
هذا واضح جداً، أليس كذلك؟".

"وإذا كانت ستوقع بي، فلماذا تكتب نفسها مشقة مساعدتي بذلك الطريقة؟".

"وضلعك في قفص الاتهام، يا راستي، كان ردأ على حياتك.
ولكن تركك في السجن لبقية حياتك كان كثيراً جداً، وخاصة إذا أخذت بعين الاعتبار نات".

يقلب والدي الأمر بعقله. ومن الواضح أن ذهنه يعمل الآن بصورة أبطأ من المعتاد. وبعد انتهاءه من التفكير، يقول: "إنها خدعة. فإذا كانت باربارا هي من أرسلت البطاقة، فلا بد من أن هناك خدعة. سيكون ذلك أشبه بحبر غير مرئي. وحالما نعتمد على هذا، سيظهر أمامنا شيء لم نكن نراه".

يقول ساندي: "حسناً، ماتيوس وريزارد" - إنه الوحيد الذي لا يدعو خبيري الحاسوب هانز وفرانز - "ينبغي أن يعرفا ذلك".
يجيب أبي بصورة قاطعة: "لن يكونوا أفضل منها".

كان أبي يهدئ من انفعالات أمي عبر غمرها بجميع أنواع الإطراطات: طبخها، شكلها. وأعتقد أنه كان يعني كل ذلك؛ على الرغم من أنه ربما كان يكره حقيقة أن المديح كان مطلوباً. ولكن الشيء الوحيد الذي كان يقوله بصدق نام هو، "باربارا برنشتاين هي أذكي إنسانة عرفتها". إنه واثق الآن أنها ستثبت أنها أشد ذكاءً من جميع الموجودين في هذه الغرفة. قد أجد هذا مؤثراً، لو لا أنه يوحى ضمناً بأن نوايا أمي لم تكن حميدة على الإطلاق كما يظن ساندي. وما يقوله أبي هو أنها لم تكن تقصد إزعابه وحسب، بل إنها ت يريد أن تقلب حياته رأساً على عقب من مكانها في قبرها.

وبعد عشر دقائق، تعلن سكرتيرة ساندي أن هانز على الهاتف.

فلقد أنهى الخبراء فحص الحاسوب، وحتى جورفيتنيش يوافق على أن البطاقة تبدو حقيقة. لقد أنشئت في عصر اليوم الذي سبق وفاة أمي، فيما يبدو قبل دقائق من وصولي وأنا إلى المنزل لتناول طعام العشاء مع والدي. يبلغ شتيرن مكتب القاضي، فيستدعى جميع المحامين إلى المحكمة كي يقدم الخبراء الثلاثة تقاريرهم للقاضي بي. ننزل إلى المرأب ونحضر أنفسنا في كاديلاك ساندي للقيام برحالة العودة القصيرة.

تقول مارتا: "لكنه يوم سيئ لتومي. فكم وددت لو كنت هناك لرؤيه تعابير وجههم عندما أخبرهم جورفيتنيش إن البطاقة حقيقة". تبدو قاعة المحكمة مثل مدينة أشباح عندما نصل إليها. لقد كانت مكتظة بالناس لأسباب، ولم تكن مقاعد الحضور الطويلة تتسع لأي شخص إضافي. ولكن، من الواضح أن الصحافيين، وهواة المحاكم الذين يتجلولون في المرات بحثاً عن أي تسلية مجانية، لم يعرفوا بخصوص انعقاد المحكمة الآن. فيذهب ساندي ومارتا ليتحدثا مع هانز وفرانز، لكن وصول القاضي بي يقطع عليهم اجتماعهم.

اتفق المحامون على أن يتحدث جورفيتنيش مع القاضي بي؛ فنظرية زبونه هي التي تعرّضت للطعن. فيقول جورفيتنيش إن البطاقة هي ملف رسومات نموذجي يفتح بواسطة مذكر أحد كي يظهر في يوم رأس السنة 2009. والتاريخ يفسر سبب عدم اكتشاف البطاقة من قبل أي من خبراء الطرفين الذين أجروافحوصات شرعية متنوعة على الحاسوب في بداية كانون الأول.

إن تحديد موعد ابتكار الرسالة في موسم الأعياد يفصح عن أشياء كثيرة بالنسبة إلى، لأنه كان دائمًا وقتاً غريباً في منزلنا. فقد نشأت أمي نشأة يهودية وكانت تضيء شموع الحانوكا معي في كل سنة، غير أن ذلك كان دفاعاً عن النفس إلى حد كبير. فلم تكن أمي تحب العطل الدينية عموماً، والميلاد بصفة خاصة. أما بالنسبة إلى أبي، فقد كان الميلاد إحدى البقع المضيئة القليلة في العام عندما كان طفلاً، وقد ظل كذلك حتى عندما تقدم في السن. ولعل الجزء الأسوأ بالنسبة إلى أمي هو أن

الأرمن يحتفلون بعيد الميلاد في 7 كانون الثاني؛ الأمر الذي كان يعني إطالة مدة العطلة دهراً بأكمله.

يقول جورفيتيش: "تحصصنا ملفات التسجيل في الحاسوب وانتبهنا بشكل خاص للملف.pst، الذي يحوي الأجسام المجدولة. يوجد تاريخ إنشاء الكائن ضمن الكائن نفسه. ويُظهر ملف.pst أيضاً تاريخ آخر استُخدم فيه برنامج المفكرة بأي طريقة كانت، حتى لو كان ذلك لمجرد فتحه. والكائن المعنى هنا يُظهر تاريخ إنشاء هو 28 أيلول 2008، 5:37 عصراً. لذا، ففي هذه المرحلة، يمكنني أن أقول للمحكمة إن هذا الكائن يملك كل مظاهر الكائن الشرعي. ولسوء الحظ، وبما أن الملف فتح في المحكمة هذا الصباح، فإن ملف.pst. الآن يحوي تاريخ اليوم. ولكننا جميعاً تفقدنا دفاتر ملاحظاتنا، ولا حظنا أنه عندما فحص الحاسوب وأخذت نسخة عنه في الخريف الماضي، كان تاريخ ملف.pst. هو 30 تشرين الأول 2008، أي قبل عدة أيام من احتجاز الحاسوب. وكما نوَّهت عندما أدليت بشهادتي، فهناك ضرر في ملفات التسجيل بسبب استخدام برنامج الحذف، لكن هذا الضرر كان موجوداً عندما فحصت نسخة الحاسوب من قبل كلا الطرفين في كانون الأول الماضي".

يفت تومي مولتو ثم يقول: "سيدي القاضي، هل يمكنني أن أطرح سؤالاً؟".

بسط بي يده.

"ماذا لو أن شخصاً ما وصل إلى الحاسوب في تشرين الأول وأرجع التاريخ إلى الوراء ثم أضاف هذه البطاقة؟".

من الواضح أن براند يعرف أن هذا غير محتمل، لذا يمد يده نحو رئيسه. ويهز هانز وفراانز رأسيهما أيضاً.

ويبدو أن جورفيتيش، بدوره، يوافقهم الرأي: "لا يعمل البرنامج بهذه الطريقة. لكي تنسئ شيئاً مُجذولاً، لا يمكن إعادة الساعة ضمن البرنامج".

ينقر القاضي بي بقلمه على الطاولة أمامه ثم يقول: "سيد مولتو،

ماذا ستفعل؟".

يقف مولتو، ثم يقول: "سيدي الرئيس، إذا سمحت لنا، نود أن نفكر في الأمر هذه الليلة".

"حسناً. التاسعة صباحاً. ليستعد المحفون". ويضرب مطربته.
أقف وأنظر أبي كي نخرج معاً. وعلى الرغم من أنه ربما سيخرج حراً جداً، إلا أنه لا يزال عابساً.

الفصل السابع والثلاثون

تومي، 25 حزيران، 2009

"إستوي إمبارَزاداً". قال تومي لنفسه بينما كان يمشي نحو المكتب من المرأب. هاتان الكلمتان اللتان قالتهما الزوجة بافتخار خجول كانتا لا تزالان تترددان داخل تومي. "إستوي إمبارَزاداً"، هذا ما قالته دومينغا البارحة عندما رفع تومي سماعة الهاتف بعد مغادرته مكتب براند. فلطالما كانت دوراتها الشهرية غير منتظمة، وتومي وهي كانتا يحاولان منذ مدة، لاعتقادهما أنه يجب ألا يبقى توماسو طفلاً وحيداً. وكان يبدو أن محاولاتهما لم تنجح. ولا بأس في ذلك بالنسبة إلى تومي، فهو كان يشعر مسبقاً بأنه مبارك أكثر مما يتخيّل. ولكنها الآن إمبارَزاداً منذ ستة أسابيع، وثمة حياة تتبع داخلها مجدداً.

هكذا كان تومي يعرف دائماً أن الله موجود. ويمكن أن تسمى مصادفة أن تكتشف زوجته أنها حامل في اللحظة نفسها التي يعلم فيها أن مطاردته الطويلة لراستي سابيتش فشلت مرة أخرى.

لقد ذهب إلى المنزل باكراً يوم أمس، بإحساس نسي بالراحة، وظل يحتفل مع زوجته وابنه إلى أن غلبهم النعاس، ثم استيقظ في الثالثة بعد منتصف الليل كي يفكّر. فجلس في الظلمة في المنزل الذي سيصبح صغيراً جداً لاحقاً، وغمّرته الشكوك التي كان يدفعها جانبها عندما كانت إمكانية مجيء طفل جديد لا تزال بعيدة. وهل ينبغي على رجل في سنّه أن ينجب طفلاً آخر؟ فتاة مثلاً، كما كان تومي يأمل، من أجل زوجته؛ فمن المرجح أنها ستُدفن والدها عندما تبلغ سن المراهقة، أو عشرينياتها

كحد أقصى. ولم يكن يعرف الإجابة. وكل ما كان يعرفه هو أنه كان يحب دومينغا بجنون، وكل ما عدا ذلك غير مهم. إنك تتبع قلبك نحو الخير وتقبل ما يأتي به فيما بعد.

ومع راستي، فعل تومي أيضاً ما هو صائب. ولقد أدرك تومي، بعد يوم كامل تقريباً من التفكير، أن إنهاء القضية الآن سيكون مناسباً للجميع. فقد تعرض المدعون العامون للخدعة من قبل الضحية، لا أكثر ولا أقل. ولا يمكن لأي شخص أن يشير بإصبعه إليهم. وسيخرج راستي حراً، لكن ما مرّ به لم يكن نتيجة لسوء نية تومي بأي شكل من الأشكال، بل نتيجة الأخطاء البشعة التي ارتكبها راستي بحق عائلته المضطربة. وإذا فكرت في الأمر حقاً، فستجد أن راستي هو الذي كان يجب أن يعتذر. وبالطبع، فهذا لا يعني بأنه سيفعل ذلك.

إذا أنهى المدعون العامون القضية الآن، فسيكونون الأشخاص الطيبين الذين قاموا بواجبهم، ثم اتبعوا الأدلة إلى حيث أوصلتهم. وإذا استمرروا فيها، كما كان براند يريد، فإنهم سيدون كحاذفين لم يتمكنوا من مواجهة الحقيقة.

وبعد أن فكر - مجدداً - في كل شيء قلبه في ذهنه ليلة أمس، وصل تومي إلى الرواق الرخامي لمبني البلدية القديم، متعرضاً على الوجه المألوفة القادمة لتبدأ يوم عمل جديداً. فلم يقترب منه أحد للتحدث معه؛ إشارة إلى مدى التأثير الذي أحدثته التغطية الإعلامية في الليلة السابقة. وأخذه غولدي، عامل المصعد، الذي كان يبدو عجوزاً منذ أن بدأ تومي العمل هنا قبل ثلاثة عاماً، إلى الأعلى ودخل عبر باب القسم.

وكان باستطاعة تومي رؤية براند ينتظره في آخر الممر المعتم الطويل. وبينما كان مولتو يقترب، كان يبحث عن كلمات مناسبة، متمنياً لو أنه أمضى وقتاً أطول في التفكير فيما سيقوله للرجل الذي لم يكن مجرد أشد مساعديه إخلاصاً، بل صديقه المفضل أيضاً. وعندما أصبح تومي على بعد نحو عشرة أمتار، بدأ براند بالرقص.

من فرط دهشته، توقف تومي ليراقب جيم يرقص رقصة "هيب

- هوب" شبيهة بذلك التي يؤديها لاعبو كرة القدم الأمريكية في المنطقة الأخيرة. وكان يعرف جيم جيداً ليدرك أنه تدرّب على هذه الرقصة أمام مرآة الحمام (مع أنه قام بعدة اعترافات لتسجيل الأهداف في أيامه) متمنياً لو أنه ولد بعد جيل من ولادته الحقيقة.

كان دوران جيم يقوده باتجاه مولتو، وعندما أصبح قريباً جداً، كان باستطاعة تومي سمعه يعني ، مع أنه لم يكن ليدعوه هذا غناً. وكان يلفظ كلمة أو كلمتين كلما انتقل من قدم إلى أخرى.

"راس - تي .

وقد أرضاً.

رأس - تي .

وقد أرضاً.

رأس - تي .

ذهب بعيداً.

رأستي .

ذهب بعيداً.

رأستي .

ذهب إلى السجن".

وعلى الرغم من أن غناءه كان بعيداً عن الإيقاع كلّاً، إلا أنه أدى السطر الأخير مثل مغنٍ في برودواي ، مع ذراعين ممدودتين على وسعيهما على الجانبين وصوت متفرّج . فتوقفت عدة سكريات وبعض رجال شرطة وبعض المساعدين لمشاهدوا العرض.

صاح أحدهم مازحاً: "أحسنت أيتها الفتاة". فضج الممر بالضحك .
قال مولتو: "ماذا؟".

اقترب براند مبتسمًا من تومي وانحنى كي يطوق الرئيس - الأقصر بنحو عشرين سنتيمتراً - ويعانقه بقوة . ثم أخذ المذيع العام إلى مكتبه، حيث كان جورفينتش ينتظره .

قال براند: "أخباره . خطرت في ذهن مليو فكرة مذهلة ليلة البارحة".

حكَ جورفيتيش سكسوكته المصرفَ قليلاً، ثم قال: "كانت فكرة جيم، في الحقيقة".
"لا على الإطلاق".

قال تومي: "لا يهم من منكم صاحب الفكرة، ويمكنكم أن تشاركا جائزة نobel. فما هو السبق الصحفي؟".

قال جورفيتيش: "هل تذكر عندما قابلتك، يا توم، وكنت تلعن وتشتم قضاة محكمة الاستئناف؟".

هز تومي رأسه وقال: "لم يريدوا أن ننظر إلى وثائق المحكمة الداخلية في حاسوب راستي".

"صحيح، ولهذا السبب أنشأنا نسخة عن القرص الصلب وسلمنا الحاسوب الأصلي إلى رئيس القضاة هناك".
"ماسون".

"القاضي ماسون. حسناً، كنا أنا و جيم نتحدث ليلة أمس ، وقررنا أننا إذا أردنا أن نتأكد من البطاقة تلك، فيجب علينا أن ننظر إلى النسخة التي أنشأناها عن حاسوب سابيش في تشرين الثاني الماضي؛ عندما صادرتم الحاسوب أول مرة. وهذا ما فعلناه. وذلك الكائن - أي البطاقة - لم يكن هناك".

جلس تومي على كرسيه الضخم ينظر إلى كل منها. وأول انطباع تكون لديه هو الشك في كلام جورفيتيش. العجوز لم يكن نداً لبراند، ولا بد أنه دفع لارتكاب خطأ جسيم من قبل تلميذه القديم.
سؤاله مولتو: "كنت أعتقد أن البطاقة أنشئت في أيلول الماضي قبل وفاة باري؟".

أجاب جورفيتيش: "مثلي أنا. إنها تملك كل مظاهر البطاقة الحقيقة. ولكنها لم تكن كذلك. لأنها ليست موجودة في النسخة. لقد وضعت في الحاسوب بعد مصادرته".
"متى؟".

"لا أعرف. لأن ملف pst. يحمل الآن تاريخ البارحة".

قال براند: "لأن الدفاع فتح ذلك الملف في المحكمة عندما قام بتشغيل الحاسوب". وكان سعيداً لأن لذكير تومي بأنه حذر من السماح لشيران بفعل ذلك.

قال جورفيتنيش: "بالضبط. ولكن، لا بد أن البطاقة أضيفت خلال الشهر الذي بقي فيه الحاسوب في عهدة القاضي ماسون. لقد غُلف وختم هناك في مكتب القاضي ماسون في اليوم الذي أمر فيه القاضي بي بإعادته إلى عهتنا".

تذكّر تومي كلمات شيرن البارحة: إنها قضية مثيرة.
"أين كانت النسخة؟".

"كانت النسخة محفوظة في غرفة أدلةكم. ثم أخذها جيم وصنع لي نسخة عنها ليلة أمس".

"لم يكن رجلاً ساندي معكما؟".

تدخل براند هنا: "إذا كنت تخشى أن يدعوا أنتا علينا بالنسخة، فقد أعطيناهم نسخة عندما صنعناها. وبوسعمهم إلقاء نظرة على نسختهم. فالبطاقة لن تكون موجودة هناك".

شرح جورفيتنيش أن النسخة صُنعت بواسطة برنامج يُدعى حقيقة أدوات الأدلة. أي أن خوارزميات البرنامج حصرية الملكية، ولا يمكن فك شيفرة النسخة إلا بالبرنامج نفسه؛ الذي كان مصمماً للقراءة فقط، وذلك من أجل ضمان عدم تعديل النسخة بعد صنعها".

قال جورفيتنيش: "أؤكد لك، تومي، إن راستي وجد طريقة لوضع البطاقة في حاسوبه".

سأل مولتو: "كيف أمكن لراستي أن يفعل ذلك؟". لم يكن جورفيتنيش متأكداً، ولكن بعد تمضية ليلة في التفكير، خرج بنظرية قابلة للتطبيق. كان هناك برنامج يُدعى جاسوس المكتب، وهو من اختراع أحد قراصنة الحواسيب وقد أصبح متوفراً على الإنترنت الآن، وهذا البرنامج يسمح لشخص ما بدخول برنامج المهام المجدولة وإعادة صياغة الكائنات المخزنة هناك. وبوسعم إرجاع تاريخ مذكور ما، أو محو معلومات

مورّطة من المفكرة، أو حذف – أو إضافة – أسماء الأشخاص الذين كانوا موجودين في اجتماع هام. وعندما أدخل الكائن الجديد – بطاقة الميلاد في هذه الحالة – في حاسوب سابيتش، كان يجب حذف برنامج جاسوس المكتب من القرص الصلب بواسطة برنامج حذف نهائى، وبعد ذلك كان يجب حذف البرنامج نفسه أيضاً، الأمر الذى يتطلب تغييرات يدوية في ملفات التسجيل. وليس البطاقة مفقودة في النسخة من الخريف الماضى وحسب، إذ لاحظ جورفيتىش أيضاً وجود فوارق دقيقة في بقایا برنامج الحذف النهائى موجودة في قطاعات فارغة متنوعة في القرص الصلب. وهذا يوحي بأن برنامج الحذف النهائى أضيف وأزيل مررتين، مرة قبل وفاة باربارا ومرة أخرى بعد مصادرة الحاسوب لأول مرة.

"اعتقدت أن ماسون أمن على الحاسوب تماماً."

قال جورفيتىش: "وهذا ما فعله، أو ما كان يعتقد أنه فعله".

قال براند: "أيها الرئيس، أدار راستي تلك المحكمة لمدة ثلاثين عاماً. لا تظن أنه كان يملك مفاتيح لكل شيء هناك. كان ينبغي علينا أن نفحص القرص الصلب اللعين مرة أخرى عندما استعدناه، لكن ماسون قال إنه وضع سجلاً لكل شيء تفحصه رجال راستي، وطلب بي ختم الحاسوب كشرط لإعادته إلى عهدهما. ولم يكن باستطاعتنا مجادله حول ذلك".

شرح تومي الأمر لنفسه مرة أخرى. فباربارا لم تصنع بطاقة الميلاد، لأنها كانت ميتة عندما حدث ذلك. والشخص الوحيد الذي سيستفيد من وضع البطاقة في المفكرة هو راستي سابيتش. ويبدو أن راستي كان يعرف الكثير حول الحواسيب.

أخيراً ضحك مولتو بصوت عالٍ. كان مذهولاً ومسروراً بأن واحد.

ثم قال: "عظيم، سأستمتع بحواري مع ذلك الأرجنتيني الصغير المعجرف... واؤ".

رفع براند – الذي ظل واقفاً طوال الوقت – يديه وقال لتومي: "أتريد أن ترقص؟".

الفصل الثامن والثلاثون

نات، 25 حزيران، 2009

كما توقعت مارتا بالضبط، يصل محامو الادعاء إلى المحكمة هذا الصباح وبجعبتهم نظرية جديدة تفيد أن أبي مذنب. يقف جيم براند ويقول للقاضي بي إن الادعاء استنتاج أن البطاقة مزيفة.

يقول ساندي معتبراً: "سيدي الرئيس!". يتشبث بالطاولة مثل شخصية كارتونية محاولاً الوقوف من دون جدوى، إلى أن تساعده مارتا كي يقف. "لقد اعترف خبير الادعاء نفسه البارحة أن هذا المسمى الكائن كان حقيقياً".

يجيب براند: "هذا كان قبل أن نلقي نظرة على النسخة". يدعو البروفيسور جورفيتيش كي يشرح استنتاجاته الجديدة. وقبل أن يبدأ جورفيتيش بالكلام تدس مارتا يدها في محفظتها باحثة عن هاتفها الخلوي ثم تخرج من القاعة لتتصل بهانز وفرانز.

يبدأ قلم رصاص القاضي بي بالنقر على الطاولة أمامه قبل أن يصل جورفيتيش إلى منتصف محاضرته.

أخيراً يقول: "يا شباب. ماذا نفعل هنا؟ يفترض أن يكون الشاب سابيتش على منصة الشهادة. المحققون ينتظرون بجانب هواتفهم. هل نحن نحاكم في هذه الدعوى أم ماذا؟".

يقول شتيرن: "سيدي الرئيس، كنت أمل أن يُنهي الادعاء هذه الدعوى اليوم. لا أصدق ما يجري. هل يمكنني أن أسأل إذا كانوا ينوون تقديم الأدلة لدعم نظريتهم الجديدة بخصوص البطاقة؟".

يُجَبِّ براوند: "بالتأكيد. كانت البطاقة احتيالاً على المحكمة".
يهز شتيرن رأسه بحزن: "من الواضح أن الادعاء لا يمكنه
الاستمرار سيدى الرئيس، ما لم نجرِ فحصنا الخاص".

نعود جميعنا إلى مكتب شتيرن وننتظر جواباً من هانز وفرانز اللذين
يملاكان نسخة عن القرص الصلب في مكتبهما. فأتصل بأنا في الوقت
الفاصل لأخبرها بما طرأ. كانت تؤمن منذ البداية بأن تومي مولتو،
عندما يُحَشِّر، سيلجاً للغش كي يربح، وهي متأنكة بأنه سيحاول فعل
ذلك مرة أخرى.

تقول لي أنا الآن: "لا يغير النمر بقعة أبداً". ليلة البارحة توَقَّعت
أنا - مثل مارتا - أن يأتي مولتو بعذر ما ليتجنب سحب القضية.

يصل هانز وفرانز إلى المكتب بعد نحو ساعة، مرتدبين الملابس
نفسها التي كانا يرتديانها البارحة؛ جينزاً عصرياً، وشعرهما مغطى
بالجبل. يبدو أن الشابين لا يتركان النوادي قبل أن تغلق أبوابها.
ويبدوان الآن وكأن مارتا أيقظتهما من النوم.

يقول هانز، الأطول بين الاثنين: "حتى الساعة المعطوبة تكون
صحيحة مرتين في اليوم. جورفينتش محق".

تقول مارتا: "أتفعل إن البطاقة ليست موجودة في النسخة؟".
وكانت قد خلعت حذاءها، ووضعت قدميها على حافة طاولة القهوة.
يضحك أبي بصوت عال ثم يقول: "إنها باربارا". يضع أصابعه
على أنفه، ويؤرجح رأسه يميناً ويساراً بذهول. تبدو فكرة غريبة، ولكن
مع ذلك، فإنما أشعر على الفور بأنه قد يكون مصيباً. "لقد وجدت طريقة
لفعل ذلك بحيث لا تظهر على النسخة".

تسأل مارتا الخبريين: "هل هذا ممكن؟ هل يمكن أن تكون قد
استخدمت شيئاً يشبه الحبر السري، وأنشأت هذا الكائن بحيث لا يُنسَخ؟".
يهز هانز رأسه دلاللة على النفي، لكنه ينظر إلى فرانز للتأكد، فيهز
الأخير رأسه بصورة حازمة.

يقول ريزارد: "مستحيل. هذا البرنامج - حقيقة أدوات الأدلة -

يشبه قبليه يا رجل. المسيطر في هذه الصناعة يصنع نسخة طبق الأصل. ولقد استخدمآلاف المرات فيآلاف الحالات، من دون تسجيل أي تعديل".

يقول أبي: "أنت لم تعرف باربارا".

يقول فرانز: "أيها القاضي، لدى زوجة سابقة. وأحياناً أعتقد أنها تملك قوى خارقة أيضاً، وخاصة عندما أملك نقوداً زائدة".

يقول أبي مرة أخرى: "أنت لم تعرف باربارا".

"حضره القاضي، استمع إلى، كان يتوجب عليها أن تعرف بالضبط أي برنامج سيستخدم؟".

"قلت للتو إنه مسيطر في هذه الصناعة".

"ستون بالمائة من السوق، ولكن ليس مائة بالمائة. ثم كان يتوجب عليها أن تخترق الخوارزميات، وتنشئ برنامجاً كاملاًكي يستغل بشكل معاكس للبرنامج، بحيث يستغل مع الإلقاء، ولا يظهر في أي مكان في النسخة، أو في القرص الذي نظرنا إليه البارحة. أعني، يا صاحبي: يمكنك أن تسأل كل العبارفة في سيليكون فالى، وسيقولون لك إنهم لن يفعلوا ذلك. فأنت تتحدث عن أمر شبه مستحيل".

يتعمن أبي في وجه فرانز بتلك النظرة الجامدة الساهمة التي أراها على وجه أبي كثيراً في هذه الأيام.

تقول مارتا: "إذاً، متى أضيفت البطاقة؟".

ينظر فرانز إلى هانز فيهز هذا الأخير كتفيه.

يقول فرانز: "لا بد أن يكون ذلك قد حدث عندما كان الحاسوب في مكتب القاضي الآخر".

"أقصد القاضي ماسون؟ لماذا؟ لماذا ليس بعد ذلك؟".

"يا صديقتي، الحاسوب بأكمله كان مغلفاً ومختوماً ولم يجهز للتشغيل سوى البارحة. أنت رأيته. حتى إن جورفينيتتش جعلنا ننظر إلى الأختام قبل أن ينزعوها في المحكمة كي نتأكد أنها الأصلية. وأنا وماطيوس وجورفينيتتش نزعنا آخر أشرطة الأدلة اللاصقة، ووصلنا

جهاز العرض، ووحدة المعالجة المركزية في قاعة المحكمة معاً".
"لا يمكن أن يكونوا قد نزعوا الغلاف والأختام ثم أعادوها مرة أخرى؟".

يحاول هانز وفرانز أن يشرحوا كيف أن ذلك غير ممكن، فستظهر على شريط الأدلة كلمة مُنتهك باللون الأزرق حالما يتم نزعه. فيقاطعهما ساندي، قائلاً: "محامو الادعاء لا يعبثون في العادة بالأدلة بالإضافة برهان يدعم براءة المتهم. وإذا كانت البطاقة خدعة، فلن نصل إلى أي مكان مع القاضي أو المحلفين بالدفع بأن هذا من فعل محامي الادعاء. إما أن نستمر على نظرية راستي حول باربارا، أو نجد طريقة أخرى لتفسير سبب عدم وجود البطاقة على النسخة".

يقول هانز بشكل قاطع: "لأنها لم تكن موجودة".
"إذا، من الأفضل لنا أن نرى ما إذا كان بوسعنا مواجهة ما سيقوله محامو الادعاء".

في اليومين الأخيرين، بدأ ساندي باستخدام عكاز. إنه يتحرك بواسطته برشاقة أكبر مما يفعل في قاعة المحكمة. وهو يتکئ عليه الآن، ويتوجه إلى ما وراء طاولته، ويمسك بسماعة الهاتف.
تقول مارتا: "بعن ستتصل يا أبي؟".
"جورج".

القاضي ماسون لا يزال الرئيس المؤقت لمحكمة الاستئناف. إنه غير موجود، لكنه يتصل بعد عشرين دقيقة، ويتبادل هو وساندي حديثاً من الواضح أنه يدور حول صحة الأخير، لأن ساندي يجب باستمرار، "كل هذا طبقاً للبرنامج"، و"أفضل مما كان متوقعاً". وأخيراً يسأل ساندي القاضي ماسون ما إذا كان بوسعي وضعه على مكبر الصوت كي يسمع بقية الفريق.

يقول القاضي: "لقد أجريت حواراً هذا الصباح مع تومي مولتو. كما تذكر ساندي عندما استلمنا الحاسوب، اتفقنا جميعاً على أن لا يستخدمه أي شخص لوحده، وأن أحافظ بسجل عن أي وثيقة جرى الاطلاع

عليها. فطلب توم مني نسخة عن السجل، وقد أرسلتها إليه بواسطة البريد الإلكتروني. وسألتني سعيداً لفعل الشيء ذاته معك". يقول ساندي: "من فضلك".

يتفق القاضي ماسون وساندي على أنه من الأفضل أن يتحدثا بعد مشاهدة السجل. وفي غضون انتظارنا انتقال السجل عبر الإنترن特، يسأل ساندي ومارتا هانز فرانز حول ما يتطلبه القيام بهذه الخدعة، فيشرع الاثنان بتقديم توقعاتهما، لكنهما يتفقان في النهاية مع جورفيتش بأن ذلك تم باستخدام برنامج مجاني يدعى جاسوس المكتب، الذي تعرض للحذف النهائي حتماً فيما بعد.

يسألهما ساندي: "وكم من الوقت يتطلب فعل كل ذلك؟ أقصد تنصيب البرنامج، وإضافة الكائن، وحذف البرنامج، وتنظيف ملفات التسجيل؟".

يجيب هانز وهو ينظر إلى فرانز: "أحتاج إلى ساعة؟". يقول فرانز: "ربما. يمكنني القيام بذلك في خمس وأربعين دقيقة، إذا تمررت قليلاً. فدعنا نتخيل أنني أملك جاسوس المكتب والكائن في وصلة ذاكرة شخصية، كي أوفر وقت التنصيب، وأنني قمت بالعملية نفسها على حاسوب آخر، لكي أعرف تماماً أين سأبحث من أجل تنظيف ما يحذفه مزيل الأدلة. ولكن، كما تعلم، إذا كان الشخص لا يملك معرفة واسعة، فلا بد أنه سيستغرق ضعف الوقت، على الأقل".

يقول هانز: "على الأقل. عدة ساعات على الأرجح".

وعندما يصل السجل، يُظهر أربع زيارات منفصلة. ذهب والدي إلى المكتب الخاص، حيث وضع القاضي جورج الحاسوب، في 12 تشرين الثاني، أي بعد أسبوع من الانتخاب. وشهد جورج هذه الزيارة بنفسه. وبقي أبي هناك لمدة ثمان وعشرين دقيقة، ونسخ خلالها أربع وثائق إلى وصلة ذاكرة شخصية، وثلاث مسودات آراء، ومذكرة بحث واحدة من أحد موظفيه، وفتح مفكرته ودون المواعيد الباقية في السنة. وجئت أنا بعد أسبوع لنسخ ثلاثة مسودات آراء أخرى، ثم عدت

في اليوم التالي لنسخ واحدة أخرى، لأنني أأسأت فهم توجيهات أبي في اليوم السابق. وكانت رايلي، إحدى مساعدات القاضي ماسون، معي في كلتا الزيارتين. وقد بقى هناك لمدة اثنتين وعشرين دقيقة في المرة الأولى، وست دقائق في الثانية.

وأخيراً، وقبل مناسبة الشكر مباشرةً، ذهبت أنا بدلاً مني إلى هناك. كان أبي يريد بشدة أن يلقى نظرة على مسودة سابقة لرأي كان يعمل عليه وقد تأخر في إنجازه. وكان يريد أيضاً مراجعة مذكرته من أجل مواعيده المتعلقة بالعام 2009. وكنت قد دعيت لإعطاء دروس في ذلك الصباح، ولم أكن أريد أن أقول لا، لكن المهمة كانت ستذوم أسبوعين على الأقل. وكانت أنا قد تطوعت مسبقاً للقيام بعملية النسخ بدلاً من أبي، بما أنها كانت تعمل في مركز المدينة أساساً، ولأن القاضي ماسون وافق عليها بحماسة. ويفيد السجل بأنها ظلت هناك لمدة ساعة تقريباً، لكن سبب استغراقها كل هذه المدة هو أنها تلقت اتصالاً من المكتب، وبقيت تتحدث في هاتفها الخلوي معظم الوقت.

سؤال ساندي القاضي ماسون: "هل كانت رايلي معها خلال تلك الزيارة؟".

يستدعي ماسون رايلي موران التي كانت تعرف أنا منذ سنتين لكونها بدأت العمل كموظفة قانونية قبل أنا. وتتذكر رايلي ما حدث بالبيت نفسه الذي سمعته من أنا في ذلك الحين. فقد اتصل بها بيتر بيرجلان - وهو واحد من أكثر الأشخاص تطلباً من الذين اضطررت أنا للعمل لصالحهم - وطلب منها المشاركة في اجتماع هاتفي. تقول رايلي إن أنا ابتعدت عن الحاسوب وجلست على كرسي في الجهة المقابلة من الغرفة. وخرجت رايلي لأنه كان واضحاً أن الحوار يتعلق بأحد الزبائن، ولم يكن ينبغي عليها أن تسمع ما يدور فيه، ولكنها دخلت الغرفة على الأقل ثلاث مرات خلال الدقائق الأربعين التالية، لترى ما إذا كانت أنا قد أنهت مكالمتها. لكنها في كل مرة كانت تجد أنا جالسة على كرسيها، وفي مكان بعيد عن الحاسوب. وأخيراً، خرجت أنا إلى الغرفة المجاورة

لتخبر رايلى أنها أصبحت مستعدة، فراقت رايلى عودة أنا إلى الحاسوب لإنها التنزيل وتدوين الملاحظات حول مواعيد أبي القادمة. ويُظهر السجل أن التقويم ظل مفتوحاً إلى أن وقفت أنا.

يقول جورج بعد ذهاب رايلى: "هل هذا كل شيء؟".

يشكر ساندي القاضي ماسون، وبعد ذلك نجلس جميعنا في الغرفة بصمت، إلى أن يقطعه ساندي قائلاً بصوت عال: "ماذا سيقول مولتو؟ لا يبدو ممكناً أن أحداً كان بإمكانه العبث بالحاسوب".

تقول مارتا: "ساعة". تقصد أنا بالطبع.

يقول ساندي: "ساعة ليست وقتاً كافياً. فراستي، وحتى ابن راستي، لديهما دافع، ولكن أنا، هذا احتمال بعيد. وإذا تطلب الأمر، يمكننا أن نحصل على سجلات هاتفها الخلوي ونتحدث مع بيتر بيرجلان. كنت قد توصلت إلى استنتاجات ساندي نفسها. وأبي كان يفتقر إلى الخبرة التقنية ليقوم بذلك. وكذلك أنا، بصراحة. وأنا، كما يقول ساندي، لم تكن تملك أي سبب يدفعها للمجازفة بمهنتها.

يقول ساندي: "راستي، هل كنت تملك مفاتيح المحكمة؟".

"مفاتيح مكتبي. هذا كل شيء". وأشار إلى المفاتيح التي بيده.

"هل ما زلت تملكونها؟".

"لم يطلب أحد استعادتها".

"هل سبق لك أن زرت المكتب بعد العمل؟".

"قبل أو بعد أخذني الإجازة؟".

"بعد".

"أبداً".

"و قبل؟".

"مرة أو مرتين، عندما كنت أنسى شيئاً وأحتاج إليه خلال عطلة نهاية أسبوع طويلة. كان أمراً مزعجاً بصراحة. وكان هناك حارس، وكنت أضطر للوقوف هناك والطرق على الباب لفترة من الوقت إلى أن ينتبه. وذات مرة انتظرت عشرين دقيقة لكي أدخل".

"وفي مكتب من كان الحاسوب موجوداً؟".

"مكتب جورج".

"بصفته رئيساً مؤقتاً، هل انتقل إلى مكتبك؟".

"لم يفعل حتى الآن، بحسب علمي".

"وماذا بشأن الحراس الأمني. هل كان يملك مفاتيح جميع المكاتب؟".

يفكر أبي قبل أن يقول: "في الواقع، كان يحمل سلسلة مفاتيح كبيرة جداً. وكان بوسعك سمع صوت المفاتيح وهو قادم. ووقيعت حوادث نسي فيها بعض الأشخاص مفاتيحةم داخل مكاتبهم، فكانوا يستدعون رجال الأمن لكي يدخلوهم. أما إذا كان الحراس الليلي يملك المفاتيح، فأنا لا أعرف ببساطة".

تقول مارتا: "هذه نظريتهم، أليس كذلك؟ عمل داخلي. وربما دخل راستي المكتب مع خبير حواسيب في منتصف الليل".

يقول أبي: "فليتحدثوا مع الحراس الأمني".

"يمكنك المراهنة على أن تومي يتحدث معه الآن. وأنت تعرف كيف تسير مثل هذه الأمور، يا راستي. إما أنهم سيتهمنون الحراس الأمني بأنه صديقك الحميم، أو سيجدون جرماً لم يكشف النقاب عنه عند تقديمك للعمل. وسيهددونه بمقاضاته إلى أن يتذكر أنه سمح لك بالدخول، أو سيجدون يوماً كان الحراس فيه في إجازة، وسيحمل جيم براند البديل على القول، إنه لا يذكر أي قاضٍ دخل. ولكن ذات ليلة جاء أحد القضاة فأدخلته. سيلفقون شيئاً ما".

يقول ساندي بالإسبانية: "Res ipsa loquitur". الجملة تُفسح عن نفسها. "لا أحد غير راستي كان يملك الدافع للقيام بهذا. ولا أحد غيره في تشرين الثاني يمكن أن يعرف ما يمكن أن تُظهره الأدلة أو أي دفاع يمكن أن ينجح. فلم نكن حتى نملك معلومات كافية حينئذ".

تقول مارتا: "إنها ضعيفة. وسينتهي الأمر بمحاكمة. كل هؤلاء الشهود؛ القاضي ماسون، ورايلي، والحراس الأمني، ونات، وأنا،

وراستي مجدداً. وسيكون محامو الادعاء محظوظين إذا تذكر المخلفون ما تدور القضية حوله عند انتهاء كل هذا".

ساندي يفكر. فترتفع يده بشكل تقائي لتنقر حول حواف الطفح الجلدي الذي يبدو، من مظهره، أنه لا يزال مؤلماً.

ثم يقول: "كل هذا صحيح. ولكن بشكل عام، يجب ألا نخدع أنفسنا. هذا لا يزال تطوراً في غير صالح الدفاع".

مع سماعنا هذا الحكم، نلقيت كلنا لنظر إلى أبي كي نرى رد فعله تجاه النقاش. إنه غارق في كرسيه، شاحب الوجه، وشارد الذهن. ويبدو أنه فقد الاتصال معنا منذ بعض الوقت، لأنه يتفاهاً عندما يرفع رأسه أخيراً، ويرى نظراتنا الموجهة إليه. ثم يبتسم لي، بخجل نوعاً ما، ثم يعود لينظر في يديه المطويتين في حضنه.

في الساعة الرابعة من بعد الظهر، يستدعينا القاضي بي، راغباً بسماع معلومات جديدة كي يتمكن من وضع برنامجه. سمع عدة صحفيين بخصوص هذه الجلسة، لذا وافق القاضي بي على الاجتماع في قاعة مفتوحة. وتبع عدد من مساعدي المدعي العام رئيسهم ليستمتعوا بلحظة كلهم متأكدون من أنها ستكون جميلة. فأجلس في الصف الأمامي، على بعد مترين تقريباً من والدي الغارق في صمته.

يقول القاضي بي: "ما الذي يجري؟". يقف ساندي ويتقدم نحو وسط القاعة. لقد جلب عكاذه إلى المحكمة للمرة الأولى.

"سيدي القاضي، لقد راجع خبرانا النسخة التي أنشئت في أواخر تشرين الثاني الماضي، وهم يؤكdan بأن الكائن لا يظهر فيها. وسيحتاجان إلى أربع وعشرين ساعة على الأقل لتحديد السبب".

يقف براند ليجيب عن الادعاء بنبرة ساخرة: "لماذا؟ مع كل الاحترام للسيد شتيرن، سيدي القاضي، هناك جواب واضح. لقد كانت خدعة. وببساطة ووضوح، من الواضح أن هذا الكائن أضيف إلى حاسوب القاضي سايبتش بعد مصادرته في تشرين الثاني الماضي، وقبل

عودته إلى عهدة الادعاء إثر تعيين سيادتك. إذ ليس هناك تفسير آخر".
يقول شتيرن: "سيدي القاضي بي، هذا ليس واضحاً تماماً كما
يتعنى السيد براند. فلا القاضي سايبি�تش، ولا أى من وكلائه استخدم
ذلك الحاسوب لمدة تزيد عن ثمان وخمسين دقيقة. ولقد أعلمـنا خبيرانا
بأن هذا النوع من التغييرات التي يتحدثون عنها لا يمكن إنجازها في
هذا الإطار الزمني، وربما حتى من قبل المحترفين؛ وأى من أولئك
الأشخاص لم يكن كذلك".

"لا أعرف شيئاً عن هذا سيدي القاضي. ستحاج إلى التأكيد منه".
من الطريقة الملتوية التي أجاب بها، أشعر أن جورفيتيش أعطاه زمناً
أطول من الزمن الذي أعطانا إيه هانز وفرانز. ولكن، يبدو أنهم يملكون
نظرية أخرى، كما توقع ساندي. "إضافة إلى ذلك، سيدي الرئيس،
فهل سلم القاضي سايبىش مفاتيحه الخاصة بالمحكمة؟".

يقول ساندي: "القاضي سايبىش لم يكن يملك مفاتيح مكتب القاضي
ماسون، حيث كان الحاسوب موجوداً".

"هل تريد أن تقول إن القاضي سايبىش لم يدخل المحكمة يوماً بعد
انتهاء الدوام؟ وهل تقول إنه لا يعرف أفراد الطاقم الأمني الذين كانوا
يملكون مفاتيح لكل المكاتب؟".

يراقب القاضي بي الرد والرد المقابل، لكن القلم بدأ يتآرجح في
يده. وهذه إشارة إلى أنه غير مسرور.

يقول ساندي: "سيدي الرئيس، الادعاء سريع جداً في اتهام القاضي
سايبىش. ولكن من دون أي أدلة واضحة".

يرد براند: "من غيره استفاد من هذه الخدعة؟".

"سيدي القاضي، أعترف أن ما لا يبارح تفكيري هو أن تومي
مولتو اعترف منذ عشرين عاماً، وعوقب من قبل المحامي العام
بسبب إساءة تصرف متعمدة بالأدلة".

ويتبين هذا التصريح بوحدة من تلك اللحظات التي تذهلني في قاعة
المحكمة. إذ لم يقل ساندي أي شيء حول هذا الأمر في مكتبه، ويبدو

أنه ترك تأثيراً هائلاً على براند، حيث يتحول لون وجهه إلى قرمزي وتنتأ أوردة صدغيه، ويبدأ بالصرارخ.

ومن مكانه خلف طاولة الادعاء، يقف مولتو أيضاً ويصبح قائلاً: "سيدي القاضي"، لكن صوته بالكاد سمع بين صراخ براند الذي كان يردد كثيراً كلامي "مسيء"، "مشين" قبل أن يدير ظهره للقاضي بي لحظة واحدة ليوجه كلمة غاضبة لساندي ثم يستأنف صراخه.

أخيراً نفذ صبر القاضي بي: "مهلاً. مهلاً. يكفي. جميع المحامين، اجلسوا رجاءً. اجلسوا". فيتيح لهم بعض لحظات كي يجلسوا في أماكنهم، ثم يتابع: "لا شيء في هذه المحاكمة يتعلق بأمر وقع منذ عشرين عاماً؛ أي ما حدث منذ عشرين عاماً. هذا أمر. والأمر الثاني، هذه المحاكمة تتعلق بمن قتل السيدة سابيتش، وليس بما إذا كان شخص ما قد تلاعب بحاسوب القاضي. دعوني أقول لكم، أيها السيدات والسادة، ما أعتقده. أعتقد أن أيّاً من هذا لا ينبغي أن يكون ضمن الأدلة: المفاتيح وبرامج التجسس وعدد الساعات الذي يتطلبه القيام بهذا وذاك. سيطلب من المحلفين تجاهل الرسالة التي رأوها، وستنهي هذه القضية. وسيعود السيد سابيتش الابن إلى المنصة غداً في الصباح. هذا ما أعتقد أنه الأفضل".

يقف براند من وراء طاولة الادعاء ثم يقول: "سيدي القاضي، سيدي القاضي، هل يمكن أن تسمعوا؟ من فضلك". يسمح بي له بالاقتراب، ولكن فقط بعد أن شاهد مولتو يشده من كم قميصه ويهمس له ببعض الكلمات. فأنا واثق أنه طلب من براند أن يهدأ.

"سيدي القاضي، أنا أفهم أن المحكمة تتمنى لو أتنا لم نخرج عن السياق بهذه الطريقة، ولكن لو أمكن للمحكمة أن تفك في مما سأ قوله يا سيدي القاضي. انظرْكم اقتراحك مجحف بحق الادعاء. لقد شاهد المحلفون الرسالة وانتهى الأمر. والدفاع سيكون قادرًا على المجادلة بأن السيدة سابيتش قتلت نفسها، وسيكون قادرًا على المجادلة بأنها استخدمت حاسوب زوجها. وحتى إنه سيكون قادرًا على الإيحاء بأنها

كانت تتوى الإيقاع به. سيقول الادعاء كل هذا، وعندما سيفعلون، سيضطر الملفون للتفكير في تلك الرسالة، في حين أن الأدلة التي تُظهر أن كل هذه النظرية عبارة عن خدعة لا يمكن اعتبارها ضمن الأدلة. سيدى الرئيس، لا يمكنك أن تحرمنا من هذه الفرصة".

يضع بيده على فمه متأملاً في كلمات براند.

يتابع براند، قائلاً: "سيدى القاضى، يمكن إثبات هذا بسرعة. بضعة شهود على الأغلب".

من مقعده، يجيب ساندى، السريع دائماً في اقتناص أي فرصة، قائلاً: "بضعة شهود من جانب الادعاء، ربما، سيدى الرئيس. ولكن الدفاع لن يكون أمامه خيار سوى تفنيد هذا الادعاء بالكامل. وستنتجه بشكل رئيس إلى محاكمة على تهم غير مجرمة بإعاقة العدالة".

يسأل القاضى بي براند: "ماذا بشأن هذا؟ ستتهمون القاضى ساپيتش بإعاقة العدالة. فلتجرروا هذه المحاكمة لاحقاً". من الواضح أن بي مستعد للعودة إلى منزله، وسيكون سعيداً لتسليم هذا القضية إلى شخص آخر. يقول براند: "سيدى الرئيس، أنت تطلب منا إنهاء هذه المحاكمة وأيدينا مقيدة خلف ظهورنا".

يقول القاضى: "حسناً. سأفكر في الأمر هذه الليلة. وغداً صباحاً، سيشهد السيد ساپيتش الابن. وبعد ذلك، ستناقش حول الأدلة الأخرى. ولكن، غداً، ستحكم في هذه القضية. فليس هناك أى قرار حتى الآن بخصوص من يمكنه أن يثبت، وماذا يمكنه أن يثبت. أمفهوم هذا بالنسبة إلى الجميع؟".

يهز المحامون رؤوسهم. فيضرب القاضى بمطرقته، وتُعلق المحاكمة لليوم التالي.

الفصل التاسع والثلاثون

تومي، 25 حزيران، 2009

كانت مشكلة تومي ، إذا أردت أن تسميها كذلك ، تتمثل في كونه شخصاً بالغ الحساسية . ومع تقدمه بالعمر ، عرف أن الجميع يملكون نقاطاً حساسة خاصة بهم . وبمرور السنين أصبح أفضل في امتصاص الضربات القاسية الاعتيادية كافتتاحيات شريرة في الصحف ، أو كمحامي دفاع متصدرين ، أو جيران يحملونه مسؤولية كل شرطي سيء . ولكن ، على الرغم من كل ذلك ، فهو كان لا يزال حساساً ، وما إن يخترق الرمح الدرع ، فإنه كان يغوص عميقاً في داخله .

عندما وقف شتيرن أمام القاضي بي ، وذكر العالم بأن تومي اعترف بإساءة استعمال الأدلة في محاكمة راستي الأولى ، توقف قلبه عن الحركة . صحيح أن اعتراف تومي لم يكن سراً ، إلا أن الجميع أدركوا أن هذا كان مجرد شيء اضطر تومي لقوله من أجل استعادة عمله؛ كما أن الخبر لم يصل إلى الصحافة حينها . ولأن الصحفيين ، بصورة عامة ، يعيدون كتابة ما كتبوه سابقاً ، فإن أحداً لم يأت على ذكر أن تومي اعترف في السابق بارتكاب أي خطأ في القصص المتدولة التي شاعت مؤخراً حول محاكمة راستي الأولى . لقد عمل تومي طوال حياته المهنية ليخدم الناس ويدافع عن الحق ، ولم يكن يكثرث إذا عُرف عنه أنه سار يوماً مع التيار . وأول من خطر في ذهنه عندما بدأ يهدا هو دومينغا ، لأنه لم يسبق أن شرح لها كل هذا .

حالما ضرب القاضي بي بمطرقةه ، تجمَّع خمسة أو ستة صحفيين

قال تومي: "هذه قصة قديمة. حكم القاضي بي للتو بأن لا علاقة لها بهذه القضية. ولن يكون لدى تعليق إضافي إلى حين البت بالقضية الحالية". واضطُرَ لكرار هذه الجملة ست أو سبع مرات. وعندما انصرف الجمع أخيراً كي يكتبوا مقالاتهم، طلب من المساعدة القانونية وروري أن تعيدا عربة الأدلة إلى المكتب. ثم أشار إلى براند كي يأتي إلى زاوية صندوق المخلفين الفارغ، حيث يمكنهما الجلوس والتحدث. فلم يشأ تومي الخروج من المحكمة حينئذ لأن الكاميرات ستكون موجودة هناك، والصحفيين سيقحمون ميكروفوناً في وجهه حتى يتمكنوا من الحصول على لقطة له وهو ينكر انتهاكه للقوانين في محاكمة راستي الأولى.

نظر ساندي شترين، الذي كان يجمع أوراقه استعداداً للمغادرة، نحو مكان جلوس تومي وبراند، ثم استند على عكازه وسار باتجاههما، لكن تومي هز رأسه قبل أن يمشي، وقال: "لا تقل أي كلمة".

"توم، لقد قلت ذلك بشكل عفوياً".

"اللعنة عليك يا ساندي. كنت تعرف ما تفعله، وكذلك أنا". خلال أكثر من ثلاثين عاماً قضتها كمحامي ادعاء، لم يوجه تومي مثل هذه الكلمات لمحامين آخرين سوى بضع مرات لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. رفع ساندي يده، ولكن تومي ظل يهز رأسه رافضاً.

وعندما ثفت ساندي أخيراً، صاح براند قائلاً: "أنت مجرد محامي محكمة مخدرات تافه يرتدي بدلة أنيقة".

أمسك تومي بكم براند، فقال له الأخير بصوت هامس: "هناك قطعان من الحيتان في أسفل المحيط ليسوا بمثل وضاعته".

لكنك لا تستطيع أن تسلب شيئاً من ساندي أبداً. إنه يتذكر دائماً شيئاً ما لإنقاذ موكله. ولم يكن يريد أن يقرأ الملفون حول ما إذا كانت البطاقة خدعة في الصفحة الأولى من صحيفة تريبيون. ولهذا السبب، قدَّم لهم عنواناً رأسياً أفضل: مولتو اعترف بإساءة التصرف. وكان

تومي يعرف أن نصف المحلفين سيجدون نظرية ما لتفصير سبب كون بطاقة الميلاد خطأ المدعى العام.

قال براند: "ينبغي علينا أن نسرّب نتائج تحليل الحمض النووي". فكر تومي في هذا لوهلة فقط، لكنه هرّ رأسه رافضاً. فقد كان هذا سيدوي إلى بطلان المحاكمة. وباسيل بي كان جاهزاً للعودة إلى بلدته، ومستعداً لانتهاز أي فرصة لإنتهاء القضية، وتوضيب أغراضه والرحيل. وتومي لم يكن ليكذب تحت القسم أو يسمح لأي شخص آخر بفعل ذلك في التحقيق الذي سيجري بسبب التسريب. صحيح أنه كان سيمثل انتقاماً مناسباً من ساندي وراستي، ولكن الخبر كان سيُنشر خلال بضعة أسابيع في جميع الأحوال، والسماح له بالتسرب قبل الأولان كان سيضرهم أكثر مما سيفدهم.

قال براند: "إذا كان بي سيُبقي أدلة الاحتيال خارجاً، فسنكون مضطرين للاستئناف".

الاستئناف في منتصف المحاكمة كان أمراً نادراً، لكنه جائز بالنسبة إلى الادعاء في محاكمة جزائية، لأنه لم يكن بإمكان محامي الادعاء الاستئناف بعد صدور حكم البراءة. وبراند كان محقاً. كانوا سيضطرون لفعل ذلك، لأن فرصهم ضئيلة مع المحلفين إن لم يفعلوا. وربما سيلين القاضي بي إذا ما لوحوا بهذه الإمكانيّة؛ فتجنّب محكمة الاستئناف كان الطريقة المثلى لضمان حفاظه على سجله القياسي الأثير بخصوص عدم نقض أحكامه. وسيكره القاضي بي أيضاً تجميد نفسه والمحلفين أسبوعين أو ثلاثة لإتمام إجراءات الاستئناف.

قال تومي: "كيف انقلبت الأمور رأساً على عقب في غضون يومين فقط؟".

"إذا تمكنا من اعتماد الأدلة، فسنكون بخير. ولقد أرسلت روري محققين للتحدث مع الطاقم الليلي في المحكمة الآن. ولا بد من أن يكون شخص ما قد شاهد شيئاً ما، أو سمع شيئاً ما، حول تسلل راستي إلى المحكمة. وعندما نأتي بشاهد متين، سنتمكن من تغيير رأي بي".

لعل جيم كان محقاً. ولكن الشعور بالعار كان ثقيلاً الوطأة على تومي؛ فهو لم يبعث بأي شيء. لقد سرّب بعض المعلومات فقط، وارتكب خطأً. وساندي كان يريد تذكير الجميع بذلك.

قال تومي: "أنا بحاجة للتبؤ".

وعندما وصل إلى حمام الرجال، وجد راستي واقفاً بجانب إحدى المبولات. ولم يكن هناك أي فاصل بين مبولة وأخرى، فرکَز تومي على قطع البورسلان الأبيض أمامه. شعر تومي بالمشقة التي كان راستي يعانيها عندما سمع بطء تدفق بوله. وكان تومي أصغر عمراً. وهذه الميزة جرأتُه نوعاً ما.

قال تومي: "كان ذلك وضيعاً يا راستي". ثم كرر جملة براند حول الحيتان.

لم يُجب راستي، بل أنهى قضاء حاجته ثم أفرغ الماء في الحوض. وعندما أنهى مولتو قضاء حاجته، كان راستي لا يزال واقفاً يجفف بيده بواسطة منديل ورقيبني. فكانت ملامحه غامضة، وعيناه ثابتتين لا تتحركان.

أخيراً رد راستي قائلاً: "كان ذلك وضيعاً يا تومي. ولم يكن يشبه طبيعة ساندي، بصراحة. لكن الرجل مريض. أنا آسف. ولم أكن أعرف قط أنه سيقدم على فعل ذلك. ولو أخبرني مسبقاً لقلت له لا. أقسم لك".

الاعتذار، والاعتراف بأن شيئاً قد تجاوز الحدود، مما جعلا تومي يشعر بسوء أكبر، في الواقع. وأكثر ما كان يزعجه هو ما سيراه على وجوه مساعديه والقضاة. وربما سيحتاج لإصدار بيان حالما تنتهي المحاكمة، وربما سينشره في الصحف أيضاً. ولنقل إنني خرفت القواعد، لكنها كانت مخالفة بسيطة، وقد دفعت الثمن ولم أنس الدرس قط. وكان راستي يراقب تومي وهو يصارع أفكاره. ويقول الأطباء إنه من الأفضل أن تكون الطبيب على أن تكون المريض. ومن الأفضل أيضاً أن تكون محامي الادعاء على أن تكون المتهم. ولكن ذلك لا يعني أن شخصاً

آخر لن يتآذى . وكان ينبغي على تومي أن يتعلم هذا الدرس منذ المرة الأولى التي تورّط فيها مع هذا الرجل . فمطاردة راستي كانت تعنى الزحف فوق شريط شائك .

قال راستي : "تومي ، هل فكرت يوماً في احتمال ألا تكون شيئاً بقدر ما تظن ، وأنك لست شيئاً بقدر ما أظن أنا؟".

"هذا يساوي قولك إنك في غاية الطيبة".

"لست طيباً ، لكنني لست قاتلاً . باربارا قتلت نفسها يا تومي".

"هذا ما تقوله . فهل كارولين قد اغتصبت نفسها وخفقت نفسها أيضاً؟".

"لم أفعل ذلك أيضاً . ويتوجب عليك مناقشة هذا الأمر مع الشخص الذي فعل ذلك".

"إنه لأمر مؤسف ، يا راستي؛ أقصد الطريقة التي تموت بها النساء حولك".

"أنا لست قاتلاً يا تومي . وأنت تعرف ذلك . في صميم قلبك أنت تعرف ذلك".

"إذاً ، من تكون يا راستي؟". قال تومي وهو يجفف يديه . ضحك راستي بسخرية ثم قال : "أنا أحمق يا تومي . لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء ، وسيطول الوقت قبل أن أتمكن من إخبارك بأي خطأ منها كان الأسوأ: الغرور أو الرغبة أو الاعتقاد أنني كنت أستطيع تغيير مالم يكن بالإمكان تغييره . فأنا لن أقول لك إنني لم أسع وراء هذا ، لكنها قتلت نفسها".

"وألصقت بك التهمة".

رفع راستي كتفيه وقال: "لا أعرف ذلك حتى الآن . ربما ، وربما لا".

"إذاً ، ماذا ينبغي علي أن أفعل يا راستي؟ هل أبعث إلى المحلفين رسالة شكر وأقول لهم اذهبوا إلى بيونكم؟".

عاد راستي ونظر تحت الأبواب ليتأكد من عدم وجود أشخاص

غير مرئيين، ثم عاد إلى مولتو.

"ما رأيك بإنتهاء المسألة كلها؟ أنت وأنا، نعلم أنه ليست هناك طريقة لمعرفة المكان الذي سيقودنا إليه هذا القطار اللعين. إنه خارج عن السيطرة الآن. سوف أعترف بإعاقبة العدالة عبر العبث بالحاسوب. وتسقط التهم الأخرى".

"وتفلت بجريمة قتل!".

"جريمة قتل لم أرتكبها. فخذ ما يمكنك الحصول عليه يا تومي".
"كم من الزمن؟".
"سنة".

"اثنتان". فاوض تومي بصورة تلقائية.
رفع راستي كتفيه مجدداً ثم قال: "اثنتان".
"سأتحدث مع براند".

حدّق تومي في راستي لوهلة، محاولاً فهم ما حدث للتو. فقد كانت لحظة غريبة، لكنهما تصافحا في النهاية.

قال تومي لبراند عندما عاد وجلس بجانبه على المقعد نفسه في الجزء الخلفي من منصة المحلفين: "هل أنت مستعد؟". ولم تكن القاعة قد خلت تماماً بعد. وكان طاقم شتيرن في الصالة خارجاً، لكن موظفي المحكمة كانوا لا يزالون يدخلون ويخرجون. وبصوت هامس لا يكاد يُسمع، أخبر براند بعرض ساببيتش.

"ماذا قال؟".

كرر تومي الصفة.

"لا يمكنه فعل ذلك".

"يمكنه إذا سمحنا له".

"ويفلت بجريمة قتل!".

"لقد أخبرني للتو بشيء صحيح تماماً. وهذه المحاكمة خارجة عن السيطرة. ولا أحد يعرف ماذا سيحدث تالياً".

"وهل سيفلت بجريعتي قتل؟".

"لديه فرصة جيدة لفعل ذلك على أي حال. وبصراحة، إنها أفضل من فرصنا لإدانته بأي شيء آخر".
"لا يمكنك فعل ذلك أية الرئيس. لا يمكنك. ذلك الرجل قاتل لعين".

"لذهب إلى المكتب. ولا بد أن الشارع أصبح هادئاً الآن".
كان الطقس حاراً جداً في الخارج. وكانت الشمس قوية في ذلك الأسبوع، كما هي العادة في هذا الجزء من البلد. جاء الصيف بشكل مفاجئ، وكأن شخصاً أدار مفتاحاً ما. وكان الربيع مليئاً بكميات غير مسبوقة من الأمطار. إنه لشيء ممتاز بالنسبة إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض. ولم تكن تعرف أين تعيش من يوم لآخر. أو لمدة شهر كامل، فمنطقة كاونتي كانت سابقاً مثل منطقة الأمازون.

وعندما وصلت إلى المكتب، استغرقاً خمس دقائق في قراءة الرسائل. تلقى تومي قرابة عشرة اتصالات من صحفيين. وسيكون بحاجة إلى تمضية بعض الوقت مع جان ديجرازي، مسؤولة الصحافة، في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم كي يستمع لنصيتها فقط. وأخيراً، ذهب إلى مكتب براند المجاور لمكتبه.

جلسا في مكانيين متقابلين من الغرفة. كانت هناك كرة قدم، موقعة من نجم قديم، وكانت تعتبر جزءاً ثابتاً من أثاث مساعد النائب العام. وبحسب ذاكرة تومي، فإنها كانت موجودة هناك منذ عهد جون وايت، الذي كان مساعداً للنائب العام عندما وصل تومي وراستي كمحامي ادعاء جديدين. وكثيراً ما كانت الكرة تتقاذف بين الرجال خلال الفاشatas. وبراند - الذي كانت يداه تناسبان الكرة وكأنهما كانتا جزءاً من غلافها - في العادة كان أول من يتوجه نحوها، وحتى إذا لم يكن يشعر البقية بالرغبة في اللعب، فإنه كان يقذفها بشكل لوليبي مثالي نحو السقف ثم يمسكها في أثناء نزولها حتى من دون أن يتحرك من مكانه. وهذه المرة كان تومي هو من أمسك بها أولاً، وقذفها نحو براند بينما

كان يجلس . وللمرة الأولى ، تفلت الكرة من يدي براند . فأقسم على ذلك عندما جلبها من الأرض .

قال براند : " أنت تعرف أن هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً . راستي يقرُّ بذنبه " .

" ماذا تعني ؟ " .

" أعني أنه لن يقرَّ بإعاقبة العدالة إذا لم يكن قد قتل زوجته " .

" وإذا لم يقتل زوجته ، ولكنه عبث بالحاسوب ؟ " .

" لن يبعث بالحاسوب إن لم يقتلها " .

هذا هو المنطق التقليدي للقانون . يقول القانون إنه إذا هرب شخص ما أو أخفى شيئاً أو كذب ، فإن ذلك يثبت أنه مذنب . ولكن ، بالنسبة إلى تومي ، فإن هذا لم يكن منطقياً على الإطلاق . ولماذا ينبغي على شخص أتهم باطلأً أن يتبع القوانين ؟ الكذب للتخلص من اتهام باطل كان مبرراً أكثر من الكذب في وجه اتهام صحيح . وهكذا كان تومي ينظر إلى الأمر دائماً .

عندما شرح وجهة نظره هذه لجيم ، بدا الأخير وكأنه كان يقبلها في ذهنه فعلاً . فمن النادر رؤية براند متفكراً كما كان في تلك اللحظات . ولكن المجازفة كانت كبيرة ، وأي منها لم يتوقعها وقوعهما في تلك الحالة .

التحقق براند الكرة من بين قدميه ، ورماها لنفسه عدة مرات . عرف تومي حينئذ أن براند كان سيصل إلى نتيجة ما .

أخيراً قال : " أعتقد أنه ينبغي علينا القبول بالصفقة " .

لم يقل تومي أي شيء . ولقد شعر بشيء من الخوف عندما قال براند ذلك ، على الرغم من أنه كان واثقاً من أنه كان على حق .

قال براند : " أعتقد أنه ينبغي علينا أن نقبل بالصفقة . وسأخبرك لماذا " .

" لماذا ؟ " .

" لأنك تستحق ذلك " .

"حقاً؟".

"بالتأكيد. لقد رمى ساندي كمية كبيرة من القمامه على رأسك اليوم. وهذا مجرد عرض أولي. وإذا خرج راستي من هذه القضية سالماً، فإنك سترى حموله قارب من القمامه نفسها حول اعترافك في الماضي، وذلك كي يفسروا نتائج تحليل الحمض النووي في القضية الأولى، سيقولون: هذا فقط لأن مولتو عبّث في الأدلة حينئذ".

هز تومي رأسه موافقاً. ولقد أدرك ذلك في تلك اللحظة فقط. ويعلم الله لماذا لم يرها من هذه الزاوية من قبل. ربما لأنه لم يعبّث بالأدلة.

"حسناً، إذا اعترف راستي بإعاقة العدالة - قاض من قضاة المحكمة العليا يقف في محكمة علنية ويعترض بأنه عبّث بالأدلة في محاولة لإخراج نفسه من ورطة ما - إذا فعل ذلك، فإن الناس سيعرفون أنه الفاعل. وسيقولون إنه أفلت بجريمة قتل. مرتين. وقد ينتقدونك لقوتك بالاعتراف، لكن بي سيغطيك في هذه المسألة، بشكل شبه مؤكد.

وكما تعرف، سيدلي بي بوحد من تلك الخطابات التي يدللي بها القضاة دائمأ عندما يشعرون بالارتياح للتخلص من قضية معينة؛ سيتحدث عن مدى حكمة هذا القرار. بصورة إجمالية، سيعرف الناس أنك طاردت طيراً سيناً لفترة طويلة جداً، وأخيراً وضعته في المكان الذي يستحقه. وستجرّده من كل ريشه. وأنت تستحق ذلك".

"لا يمكنني القيام بهذا العمل وأنا أذكر في ما أستحقه".

"يمكنك القيام بالعمل كي تبقى ثقة الناس في نظام العدالة قائمة. يمكنك بالتأكيد؛ بل ويجب عليك فعل ذلك".

وكان براند يضع تومي في أوراق صرّ ويربطها بشرط تزيين ذي عقدة جميلة.

تابع براند كلامه قائلاً: "أنت تستحق هذا. اقبل بالصفقة، وسينزل القرد عن ظهرك. وبوسعك الترشح لمنصب النائب العام في العام المقبل، إذا أحببت".

هذا الأمر مجدداً، قال تومي في نفسه. إنه لم يفكر في الترشح قطَّ

في الواقع، إلا كنوع من التخيّل لا يدوم أكثر من بضع ثوانٍ. وقال براند ما قاله له سابقاً، وهو أنه إذا تمكّن من الترشح لأي شيء، فإنه سيترشح ليصبح قاضياً.

"لدي طفل عمره واحد وعشرون شهراً. وأنا بحاجة إلى عمل يمكنني الاحتفاظ به لخمس عشرة سنة".

قال براند: "وواحد آخر على الطريق".

ابتسم تومي. كان يحظى بحياة جيدة. وكان يعمل بجد ويفعل الصواب. صحيح أنه لن يقول ذلك بصوت عال أبداً، لكن ما قاله براند كان صحيحاً. وكان يستحق ذلك. كما كان يستحق أن يعرف أنه شخص يتبع ضميره.

قال تومي: "وواحد آخر على الطريق".

الفصل الأربعون

نات، 26 حزيران، 2009

حدث شيء ما لا أعرفه.

عندما أصل إلى مكاتب شركة ستيرن صباح يوم الجمعة، أجد أبي في اجتماع هادئ مع مارتا وساندي في مكتب الأخير. وبعد خمس وأربعين دقيقة أمضيها في صالة الاستقبال تظهر سكرتيرة ساندي لتخبرني بأن أذهب إلى المحكمة حيث سيعتني فريق الدفاع بعد وقت قصير. وعندها أصل إلى المحكمة، لا أجد فريق الادعاء أيضاً. فأبعث رسالة نصية إلى أنا من مقعدي في الصف الأول: "ثمة شيء ما. هل ساندي مريض؟؟؟ إنه أمر غامض جداً".

أخيراً، تصل مارتا لكنها تتبع سيرها عبر القاعة لتذهب إلى مكتب القاضي بي. وعندما تخرج من هناك، تتوقف لتشهد معي لبضع ثوان فقط.

تقول لي: "سنتحدث مع فريق الادعاء في الصالة".
"ماذا حدث؟".

تعابير وجهها مشوشة لدرجة كبيرة، بحيث لا يمكن استنباط أي شيء منها بشكل واضح.

وبعد بضع دقائق، يمد القاضي بي رأسه من الباب المفضي إلى مكتبه ليتفقد ما يجري في القاعة. وكان من دون عباءته، وبيدو مثل طفل يأمل ألا يلاحظه أحد، لكنه عندما يراني، يشير إلى كي آتي إليه. يقول حالما أدخل الممر الخلفي: "أتريد قهوة؟".

"بالتأكيد".

دخل المكتب حيث أمضى بعض لحظات في تفحص نوّات موسيقية موضوعة ضمن إطارات معلقة على الجدران. فاستطعت تمييز واحدة منها موقعة من قبل فيفالدي.

يقول القاضي من دون أي تفسير: " علينا أن ننتظر الشباب ". أنا سجين منطقة الشهادة، حيث لا يمكنني أن أطرح أي سؤال، وبالاخص على القاضي. يقول لي عندما يجلب القهوة: " ماذا تعتقد؟ ". يسحب درجة من مكتبه الضخم ويستخدمه كمسند لقدميه ثم يتابع حديثه: " هل تعتقد أنك ستصبح محامي محاكم مثل والدك؟ ".

" لا أظن ذلك حضرة القاضي. ولا أعتقد أن أعصابي تحمل ذلك ". " آه، أجل. إنها مهنة قاسية على الأعصاب للجميع. تحتاج للكثير من المشروبات. والمحكمة تجعلك تشرب كثيراً ".

" أعتقد أنني يجب أن أقلق بشأن هذا، لكنني عنيت أن شخصيتي لا تناسب هذه المهمة. وفي الحقيقة، لا أحب أن أكون مصدر انتباه الناس لأنني لا أملك المؤهلات المناسبة ".

" لا يمكنك أن تعرف أبداً. أنا! كيف أنكلم؟ الجميع يقولون: هذا العمل ليس لك. وكلهم يضحكون؛ حتى أمي. وهي لا تتكلم ثلاث كلمات إنجليزية ".

" إذاً، ماذا حصل؟ ".

خطرت لي فكرة. أتعلم؟ كنت صبياً أشاهد بيري ماسون على التلفاز. أوه، أنا أحب بيري ماسون. في المدرسة الثانوية، حصلت على عمل مع صحيفة. ليس كصحفي، بل أبيع الصحف. تربieron من هنا. تزيد تربيون المزيد من المشتركين في البلدة. وهكذا كنت أذهب وأدق على الأبواب. ومعظم الناس كانوا لطفاء جداً. ولكن، كلهم؛ كل واحد منهم كان يكره المدينة. ولا يريدون صحيفة المدينة. الكل لطفاء جداً معي: لا يا باسيل. أنت تعجبني ولكن ليس تلك الصحيفة. عدا شخصاً واحداً، رجلاً ضخماً. طوله متراً. وزنه مائة وخمسون كيلوغراماً.

شعر أبيض. عينان مجنونتان تماماً. يراني فيخرج من الباب وكأنه يريد أن يقتلني. اخرج من ملكيتي. فالبابانيون قتلوا ثلاثة من أصدقائي. ارحل. وأنا أحاول أن أشرح له. البابانيون قتلوا جدي أيضاً. لكنه لا يسمع. ولا يريد أن يسمع. وهكذا أذهب إلى البيت. أمي وأبي قالا لي: الناس هكذا. إنهم لا يصغون. الناس هكذا. لكنني أفكر. لا، يمكنني أن أجعله يفهم؛ إذا كان مجبراً أن يسمع، فأنا أستطيع أن أجعله يفهم. وهكذا أتذكر بيري ماسون، وهيئة المحلفين. إنهم يصغون. إنه عملهم. أن يصغوا. ولا بأس، أنا لا أتحدث الإنكليزية جيداً. حاولت وحاولت. أكتب مثل بروفيسور. ودرجاتي ممتازة بشكل متوازن طوال المدرسة. ولكن، عندما أتكلم لا أستطيع أن أفكّر. حقاً. مثل الله تعلق. لكنني أقول لنفسي، الناس يمكن أن يفهموا. إذا اضطروا وأن يسمعوا. المدعي العام في بلدي - موريس لوويس - أعرفه منذ المدرسة الابتدائية. أنا وابنه مايك صديقان جيدان. بعد كلية الحقوق، يقول موريس: ماذا يا باسيل، سأدعك تحاول. ولكن، إذا خسرت، فأنت تكتب المذكرات. في القضية الأولى، أقف وأقول: لا أتحدث الإنكليزية بشكل جيد. أنا آسف جداً. أتحدث ببطء حتى نفهموا. لكن القضية لا تتعلق بي. بل بالشهود. بالضحية. هم من يجب أن يفهموا. وجميع المحلفين هزوا رؤوسهم. وكما تعلم، مضى يومان، ثلاثة أيام، وكلهم فهموا كل كلمة. وأنا ربحت. ربحت تلك القضية. ربحت عشرة محلفين على التوالي قبل أن أخسر. وأحياناً، عند طاولة المحلفين، يهمس واحد لآخر: ماذا يقول؟ لكنني أقول لهم دائماً. القضية تتعلق بالشهود، وليس بي. ليس بمحامي الدفاع، مع أنه يتكلّم أفضل مني بكثير. حول الشهود. حول البرهان. أصغوا لهم وقرروا. ويفكر المحلفون دائماً، بذلك الشخص، أنه لا يخفى أي شيء. أنا أربع دائماً. لذا، لا يمكنك أن تعرف أبداً. فالمحكمة غامضة جداً؛ ما يفهمه المحلفون، وما لا يفهمونه، كما تعلم".

أضحك من كل قلبي. أنا أحب القاضي بي.

نتحدث حول الموسيقى الكلاسيكية لبعض الوقت، فيتبين لي أنه يجيد

العزف على المزمار ، ولا يزال عضواً في الأوركسترا المحلية في بلدته . وغالباً ما يستغل ساعة الغداء للتدريب . إنه يملك مزماراً كتم صوته بحيث لا يمكنك سماعه إلا ضمن عدة أقدام . ويعزف قطعة موسيقية لفيفالدي من أجلـي . فأنا جاهل جداً في الموسيقى ، مع أنني أهتم بها كلـفة . ومثل معظم الأولاد ، كنت أنزعـج من دروس البيانو إلى أن سمحـت لي أمـي بالانسحـاب . فالموسيقى الجادة واحدة من تلك الأشياء التي أضعـها على لائحة اهتمـامي عندما أكبرـ .

يُـقـرع الباب قبل أن يـشرع في مقطـوعة أخرى ، وتدخل مـارـتا . "حضرـة القاضـي ، إنـنا بـحاجـة إلى بـضـع دقـائق أخـرى . وأـبـي يـود التـحدـث معـ نـاتـ ."

"أـيـرـيد التـحدـث معـ أـنـا؟ ."

أـتـبعـها فيـ المـمـر إلىـ ماـيـدـعـي غـرـفـة زـوـارـ المحـامـين . إنـها لـيـست أـكـبـرـ كـثـيرـاً منـ خـزانـة وـمـن دونـ نـوـافـذـ ، معـ طـاـوـلـةـ مـكـتبـ عـنـيقـةـ وـكـرـسـيـنـ خـشـبـيـنـ عـنـيقـيـنـ . وـسـانـدـيـ جـالـسـ عـلـىـ أحـدـهـماـ . إـنـهـ لـاـ يـبـدوـ عـلـىـ ماـ يـرـامـ فـيـ هـذـاـ الصـبـاحـ ، معـ أـنـ الطـفـحـ الجـلـديـ تـحـسـنـ كـثـيرـاً . وـالـإـرـهـاـقـ بـادـ عـلـيـهـ . "نـاتـ" ، يـقـولـ لـيـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـقـفـ ، فـأـقـتـرـبـ مـنـهـ وـأـصـافـحـهـ ، فـيـشـيرـ إـلـيـ كـيـ أـجـلـسـ : "نـاتـ" ، طـلـبـ مـنـيـ وـالـدـكـ أـنـ أـتـحدـثـ مـعـكـ . لـقـدـ توـصـلـنـاـ إـلـىـ صـفـقـةـ اـعـتـرـافـ مـعـ الـادـعـاءـ ."

فيـ هـذـهـ القـضـيـةـ ، أـقـولـ لـنـفـسـيـ دـائـماًـ : لـنـ أـصـدـمـ هـذـهـ المـرـةـ ، فـإـذـاـ بـيـ أـجـدـ شـيـئـاًـ آخـرـ يـصـرـعـنـيـ أـرـضاًـ .

"أـعـرـفـ أـنـ هـذـاـ مـفـاجـئـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـكـ . سـتـسـخـبـ تـهـمـةـ القـتـلـ بـحـقـ وـالـدـكـ . وـهـوـ سـيـعـتـرـفـ بـإـعـاقـةـ العـدـالـةـ . وـلـقـدـ أـجـرـيـنـاـ مـفـاوـضـاتـ طـوـيـلـةـ بـعـضـ الشـيـءـ هـذـاـ الصـبـاحـ مـعـ مـوـلـتوـ وـبـرـانـدـ . وـكـنـتـ أـرـيدـ مـنـهـماـ أـنـ يـقـبـلـاـ بـالـاعـتـرـافـ بـاـحـقـارـ الـمـحـكـمـةـ ، لـكـنـهـماـ أـصـرـاـ عـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ جـرـيمـةـ . لـكـنـ النـهـاـيـةـ نـفـسـهـاـ . فـسـيـكـونـ وـالـدـكـ فـيـ الـحـزـ سـنـتـيـنـ . وـبـعـدـ ذـلـكـ يـمـكـنـهـ مـتـابـعـةـ حـيـاتـهـ ."

"حـزـ ! أـتـعـنـيـ السـجـنـ؟ ."

"أجل. لقد اتفقنا على أنه سيكون في مزرعة عمل الولاية. وهناك توجد إجراءات أمنية دنيا. ولن يكون بعيداً جداً".
أقول من دون تردد: "أريد أن أتحدث مع أبي".
"نات".

أريد أن أتحدث مع والدي".

"هل تعلم يا نات؟ عندما بدأت هذه المهنة، أقسمت على ألا أدع رجلاً بريئاً يعترف بأنه مذنب. لكن هذا العزم لم يستمر أكثر من أول سنة لي في الممارسة. لقد مثلت شاباً، شاباً ممتازاً فقيراً. لكنه كان في العشرين من عمره، ومن دون أي مشاكل بالرغم من أنه نشا في الحي الأشد فقرًا في مقاطعة كيواني. وهذا يعني الكثير بالنسبة إليّ. ولكنه كان في سيارة مع أصدقاء الطفولة، وكانوا يتشاركون بعض زجاجات كحولية، ورأى أحدهم رجلاً خدعاً أمه، وكان هذا الشاب يحمل مسدساً في حيه، فأطلق النار على هذا المخادع بردة فعل أسرع من الزمن الذي تستغرقه لقول ميت. فلم تكن لموكلي أي علاقة بهذه الجريمة؟ على الإطلاق. ولكنك تعرف كيف تسير الأمور في هذه العمليات. وقال القاتل: إن أصدقاءه كانوا في السيارة معه لمساعدته في البحث عن القتيل. وقد أخبر هذه القصة ليتجنب عقوبة الإعدام التي كانت تُطبق بحرية في تلك المقاطعة في تلك الأيام. وهكذا أنهم موكلين بارتكاب جريمة قتل. ومع أن محامي الادعاء أحسوا بأنه لم يكن متورطاً، إلا أنهم كانوا يملكون شاهداً، فعرضوا عليه وضعه تحت الاختبار إذا ما اعترف بذنبه. وكان هذا الشاب يريد أن يصبح شرطياً، وكان سيصبح شرطياً ممتازاً. غير أنه اعترف بالذنب. واتخذت حياته منحى آخر. وكان واضحاً أنه كان قراراً صائباً. فقد أصبح بلاطاً، وأصبحت لديه مهنة، وثلاثة أولاد، وكلهم أكملوا دراستهم الجامعية. وأحدهم محامٌ أكبر منك بقليل.

"ما الذي تريد قوله يا ساندي؟".

"أقول إنني تعلمت أن أثق بحكم موكلئ في هذه المسائل. فلا أحد أفضل منهم في اتخاذ قرار بخصوص ما إذا كان الأمر يستحق المجازفة

أم لا".

"إذاً، أنت لا تعتقد أنه مذنب، أليس كذلك؟".

"لا أعرف يا نات. إنه واثق بأن هذه هي النتيجة المناسبة".
"أنا بحاجة إلى رؤية والدي".

يخبرني بأنه موجود في غرفة الشهود مع مارتا، ويريد ساندي أن يتحدث معه أولاً. أساعدته كي يقف على قدميه وأبقى لوحدي لبعض دقائق فقط. وعندما يدخل والدي، يجدني أبكي. والجزء المدهش في المسألة كلها هو أنه يبدو أفضل هذا الصباح مما كان عليه طوال الشهور الماضية. أقول له على الفور: "أخبرني الحقيقة". يبتسم قليلاً ثم ينحني ليعانقني ويجلس قبالي، حيث كان شتيرن جالساً قبل قليل.

"الحقيقة هي أتنى لم أقتل أمك. ولم أقتل أحداً في حياتي. ولكنني أعتقد العدالة فعلاً".

"كيف؟ لا أصدق أنك قادر على فعل ذلك مع الكمبيوتر. لا أصدق ذلك".

"نات، أنا أعرف ما فعلته".

"ستخسر كل شيء".

"إلا ابني، كما أمل".

"كيف ستغسل نفسك فيما بعد؟ هذه جريمة يا أبي".

"أدرك ذلك تماماً".

"ستتخلى عن منصبك في القضاء، وشهادة المحاماة. حتى إنك لن تأخذ راتبك التقاعدي".

يبتسم ثم يقول: "سأحاول ألا أجلس على عتبة بابك. نات، هذه تسوية. أقرُّ بذنبي على شيء فعلته وأخدم المدة المطلوبة، من دون المجازفة بالإدانة لشيء أنا بريء منه كلياً. فهل هذه صفة سيئة؟ بعد أن يحكم القاضي بي بما إذا كان سيسقط الأدلة المتعلقة بالكمبيوتر ضمن مجموعة الأدلة المعتمدة، فإن أحد الطرفين ستكون له اليد العليا، وعندها لن يكون بالإمكان التوصل إلى هذا النوع من الاتفاق. وقد حان الوقت

للانتهاء من هذه المسألة واستئناف حياتنا. فأنت بحاجة إلى أن تغفر لي كل الأشياء الغبية التي فعلتها في السنتين الأخيرتين. ولكنني فعلتها، وليس من الخطأ أن أدفع الثمن. ويمكنني أن أعيش مع النتيجة، ويجب عليك أن تفعل ذلك أيضاً".

نفف في وقت واحد وأعانقه وأنا أبكي. وعندما نفصل أجد أن الرجل الذي لا يبكي أبداً، يذرف الدموع أيضاً.

تلتهم المحكمة خلال بضع دقائق. وينتشر في أرجاء المحكمة خبر ما سيحدث، فيتدفق هواة المحاكمات ومحامو الادعاء وما لا يقل عن عشرة صحفيين إلى القاعة. فلا أملك الشجاعة لأدخل أولاً، فأقف عند الباب بفضل لطف مساعد القاعة الذين يسمحون لي بمراقبة الإجراءات من خلال نافذة صغيرة في الباب. هناك الكثير من المؤس في هذا المبني، المليء بالآلام الضحايا والمتهمين ومن يحبونهم، بحيث أشعر أن من يعمل هنا يومياً يصبح طيفاً بصفة خاصة مع أشخاص مثلّي؛ وجدوا أنفسهم واقعين تحت رحمة العدالة. وأحدهم، وهو رجل إسباني، يضع يده على كتفي للحظة عندما تبدأ الجلسة، ويقف والدي بين ساندي ومارتا أمام القاضي بي. فيقف براند ومولتو إلى الجانب الآخر من ساندي. يهز والدي رأسه ويتكلم. يسلم محامو الادعاء أوراقاً، اتفاق اعتراف رسميًّا مع التهم الجديدة ربما، ويبدأ القاضي باستجواب أبي. وبعد عدة دقائق ألمح أنا قادمة. وكنت قد أرسلت إليها رسالة بسيطة: "أبي سيعترف بأنه مذنب بإعاقة العدالة لإنها القضية". تشق طريقها عبر الممر متصلة حذاء ذا كعب عالٍ، وواضعة يدها على قبة بلوزتها، لأن صدريتها الخاصة بالعمل لا تناسب الركض.

تقول حالما تصل: "لا أصدق هذا".

أشرح لها قدر استطاعتي، ثم ندخل القاعة متشابكي الذراعين، ونتجه نحو مقاعد الصف الأول التي ما زالت مخصصة لعائلة أبي المتناقضة. ترتفع علينا القاضي بي لترىاني ثم يرسم ابتسامة اطمئنان

بالغة الدقة، ثم يخوض رأسه مجدداً لينظر في الورقة أمامه، والتي تحوي الأسئلة المطلوبة التي ينبغي على القاضي أن يطرحها قبل أن يقبل طلب الاعتراف بالذنب. ومن الجدير ذكره أن القاضي يي يقرأ النص المطبوع من دون أي خطأ نحوي من النوع الذي يظهر عندما يتكلم ليشرح أفكاره، بالرغم من أن لكتنه تبقى ظاهرة.

"أيها القاضي سابيش، أنت تعرف، بأنك مذنب بالجريمة التي اتهمت بها هناك، أليس كذلك؟".

"أجل حضرة القاضي".

"حسناً. محامو الادعاء، من فضلكم، اذكروا الأساس الواقعي للمخالفة".

يتكلم جيم براند واصفاً كل التفاصيل التقنية المتعلقة بالحواسيب: الكائن الموجود الآن في القرص الصلب الخاص بحاسوب أبي، والذي لم يكن موجوداً عندما أنشئت نسخة عنه في أوائل تشرين الثاني 2008. ثم يضيف أن حارساً ليلياً في مبني المحكمة، أنتوني بوتس، مستعد للشهادة بأنه يذكر رؤيته والذي في الممرات هناك ذات ليلة في الخريف الماضي، وأنه بدا له أن أبي حدّ الخطى عندما لاحظه بوتس.

يقول القاضي يي: "حسناً". ثم ينظر إلى الكتاب الرسمي الموجود أمامه ليقول، "... سيد شتيرن، هل الدفاع راضٍ بأن الأساس الواقعي المقدم يشكل دليلاً كافياً لإثبات أن القاضي سابيش مذنب في حال خضعت المسألة للمحاكمة؟".

"أجل، سيد القاضي".

"أيها القاضي سابيش، هل توافق مع السيد شتيرن بخصوص هذا؟".

"أجل، حضرة القاضي يي".

"حسناً". يغلق الكتاب، ثم يعود ليتحدث من تلقاء نفسه. "تود المحكمة أن تهنى الطرفين على القرار الجيد جداً لهذه القضية. وهذه القضية معقدة جداً جداً. وهذه النتيجة التي يوافق الدفاع والادعاء عليها

عادلة بالنسبة إلى الشعب والمتهم بنظر المحكمة". فيهز رأسه عدة مرات وكأنه يريد فرض هذا الرأي على الصحفيين المتواجددين في الجانب الآخر من الصف الأمامي.

يتبع القاضي كلامه، قائلاً: "حسناً، المحكمة تجد أن هناك أساساً واقعياً كافياً لطلب الاعتراف، وتقبل طلب المتهم روز...". يتلعم وهو يلفظ الاسم "روزي سابيتش للمعلومة 09-0872-2456 للإجحاف. أيها القاضي سابيتش: ستوضع في السجن تحت عهدة شريف مقاطعة كابيندل لمدة سنتين. ثم رُفعت المحكمة". ويضرب بمطرقةه.

يصافح أبي ساندي ويقبل وجنة مارتا، ثم يلتفت إلى وترتسم على وجهه ملامح الدهشة. أستغرق ثانية لأدرك أن آنا هي السبب لأنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى المحكمة، ومن الواضح أنه لم يكن يتوقعها. كما أنها أمضت الدقائق العشر الأخيرة مثلي، وهي تتكى بصمت، وتلطخ وجهها بالمكياج. فيتنسم لها ثم ينظر إلى ويهز رأسه. وبعد ذلك يدبر ظهره، ومن دون أي كلمة من أي شخص يضع كلتا يديه وراء ظهره. إنه مستعد تماماً لهذه اللحظة. فيخطر في ذهني أنه ربما حلم بها مئات المرات.

يثبت ماني، نائب الشريف، الأغلال على يديه ثم يهمس في أذنه، ربما يحاول أن يتأكد من أنها ليست مشدودة جداً، ثم يقود أبي نحو الباب الجانبي للقاعة، حيث توجد زنزانة صغيرة سبقت فيها إلى أن يحين موعد نقله إلى السجن مع بقية المتهمين الذين خضعوا للمحاكمة هذا الصباح. يغادر أبي القاعة من دون أن ينظر خلفه.

القسم الرابع

الفصل الحادي والأربعون

تومي، 3 آب، 2009

إنه الصيف في أحلى أوقاته. فقد كانت الساعة الخامسة عصراً، وكان تومي واحداً من مجموعة آباء يلاحقون أطفالهم في أرجاء حديقة اللعب الأطفال، مفسحين المجال للأمهات المتعبات لينلن قسطاً من الراحة في الساعة التي تسبق الغداء. ولا شك في أن الملعب كان المكان المفضل على الأرض بالنسبة إلى توماسو. وعندما وصل ابن تومي، راح ينتقل من جهاز لآخر راكضاً. وكان تومي، المندفع خلفه خطوة بخطوة، يشعر دائماً بحزن الصبي الصغير لكونه لا يستطيع فعل كل شيء في وقت واحد.

كانت دومينغا تعاني في حملها الجديد أكثر مما عانته في حملها بتوماسو. وكان شعورها بالغثيان الصباحي يتكرر كثيراً، وكانت تشعر بإعياء دائم، وتشتكى من الشعور بالانتفاخ في ظل الحرارة العالية. ولهذا السبب، كان تومي يحاول أن يكون في المنزل قبل الرابعة والنصف كي يتركها ترتاح. وعندما كان وتوماسو يعودان من اللعب، غالباً ما كانوا يجدانها نائمة بعمق. وعندها كان الصغير يزحف فوق جسد أمه المستلقية، محاولاً الوصول إلى ذراعيها، فتبتسم دومينغا قبل أن تتحرك وتمسك بطفلها المحبوب المتسخ.

كانت الحياة جيدة. وعلى الرغم من أن تومي كان يقترب من الستين، إلا أن الحياة كانت أفضل بالنسبة إليه مما كانت عليه في أي وقت مضى. وبعكس محكمة سابيتش الأولى التي أساءت له كثيراً، فإن

المحاكمة الثانية جعلته شخصاً محترماً ومقدراً. لقد وقع ما توقعه براند عندما قررا القبول بالصفقة، إذ جاءت إدانة سابينش في صالح تومي في كل شيء. وصحيح أن نتائج تحليل الحمض النووي من المحاكمة الأولى اعتبرت مثيرة للجدل، بسبب شكوك تتعلق بالعينة، إلا أنها كانت تقارن دائماً بقضية شخص يدعى و. ج الذي أفلت من العقاب لارتكابه جريمة قتل بسبب خطأ مخبري. وكان ثمة إجماع في الافتتاحيات الصحفية على أن تومي مولتو فعل أفضل ما بوسعه، وأدان رجلاً كان يستحق الإدانة منذ وقت طويل. وفي الأسبوعين السنة الأخيرة، كانت الصحف تُسقط كلمة مؤقت عند الإشارة إلى المدعى العام. كما أعلن رئيس البلدية أن تومي كان مرحبًا به في لائحة المرشحين في العام المقبل إذا أراد الترشح للمنصب.

في الواقع، لقد فكر في هذه الإمكانية لبضعة أيام. غير أن الوقت كان قد حان لاستغلال حظوظه. كان أكثر حظاً بعشر مرات من جميع أنداده في مكتب المدعي العام الذين اضطروا للكفاح من أجل مهنتهم عندما كان أطفالهم صغاراً. لقد أصبح باستطاعة تومي القفز إلى مقعد القاضي الآن. وهذا عمل جيد سيتيح له وقتاً للاستمتاع بولديه، ولزيون أكثر من مجرد شائعة في حياتهما. ومنذ أسبوعين، أعلن تومي أنه سيرشح نفسه لمنصب قاض في محكمة التمييز، وصادق على جيم براند ليخلفه في منصبه الحالي. وكان رامون بيروجا، وهو مدع عام مساعد سابق وعضو حالي في مجلس البلدية، سيرشح نفسه ضد براند في الانتخاب الأولي، لكن الحزب فضل براند، وكان من المتوقع فوزه في النهاية، بالرغم من أنها ستكون سنة أشهر صعبة عليه.

وفي حديقة الأطفال كان هناك رجل يراقب تومي، رجل عجوز كثيف الشعر ذو ساقين شديدة البياض مكسوفتين من الركبتين، حيث نهاية سرواله القصير، إلى باطن ساقيه، حيث نهاية جوربيه. ولم يكن هذا غير طبيعي، وذلك لأن تومي كان شخصاً مألوفاً في التلفزيون، وغالباً ما كان الناس يحاولون تمييزه. بيد أن هذا الرجل كان أشد

إصراراً من الجيران الفضوليين المعتادين بنظرائهم المحترة، فكان يراقب طفلتين متوجهتين نحو تومي. اقترب الرجل من تومي، ومذده مصافحاً من غير أن يدرك تومي أنه ميلو جورفيتيش؛ خبير الكمبيوتر من محاكمة ساببيتش.

قال جورفيتيش مشيراً إلى طفلتين تضعان نظاراتين طبيتين: "أليس الأحفاد هم النعمة الأروع في الحياة؟". كانت الفتاتان على المزحقة، في حين كان توماسو يقف عند العارضة الأولى من السلم وهو ينظر بتوّق إلى الأعلى لكنه خائف من المغامرة. وهذه الدراما كانت تتكرر كل يوم، وفي نهايتها كان توماسو يبكي فيحمله أبوه إلى الأعلى، وهناك سينتظر توماسو مرة أخرى إلى أن يجد الشجاعة وينزل إلى الأسفل حيث سيكون تومي منتظرًا لالتقاطه.

"إنه أبني. لقد بدأت متأخرًا."

"أوه، يا الله!". قال جورفيتيش، فضحك تومي. كان دائماً يقول لدومينغا إنه سيأتي بقميص تي شيرت لتوماسو مكتوب عليه "ذلك الرجل العجوز هناك هو في الحقيقة أبي". في العادة، عندما كان تومي ينتهي من شرح هذا الوضع للأباء الآخرين هنا، كان يعرف من التعلقيات الناجمة أن الكثريين كانوا يظنون أنه كان رجلاً ذا سلطة في البلدة يعني بطفل ولد من زواجه الثاني أو الثالث. ولا أحد يفهم حقاً حياة أي شخص آخر.

قال جورفيتيش: "إنه ولد جميل".

"نور حياتي".

تبين أن ابنة جورفيتيش الصغرى كانت جارة تومي، إذ كانت تعيش قبل منزله بشارع واحد، أقرب إلى النهر. وكانت أستاذة في مادة الفيزياء متزوجة من مهندس. وجورفيتيش، وهو أرمل، كان يأتي إلى الحديقة غالباً في مثل هذه الساعة للارتفاع بالفتاتين إلى أن يعود والداهما من العمل.

"هل تحضر لمحاكمتك الكبيرة التالية؟". سأله جورفيتيش على سبيل فتح حوار لا أكثر.

"ليس بعد". في العادة، يكون المدعي العام مديراً فقط. ومعظم أسلاف تومي لم يدخلوا قاعة محكمة قطّ، وتومي كان يختبر مسبقاً فكرة أن تكون محاكمة سابينش آخر محاكمة في حياته.

"أنت تستحق ذلك. ولكن، لا بد أن أقول إن هذه القضية شغلت فكري منذ أن انتهت. ويعتقد المرء أن المحاكمات حاسمة قاطعة، غير أن هذه لم تكن كذلك قطّ".

"إننا نحقق القليل من العدالة، بدلًا من انعدام العدالة".
"بالنسبة إلى شخص من خارج المهنة، هذا أمر مشوش، لكنكم معنادون على سوداوية هذا العمل، بحيث يمكنكم إيجاد بعض المرح القائم، كما أعتقد".

"لا أظن أنتي وجدت ما يضحك كثيراً في تلك القضية".
"هذا هو الفرق بينك وبين براند حينئذ".

التفت تومي إلى توماسو الذي كان لا يزال أسفل السلّم، على الرغم من أن صفّاً من الأطفال كان قد تشكّل خلفه. فحاول تومي حمل الصبي وإبعاده عن العارضة الأولى، لكنه زعم معتبراً وأطلق لفظه الصوتية المفضلة، لا. وفي النهاية، أقنعه تومي بأن يدع الأطفال الآخرين يتسلقون، ولكن حالما بدؤوا بالصعود، عاد توماسو مباشرة، ووقف على العارضة الأولى من السلّم مثل صقر جاثم.

قال جورفيتيتش ضاحكاً: "إنه مثابر".

"عنيد مثل والده. الجينات شيء مذهل". ثم تذكر آخر ما قاله جورفيتيتش، فقال: "ماذا كنت تقول بشأن براند؟".

"لقد فاجأني تعليق قاله لي عندما تناولنا طعام العشاء بعد انتهاء المحكمة بأسبوع. كان احتفالاً صغيراً. أعتقد أنك كنت مدعواً".

تذكر تومي ذلك بالفعل. وبعد شهر من العمل على مدار الساعة من أجل المحاكمة، لم يشا أن يمضي ليلة أخرى بعيداً عن المنزل. وشرح لجورفيتيتش أن زوجته كانت في بداية حملها عنده. فتقبل تومي تهنئة جورفيتيتش، قبل أن يعود العجوز الغريب إلى قصته.

"في نهاية الأمسية، خرجنَا ومشينَا أمام المطعم، كلانا كنا واقعين تحت تأثير الشرب. وقد أعربت لجيم عن رأيي بأن المرء لا بد أن يشعر بالاضطراب لكونه جزءاً من نظام يُفضي في بعض الأحيان إلى مثل تلك النتيجة غير المرضية. فضحك جيم وقال إنه كان يجد نوعاً من المرح الغريب في تلك القضية، وذلك لرؤيه شخص يخطط لارتكاب الجريمة الكاملة فينتهي به الأمر معاقباً لجريمة ليس له أي دور فيها".

قال تومي: "ماذا يعني ذلك؟".

"لا أعرف. سأله حينئذ، فتهرب من الإجابة. كنت أعتقد أنك قد تفهم".
"أبداً".

"لقد قلبَتها في ذهني. وعندما اعترف سايبِيش بأنه مذنب، اعتبرت أن شريكَـه قد عبَث في الحاسوب. فأن يقوم رجل، أظهر معرفة محدودة بحاسوبه، بفعل ذلك بنفسه، فتلك مأثرة تقنية استثنائية. تذكرَ أنه لم يكن يدرك أن عمليات بحثه في الإنترنـت تُحفظ في ذاكرة مستعرضه".
"صحيح".

"كنت أسأـل إذا كان جيم قد استنتج أن الشريك لم يكن شريكـاً على الإطلاق، بل شخصاً تصرـف من تلقاء نفسه من دون أي توجيه من سايبِيش".

رفع تومي كتفيه. لم تكن لديه أي فكرة عن هذا. لقد حاولوا التفكير في جميع الاحتمالات يوم اكتشفوا أن البطاقة لم تكن في النسخة. وخشيـة أن يتمـهم الدفاع بشيء ما، قاموا بالتحقق بعناية من سلسلـة الأدلة كلها ليتأكدوا بأنها مؤمنـة. وفي كانون الأول، عندما أمر بي بإعادة الحاسوب، قام جورفينـش وأوريستـش ماورو، وهو تقني أدلة من مكتب المـدعي العام، بتغطـية الشاشـة، ولوحة المفاتـيح، وزر التشـغيل، وحتى الفـأرة بـشرطـ الأدلة قبل لفـ جميع الأجزاء بالـغلاف البلاستـيـكي. وعندـما أدلىـ نـات سـاـيبـيش بـشهـادـتهـ، كانـ الغـلافـ البـلاـسـتـيـكيـ قدـ نـزـعـ فيـ مـكـتبـ المـدـعـيـ العـامـ بـموـافـقـةـ الدـفـاعـ، لكنـ أـخـتـامـ شـرـيطـ الأـدـلـةـ لمـ نـزـعـ إـلاـ

في قاعة المحكمة بحضور خبيري سابيش، اللذين صادقا على أن أحداً منهما لم يرَ كلمة منتهك التي تظهر باللون الأزرق إن تعرّض الشريط لمحاولة نزعه.

لذا، كان الاحتمال الوحيد هو أن العبث بالكمبيوتر حدث عندما كان الجهاز في مكتب جورج ماسون. تحقق جورفيفيتش من سجل ماسون، وكان من أصحاب الرأي الذي يقول إن أحداً لم يستخدم الحاسوب وقتاً كافياً لإحداث كل التغييرات، وخصوصاً حذف ملفات التسجيل التي قال إنها تستهلك وقتاً طويلاً؛ حتى بالنسبة إليه. والتفسير المعقول الوحيد هو أن سابيش وخبيراً لم تُعرَف هوينته بعد، تسللا إلى المبنى بعد انتهاء العمل. ولكن، كان واضحاً أن تفسيراً آخر خطير على ذهن براند في الأسابيع التالية.

قال مولتو: "لعل براند كان يختلف شيئاً".

"ربما، أو ربما فهمت خطأ. لقد شربنا كثيراً".

"ربما. سأسأله".

"أو انسِ الأمر".

لثانية واحدة رأى تومي نظرة ماكرة لمعت في عيني جورفيفيتش. فلم يفهم تومي تماماً بما كان يفكر، لكن الحفيدتين كانتا قد ابتعدا إلى الطرف الآخر من الملعب فذهب العجوز على عجل. وكان ذلك مناسباً في الواقع، لأن تومي سمع توماسو يصرخ في الوقت نفسه. وعندما رفع تومي رأسه، شاهد ابنه على رأس السلم. الصبي ذو العامين واقف على القمة، ومرعوباً تماماً مما حققه للتو.

الفصل الثاني والأربعون

راستي ، 4 آب ، 2009

"السجن لا يخفى". فمنذ عدة عقود، كنا نقول هذا دائمًا عندما كنت مدعياً عاماً مساعداً. وكنا نتحدث في العادة عن خارجين عن القانون؛ محالين، أفراد عصابات، لصوص محترفين كانوا يرتكبون الجرائم باعتبارها طريقة في العيش، ولم يكن يردعهم احتمال سجنهم، إما لأنهم لم يكونوا يفكرون في المستقبل نهائياً، أو لأن فترة التوقف في السجن كانت على الدوام أمراً مقبولاً كجزء من برنامج عمل.

تردد هذه المقوله في رأسي دائمًا، لأنني لا أكف عن القول لنفسي إن السجن ليس سيئاً. لقد نجوت البارحة، وسانجو اليوم، ثم ستنقل إلى يوم الغد. والأشياء التي تعتقد أنها مهمة - الخوف من النزلاء الآخرين، ومخاطر الاستحمام المبالغ بها كثيراً - تشغل حيزاً في الجانب النفسي فيك، لكنها أقل أهمية بكثير مما كانت تعتبر مسائل تافهة في الخارج. فلا يمكنك أن تعرف كم تستمتع بصحبة أناس آخرين، أو بدفء ضوء النهار إلى أن تفقدهما. ولن يمكنك إدراك كم هي ثمينة الحرية إلى أن يفرض عليك شخص آخر وبصرامة الوقت الذي ستستيقظ فيه، والمكان الذي ستذهب إليه، وما ستلبسه. وما يدعو للسخرية هو أن الجزء الأسوأ من كونك في السجن، والشيء الأكثر وضوحاً، هو أنه لا يمكنك المغادرة. بما أن سلامتي بين النزلاء غير مضمونة، فقد وُضعت في ما يُسمى بالجز الإداري؛ المعروف أكثر بالانفرادي. أسئل دائمًا ما إذا كان من الأفضل لي أن أجرب حظي بين بقية النزلاء العاديين؛ الأمر الذي

سيسمح لي على الأقل بالعمل ثمان ساعات في اليوم . ومعظم السجناء هنا من الشبان: أفراد عصابات لاتينيون ، وسود سُجّنوا بسبب مخالفات تتعلق بالمخدرات ولا يملكون سجلات طويلة في العنف . وقد علمت من قبل الضباط الذين يمثلون إنترنت السجن ، أن هناك شخصين كنت قد صادقت على إدانتهما ، وبعملية حسابية صرفة ، يمكنني أن أتصور أن هناك ربما بضعة أشخاص آخرين أدعى بهم على آبائهم أو أجدادهم منذ عقود . وفي النهاية ، أقبل وجهة النظر التي تقول إنني مشهور جداً بحيث يمكن أن أمثل رمزاً لشاب محبط وغاضب؛ سمعة ثمينة سيستمع برؤيتها وهي معلقة على صنارته .

إنني محتجز في زنزانة ، ذات مترین ونصف طولاً ومترين ونصف عرضاً ، جدرانها إسمنتية ، وبابها فولاذي ، تقدّم من خلاله وجباتي ، ولها مصباح واحد . وهناك أيضاً نافذة بطول ستين سنتمراً وعرض خمسة عشر سنتمراً بالكاد تسمع بمزور الضوء . وفي هذه الزنزانة لدى مطلق الحرية في كيفية إنفاق وقتي . فنصحتني ساندي بكتابه مذكراتي لأنني قد أجد سوقاً لها عندما يطلق سراحي ، وأنا أكتب القليل كل يوم . ولكن ، لعلّي سأحرق جميع الصفحات عندما أخرج . تأتي الصحيفة بالبريد ، متأخرة يومين ، أحياناً بعد قص بعض المقالات التي تتناول سجون الولاية . لقد بدأت بدراسة اللغة الإسبانية ، وأندرّب عليها مع اثنين من الحراس المستعدين للإجابة . ومثل رجل مترف من القرن التاسع عشر ، فأنا أهتم بمراسلاتي كثيراً . أكتب لنات رسالة كل يوم ، وتصلني رسائل غالباً من عدة أشخاص من حياتي السابقة أقدر إخلاصهم تقديرأً عالياً جداً؛ وخصوصاً جورج ماسون وريموند هورغان وواحداً من جيراني . وهناك أيضاً أكثر من عشرين شخصاً ، معظمهم إناث ، كتبوا لي في الشهر الأخير ليعبروا عن ثقفهم ببراءتي ويشاركوني قصصهم عن الظلم الذي تعرّضوا له ، والتي تتعلق غالباً بقاضٍ فاسد حكم في قضايا طلاقهم .

عندما يخرج السجناء الثلاثة المحتجزون في قسم الحجز الإداري

إلى الباحة معاً كي يمارسوا الرياضة لساعة واحدة، ينتابني شعور مؤقت بالرغبة في معانقة كل واحد منهم؛ شعور لا يستغرق كبه وقتاً طويلاً، بالطبع. وروكي تورانتو مخت مصاب بمرض الإيدز لا يتوقف عن صدّ الألاعيب الممارسة ضده في الباحة. أما الآخران اللذان يرافقاني بينما أرکض حول الساحة وأقوم بحركات الضغط، فهما مجنونان بشكل إجرامي. مانويل روديغاس لديه وجه يشبه حشرة سُحْقة، ويبلغ طوله قرابة مائة وخمسة وستين سنتيمتراً، ورأسه يبدو وكأنه نابت من كتفيه مباشرةً. وأما هارولد كومبيلا فهو كابوس بالنسبة إلى الجميع. أكثر من مائة وتسعين سنتيمتراً مع مائة وخمسين كيلوغراماً. تسبب بإعاقة رجل ذات مرة، وكاد أن يقتل شخصاً آخر عندما كان موجوداً في الطابق السفلي. إنه عنيف جداً بحيث كان يجب عدم إرساله إلى مزرعة عمل الولاية، لكنه موجود هنا فقط بسبب إجراء مدفوع الثمن مع مؤسسة أمن الوطن التي تستأجر ست زنزانات من أجل مهاجرين محتجزين ينتظرون الترحيل؛ الأمر الذي لا يمكن أن يأتي قريباً بالنسبة إلى هارولد. ومن سوء حظي، علم هارولد بأنني كنت قاضياً، ولهذا فهو يسألني بين الحين والأخر عن نصيحتي له فيما يتعلق بقضيته. أخبرته بأنني لا أعرف شيئاً عن قانون الهجرة، لكن هذه الخدعة لم تمنعني سوى أسبوعين. قال لي منذ بضعة أيام: "مرحباً يا أخ، ولكن ربما، يا صاحبي، بإمكانك أن تدرس، كما تعلم. قدم لأخيك معرفة، كما تعلم". طلبت من الضباط أن يبقوا أعينهم عليه؛ الأمر الذي يقومون به على كل حال.

يأتي نات كل أحد، جالباً معه سلة من الكتب، يتفحصها العاملون هنا، والأربعة عشر دولاراً التي يسمح لي بصرفها كل أسبوع في المخزن. وأنا أنفقها كلها على الحلويات، بما أن الطعام هنا نادراً ما يكون قابلاً للأكل، مهما أجريت من تمارين رياضية. فأجلس ونات بجانب طاولة صغيرة. ولأن الإجراءات الأمنية في حدودها الدنيا، يسمح لي بمعانقته عندما يأتي وعندما يغادر وبلمس يده للحظة. ولدينا ساعة واحدة فقط. بكى في الزيارتین الأولین، لكننا بدأنا نستمتع بعد ذلك،

حيث يتولى نات معظم الحديث ، في العادة حول أخبار العالم ، والعمل ، والعائلة ، بالإضافة إلى أفضل النكات المعروضة على الإنترنت . ونقضي الكثير من الساعة ونحن نضحك ، إلا عندما نناوش أخبار فريق ترابيرز ، الغارق في موسم آخر لا أمل يُرجى منه .

حتى الآن ، نات هو زائر الوحيد . بالطبع ، سيكون من الحماقة أن تزورني أنا برفقته وذلك لأسباب كثيرة ، وهي تحفظ بالمسافة نفسها التي تفصل بيننا طوال معظم فترة السنين الماضيتين . إضافة إلى ذلك ، فأنا لست متحمساً لزيارة أي شخص آخر غير نات .

لهذا السبب أتفاجأ كثيراً عندما يفتح باب زنزانتي ويظهر توريس ، واحد من الشرطيين اللذين يساعدانني في تعلم الإسبانية ، قائلاً : "Su amigo" ؟ يعني "صديقك" . يتنهى جانباً فيدخل تومي مولتو عبر الباب . كنت مستلقياً على سريري أقرأ رواية . أقف على الفور ، ولكن من دون أن أعرف ماذا أقول . وكذلك تومي ، الذي يقف داخل الزنزانة كما لو أنه يتساءل الآن فقط لماذا هو موجود هنا؟

أخيراً ، يقول وهو يمدُّ يده مصافحاً : "رأستي . تعجبني اللحية" . الجزء الأكبر من السبب الذي يدعوني لإطلاق لحيتي هنا هو أن الضوء في زنزانتي يجعل العلاقة خطرة ، ولأن شفرات السلامة متلممة إلى حد بعيد .

يتتابع مولتو : "كيف حالك هنا؟" .
"لا أكترث كثيراً للنادي الصحي . ولكن ، على الأقل توجد خدمة غرف" .

يتنسم مولتو . أستخدم هذا السطر كثيراً في رسائلي .
"لم آت إلى هنا لأشمت ، إذا كان هذا ما تخشاه . فقد انعقد اجتماع هنا بين مسؤولي سجون الولاية والمدعين العامين من مختلف أنحاء الولاية" .
"إنه مكان غريب لللقاء" .

"لم يكن هناك صحفيون" .
"آه" .

"يريد قسم العقوبات من المدعين العامين الموافقة على خطة لإطلاق سراح نزلاء تخطوا الخامسة والستين".
"أيرجع السبب إلى أنهم لم يعودوا يشكلون خطرا؟".
"لتوفير المال. لأن الولاية لا تستطيع تحمل نفقات رعايتهم الصحية".

أبتسם. ياله من عالم! فلا أحد في نظام العدالة الجزائية يتحدث عن كلفة العقوبة. فالجميع يعتقدون أنه ليس ثمة ثمن للمبادئ الأخلاقية. أقول لتومي: "ربما عقد هارناسون صفقة جيدة أكثر مما كان يعتقد".
أحب تومي التعليق لكنه رفع كتفيه، وقال: "كنت أعتقد أنه قال الحقيقة".

"وكذلك أنا. كثيراً".

يهز تومي رأسه. باب الزنزانة لا يزال مفتوحاً، وتوريس في الخارج. فسند تومي ظهره إلى الجدار ليريح نفسه، وأقرر ألا أخبره بأن الرطوبة تتجمّع هناك غالباً.

يقول: "على كل حال، هناك أشخاص يعتقدون أنك أنت أيضاً ينبغي أن تكون مرشحاً لإطلاق سراح مبكر".
"أنا! أهم أشخاص من خارج عائلتي؟".
"يبدو أن هناك نظرية في مكتبي تفيد أنك اعترفت بالذنب في جريمة لم ترتكبها".

"هذه لا تقل جودة عن النظريات الأخرى المتعلقة بي التي ابتكر تموها أيها الشباب. كلها كانت غير صحيحة، وهذه أيضاً".
"في الحقيقة، بما أتنى كنت هنا، فكرت في أن أمر وأرى ماذا لديك لتقوله. نوع من الصدفة، ولكن ربما يعني ذلك أنه يفترض بي أن آتي إلى هنا".

لطالما كان تومي فيه شيء من الصوفية الكاثوليكية. فأفكر في ما قاله. ولا أعرف ما إذا كنت سأفرح أم أغضب عندما يخطر في بالي أن تومي لا يزال مستعداً للثقة في كلمتي. ويصعب تصوّر ما يظنه بي.

ربما ليس هناك شيء محدد. هذه هي مشكلته.

"لقد سمعتني الآن، توم. من أين أنت هذه النظرية في مكتبك، على أي حال؟".

"القىت ميلو جورفيتيس بالصدفة البارحة، وقال لي شيئاً يقوله بعض الناس. لم أفهم تماماً في البداية، لكنني تذكرته في منتصف الليل فأز عجني".

ينتفت تومي حوله، ثم يمد رأسه من الباب، ويطلب من توريس كرسيأ. ولم يستغرق توريس سوى دقيقة، ولكن يبدو أنه لم يستطع الحصول على أفضل من صندوق بلاستيكي. أفك في عرض الخزانة المعدنية عليه، غير أن تومي الجدي لن يجد ذلك مسلياً. كما أنها ليست مريحة.

أذكره بأخر جملة قالها: "انزعجت في منتصف الليل".
"ما يزعجني هو أنني أملك شيئاً. في الواقع، بعد ستة أشهر سأرزق بأخر".

أقدم له تهنئتي ثم أقول: "أنت تمنعني الأمل يا تومي".
"كيف؟".

"تسعى وراء طفل آخر في عمر متاخر. و يبدو أن الأمور جيدة معك. وربما سيحدث لي شيء جيد عندما سأخرج من هنا".
"أرجو ذلك يا راستي. فكل شيء ممكن مع الإيمان، إذا لم تمانع قولي هذا".

لست واثقاً بأن هذا هو الحل بالنسبة إلي، لكنني أقبل النصيحة لأنني اعتبرها صادقة، فأرد عليه بالمثل. ثم يسود الصمت بيننا إلى أن يقول مولتو: "على كل حال، إذا أخبرني شخص ما بأنني يجب أن أقضي سنتين في السجن من أجل إنقاذ حياة ولدي، فسأقبل ذلك على الفور".
"أحسنت".

"وإذا كنت مقتناً بأن شخصاً أحبه لعب في ذلك الحاسوب، حتى من دون أن أطلب منه ذلك، فقد أعترف بالذنب فقط لأنهي المسألة".

"صحيح، لكنني سأكون بريئاً في هذه الحالة، وأنا أخبرتك بأنني مذنب".

"هذا ما تدعوه".

"الآن ترى هذا الأمر مثيراً للسخرية؟ لأكثر من عشرين عاماً أخبرك بأنني لست قاتلاً، فلا تصدقني، وأخيراً تجد جريمة ارتكبها بالفعل، وعندما أقول إنني فعلت ذلك، لا تصدقني أيضاً".

يتسنم مولتو ثم يقول: "سأقول لك شيئاً. بما أنك شخص صادق. اشرح لي بالضبط كيف نجحت في التلاعب بذلك الكمبيوتر. أنا وأنت هنا فقط. وأمنحك كلمتي بأن أحداً لن يُقاضي. وفي الواقع، أي شيء تقوله الآن لن يخرج من هذه الزنزانة أبداً. فقط دعني أسمعها منك". "آسف يا توم. لقد سبق وعقدنا اتفاقاً. وقلت إنني لن أجيب على أسئلة إن قلتم الاعتراف. وأنا ملتزم بذلك".

"هل تريدينني أن أكتب تعهدي كتابة. سأكتبه الآن. مزق ورقة فارغة من أحد تلك الكتب". ويشير إلى الكدسة الموجودة على الرف الوحيد لدى. "أنا تومي مولتو، المدعي العام في مقاطعة كابيندل، أعد بأن لا تكون هناك أية إجراءات قضائية أخرى لها علاقة بحاسوب راستي سابiqش الشخصي، وأن أحافظ على سرية أية معلومات متصلة بهذا الموضوع. هل تعتقد أنني لا أستطيع الوفاء بهذا الوعد؟".

"ربما لا، كي أكون صادقاً. ولكن ليس هذا هو المهم، على أي حال".

"هذا الأمر بيني وبينك فقط، يا راستي. أخبرني ماذا حصل، وسألني كل هذا الأمر".

"وهل تعتقد أنك ستصدقني يا توم؟".

"يعلم الله السبب، ولكن أجل. فلا أعرف ما إذا كنت مريضاً اجتماعياً أم لا، لكنني لن أستغرب يا راستي إذا لم تكن قد كذبت بعد؛ على الأقل حسب فهمك للحقيقة".

"لقد عبرت عن ذلك الجزء بشكل صحيح. حسناً إليك الحقيقة".

وللمرة الأخيرة، أنت وأنا". أنهض عن السرير كي أتمكن من النظر في عينيه مباشرةً. "لقد أعمقت العدالة. والآن، انس الأمر".

"هل هذا ما تريده؟".

"هذا ما أريده".

يهز مولتو رأسه مجدداً فلاحظ البقعة الرطبة على كتف بذنه. فيفركها عدة مرات، وعندما يلتفت إلى مرة أخرى، لا أستطيع منع نفسي من الابتسام. لقد لمست العصب القديم بيمنا، راستي في موقع أعلى وتومي في الأسفل. لقد جعلته سيد العدالة والحقيقة في البلدة، ولكن عندما يتعلق الأمر بنا نحن الاثنين، فأنا لا أزال المسيطر.

"اللعنة عليك يا راستي". يخرج من الباب ثم يعود؛ ولكن فقط ليأخذ الصندوق البلاستيكي.

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثالث والأربعون

تومي، 4 - 5 آب، 2009

كان تومي دائمًا يتساءل عما سيحل بشبان مثل أوريستس ماورو، أخصائي الأدلة في مكتب المدعي العام، الذي كان يتعامل مع المعدات الرقمية. ولم يكن تومي يعتقد أن هناك شخصاً يشبه أوريستس عندما كان في مرحلة الشباب. فقد كان الولد ذكياً جداً وناجحاً في عمله، وإن طريقته الخاصة، إلا أنه كان يعيش حياة كلها لعب. كانت سمعاناً جهاز الآي - بود الخاص به في أذنيه طوال الوقت، إلا عندما ينزع إداحاهما ليتحدث مع شخص آخر. وكلما سمع تومي أوريستس يتحدث في الممر، فإن الحديث كان يدور حول الألعاب على الإنترنت وأحدث إصدارات الإكس - بوكس. وكان ينظر إلى الحواسيب والبرامج على أنها لغز مزدوج. وعلى هذا الأساس، فإن أي مهمة يعمل عليها - بصرف النظر عن طبيعتها - كانت ثانية مقارنة مع اللغز الممتع المتعلق بكيفية عمل كل شيء داخل الجهاز. والعمل باعتباره ضرورة مملة كان مقبولاً عند أوريستس، طالما أنه لا يدوم طويلاً. وسيكون شاباً عذباً وودوداً، إن لاحظ وجودك.

كان أوريستس مرئياً في قسم الأدلة، يعمل فوق عدة صناديق كرتونية، وفي السياق ينقر عليها بعض الإيقاعات، وعندما دخل تومي عبر الباب المؤدي إلى مكتب النائب العام، كانت الساعة تقارب السابعة مساءً، وكان قد علق في زحمة المرور مدة طويلة أثناء عودته من موريسلرو ومزرعة عمل الولاية. وعندما تمكّن من الانطلاق مجدداً،

سلك شوارع فرعية في طريقه إلى المنزل، فمرّ بجانب مبنى البلدية. وبما أن الوقت كان قد فات لتناول الغداء مع دومينغا وتوماسو، فقد قرر التوقف وأخذ بعض الملفات من أجل اجتماعه في محكمة الاستئناف في الصباح.

عندما رأى تومي أوريستس، قرر دخول غرفة الأدلة، وهي عبارة عن مخزن يقع خلف مصعد الشحن. وكان القانون يفرض أن تبقى الأدلة المجمعة بواسطة مذكرة هيئة محلفين تحت إمرة مكتب النائب العام، بدلاً من الشرطة؛ وكانت معلبة في صناديق ومصنفة هنا. وعندما شاهد أوريستس تومي قادماً، دار نصف دورة على مقدمة قدمه، مثل إحدى حركات مايكل جاكسون.

"أيها الرئيس!". كان يتكلم بصوت عالٍ دائمًا عندما تكون السماugin في أذنيه.

"مرحبا يا أو". (أو اختصار أوريستس). أشار تومي إلى أذنيه، فنزع أوريستس إحدى السماugin. فنقر تومي على الجهة الثانية، فاستجاب أوريستس على الفور لكنه بدا وكأنه توقع شيئاً خطيراً. "ما الأمر؟".

"قضية سابيش".

"أوه، ذلك القاضي!".

"القاضي".

"يا رجل، إنها قضية معقدة جداً".

كان تومي يفكر في راستي طوال طريق العودة. وكانت رؤيته في تلك الزنزانة مزعجة جداً؛ ولكن بالنسبة إلى تومي أكثر منه بالنسبة إلى راستي. فقد كان تومي يتوقع أن يجد راستي محبطاً أو شارد الفكر، مثل معظم الأشخاص الذين يكونون في السجن الانفرادي، إلا أنه رأى فيه شيئاً مختلفاً تماماً. فقد كان شعره طويلاً مع لحية لم يتوقعها بذلك البياض، بحيث بدا مثل منبوز في جزيرة. وكان يعطيك الانطباع نفسه الذي كنت تكونه عنه في السابق؛ لا يمكنك أن تلمسني. لكن راستي بقي

كما هو. لعله لم يكذب على تومي، وتكلم بطريقته الخاصة بحذر شديد. فيما يتعلق بالكلمات التي استخدمها. هذا هو راستي، يريد أن يكون الوحيد الذي يعرف الحقيقة؛ الأمر الذي وضع تومي في الحالة نفسها التي كان فيها مع راستي طوال عقود. فما هي الحقيقة اللعينة؟

"ما زلت أحاول معرفة كيف تلاعبوا بالحاسوب".

"أوه، يا رجل، لا يمكنك أن تعرف. لم أكن أنا، أنا واثق". قال أوريستس ثم ضحك.

"ولا أنا. ولكن، ما زلت أعتقد أننا أغفلنا شيئاً ما. وأنا أتساءل إن كان سابيتش قد اعترف بالإعاقات من أجل حماية ابنه. هل يبدو ذلك منطقياً بالنسبة إليك؟".

"حسناً". قال أوريستس، ثم قام بخطوة استثنائية تمثلت بإيقاف عمل الآي - بود ثم جلس على مقعد معدني. "لم يسألني أحد، ولكن، هل تذكر ذلك الاجتماع الكبير الذي عقدناه بعد مجيئكم من المحكمة، عندما عرفتم أن البطاقة مزيفة؟ كان ميلو يقول إن أحداً من استخدم الكمبيوتر في مكتب القاضي ماسون - سابيتش والفتى والموظفة السابقة - لم يكن لديه الوقت الكافي للتلاعب بالكمبيوتر والقيام بكل ما تتطلبه عملية زرع البطاقة في الكمبيوتر. هل تذكر؟".

بالتأكيد."

"وجيمي قال حينئذ إن سابيتش دخل المحكمة خلسة حتى".

صحيح".

"ولكن، إليك الجواب. ماذا لو كانوا كلهم معاً؟ وماذا لو كانوا كلهم مشترkin في هذه العملية، عملية زرع البطاقة؟ أحدهم أجرى عملية التنصيب من وصلة ذاكرة شخصية، وشغل آخر برنامج الجاسوس، فيما قام الثالث بحذف ملفات التسجيل. كلهم معاً - أو حتى اثنان منهم - كانوا يملكون الوقت الكافي".

أمسك تومي جبهته. بالتأكيد. وربما كان مستقبل أفضل ينتظر أوريستس؛ أفضل مما كان تومي يعتقد.

"إذاً، هل هذا ما حدث باعتقادك؟".

ضحك أوريسن بصوت عال ثم قال: "يا صاحبي، ليست لدى فكرة. فالحواسيب، يا رجل، عالم بذاته. ولا يوجد شخص يعرف كل شيء. ولهذا السبب هي رائعة".

"ولكن، إذا كنت أنت ستزروع تلك البطاقة، فهل كنت ستزرعها بتلك الطريقة؟".

"أنا!". ضحك مجدداً، "كان باستطاعتي فعل ذلك بالتأكيد. ولكن هذا أنا".

كانت ثقة أوريسن العفوية مثيرة للقلق، فعمله كان يتمثل بإعداد الأنظمة لضمان أن تكون الأدلة الموجودة بعهده غير قابلة للعبث فيها. فكان من الطبيعي أن يسأله تومي عما كان يعنيه. "إليك ما حدث. في تلك الليلة، عندما كنت مع جيمي لنزع الغلاف".

"كنت أعتقد أن ذلك حصل في الصباح قبل المحكمة!".

"هي، يا رجل، من الثانية عشرة إلى الثامنة. وهكذا ذهبت إلى مكتب براند، لأن الحاسوب كان في عربة المحاكمة، وقمنا معاً بنزع الغلاف، وقد تطلب الأمر وقتاً طويلاً لأننا كنا وضعنا ثلاثة طبقات أو أربع طبقات. وعندما وصلت إلى الأجزاء ونظرت إليها كلها، قلت لنفسي: اللعنة، هذا خاطئ".

"ماذا تقصد؟".

"لأن شريط الأدلة على وحدة المعالجة كان ملفوفاً على زر التشغيل. ولكن زر التشغيل لم يكن على مستوى حواف وحدة المعالجة، بل أخفض. وهكذا، كان هناك فراغ صغير تحت الشريط. فقلت لبراند، بما معناه: عمل سيء. لقد قمنا بعمل سيء. بوسعي تشغيل هذا الكمبيوتر. فذهل براند. وهكذا أمسكت بإحدى معداتي" - يُخرج أوريسن من جيب قميصه مفك براغي دقيقاً جداً وصغيراً بما يكفي لثبت البراغي في النظارات - "وأدخلته في الفراغ. وبراند، يا رجل، كاد أن يخنقني.

وكان يعتقد أنتي سأنتهك الشريط. وحدث ذلك في اليوم الذي جاءت فيه تلك المرأة الإسبانية من البنك، فكان لسان حال براند يقول: أوه، ممتاز، هذا ما كان ينقص. أنا لم أفعل أي شيء. لقد أخفته فقط. فجورفيتيس والبقية قاموا بنزع كل الشريط في الصباح، من دون أي مشاكل. وهذا ما أقوله. وإذا كنت سأعتبر بالكمبيوتر، فقد كان بإمكانني العبث به حينئذ".

"إذا، كان بوسنك تشغيل الكمبيوتر، أليس كذلك؟".
"لم أفعل".

"أعرف أنك لم تفعل، يا أو. ولكن كان بوسنك فعل ذلك، أليس كذلك؟ الأجزاء الأخرى، مثل لوحة المفاتيح، والشاشة، كانت لا تزال مختومة، أصحيح ما أقوله؟".

" تماماً. لكن المخارج في وحدة المعالجة المركزية لم تكن ملفوفة بشريط الأدلة. وكان باستطاعتك استخدام شاشة أخرى أو فأرة أخرى متوافقة مع الكمبيوتر. وكان عددها ملياراً فقط. ولكن الجهاز كله ظل مغلفاً لأشهر على أي حال. والأختام كانت موجودة. وما أريد قوله بما أنك سألت: هذه هي الطريقة التي كان بوسعي من خلالها فعل ذلك. لكنني لم أفعل. أما سايبيش والبقية، فقد فعلوا ذلك. ولكنني لا أعرف كيف. والقاعدة رقم واحد يا صديقي تقول: ما لا تعرفه، فلا تعرفه. بهذه البساطة".

رسم أو ابتسامة كبيرة تحت الزغب الذي يُشبه الشارب. قال تومي في نفسه: إنه فتى ذكي حقاً. وبمرور السنوات سيبدأ بمعرفة ما الذي لم يكن يعرفه.

في الحادية عشرة صباحاً، كان براند في مكتبه، يرتّب الملفات فوق طاولته، عندما عاد تومي من اجتماعه في محكمة الاستئناف. كان موضوع الاجتماع يشبه إلى حد كبير الاجتماع الذي حصل في السجن البارحة. ولم يكن هناك أحد يملك ما يكفي من المال. ماذا سيخفضون؟

البارحة، أخذ براند إجازة يوم لمقابلة مستشارتين ساسيتين. وكان منافسه بيروجا، يملك أفضلية وجوده في مجلس البلدية. وكان براند سيحصل على الكثير من المساعدة من الحزب، لكنه كان بحاجة إلى وضع كل فرد من أفراد طاقمه في مكانه المناسب.

سأله مولتو عما فعله مع المستشارتين اللتين قابلهما.

"أحببت المرأتين. أوبانون وميرز حادتا الذكاء. واحذر ما هي آخر حملة انتخابية محلية ساهمتا فيها؟".

"سابيتش؟".

"بالضبط". ضحك براند.

"بالمناسبة، رأيته البارحة".

"من؟".

"راستي".

أسكتَ الخبر براند، لكنه استمر في ترتيب الكدسات على طاولته. وكانت عربة المحاكمة لا تزال موجودة في زاوية مكتب براند مع جميع ملفات تومي وجيم، بالإضافة إلى الأدلة التي أعادها القاضي بي عند انتهاء المحاكمة. وعندما تخوض غمار محاكمة ما، فإنك تنسى كل ما في الكون - العائلة، العلاقات، الأخبار والقضايا الأخرى - وحالما تنتهي، تصبح كل الأشياء التي نحيط جانباً أكثر أهمية من شيء تافه، كوضعها في مخزن مثلاً. ويمكنك دخول مكاتب نصف المدعين العامين المساعدين، ورؤية صناديق محاكمات قابعة في مكانها منذ أشهر بعد صدور الأحكام. وأخيراً، عندما تجد الوقت لإبعاد هذه الأشياء، فإنك ستتجد هذه العملية مسببة للحزن كما لو أنك تنظر إلى بقايا علاقة حب قديمة. وهذه الوثائق وزجاجات الأدوية التي كانت ذات مرة بالغة الأهمية، أصبحت أشياء جانبية على هامش الحياة اليومية. وبعد بضعة أشهر، لن يكون تومي قادرًا على تذكر موقع هذه الأشياء في المتأهة المعقدة للاستدلال والاستنتاج الخاص بقضية الولاية. مما يهم الآن هو النتيجة. راستي سابيتش مجرم قابع في السجن.

قال تومي: "ذهبت إلى موريسور". وراح يشرح لبراند بإيجاز موضوع المجتمع. إطلاق سراح السجناء سيكون قضية انتخابية حالما يصل إلى الصحافة، ولكن براند كان مهتماً أكثر ببابتيش.

"هل زرته هكذا ببساطة من دون محام أو أي شيء آخر؟".
"كصديقين قدمين". لم يخطر بباله حتى احتمال أن يرفض راستي التحدث معه. ويبدو أن الأمر ينطبق على راستي أيضاً. فالمنافسة القديمة بينهما ربطهما معاً بحيث إنها لم يكونا يريدان إثراك أي شخص آخر.

"كيف بدا لك؟".

"أفضل مما توقعت".

"اللعنة!".

"أردت أن أسأله وجهاً لوجه كيف عبث بالحاسوب".
"مجدداً!".

"لم يجب. أعتقد أنه يحمي ولده".

"هذا ما تصورته".

"أعرف. لقد التقى جورف بباتش مصادفةً منذ يومين. وقال إنكما اجتمعتما بعد المحاكمة، وإنك أخبرته أن راستي اعترف بجريمة لم يرتكبها. فلم أستطع أن أتخيل عما كنت تتحدث حينئذ. ثم خطر في ذهني أنك كنت تعتقد أن راستي كان يحمي ابنه".

رفع براند كتفيه وقال: "من يعرف بماذا كنت أفكراً. فقد كنت مشوشًا للغاية. وكذلك ميلو".

"ولكن، لا أزال غير قادر على فهم السبب الذي جعلك تعتقد أن راستي حمل الثقل عن ابنه".

لوي براند فمه، وعاد مجدداً للتحقيق إلى مكتبه. كانت رزم الكتب والملفات مرتبة بدقة شديدة؛ الحواف متساوية وبعيدة عن بعضها بمسافات متساوية، مثل الأسرّة في التكاثن العسكرية. التقط رزمة من الملفات وتلفت حوله باحثاً عن مكان يضعها فيه.
وأخيراً قال: " مجرد إحساس".

"ولكن، لماذا؟".

رمى براند الكدسة على مكان فارغ في زاوية طاولته، ثم قال: "ومن يأبه، أيها الرئيس؟ راستي في السجن حيث يجب أن يكون. وعلى الأقل لفترة وجيزة. فمَّا أنت خائف؟".

خائف كان هذا هو الوصف الصحيح. لقد استيقظ تومي في الثالثة بعد منتصف الليل، وكان معظم الوقت مرعوباً. فحاول أن يصدق أنه كان يعذب نفسه كما يفعل في بعض الأحيان، وأنه غير قادر أو مستعد لاستيعاب نجاحه. ولكنه كان يعرف أنه يريد اكتشاف الحقيقة كي يتمكن من التعايش مع نفسه.

"ما أخشاه، يا جيمي، هو أن تكون على علم بأن راستي لم يزرع تلك البطاقة في الحاسوب".

جلس براند أخيراً على كرسيه، ثم قال: "ولماذا تعتقد ذلك، يا توم؟".

"كنت أجمع الكثير من الأجزاء معاً خلال اليومين الماضيين. ما قلته لجورفيتش، وحقيقة أنك كنت هنا طوال الليل بعد نزع الغلاف عن الحاسوب. وبين أوريستس لك كيف تشغّل الجهاز من دون إزالة شريط الأدلة. وكان ذلك بعد مجيء موظفة المصرف حين بدت قضيتنا فجأة وكأنها فرغت من كل أساساتها. وأنت على علم بالحواسيب. لقد درست مادة البرمجة على يد جورفيتش. ونحن لا نزال لا نملك أي شيء يمكن اعتباره تفسيراً. أنت لم تضع تلك البطاقة في الحاسوب، أليس كذلك؟". أجاب براند بهدوء: "وكيف يمكنني فعل ذلك؟ لم يكن باستطاعتي تشغيل الحاسوب والعبث به من دون أن يُظهر دليل البرنامج أنه فتح. أتذكرة؟".

"صحيح. باستثناء أن الحاسوب كان سُيُشغَّل في المحكمة صباح اليوم التالي، وسيظهر ذلك التاريخ والتوقيت في الدليل". وهنا استر على توم اهتمام جيم الكلبي. كان جيم يراقب تومي باهتمام. تابع تومي كلامه قائلاً: "إنه ذكاء لامع. تبتكر دفاعاً يفسر كل

الأدلة، فيضطر شتيرن لاعتماده. وعندما يفعل ذلك، تقوم أنت بنفسك كلياً. وتلقي مسؤولية الخديعة على المتهم. هذا الأمر في غاية الذكاء". نظر براند أمامه لعدة لحظات بوجهه خال من التعبير. وبعد ذلك، راح يبتسم ببطء في وجه تومي، إلى أن أصبحت الابتسامة عريضة جداً، كما كان يفعل غالباً، لأن كلّيهما كانا يقدّران سخافة وسخرية وكوميدية الأخطاء البشرية، وجهود القانون العبثية لكبّها.

قال براند: "كان يمكن أن يكون ذكاءً لعيناً كبيراً".

داخل تومي، انكسر شيء ما، ربما قلبه. فجلس على الكرسي الخشبي مقابل جيم. كل ما كان ينبغي على براند قوله هو لا. ولكن، في تلك الأثناء، لاحظ براند تغيير مزاج تومي فتوقف عن الابتسام. "ذلك الرجل قتل شخصاً، أيها الرئيس. بل قتل شخصين. إنه مذنب".

"إلا بما أدناه به".

"ومن يبالي؟".

"أنا". طوال سنوات عمله في هذا المكتب، سمع تومي مدعياً عاماً بعد آخر يحاضرون في مساعدتهم حول واجب محامي الادعاء المتمثل بالضرب بقوة ولكن بنزاهة. وبعضهم كان يعني ما يقوله، وبعضهم الآخر كان يقوله مع غمزة عين وهزة رأس، عارفين مدى صعوبة المشي في خط مستقيم وسط الشارع في حين أن الأشرار يختبئون خلف الأكمام ويهاجمونك. لعل تومي تأرجح بين هذا وذاك قبل ولادة توماسو. وبوجود طفل يصبح لديك رهان مختلف في المستقبل. وينبغي عليك أن تعلمه الصواب من الخطأ. ولكن، ليس هناك أمل على الإطلاق إذا لم يرسم المدعي العام حدوداً صلبة ويقف خلفها.

قال براند: "لقد وقف الرجل في المحكمة واعترف بأنه مذنب".

"هل كنت ستفعل ذلك لحماية ابنك؟ كان يعرف أنه لم يفعل ذلك يا جيم، وابنه سيكون الشخص الآخر الوحيد الذي يملك دافعاً لمحاولة إخراجه بواسطة تلك الطريقة. وللهذا السبب اعترف لوضع حد للقضية

كلها".

"إنه قاتل".

"هل تعرف؟ لم أعد حتى واقفاً تماماً بشأن هذا الأمر. قل لي: لماذا لم تفقد تلك المرأة الأمل عندما اكتشفت علاقة زوجها الغرامية، وتقتل نفسها؟".

"بصماته موجودة على زجاجة الدواء. وبحث حول الفينيلزرين".

"هل هذه هي قضيتنا كلها؟ هل تقول لي إننا لم نكن سنفكر مررتين بخصوص الادعاء عليه لو علمنا بأن باربارا ذهبت إلى البنك؟".

"لم يكن يستحق الإفلات مرة أخرى. من دون أن نأتي على ذكرك. فقد كنت تضع راستي مثل أثقال حول كاحליך لمدة عشرين سنة".

"وذلك يفيدك أنت أيضاً يا جيم. فأنت الشخص الذي سيخوض الانتخابات ليصبح المدعي العام التالي".

وبعد أن ظل حتى هذه اللحظة دفاعياً وهادئاً، بدأ الغضب يتسلل بسرعة إلى براند الآن. انحنى في جلساته إلى الأمام وقال: "إنني أقبل المؤخرة من أجلك منذ سنوات يا تومي؛ لأنني مدين لك، ولأنك تستحق ذلك. فقد كنت معي أفضل من أشقائي أنفسهم. ولم أضع نفسي أمامك فقط. وإنني أحب أن أكون وراءك وأنت تعلم هذا".

كان يعلم هذا حقاً. كان براند يحبه، وهو كان يحب براند. وكان يحب براند كما يتعلم المحاربون أن يحبوا الرجال والنساء الذين وقفوا بجانبهم في الخنادق، والذين راقبوا ظهورهم وكانوا من بين القلة الذين فهموا حقاً الخوف وما سي الحرب. وكان براند مخلصاً، وذكياً. لكنه التصدق بتومي بقوة لأسبابه الخاصة. وكان بحاجة إلى ضمير.

تابع براند كلامه: "اسمع. الأخطاء تحدث. كان الوقت منتصف الليل، وكنت غاضباً وأشعر بحر شديد، وجاءتني تلك الفكرة اللعينة، غالباً، لأنني أعرف أنني أستطيع تنفيذها، فبدأت بالفعل، وبعد ذلك اكتسبت الفكرة حياة خاصة بها. ولا تكون صادقاً معك، كنت أضحك

بصوت عالٍ في معظم الساعات الثلاث التي استغرقتها لتنفيذ العملية.
وكان الأمر يبدو مضحكاً جداً حينئذ".

فَكَرْتُومي في كلام براند. ربما كان ذلك صحيحاً، لكنه لم يكن
يفيد براند.

"لن أدع ذلك الرجل يقبح في السجن شيء لم يفعله، يا جيم".
"أنت مجنون".

"لا، لست مجنوناً. سأتصل بالقاضي بي. وسنقدم طلباً لإطلاق
سراح راستي عصر هذا اليوم، وراستي سيكون في الخارج بحلول
صباح يوم غد. أما أنا فبحاجة فقط إلى معرفة ما سأقوله. وما سأفعله
معك".

"معي؟ أنا! لم أفعل أي شيء. وأنا لم أشهد كذباً، ولم أقدم أدلة
مزيفة. وأنا لست الشخص الذي شغل الكمبيوتر. اقرأ السجل يا توم.
فلن تجد كلمة في النص تقول إنني فعلت أي شيء سوى إخبار المحكمة
بأن البطاقة كانت خدعة. وقدمته أدلة لإثبات ذلك، ومنعت المحكمة من
الوقوع ضحية التضليل. فأي جريمة في كل هذا؟".

تأمل تومي براند بحزن. فقد أصبحت الجريمة تصيبه بالحزن
في هذه الأيام. وعندما كان أصغر عمراً، كانت الجريمة تجعله يشعر
بالغضب. وكان يعرف أن هذا الجزء من الحياة لن ينسى أبداً. فالناس
يغلون بالدافع لارتكاب الخطأ دائماً، لكنهم يرددون أنفسهم معظم
الوقت. وعندما لا يمكنون من فعل ذلك، فإن وظيفة تومي تقضي
بتقديمهم للعدالة من أجل نيل العقاب اللازم، ليس لأن ما فعلوه غير
مفهوم، بل لأن الأشخاص الآخرين - أولئك الذين حاولون ضبط
أنفسهم كل يوم - بحاجة إلى إنذار. والأهم من ذلك، لإثبات أن الأشرار
ينالون ما يستحقونه. والناس العاديون بحاجة إلى رؤية الهدف من اللجام
الذي يكبحون بواسطته رغباتهم غير القوية.

"لا يمكنك أن تقاضيني. وإذا فعلت ذلك يا توم، فإنك تعرف تماماً
ما هي النتيجة. فالناس سيلومونك".

مع هذه الكلمات الأخيرة، أحس تومي بانقباض في صدره، فأصدر صوتاً متألماً خافتاً. ولكن، قبل أن يجيب، جلس ليفكر في الأمر ملياً. وكان براند أسرع بديهة منه. ومن الواضح أنه كان يفكر في الأمر منذ أسابيع. فسأل نفسه: كيف سيتجلى هذا على أرض الواقع؟

لا بد من تعين قاضي تحقيق خاص. والحججة التي قدّمتها براند منذ قليل - أي أنه لم يفعل أي شيء لتضليل المحكمة - لن تجدي نفعاً مع المحقق الخاص. وإن العبث بالأدلة وسط المحاكمة جريمة بشكل أو باخر.

لكن إثبات ذلك كان أمراً مختلفاً. فلم يكن في تلك الغرفة سواهما. وحتى لو قبلت رواية تومي عن الحوار الذي جرى بينهما، فإن براند لم يقدم بعد اعترافاً تفصيلاً بما جرى.

بيد أن النقطة الأهم هي ما قاله براند في النهاية؛ التهديد الماكر الذي عبر عنه بوضوح. وهو كان محقاً. فعندما سيطلق تومي الرصاصة، فإنها سترتد إليه وتخترقه حتماً. وإذا ما اقترب أي محقق من توجيه الاتهام لبراند، فإنه سيحاول تخلص نفسه عبر القول إن تومي كان يعرف، وإن كل ما فعله جيم كان بتوجيهه من تومي. فإن انقلب تومي عليه - كما رأى ذلك بعينه للتو - فإن جيم سيرد التحية بمثلها. وإذا كذب براند بصورة مقنعة، فربما سيدان تومي في النهاية. وحتى لو لم تصل الأمور إلى هذا الحد، فإنه سيعود إلى المكان نفسه الذي كان فيه منذ عشرين سنة. وسيصدق الناس ذلك لأنه اعترف بتلاؤبه بالأدلة حينئذ.

الحياة ليست عادلة، قال تومي في نفسه؛ وهذه ليست المرة الأولى. بعد عدة دقائق أخرى من التفكير، قال تومي: "حسناً. إليك ما سيحدث. سأخبر القاضي بي بأننا اكتشفنا أن سلسلة الأدلة المتعلقة بالحاسوب كانت غير مؤمنة تماماً: فقد كان الحاسوب موجوداً من دون غلاف في مكتبك في الليلة التي سبقت تشغيله في المحكمة، وبعكس ما فهمنا دائماً، علمنا أن اختام الشريط لم تكن مؤمنة في مكانها الصحيح، وأنه كان بالإمكان التلاعب بالحاسوب من قبل أي شخص تواجد في

مكتب المدعي العام في تلك الليلة أو في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ونحن لا نقول إن هذا قد حصل. ولكن، بما أن سابينش لم يكن ليعرف إن علم بأننا لم نكن قادرين على إثبات أي شيء بوجود سلسلة أدلة سليمة، فإننا نود إبطال الإدانة وسحب تلك التهم أيضاً. وأنت ستستقيل من المكتب خلال ثلاثة أيام. لأنك سيحدث لغط كبير عندما سيرأ راستي مرة أخرى. فأنت المسؤول عن كون الحاسوب غير مؤمن بصورة مناسبة. وستتحمل مسؤولية ما حدث لراستي، لأنه خطوك يا جيم".

"هذا سينهي ترشحني".

قال مولتو: "هذا سينهي ترشحك".

"هل يفترض بي أن أقول شكراً؟".

"يمكنك قول ذلك. وأعتقد أنك ستفعل عندما تجد وقتاً للتفكير".

"هذا مرفق".

رفع تومي كفيه، وقال: "إنه عالم مقرف يا جيمي. أحياناً على الأقل" - وقف على قدميه - "سأتصل بساندي شتيرن".

قال براند وهو يقضم ظفر أحد إبهاميه من دون وعي منه: "ألم يمت؟".

"وفقاً لما سمعته، لا. في الواقع، إنهم يقولون إنه يتحسن. وهذا كي تعرف يا جيم".

"أعرف ماذا؟".

"إنه السبب الذي يدفعنا للاستيقاظ في الصباح. لأنه ليس هناك أي شيء ثابت مطلقاً". نظر إلى براند الذي أحبه ذات يوم، ثم هزَ رأسه أسفًا. "مطلقاً".

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الرابع والأربعون

آنا ، 5-6 آب ، 2009

"لن تصدقني هذا" ، يقول نات حالما أفتح هاتفى الخلوي في مكتبي. ثم يكرر الجملة. كلما اعتقدت أننى ونات لا يمكن أن نصبح أكثر جنوناً، وأننا بدأنا أخيراً ننزلق نحو عيش حياة عادية. يحصل شيء ما. "أنهيت اللتو مكالمة مع ساندي. سيطلكون سراح أبي. فهل يمكنك تصديق ذلك؟ إنهم سيسحبون التهم". "أوه".

"هل يمكنك أن تصدقني هذا؟ من الواضح أن مولتو قد اكتشف من خبير الأدلة أن الحاسوب لم يكن مؤمناً في الليلة التي سبقت تشغيله. وهكذا، لم تعد هناك سلسلة أدلة، ومن دون سلسلة جيدة لا توجد جريمة قابلة للإثبات". "لا أفهم".

"ولا أنا. ليس تماماً. وكذلك ساندي. لكن بي أعطى الأمر مسبقاً. ولم يتمكن ساندي من الاتصال بأبي بعد، لأن الأشخاص في الحجز المنفرد لا يمكنهم تلقي اتصالات من دون مواعيد مسبقة. ولا يزال شتيرن ينتظر اتصال أمر السجن". وبعد ثانية، يعطي هاتف نات إشارة صوتية تدل على اتصال قادم، فيتركتي ليرد على مارتا.

أجلس في مكتبي الصغير، وأنظر إلى صورة نات على طاولتي، وكلّي فرح لفرحه. ولكن، مع ذلك، ثمة زاوية باردة صغيرة في قلبي. فالحقيقة البشعـة هي أن عدم وجود راستي أفضل بالنسبة إليـ. فمنذ وفـاة

باربارا، لم نقل أي شيء لبعضنا تقريباً، بل حتى إننا كنا نتجنب النظر نحو بعضنا. والاستثناء الوحيد حدث في تلك اللحظة التي تلت اعترافه بالذنب؛ عندما التفت راستي واندهش بوضوح لرؤيتي جالسة بجانب نات في قاعة المحكمة.

أجلس خلف طاولة مكتبي لمدة أربعين دقيقة من دون أن أفعل أي شيء باستثناء انتظار رنين الهاتف مجدداً. وعندما يرن، يخبرني نات أن لدى ساندي ومارتا فكرة. سُيُطِّلِق سراح راستي من مزرعة عمل الولاية في موريسور في الثالثة بعد منتصف الليل. والتوقيت هو فكرة ساندي. فهو ليس متأكداً من أن خبر خروج راستي سيُتسرَّب، ولكنه واثق بأن جميع المؤسسات الإخبارية في هذه الأيام لا يمكنها بسهولة تأمين أجور عمل إضافي من خلال إرسال صحفيين ومصورين في منتصف الليل.

يقول نات: "هل يمكنك أن تأتي معِي؟".

"أليس هذا الوقت لك ولا يُبيك فقط؟".

"لا. فمارتا وساندي سيكونان هناك. ونحن عائلة أبي الآن. ويجب أن تأتي أنت أيضاً".

إن الشاب الحزين والهادئ، الذي أعيش معه منذ ما يقرب من العام، لم يعد موجوداً الآن، على الأقل لبعض الوقت. إنه لا يستطيع الجلوس. يظل يدور في أرجاء الشقة، ويبحث في شبكة الإنترنت عن آخر تعليق حول والده، ثم يتحول إلى التلفاز ليقرأ الشريط الإخباري في محطات الكابل الإخبارية. يبدو أن مجموعة من الصحفيين وصلوا إلى بلدة القاضي بي ليصوروه مغادرته مكتبه عند الخامسة والنصف من عصر هذا اليوم. ولم يقل شيئاً، بل اكتفى بالابتسام والتلويع للكاميرات، فرحاً كما هو دائماً بالتقديرات المدهشة للحياة، وبالتالي للقانون أيضاً. استخدم جميع المراسلين كلمة مذهبة لوصف أحداث اليوم. فقد نشر ساندي بياناً قرأه المراسلون حرفياً، مدح فيه نزاهة المدعي العام وتوقع إطلاق سراح موكله غداً.

وقد أقرابة الساعة التاسعة مساءً، أقترح على نات الخروج لكي نشتري

بعض المواد من البقالة لأبيه. وهذا سيشكل إلهاء جيداً، بما أن نات يستمتع بجلب الأشياء التي يعرف أن أباها يحبها. وبعد عودتنا إلى المنزل نقرر الذهاب إلى السرير - سيحدث شيء جيد هناك ، قليلة على الأقل - لأننا سنذهب إلى منزل عائلة سابيتش في نيرينغ في الواحدة بعد منتصف الليل، حيث اتفقنا على اللقاء لنضمن عدم وجود بعض الصحفيين الساهرين. وعلى فرض أن الأمور ستسير بصورة جيدة في السجن ، فينبعي أن يكون راستي هنا في الرابعة ، وبعد ذلك سيغادر إلى سكاجيون . يبدو غريباً أن يخرج رجل من سجن انفرادي ويختار تمضية مزيد من الوقت لوحده . ولكن وفقاً لساندي ، فقد أوضح راستي أن إمكانية النزول إلى السوق من أجل شراء جريدة أو مشاهدة فيلم سينمائي ستشكّل فرقاً كبيراً . يصل ساندي ومارتا بعدها ببعض دقائق في سيارة مارتا . مارتا ونات يتعانقان مطولاً في الشارع المفضي إلى المنزل . وعندما يتركها يذهب إلى ساندي في مقعد الراكب وينحني ليعانقه ، ولكن لفترة أقصر . لقد قابلتهما منذ بضعة أشهر ، عندما كانا يحضران للمحاكمة ، ولكن نات يعيد تقديمها إليهما . فأحبيهما وأصافح ساندي . وتحت ضوء الشارع ، يبدو مظهره أفضل بكثير من المرة الأخيرة التي رأيته فيها في المحكمة . فالطفح الجلدي الذي كان يغطي معظم وجهه لم يعد أكثر من لطخة باهته ، كما أنه فقد مظهر سجين الحرب التحيل المتضور جوغاً . فيعتذر لي عن عدم وقوفه لتحتي ، قائلاً إنه سيفعل شيئاً بخصوص "هذه الركبة العينة" حالماً يصبح قادراً على مواجهة المستشفى مجدداً .

وفي طريقنا إلى السجن ، يمطر نات ساندي بأسئلة حول مستقبل والده: هل سيعيد راستي راتبه التقاعدي؟ وهل يمكنه العودة إلى القضاء؟ يبدو أن نات هو الوحيد غير القادر على إدراك ما هو واضح بالنسبة إلى البقية في السيارة ، وهو أن إطلاق سراح راستي تحت هذه الشروط التقنية الصرفة سيجعله منبوذاً . وبعد أن أصبحت نتائج الحمض النووي علنية في أواخر حزيران ، صورت وسائل الإعلام راستي كمتوهش بارع التخطيط ، ارتكب جريمتي قتل ، وتلاعب بالنظام الذي

يعرفه جيداً من أجل الإفلات بعقوبة ثانوية.

يشرح ساندي لنات ، بسعة صدر أن والده سيستعيد راتبه التقاعدي ،
لكن استعادة موقعه في القضاء مسألة أشد تعقيداً بكثير .

"الإدانة باطلة نات . وبما أن أبيك أزيح عن منصبه تلقائياً عندما
اعترف بذنبه ، فإنه سيعود بشكل أوتوماتيكي . ولكن راستي اعترف في
القاعة المفتوحة أنه أعاق العدالة ، وهذا لن يستطيع سحبه . من دون أن
نذكر كل ما اعترف به في المحاكمة؛ ككشفه قراراً من محكمته للسيد
هارناسون ، وتورطه في اتصال من طرف واحد . ولن تتمكن لجنة
المحاكم من تجاهل كل هذا . ولذلك فهم سيحاولون إبعاده مضطرين .
وبشكل عام ، يا نات ، وبناءً على رغبات أبيك ، فإنني سأعتبرها نتيجة
مرضية جداً ، إن تمكناً من مقايضة استقالة أبيك السريعة من القضاء باتفاق
يقضي بأن لا تتخذ لجنة الانضباط في النقابة أية إجراءات - أو أقل حد
ممكن من الإجراءات - بحقه . وصاحب أن أرى أبيك قادرًا على ممارسة
المحاماة في نهاية المطاف" . هذا الحديث عن مستقبل راستي الكثيب - من
دون عمل ، ومع قليل من الأصدقاء ، وفقدان احترام الناس - يربكنا كلنا
ويفرض الصمت في السيارة .

نصل إلى أطراف المؤسسة الإصلاحية قبل ساعة من الموعد
المحدد ، ونمضي الوقت في موقف ليلي للشاحنات ، نشرب الفهوة لنبقى
صاحب ، ونشاهد صور أولاد مارتا المحفوظة في هاتفها الخلوي .
وأخيراً ، عند الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين ، تنطلق عبر
البلدة الصغيرة لنقترب من السجن . وزيادة في إرباك الصحافة ، اتفق
ساندي وأمر السجن بأن يُطلق سراح راستي عبر بوابة النقل على الجانب
الغربي من المؤسسة ، حيث تدخل الباصات المحملة بالسجناء وتخرج .
فنقف هناك في الشارع المفروش بالحصى ، خارج البوابات الفولاذية
الضخمة .

وب قبل بضع دقائق من الساعة الثالثة ، نسمع أصواتاً في الليل الساكن ،
وبعد ذلك ، ومن دون مراسيم ، يُفتح أحد الأبواب الضخمة مصدراً

صريراً عالياً، ويخرج راستي إلى أشعة المصايبع الأمامية لسيارة مارتا، فيحми عينيه بواسطة مغلف يحمله في يده. إنه يرتدي البذلة الزرقاء نفسها التي كان يرتديها عندما حُكم عليه، ولكن من دون ربطة عنق. وقد طال شعره بصورة مدهشة؛ وأكثر من طول لحيته البيضاء التي وصفها لي نات إثر عودته من زياراته. كما أنه أقل وزناً بشكل واضح. يسير نات نحوه ثم يرمياني نفسيهما بين ذراعي بعضهما. وبالرغم من أننا نقف على مسافة لا تقل عن عشرة أمتار، إلا أننا نستطيع أن نسمع بكاء كلا الرجلين.

أخيراً، ينفصلان عن بعضهما، ويمسحان عيونهما، ثم يتجهان نحونا متأبطي الذراعين. يعانق راستي محامييه مطولاً، ثم يمنعني عناقاً سريعاً. في ظل هذه اللحظات الدرامية، لم ألاحظ وجود سيارة توقفت خلفنا، فأشعر بقلق وجيز قبل أن يشرح لنا ساندي أنه مصور يدعى فيليكس لوجون، عمل سابقاً في ترفيه، وساندي طلب منه المجيء. فهو يريد صورة ليعلّقها على أحد جدرانه، كما يقول، لكنه أيضاً يريد أن يستخدمها للمقايضة بقصة صفحة أولى تحكي وجهة نظر راستي لما سيحدث في الأيام القليلة المقبلة، إن تبيّن أن ذلك مفيد. يقترب ساندي وابنته وراستي ونات من بعضهم من أجل التقاط بعض الصور، ثم يبتعد لوجون عندما يدخل راستي سيارة مارتا رباعية الدفع، ويجلس على المقعد الأمامي. تُشغل مارتا محرك السيارة، وقبل أن تنطلق يخرج شخص آخر من البوابة ويهرب باتجاهنا. يتبيّن أنه حارس يرتدي بذلته الرسمية، يفتح راستي النافذة ويصافحه، ويتبادلان بعض الكلمات بالإسبانية، قبل أن يلوح له مودعاً. ترتفع النافذة مجدداً ثم تنطلق السيارة عبر الغبار الكثيف الذي أثارته سيارة لوجون، في طريقنا لإعادة راستي سابيتش إلى منزله.

دائماً تبدو رحلة العودة أسرع. تسير مارتا بسرعة تزيد عن مائة وعشرين كيلومتراً في الساعة، متلهفة لإعادة راستي إلى حياته السابقة.

وبعد رؤية راستي، صرف ساندي النظر عن فكرة نشر صورته، لأن مظهر راستي مختلف جداً بحيث إنه لن يُعرف، مفترضاً أننا سنتجنب الصحفيين خارج منزله.

يبقى السجين السابق هادئاً لبعض الوقت وهو يراقب المناظر الطبيعية تمر بجانبه مثل البرق، ومهمهماً بين الحين والآخر، وكأنه يقول: أوه، لقد نسيت المساحات المفتوحة، شكلها والإحساس بها. فيفتح المغلَّف الذي كان يحمله، والذي يحوي أغراضًا خاصة به. ويخرج كل البطاقات من محفظته، وينظر إليها واحدة تلو الأخرى، وكأنه يذكر نفسه بالغرض منها. ثم يبدو مسروراً بشكل يصعب وصفه عندما يجد أن هاتفه الخلوي لا يزال يعمل، بالرغم من أنه ينطفئ بعد ثانية واحدة، لأنه بحاجة إلى إعادة شحن.

أخيراً يقول راستي موجهاً كلامه لساندي: "هل يمكنك أن تشرح لي هذا الأمر؟".

"أشرح ماذا؟".

"لماذا فعل تومي ذلك؟".

"سبق وأخبرتك ما قاله لي يا راستي. الحاسوب لم يكن مؤمِّناً في الليلة التي سبقت تشغيله في المحكمة. شوط، مجموعة، مباراة. لا يمكنهم تأسيس سلسلة".

"ولكن، لا بد أنهم يعرفون أكثر من ذلك. ألا تعتقد هذا؟ لماذا يعترف تومي بذلك في هذه المرحلة؟".

"لأن هذا ما يفترض به أن يفعله. تومي ليس تومي القديم. الجميع في المدن الثلاث سيخبرونك بذلك. وفي كل الأحوال، ماذا يمكن أن يعرفوا غير ذلك؟".

لا يجيب راستي، لكنه بعد دقيقة، يصف لنا زيارةً قام بها تومي مولتو له في السجن منذ يومين، حيث أخبره تومي أن بعض الأشخاص في مكتبه يعتقدون أنه اعترف بالذنب في جريمة لم يرتكبها.

حتى ساندي الشهير بعدم إبداء أي رد فعل، لم يستطع منع نفسه من

إظهار دهشته، قبل أن يقول: "سامحني، أنا مجرد محامٍ فقير. ولكن، كان من الحكمة أن تدعنا نعرف ذلك".

"أنا آسف يا ساندي. وأدرك أن هذا يبدو سخيفاً، لكنني اعتبرت ذلك حواراً خاصاً".

"فهمت". لا يلاحظ راستي أن مارتا تتظاهر بأنها تضرب جبينها براحة يدها، لأنه كان ينظر إلى الخلف وهو يتحدث مع ساندي الجالس وراءه. وفي المقعد الخلفي، بين نات وساندي، أشعر بيد نات تشد على يدي، بينما هو يهز رأسه بصمت إلى الأمام والخلف. ولا أحد هنا يفهم ذلك.

نصل إلى نيرينغ بعد الرابعة بدقائق قليلة. وفي جوار الممر المفضي إلى المنزل هادئ، تحدث جوله أخرى من العناق. وننقل أنا ونات البقالة من سيارتي إلى سيارة راستي في المرأب، ثم نقف جانباً لللوح له موعد عين بانتظار انطلاقه نحو سكاكيون. غير أن دارة التشغيل في سيارة راستي الكامري تُصدر صوتاً مهذباً وحيداً، يشبه صوت سعال ساندي المتكرر، ثم تسكّت تماماً.

يخرج راستي من السيارة قائلاً: "يا لها من خطأ محكمة!". أعرض عليه سيارتي فيذكرني نات بأن لدى عملاً غداً في مقاطعة جرينوود. تناقش جميعاً البدائل في دقيقة واحدة. ومارتا متلهفة لإعادة أبيها إلى المنزل كي لا تستنزف قواه أكثر، ولكنها تملك كابلي تشغيل في منزلها، وهو قريب من هنا. وستكون بحاجة إلى قوة ذكورية لتحریک کيسی سماذ وزن كل واحد منها خمسة وثلاثين كيلوغراماً يسدّان الخزانة. وإذا لم تشتعل السيارة بعد وصل الكابلين، فسنجد طريقة كي نستأجر أو نستعير سيارة من أجل راستي.

أدخل سيارتي كي أوصل نات، فيلحقني إلى جهة السائق ويهمس لي عبر النافذة: "لا تتركه لوحده، ليس الآن".

أحدق إليه للحظة ثم أعطيه المفاتيح. فيجلس مكانه وراء المقود ثم يهمس لي مجدداً: "اعرف ما إذا كان يريد فطوراً. هل تمانعين؟".

راستي أصبح داخل المنزل الآن ، فألحقه عبر المرأب حاملةً كيسين من البقالة . لقد وصل الشاحن بهاечه الخلوي ووقف بجانب نافذة المطبخ ينظر إلى الخارج عبر ستائر .

أسأله: "هل هناك صحفيون؟".

"لا ، لا . ظننت أنني سأرى ضوءاً عند جيراني . فعائلة جريجوريوس تملك دائماً سيارة أو سيارتين ولا أحد يقودهما".
"يظن نات أنك ربما تحتاج إلى فطور".

يقرب خطوة لينظر في داخل الكيسين قائلاً: "هل توجد هنا فاكهة طازجة؟ لم أكن أظن قط أن أول شيء سأشتاق له بعد السجن هو الفريز".
لقد جلب نات ، المراقب الدائم لكلا والديه ، الفريز والعناكب بالفعل ، فأبدأ بالغسل والتقطيع .

حالما أفتح الصنبور ، يقول راستي من خلفي: "لطالما أرادت باربارا تغيير المطبخ . لكنها كانت تكره جلب العمال إلى هنا".
أتلفت حولي . إنه محق . المكان قديم وصغير . الخزائن الحمراء لا تزال جميلة ، ولكن كل ما عداها قديم الطراز . ومع ذلك ، فإن ذكر باربارا يبدو غريباً . فأفکر فيها ، وبوجودها في هذا المنزل ، وبتعلقها الشديد بابنها وتعاستها العميقه . فقد كانت واحدة من أولئك الأشخاص الذين يحتاجون إلى الشجاعة كي يعيشوا .

يقول راستي: "أنا لم أقتلها" . ألتفت وأنظر إليه للحظة فأ Jade جالساً بجانب مائدة المطبخ حمراء اللون . ينظر إلى أيضاً ليعرف رد فعله .
فأقول: "أعرف . هل كنت تخشى أنني كنت أشك في ذلك؟".

ردي صادق . لكنني أغفل الأشهر التي استغرقتها كي أشعر بالراحة مع هذه النتيجة . لقد فكرت في معظم الأشياء المثيرة للشك التي كنت أعرفها؛ ذهب راستي لاستشارة برايمـا دانا بعد ثمان وأربعين ساعة من إبلاغي إياه بأنني كنت سأبدأ بمواعدة نات ، أو المظهر المتواحـش الذي تلبـسه قبل أن يغادر فندق دولسيـمر في ذلك اليوم . والأسوأ من هذا كلـه ، تذكرت إبلاغـات الرسائل المقرـوءـة التي بـدت وكأنـها تدلـ على

أن باربارا فرأت رسائل إلكترونية إلى راستي. لم تُظهر أي شيء في تلك الليلة عندما جئت ونات لتناول العشاء، لكنني كنت أتخيل غالباً حدوث مشهد مدمر بينها وبين راستي بعد مغادرتنا.

مع ذلك، فأنا لم أستطع أن أرغم نفسي على تصور حصول جريمة قتل. صحيح أن علاقتي السابقة مع راستي أصبحت خلفي، إلا أنني رأيت ما يكفي من جوهره في تلك الأشهر القليلة لأكون واثقة بأنه ليس قاتلاً. يجيبني قائلاً: "في بعض اللحظات".

"الهذا السبب اعتقدت أنني لعبت بحاسوبك؟ أعني، توبي محق، أليس كذلك؟ لقد اعترفت بأنك مذنب في شيء لم تفعله". لقد فكرت في هذا الأمر من قبل، لكن الحوار مع ساندي في السيارة جعلني أكون متأكدة منه.

"لم أكن أعرف ما أفكر فيه يا أنا. كنت أعرف أنني لم أفعل ذلك. ولم أكن واثقاً تماماً بذينك الخبريين، لكنهما أصرآ على أن الحاسوب كان مؤمناً بشكل محكم عندما جاء به إلى القاعة، وبذلك استثنيت أن يكون الشخص من مكتب توبي؛ وهناك يمكن الجواب بالمناسبة. ألا تعتقدين ذلك؟ فهو سع توبي أن يقول كل ما يريد للإسهام الشعبي، لكنه يعرف شخصاً يعمل معه تجنب الأختام، وأضاف البطاقة إلى الحاسوب للإيقاع بنا".

هذه النقطة لم تكن بمثيل هذا الوضوح في ذهني قبل أن يقولها الآن، لكنني أدرك أنه مصيبة. فلم أنسَ قط أن مولتو تلاعب بالأدلة منذ أكثر من عشرين عاماً، وأشعر بالإحراج قليلاً لأنني لم أدرك هذا من قبل. والآن، لن نعرف أبداً ما جعل توبي مولتو يغير رأيه؛ أخاف من افتضاح الأمر ربما؟

يقول راستي: "على كل حال، في حزيران، اعتقدت أن الشخصين الوحيدين اللذين يمكن أن يفعلوا ذلك هما أنت ونات. أو أنتما معاً. ولم يركِز الخبراء على هذا فيما ييدو؛ أي احتمال أن تكونا قد تشاركتما في وضع البطاقة في الحاسوب. وأخر شيء كنت أريده هو أن يستمر

الاستجواب لفترة طويلة بما يكفي كي تخطر هذه الفكرة على ذهن تومي أو جورفيتيش . لكنني لم أستطع أن أفهم سبب قيام أي منكما بفعل ذلك . آلاف الأشياء عبرت ذهني ، وكانت تبدو منطقية لبعض ثوان . وأحدها هو أنك صدقت أنتي كنت مذنبًا ، وحاولت إخراجي من هذه الورطة لأنك كنت تلومين نفسك لقائي باربارا ، معتقدة أنتي فعلت ذلك كي أتمكن من استعادتك ".

أضع آخر قطع الفاكهة في صحن ، وأتجنب النظر إليه لوهلة . أسوأ لحظة مررت على خلال السنتين الماضيتين هي عندما رأيت تلك الرسائل المفروعة في حاسوبي . وثاني أسوأ لحظة هي عندما اتصل بي نات من قاعة المحكمة ليخبرني : " كانت تعرف . أمري كانت تعرف " . كانت موظفة المصرف قد أدلت بشهادتها للتو ، واستغل نات إحدى الاستراحات ليكي . أحب حقيقة أنه يики . ولقد أدركت في السنة الأخيرة أنتي انتظرت طوال حياتي رجالاً لا يدعني أبداً أنه محصن ضد آلام الحياة .

بسبب كل ما ظهر في المحكمة ، أدرك الآن أن باربارا كانت تمثل في تلك الليلة التي سبقت وفاتها ، وذلك من أجل نات . ولكنها كانت مقنعة آنذاك . وكم عذبني إحساسي بالذنب . وبصورة عامة ، كنت دائماً ماهرة في تزييف طريقي في الحياة ، وخاصة عندما أكون أعاني . ولكن صعوبة فهمي لنفسي تشنلي في بعض الأحيان . لماذا أردت راستي أساساً؟ وما ييدو لي مثل أعظم الألغاز هو: لماذا لم أكن أكترث قط لباربارا؟ وخلال الشهرين الماضيين ، مرت على لحظات صدمت فيها لإدراكي الألم العظيم الذي سببته لها في آخر أسبوع في حياتها . لماذا لم أر ذلك عندما كنت أرمي نفسي على زوجها؟ فمن كنت أنا في تلك الأثناء؟

وب قبل أن تصبح علاقتنا حميقة ، كان راستي دائماً يصور باربارا بأنها صعبة ولكن ليست مجنونة ، حيث كان يتحدث عنها متلماً يتحدث الهنود عن الباكتشانيين ، أو اليونانيون عن الأتراك؛ عدواً ان تقليديان يشهدان فترة من السلم على طول حدود قلقة . ولم أفكر قط في الضرر الذي ألحقه بها؛ لأنني كنت واثقة - مثل جميع الأشخاص الذين يرتكبون

المحرمات - أتنا لن نكشف.

أضع الطبق على الطاولة أمامه وأعطيه شوكة.

"ألن تأكلني؟".

"ليست لدى شهية. هل...؟".

"ماذا؟".

"هل كنت لا تزال تريدني عندما توفيت باربارا؟".

"لا. حقاً لا. ليس حينئذ".

لدي أعذار كثيرة تبرر ما حدث بيني وبين راستي. وكان القانون ييدو مثل نقطة نهاية عظيمة بالنسبة إليّ؛ قدر كنت أسير نحوه منذ وقت طويل. كنت أريد أن أمتلك كل شيء، وأن أفعل كل شيء. كنت مثل شخص يقف أمام معبد. وكنت أعرف كم كانت الرغبة مكبوتة داخله. اعتقدت، بغياء، أتنى كنت أصلح له. وكنت أعرف أتنى لم أجد بعد عبارة افتح يا سمسم الخاصة بالرجال، وأنه كان مفتاحاً آخر لتجربته. لكنني في النهاية، كنت أستغله، وقد أدركت ذلك. وكنت أريد بشدة شخصاً مثله؛ شخصاً هاماً يريدني، وكأنني بذلك سأمتلك كل شيء وهب العالم إياه، إذا كان مستعداً للتخلّي عن كل ذلك من أجلني. وبدا ذلك منطقياً بالنسبة إليّ حينئذ. هذا كل ما أستطيع قوله الآن.

"هذا ما اعتقاده. في تلك الليلة، عندما كنت ونات هنا، في الليلة التي سبقت وفاة باربارا، بدوت لي وكأنك نسيت كل شيء. وهذا سبب آخر جعلني أرفض كلياً فكرة أن تكون قد قتلتها. لكنني فقط لم أعرف لماذا رميت كل شيء وراء ظهرك بتلك السرعة؟".

"لأنه تبيّن لي أتنى كنت أريد ابني أكثر مما كنت أريدك. هل هذا فظ جداً؟".

"لا".

"ساعدني ذلك على وضع الأمور في نصابها. وهذا لا يعني بأنه لم يكن وضعًا مريعاً. ولا يزال كذلك، كما أعتقد".

لا أظن أنه يقصد اتهامي، ولكن بالتأكيد، أنا مذنبة بما يكفي لأنشر

بأنني متهمة في كل الأحوال.

"أنت تحبينه، أليس كذلك؟".

"جنون. هل تمانع قولي هذا؟".

"هذا ما أريد سماعه".

"إنه الرجل الأكثر عذوبة في العالم. وهو ذكي ومرح. ولكنه عذب جداً، ولطيف للغاية". لماذا استغرقت كل هذه المدة الطويلة لأعرف أن هذا ما كنت بحاجة إليه. فقد كنت بحاجة إلى شخص يريد أن أرعاه قادر على الرد بالمثل؟

يقول راستي: "أكثر مني بكثير".

"إنه يملك أبوين لطيفين".

ينظر راستي بعيداً ثم يقول: "هل ما زال لا يعرف شيئاً؟".

"لا أظن ذلك. حاولت إخباره ألف مرة، لكنني كنت أمنع نفسي دائمًا".

"أعتقد أن هذا صائب. لن تربحا شيئاً من ذلك".

"صحيح".

عدت لزيارة طبيبي النفسي عدة مرات، لكن دينيس لم يكن يملك إجابات عن الأوبرا المجنونة التي ورّطت نفسي فيها بعد وفاة باربارا، جزئياً لأنّه طلب مني عدم رؤية نات. ولكن، ثمة شيء أتفق عليه مع دينيس دائماً، وهو أن إخبار نات بالحقيقة سيكون مدمراً إلى حد بعيد. فقد انقلبت حياته كلها رأساً على عقب في السنة الأخيرة. ولا يمكنني أن أطلب منه أن يدفع ثمناً آخر؛ فقط كي أريح نفسي من شعوري الغامر بالذنب. لكن الناس يعتادون في النهاية. راستي اعتاد على السجن، ومبتورو الأعضاء يعتادون على العيش من دون أعضائهم المبتورة. وإذا أمكن العيش مع نات، فإن الحاضر سيغلب الماضي. وأستطيع أن أتخيل وجودنا معاً في منزل واحد، مع أطفال، ووظيفتين، ونحن نحاول معرفة من سيقدر على الوصول إلى المنزل أولاً. يمكنني أن أتخيل أننا موجودان في عالم من صنعوا نحن فقط، وأننا لا نزال سعيدين للنخاع

بما يمثله كل منا للأخر. أجل، يمكنني أن أتخيل ذلك، لكنني لست واثقة من كيفية انتقالي من هنا إلى هناك. فكنت أفكـر دائمـاً في أنا إذا استطعـنا البقاء معاً إلى أن تنتهي المحاكمة، فسنكون قادرـين على الاستمرار، يومـاً بـيـومـ، ولا أزال أعتقد ذلك الآن.

يقول راستي: "سأتركـما بـسلامـ. إذا لا يمكنـني أن أعيشـ هناـ. ليسـ الآنـ. ولكنـ ربماـ سـأـعودـ فيـ النـهاـيـةـ". ثمـ يـصـمتـ لـبرـهـةـ ليـقـولـ: "هلـ يمكنـنيـ أنـ أـطـلـبـ منـكـ شيئاـ خـاصـاـ؟ـ".

أشـعـرـ بالـخـوـفـ عـلـىـ الفـورـ إـلـىـ أنـ يـقـولـ: "هلـ لـديـ أـيـ أـمـلـ بـالـحـصـولـ عـلـىـ أـحـفـادـ؟ـ".

أـنـفـتـ إـلـيـهـ وـأـبـتـسـمـ مـنـ دـوـنـ أـقـولـ شـيـئـاـ.

ثـمـ يـضـيـفـ قـائـلاـ: "خـيـولـ جـامـحةـ".

فيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ، نـسـعـ صـوـتـ صـرـيرـ بـابـ المـرـأـبـ يـفـتحـ ثـمـ يـغـلقـ. لـقـدـ عـادـنـاتـ. نـنـظـرـ مـعـاـ فيـ ذـلـكـ الـاتـجـاهـ، ثـمـ نـقـفـ، مـعـاـ يـأـيـضاـ. أـعـانـقـهـ بـسـرـعـةـ، وـلـكـ بـطـرـيـقـةـ جـديـةـ هـذـهـ المـرـةـ، بـالـصـدـقـ وـالـتـقـدـيرـ الـلـذـينـ يـدـيـنـ بـهـمـاـ النـاسـ لـشـخـصـ يـحـبـونـهـ.

ثـمـ أـتـوـجـهـ إـلـىـ بـابـ المـرـأـبـ لـتـحـيـةـ رـجـلـ الـطـيـفـ. وـلـكـ، قـبـلـ أـنـ أـصـلـ إـلـىـ هـنـاكـ، أـنـفـتـ إـلـىـ رـاستـيـ.

"أـتـعـلـمـ؟ـ هـنـاكـ سـبـبـ آخـرـ لـحـبـيـ لـهـ".
"وـمـاـ هوـ؟ـ".

"إـنـهـ يـشـبـهـ فـيـ نـوـاـحـ كـثـيرـةـ".

تشـتـغلـ الكـامـريـ. معـ الرـحـلـةـ الطـوـيـلـةـ بـاتـجـاهـ الشـمـالـ سـُتـشـحـنـ الـبـطـارـيـةـ منـ جـديـدـ. فـيـعـطـيـهـ نـاتـ الـكـابـلـيـنـ فـيـ حـالـ اـضـطـرـ لـاـسـتـخـادـهـمـاـ، ثـمـ نـقـفـ عـلـىـ مـرـمـ الـبـيـتـ مـلـوـحـينـ لـهـ. تـسـيرـ السـيـارـةـ رـجـوـعاـ فـيـ المـرـ، فـيـتـوقـفـ رـاستـيـ وـيـترـجـلـ مـنـ السـيـارـةـ وـيـتـعـانـقـ الـأـبـ وـابـنـهـ مـنـ جـديـدـ. وـأـعـتـقـدـ أـنـ أـحـدـ أـصـعـ جـوـانـبـ الـعـلـاقـةـ هـوـ التـعـامـلـ مـعـ طـرـيـقـةـ رـؤـيـةـ الشـرـيكـ لـوـالـدـيـهـ. لـقـدـ تـعـلـمـتـ هـذـاـ مـنـ زـوـاجـيـ بـيـولـ، وـهـوـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ يـفـهمـ أـنـ أـمـهـ كـانـتـ

تميل إلى السيطرة عليه، وقد شهدت حالات مشابهة عدة مرات منذ ذلك الوقت. وهذا يشبه مشاهدة شخص يصارع مع قيود صينية. إنك تقول لنفسك دائمًا: لا، اضغط إلى الداخل، لا تشد إلى الخلف، والقيود تزداد إحكاماً، وهذا المسكين يضعف أكثر، هذا الشخص الذي تحبه يعاني في كل الأحوال. أنا سعيدة من أجل نات ورasti، وسعيدة في هذه الليلة، لكنني أعرف أنه لا تزال أمامهما بحار سيتوجب عليهما قطعها سباحة. بعد ذلك نركب السيارة ونطلق نحو المنزل. فعندما تحب شخصاً ما فإنه يصبح حياتك. هذا هو المبدأ الأول في وجودك. وبسبب ذلك، فإنه يملك القدرة على تغييرك وتغيير كل ما تعرفه. وهذا يشبه قلب خريطة ما رأساً على عقب فجأة، فيصبح الجنوب شمالاً والشمال جنوباً. إنها لا تزال صحيحة، ولا تزال قادرة على إيصالك إلى أي مكان تريد الوصول إليه، لكنها تبدو مختلفة إلى حدّ بعيد.

نقى هادئين لبعض الوقت، وكلّ منا مشغول بأفكاره الخاصة. "أنا بحاجة إلى أن أقول لك شيئاً". أقول له فجأة أثناء عبورنا جسر نيرينغ. هناك ضوء وردي يتسرّب من الأفق، لكن أضواء المباني في وسط المدينة لا تزال تشع، مخلفة انعاكساً جميلاً على الماء.
"ماذا؟".

"إنه مزعج، لكنني أريدك أن تسمعه الآن. فهل تمانع؟".
عندما ألتفت إليه أجده يهز رأسه بتأمل.

"عندما انتقلت للعيش مع ديدي ويركليتش، كنت أعمل في مؤسسة مسترسون باف، أكتب نسخ إعلانات، وأحاول في الوقت نفسه إنهاء الجامعة في الليل. وكنت أحضر مادة علم الاقتصاد الشامل المتقدم في كلية التجارة. وكانت قد حصلت على درجة ممتاز في مادة مبادئ علم الاقتصاد، فاعتقدت أنني جيدة في الرياضيات وأستطيع النجاح فيها. وكان البروفيسور هو جارث مورس، هل تذكر هذا الاسم؟ كان واحداً من مستشاري كلينتون الاقتصاديين ولا يزال يظهر في التلفاز كثيراً، لأنه مهذب حقاً، ووسيم. وكنت أعتقد أن من الرائع أن أدرس هذه المادة

على يد شخص مثل هذا. ولكنها كانت أكبر من قدرتي على الفهم بكثير؛ مع كل تلك المعادلات الثلاثية التي كان الطلاب المتوسطون يفهمونها بسهولة. وفي تلك الفترة، كنت متزعجة لتركي بول وأجد صعوبة في التركيز، وانتهى بي الفصل المتوسط حاملاً درجة F ثانية جداً. وهكذا ذهبت لأرى مورس. وبعد عشر دقائق من وجودي في مكتبه، رمقي بتلك النظرة الطويلة الثاقبة، كالتي تراها في الأفلام القديمة، ثم قال: هذا أمر معقد جداً، نحن بحاجة إلى التحدث بشأنه ونحن نتناول الغداء. وفي الحقيقة، لم أكن متفاجئاً تماماً، إذ كان معروفاً بهذا. كان يعتقد أنه هبة من الله. وكانت ديدي تقول لي: هل أنت مجنونة؟ اذهب ، هل تريدين البقاء في الجامعة إلى الأبد؟ كان وسيماً فعلاً، ومثيراً، وذا شخصية رائعة. ولكن ، مع ذلك ، فإن زوجته كانت حاملاً. ولا أعرف كيف عرفت ذلك - ربما ذكر ذلك في الحصة - ولكن هذا الجزء أزعجني فعلاً. وفي الوقت نفسه ، كانت وجهة نظر ديدي صحيحة أيضاً، فأنا كنت بحاجة إلى التخرج والتقدم إلى الأمام ، ولم أكن أستطيع أن أفشل في شيء آخر بعد فشل زواجي. وهكذا".

يدوس نات على المكبح بقوة فأتشبت بالمقعد وأفكر في كيس الهواء. أنظر عبر الزجاج الأمامي لأرى ما ضربنا ، فأجد السيارة واقفة عند المسار المخصص للوقوف عند جانب الجسر ، وفي نهايته تماماً .
أسأله: "هل أنت بخير؟".

يحرر حزام مقعده كي يقرب وجهه من وجهي ، ثم يقول: "لماذا تخبريني بهذا؟ لماذا الآن؟ لماذا الليلة؟".

"لأنني لا أقدر على النوم".

"هل تحبييني؟".

"بالتأكيد. بالتأكيد. كأنني لم أحب أحداً من قبل". أنا أعني ذلك ، وهو يعرف ، وأنا أعرف أنه يعرف .
"هل تعتقدين أنني أحبك؟".
"أجل".

"أنا أحبك. أحبك. لست بحاجة إلى أن أعرف أسوأ الأخطاء التي ارتكبها. وأعرف أنك عانيت قبل أن تصلي إلىي. وأنا عانيت أيضاً قبل أن أصل إليك. لكننا معاً الآن. ومعاً سنكون شخصين أفضل بكثير مما كنا من قبل. وأنا أعتقد ذلك حقاً. هذا كل شيء". يدنو مني أكثر ويقبلني برقة، ثم ينظر في عيني لثانية أخرى، وبعد ذلك يتقد المرايا قبل أن يشغل السيارة ويعيدها إلى الطريق من جديد.

عندما تكونين في العشرين، فإنك تأتين إلى أصدقائك من الشبان من دون أي عوالق سابقة، آملة أن تجدي الرجل الذي تبحثين عنه. وكل شاب عرفته من قبل لا يمثل بالنسبة إليك أكثر من حجر استناد رفعك إلى المكان الذي أنت فيه. ولكن في السادسة والثلاثين - السادسة والثلاثون! - الوضع يصبح مختلفاً تماماً. فأنت الآن بلغت الذروة، وأمنت بالحب الأبدي، وعشت أعظم تجربة حميمية على الإطلاق، وتظنين أنك لن تخترقي مثلها أبداً بعد ذلك، ومع ذلك واصلت الدرج لتتجدي شخصاً آخر. وقد وصلت إليه حاملةً معك سلسلة طويلة من الخبرات. وكلا كما تعرفان ذلك، ولا يمكنكم التظاهر بأن ما حدث في الماضي لم يحدث. لكنه الماضي. والجميع يفهمون عندما يصلون إلى هذا العمر أنك تحملين تاريخاً معك؛ شخصاً ما، زماناً لا يمكن نسيان آثاره بصورة كلية. نات لديه كانت التي أعرف أنها لا تزال تبعث له رسائل إلكترونية بين الحين والأخر وتنجح في إزعاجه. وبالنسبة لي، فهذا ينطبق على راستي وما حدث لي معه. إنه سيكون الماضي الذي عشته. إنه مجنون صحيح، ولكنه انتهى، وانتهى الماضي الذي أوصلني بطريقة ما إلى الحياة التي أريدها فعلاً. وأريد حقاً أن أعيش مع نات كل يوم من حياتي الباقيه.

الفصل الخامس والأربعون

رأسي ، 25 آب ، 2009

عندما كنت في سن المراهقة، أدركت أن أبي لم يكونا متناسبين جسدياً. رُتب زواجهما بالطريقة الريفية القديمة. فقد كان والدي مهاجراً معذوماً، فائق الوسامنة، وهي كانت فتاة بسيطة كبيرة في العمر - في الثالثة والعشرين - من عائلة لديها أملاك؛ أي الشقة ذات الغرف الثلاث التي عاشت فيها أمي إلى اليوم الذي ماتت فيه. وأنا متأكد من أنها كانت سعيدة معه في البداية، لكنني أشك في أنه حاول ولو لمرة واحدة التظاهر بأنه متّئم بها.

عندما كنت صبياً، كان أبي يختفي بعد العشاء في كل ليلة جمعة. وكانت أطلع لهذا اليوم، بصراحة، لأن ذلك كان يعني أنني لن أضطر للنوم على الأرض في غرفة نوم أمي، محبوساً هناك؛ وكانت تلك هي الطريقة التي كنا نختبئ فيها كثيراً من نوبات غضبه المخمورة المتكررة. وعندما كنت في المدرسة الابتدائية، كنت أعتقد أن أبي كان يمضي ليالي الجمعة في إحدى الخمارات أو يلعب البيسبول، وكلتاها كانتا تسليتين روتينيتين بالنسبة إليه، لكنه نادراً ما كان يرجع من هناك، بل كان يتوجه مباشرة إلى المخبز ليبدأ التحضير لصباح يوم السبت. وفي إحدى ليالي الجمعة تلك - كنت آنذاك في الثالثة عشرة - تسببت أمي بإشعال حريق صغير في المطبخ. ولأنها كانت عصبية وقلقة بطبيعتها، فقد تلقت هي نفسها معظم الضرار. وعندما تجمّع موكب رجال الإطفاء في منزلها، لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى الصراخ والزعيم طالبة أبي.

ذهبت إلى الخمارة أولاً، حيث أشدق على أحد معارف أبي - لم يكن حقاً يملك أي أصدقاء - وقال لي، بينما كنت أغادر: "هبي، أيها الفتى، جرّب فندق ديلاني هناك في الجهة الغربية". وعندما أخبرت موظف الاستقبال بأنني مضطرب لرؤيه إيفان سابيتش، رمقني بنظرة حزينة طويلة، وأخيراً أعطاني رقمأ. فلم يكن الفندق من ذلك النوع من الفنادق التي تضع هواتف في الغرف في تلك الأيام. بل يمكنني القول إنني عندما بدأت أصعد السلم القذر بسجاداته الممزقة وأرى الممرات التي تفوح منها رائحة مادة تشبه الفتللين التي تُستخدم للسيطرة على تقشي الحشرات في تلك الأيام، فإبني شكت قليلاً فيما سأراه. لكنني عندما طرقت الباب، عرفت المرأة التي نظرت عبر شق في الباب مرتدية قميصاً تحتياً، إنها روث بلينك؛ أكبر من أبي بعشر سنوات.

لا أعرف لماذا جاءت إلى الباب؟ ربما لأن أبي كان في المرحاض، أو ربما لأنه كان يخشى أن يكون الطارق موظف الفندق وأنه يريد مزيداً من النقود.

قلت لها: "أخبريه أن المنزل يحترق". ثم غادرت. فلم أعرف تمييز شعوري تماماً - أهو خجل أم غضب؟ - ولكن في الغالب كان عدم تصديق. بعد هذه الحادثة تغير العالم، أو بالأحرى عالمي. كنت أجلس على مائدة العشاء كل ليلة جماعة غاصباً لأن أبي كان يدندن خلال الوجبة، أي الوقت الوحيد في الأسبوع الذي يسمع منه صوت يحمل شبهأ ولو بعيداً بالموسيقى.

بالطبع، لم تخطر روث بلينك في بالي قطًّا عندما كنت أزور الفنادق برفقة آنا. المرة الوحيدة التي تذكرتها فيها كانت عندما اضطررت لإخبار أبيني بأنني أقمت علاقة بامرأة غير أمه، لكنها لم تغب طوال الأشهر التي تلت، وذلك كلما رأيت ارتباك نات الواضح في حضوري.

وهذه النظرة تعلو وجهه الآن بينما هو واقف على عتبة باب منزلي الخارجي. أخبرني ليلة البارحة - عندما اتصلت به لأقول له إنني عدت أخيراً إلى المنزل لأوقع الاتفاques التي نظمها ساندي - أنه يريد أن

يُزورني، لكنه وصل في وقت أبكر مما توقعت. لقد أنزلت أولى رياح الخريف أمطاراً متفرقة هذا اليوم. إنه يرتدى بلوزة قطنية ذات قلنسوة، وشعره الأسود يتطاير في الريح القوية.

يبدو مشغول الفكر - من تأله المستمر هنا وهناك - مع وجه عابس أراه في المرأة منذ أكثر من ستين عاماً. أفتح الباب، ونتعانق بسرعة ثم يدخل متداوراً إياي، وتطاير قطرات المطر العالقة بحذائه.

"أتريد قهوة؟".

"بالتأكيد". يجلس على كرسي بجانب طاولة المطبخ ويتألف حوله. لا شك أن عودته إلى هذا المنزل قاسية عليه بسبب اللحظات المشحونة الكثيرة التي شهدتها فيه في العام الماضي. نصمت قليلاً إلى أن يسألني عن إقامتي في سكاجيون.

"كانت جيدة". أفكر في قول المزيد لكنني أقرر، لأسباب كثيرة، أن الصدق أفضل. "في الواقع، لقد قابلت لورنا مورفي عدة مرات. جارتانا الملائقة لمنزلنا؟". يمتد منزل عائلة مورفي على عدة ساحات بجوار كوخنا الصغير.

"حقاً". على الرغم من كل ما حدث في السنتين الماضيتين، إنه يبدو مندهشاً أكثر منه متزعجاً.

"كتبت لي في الخريف الماضي بعد وفاة أمك، وبقينا على اتصال نوعاً ما".

"آه، نصائح لتجاوز الحزن"، يقول المتذاكي دوماً. في الحقيقة، هناك شيء من هذا. لقد فقدت لورنا زوجها مات - كان ملكاً من ملوك البناء - منذ أربع سنوات. وقد أبدت ثقة عديدة بي، ربما لأنها وصلت منذ فترة طويلة إلى مرحلة التفكير في شخص آخر بحيث إنها لم تستطع تغيير رأيها عندما أدركت. فكانت تكتب لي كل أسبوع عندما كنت في السجن، وكانت أول من اتصلت به عندما كنت في طريقى إلى سكاجيون بعد إطلاق سراحى مباشرة. ولم أكن أعرف إذا كنت أملك الشجاعة لأطلب منها اللقاء هناك، لكنني لم أضطر لذلك،

لأنها قالت إنها ستأتي حالما أخبرتها بأنني متوجه إلى سكاكيون. كان الوقت قد حان بالنسبة إلى كل منا لكي نقابل شخصاً آخر.

إنها امرأة محببة، هادئة، ودافئة لكنها انطوائية. أعتقد أنها ليست مستقبلي؛ والزمن كفيل بكشف صحة هذا التخمين أم لا. ولكنني تعلمت شيئاً واحداً معها، وهو أنني إذا لم أقع في الحب مع لورنا، فإنني سأقع في الحب مع امرأة أخرى. سأفعل ذلك مجدداً؛ فهذه طبيعتي.

"كنت سأسألك إذا كنت قد ذهبت للصيد عندما كنت هناك".

"أوه، أجل. أصطدمت من زورق بمدافعين. التقى سفينتين جمبلتين. إنهم وجبات رائعتان".

"حقاً! أحب أن أصطاد معك في إحدى عطلات نهاية الأسبوع هذا الخريف".

"هذا موعد".

القهوة جاهزة. أصب فنجاناً لكلينا ثم أجلس على كرسي آخر بجانب طاولة المطبخ الحمراء. نات ينظر بعيداً. أحرك قهوتي في انتظاره. عندما لا يتكلم، أقول له: "كيف حال عملك؟". يخبرني أنه سيستمر في إعطاء الدروس هنا في مدرسة نيرينغ الثانوية هذا الخريف، لكنه استخدم أيضاً في كلية الحقوق في إيسنون لتدريس مادة علم التشريع في الفصل الشتوي، بدلاً من أحد أسانتذه السابقين الذي سيكون في إجازة. وهو يمضي الكثير من وقته للتحضير لذلك. كما عاد للعمل على رسالته المتعلقة بمراجعة القانون، مقارنة بين نموذج القانون فيما يتعلق بسلوك المعرفة مع ما تقتربه آخر البحوث في مجال علم الأعصاب. ستكون مقالة عظيمة.

يقول من دون أن ينظر إلى: "بابا. أريدك أن تخبرني الحقيقة".

"لا بأس". أحس بوخزة في قلبي.

"حول أمي".

"لقد قتلت نفسها يا نات".

يغمض عينيه ويقول: "لا أريد سياسة الحزب. بل ما حصل فعلياً".

"هذا ما حصل فعلياً".

"بابا. أحد الأشياء التي كنت أكرهها فعلاً في هذا البيت هو أن الجميع لديه أسرار. ماما كانت لديها أسرارها، وأنت لديك أسرارك، وأنت وأمي كانت لديكم أسراركم معاً. ولهذا فقد كنت مضطراً لأن تكون لدى أسرار، وكنت دائمًا أتمنى فقط أن يتكلم الجميع من غير الغاز وأسرار. فهل تعرف هذا؟".

هذه شکوی أفهمها تماماً، وربما لا قدرة لي على التغيير.

"أريد أن أعرف حقاً ما حدث لماما؛ ما تعرفه أنت".

"نات، أمك أقدمت على الانتحار. ولا أخدع نفسي بالقول إن سلوكك لم يكن له دور في ذلك، لكنني لم أقتلها".

"بابا، أنا أعلم ذلك. فهل تظن أنتي لا أعلم ذلك؟ لكنني ابنك. أنا أفهم، ولقد فكرت في الأمر. وأنا أعرف شيئاً واحداً: أنت لم تجلس هناك لمدة أربع وعشرين ساعة لتعالج حزنك، لأنك بصراحة، لست كذلك. فقد كنت دائمًا تكتب عواطفك مثل شخص يحشر حشوة في مدفع. ربما بيكت أو تجهمت أو هزرت رأسك لبعض الوقت، لكنك كنت سترفع الهاتف. وكنت جالساً هنا تحاول إيجاد شيء ما. راقبتك عندما اعترفت بإعاقبة العدالة. وكنت هادئاً. قلت إنك مذنب باقتناع تام. ولكن، بما أنني كنت أعرف أنك لم تعبث في ذلك الحاسوب - لأنك أخبرت آنا بذلك - فهذا يعني بأن الذي كذبت بشأنه أو تلاعبت به، بصرف النظر عما يكون، حصل منذ وقت طويل. وأنا أقول إن ذلك حدث عندما توفيت أمي. فهل أنا على حق؟".

ولد ذكي. ابن أمه. ولد ذكي جداً على الدوام. فأهل رأسي مبتسماً بخمر.

"لذا، أريد أن أعرف كل شيء".

"أمك هي أمك. فما كنت بالنسبة إليها أو ما كانت هي بالنسبة إلى فالامر هذا لا يغير من الحقيقة. ولم أكن أحاول معاملتك كطفل. في الحقيقة، لقد سألت نفسي ما إذا كنت سأؤود - لو كنت مكانك - أن أعرف

الأشياء التي لم أخبرك إياها أبداً، وأنا واثق حقاً بأن الجواب لا. وأأمل أن تأخذ دقيقة لتفكير في ذلك".

لا يغضب نات من أحد بالطريقة التي يغضب بها مني. فكان غضبه من أمه خطيراً. أما أنا فهدف آمن أكثر. والطريقة التي أتجنبها بها، أو أحاول تجنبه بها كما يراها هو؛ تثير حنقه حقاً. وملامحه الآن توحى بذلك.

"حسناً، حسناً، الحقيقة يا نات، هي أن أمك قتلت نفسها. وأنا لم أكن أريدك، أو أي أحد آخر، أن يعرف ذلك. ولم أكن أريدك أن تنزعج، أو تحمل على كتفيك الثقل الذي يحمله دائماً أولاد المُنتحرين. ولم أكن أريدك أن تسأل لماذا؟ أو تعرف ما فعلته أنا؛ الأمر الذي دفعها لقتل نفسها".

"أقصد العلاقة؟".

"العلاقة".

"حسناً، ولكن كيف ماتت؟".

أرفع يدي قائلاً: "سأخبرك. سأخبرك بكل شيء. ففي اليوم الذي جئت فيه أنت وآنا إلى المنزل، كنت أعمل في الحديقة".

"تزرع شجرة الزينة".

"أزرع شجرة الزينة لأمك، صحيح. وكان ظهري يؤلمني بشدة. فجلبت لي أربعة أقراس أدفع عندي عندما كان العشاء".

"اذكر ذلك".

"لم أتناولها. إذ كنت مشغولاً بالوضع كله - أنت وآنا معاً - أنسنت؟ وبعد مغادرتكما، وبينما كنت أستعد للذهاب للنوم، جلبت أمك الأقراس إلى مجدداً. ثم وضعتها على طاولة السرير، وقالت إنه ينبغي علي أن أتناولها، وإلا فلن أكون قادرًا على النهوض من السرير في الصباح، ثم ذهبت لتجلب لي كأساً من الماء. ولا أعرف يا نات. أقراس الفينيلزين تبدو مثل الآيبوبروفين. إنها بالحجم نفسه واللون نفسه. حتى إن شخصاً ما قال ذلك صراحةً في مرحلة ما من المحاكمة. ولكن، مهما كان التشابه

كبيراً، فقد كان هناك اختلاف من نوع ما؛ شيء دقيق، لكنه اختلاف. ولم يسبق لي قط أن وضعت الأقراس جنباً إلى جنب لأعرف ما هو، لكنني التقطتها وحدقت إليها لوقت طويل، وعندما رفعت عيني مجدداً، كانت أمك فوق حاملة كأس الماء، وهل تعلم يا نات؟ كانت تلك لحظة فظيعة".

"لماذا؟".

"لأنها كانت لثانية واحدة فقط، أو لبضع ثوانٍ، سعيدة حقاً مبتهمجة. سعيدة لأنني عرفت".

"عرفت لماذا؟".

أحدق في ابني. إن تقبل الحقيقة في أغلب الأحيان من أصعب المهام التي يواجهها البشر.

"أتقصد أنها كانت تحاول قتلك؟".

"أجل".

"لقد ذهبت إلى المصرف، واطلعت على بريدي الإلكتروني، وعلمت ما علمته. وكانت غاضبة إلى حد لا يوصف".

"فقررت أن تقتلak!".

"أجل".

"أتفول إن أمي كانت قاتلة؟".

"سمّها ما شئت".

والآن، وبعد أن سمع ذلك، فإنه يجد صعوبة في الكلام. إنها لحظة سيئة بالنسبة إلينا.

"يا الله! أنت تقول لي إن أمي كانت قاتلة. هه! حسناً، أحدهم لا بد أن يكون قاتلاً، أليس كذلك؟".

أفهم ما قاله بعد لحظة. إما أن أكون كاذباً لأنني قتلتها أو هذه هي الحقيقة.

أقول: "صحيح".

يأخذ بضع لحظات لنفسه، محدقاً إلى البراد. صور الميلاد منذ أكثر

من سنة ونصف لا تزال معلقة عليه. ولادة الطفل، العائلات السعيدة.

"أكانت تعرف من هي الفتاة؟".

"كما قلت، لقد اطلعت على بريدي الإلكتروني".

"لن أسألك لتخبرني...".

"جيد، لأنني لن أفعل".

"ولكن، لا بد أن هذا أغضبها حقاً".

"أنا متأكد من أنها كانت غاضبة. وليس لسبب خاص بها. إنها كانت تحاول حماية أشخاص آخرين أيضاً".

"إذاً، لا بد أنها كانت ابنة شخص ما؛ ابنة أحد أصدقائك؛ لا بد أنها كانت مقربة".

"لن أقول المزيد يا نات. فلا أستطيع التضحية بخصوصية شخص آخر".

"هل كانت دينيز. هذا ما تخيلته دائماً. تخيلت أنك تورطت مع دينيز".

دينيز هي ابنة أصغر أعمام باربارا. وهي شابة فائقة الجمال، أخذت نصيبها من المشاكل، وهي الآن تكافح في زواجهما من شرطي من الولاية من أجل ابنهما البالغ من العمر سنتين.

"لا فائدة من هذا يا نات. لقد تصرفت كأحمق كبير. وهذا كل ما في الأمر".

"أعرف ذلك مسبقاً يا أبي".

ضربة ناجحة. يشيخ بنظره بعيداً مرة أخرى، مصارعاً خيبة أمله الكبيرة. وأظن أن لسان حاله يقول: ماما كانت على حق. كان كل شيء سيكون أكثر سهولة من دوني. وإذا كانت يتوجب على واحد منا أن يرحل، فقد كان من الأفضل أن أكون أنا. وهذا بالضبط ما استنتاجه باربارا، وخصوصاً لأنه لم يكن لدى حق في تعريض سعادة نات مع أنا للخطر.

خلال شروده، يخرج نات تنهيدة متعبة ثم يخلع سترته.

"حسناً، نظرت إليها، ورأيت تلك النظرة المجنونة في عينيها".
"لن أصفها بهذه الطريقة. لكنني نظرت إلى الأقراص ثم إليها،
عدة مرات، وأعتقد أنني قلت لها شيئاً غبياً مثل: هل هذه أدق؟ فأجبت:
نظير له. فنظرت إلى الأقراص مرة أخرى. نات، لا أعرف ماذا كنت
لأفعل أو أقول حينئذ. أكان من الممكن أن أقول: أريني الزجاجة؟ لم
أتكن من معرفة ذلك، لأنها اقتربت مني وأخذت الأقراص وابتلعتها
كلها. قالت: جيد، ثم مشت غاضبة كالعادة. فاعتقدت أنها تتصرف
كالمعتاد".

"هل فضلت أن تموت على أن يُكشف أمرها؟".
"لا أعرف. لن أعرف أبداً. أظن الآن أنها لم تستطع مشاهدتي
وأنا أموت كما كانت تعتقد. ولا بد أنها كانت تشعر بمشاعر كثيرة حينئذ،
ومن بينها قدر كبير من الإحساس بالذنب".
"أنقذتك من نفسها".

أهز رأسي موافقاً وأنا لست واثقاً من صحة ذلك، ولكن من الأفضل
لناس أن يظن ذلك بأمه.
يقول نات: "والفينيلزين، هل استعملته فقط لأنه يشبه القرص الذي
تناوله؟".

"صحيح. وربما كانت تدرك هذا منذ سنوات. ولكنني أعتقد أن
النقطة الأهم هي أن يجعل الأمر يبدو وكأنني مت بصورة طبيعية. حتى
لا يكتشف أحد السبب".

"كما حاول هارناسون أن يفعل".
"مثل هارناسون تماماً. فأنا واثق أنها أحست بالرضا لأنها عرفت
كيف تقتلني بوحدة من قصايري. ولكن من دون خطأ هذه المرة. فإذا
اكتشفت الجرعة الزائدة من الفينيلزين بطريقة ما، فإنها ستقول إنني أقدمت
على الانتحار. لهذا السبب أرادت أن أجلب أنا الوصفة الطبية، وأن
أضع الزجاجة بنفسى حتى أترك بصماتي عليها. ولهذا السبب أرسلتني
إلى المخزن لأجلب السجق والجبين والشراب، وقامت بالبحث مسبقاً عن

الفينيلزين وتأثيراته في حاسوبي".

يهز رأسه ثم يقول: "حسناً، ولكن ماذا كانت لتقول بشأن دافعك لقتل نفسك قبل الانتخاب مباشرة؟ كنتَ على وشك بلوغ ذروة حياتك المهنية، يا أبي".

"هذا يكون شاقاً على الناس في بعض الأحيان، يا نات. وكان هناك الطلاق، وزياراتي إلى دانا. ولهذا كان بوسعها القول إنني لم أستطع مواجهة الأمر".

"ألن يبدو مظهرها سيئاً عندما تقول كل هذا بعد اكتشاف الواقع؟" "كانت ستبكي قليلاً. من لم يصدق أن أرملة يائسة ستفعل كل ما بوسعها لإنقاذ سمعة زوجها البارز، من دون أن نذكر ابنها الحساس؟ كان من الممكن أن تقول إن زجاجة الفينيلزين كانت على حوض الجلي في المطبخ عندما وجدتني، وعندما سيجدون بصماتي فقط على الزجاجة، فهذا سيبثت قصتها. ولكن، لن يقوم أي شخص بطرح أسئلة. وخاصة بوجود تومي مولتو في منصب المدعي العام الذي سيبتهدج للتخلص مني. إضافة إلى ذلك، كان بوسعهم أن يقلبوا الشقة رأساً على عقب، وأن ينشوا جثتي أيضاً. وما كانوا ليجدوا أي شيء غير متوافق مع قصة تناولي الطوعي لجرعة زائدة من الفينيلزين، بالطبع لأن هذا بالضبط هو سبب وفائي".

يرُّوك فجتان القهوة بين أصابعه، متأنلاً إياه، ثم يبدأ بالبكاء؛ كما توقعت منذ بعض الوقت.

"يا الله، بابا! هل تعلم؟ شخصية المحامي هذه فيك. ويمكنك أن تكون مثل السيد سبوك. هذا ما كنت أقوله من قبل. ولا يمكن أن تكون جالساً تبكي. فهذه ليست طبيعتك. فأنت تتحدث عنها كما لو كانت قاتلة تسلسلية، أو قاتلة مأجورة؛ إنسانة تعرف كيف تقوم بهذا، وكيف تقتل الناس؛ بدلاً من امرأة غاضبة إلى أقصى الحدود، ومجروحة إلى أقصى الحدود".

"نات. لا أقول غير ذلك. هكذا أعبر دائمًا عن استيائي منه، عبر

لفظ اسمه فقط. ولا فائدة من تذكيره بأن هذه هي الحقيقة التي طلبها. ذهب إلى الحوض وجلب مناديل ورقية ليمسح بها عينيه وينظر أنفه. "وكيف اكتشفت كل هذا يا أبي؟".

"بيطء".

"آه".

جلس مجدداً ثم يشير لي بيده كي أكمل.

"عندما استيقظت، كانت الأغطية مبللة بعرقها. وكانت أمك ميتة.

وأول فكرة خطرت في ذهني هي نوبة قلبية. فأجريت عملية إنعاش طبيعي، وعندما ذهبت إلى الهاتف على طاولة السرير، رأيت رزمة من الأوراق تركتها تحت كأس الماء التي جلبتها لي من أجل تناول الأقراس".

"أي نوع من الأوراق؟".

"تلك التي حصلت عليها من البنك، والوصل من مؤسسة دانا، ونسخ عن الشيكات المضمونة التي دفعت بواسطتها فواتيري القانونية ولمخبر الأمراض المنقوله جنسياً، وكشوفات حسابات شهرية بالبالغ المودعة المتحركة. وكان واضحأ أنها وضعتها هناك بعد خلودي للنوم".

"لماذا؟".

"تلك كانت بديلاً عن رسالة الانتحار. فقد كانت تريدني أن أعرف أنها كانت تعرف".

"آه".

"لقد صدمت بالطبع. ولم أكن راضياً عن نفسي بالتأكيد. ولكنني أدركت كم كانت غاضبة. وأن ما حدث لم يكن عرضاً بوضوح. ولم أستغرق وقتاً طويلاً لأفكر في الفينيلزين وفي أنها كانت تتوبي إعطائي ما تناولته. ولهذا السبب ذهبت إلى خزانة الأدوية. كانت زجاجة الفينيلزين هناك، فأخذتها وفتحتها، ثم نظرت فيها لأنأكيد من أن تلك الأقراس كانت منها. ولهذا السبب ظهرت بصماتي. ثم ذهبت إلى حاسوبي لأعرف عن المادة. وأنت تعرف كيف يكمل المستعرض مصطلح البحث إذا كنت قد

استخدمته من قبل. فظهرت كلمة فينيلزين مباشرةً. وعندئذ أدركت أنها استخدمت حاسوبى. فخشيت فوراً من أن تكون قد اطلعت على بريدي الإلكتروني، وعندما نظرت، وجدت أنها سبقتني إلى هناك ومحت تلك الرسائل".

"أهي رسائل من تلك المرأة؟ كان من الغباء أن تتركها هنا يا أبي". رفعت كفى، ثم قلت: "لم أفك قط في أن أمك يمكن أن تكون فضولية بهذه الطريقة. ولو استرقت أنا النظر إلى رسائلها الإلكترونية، لجن جنونها".

في الحقيقة، كنت أعرف أننى أجاوز، لكننى لم أستطع محى تلك الرسائل؛ الذكرى الوحيدة لزمن كنت لا أزال أحـن إلـيـه في أغلب الأوقات. لكننى لا أستطيع أن أقول ذلك لولدى.
"ولماذا تكـبـد نفسـها عنـاء مـحوـها أو مـحوـ الرـسـائـل المـرـسلـة من دـانـا؟".

"بسـبـيكـ".

"أـنـاـ؟".

"هـذا ما أـظـنه عـلـى الأـرجـحـ. إـذـا سـارـت الـأـمـور كـمـا كـانـت تـقـصـدـ، وـإـذـا اـعـتـبـرـ موـتـي طـبـيعـاـ، فـسـيـكـونـ هـنـاكـ اـحـتمـالـ جـيدـ بـأنـ تـقـومـ أـنـتـ بـالـاطـلاـعـ عـلـى بـرـيـديـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـ، لـيـسـ لـتـحـرـىـ عـنـ أـيـ شـيءـ، وـلـكـ لـتـذـكـرـ أـبـاكـ فـقـطـ، كـمـا يـحـبـ الـحـزـانـىـ أـنـ يـنـظـرـوـاـ إـلـى الرـسـائـلـ الـقـدـيمـةـ. وـمـنـ خـلـالـ تـنـظـيفـ بـرـيـديـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـ، كـانـتـ تـرـيـدـ أـنـ تـبـقـيـ ذـكـرـايـ عـنـكـ فـي سـلامـ. وـلـكـنـ، إـذـا وـقـعـ الـاحـتمـالـ النـادـرـ وـحـصـلـ تـحـقـيقـ فـي الـوـفـاةـ، فـإـنـ إـزـالـةـ تـلـكـ الرـسـائـلـ كـانـتـ تـنـاسـبـ أـهـدـافـهاـ أـيـضاـ".

"لـمـاـ؟".

"لـأـنـاـ ضـمـنـتـ بـذـلـكـ أـنـ لـنـ يـكـونـ هـنـاكـ أـيـ شـخـصـ آخـرـ يـنـاقـضـ القـصـةـ التـيـ سـتـخـبـرـهـ أـمـكـ. لـأـنـاـ سـتـضـطـرـ لـتـفـسـيرـ اـسـتـحـصـالـهـ عـلـىـ الـأـورـاقـ مـنـ الـبـنـكـ وـالـاعـتـرـافـ بـمـعـرـفـتـهـ بـعـلـاقـتـيـ السـرـيـةـ. وـلـكـنـ، سـيـكـونـ باـسـطـاعـتـهـ القـوـلـ إـنـهـاـ لـمـ تـكـنـ تـعـرـفـ مـنـ هـيـ الـمـرـأـةـ. وـيـمـكـنـ أـنـ تـقـولـ إـنـيـ كـنـتـ أـفـكـرـ فـيـ الـطـلاقـ لـكـنـيـ لـمـ أـتـمـكـنـ مـنـ مـواـجـهـةـ الـأـمـرـ لـأـسـبـابـ غـيـرـ

واضحة. ولعل المرأة تخلّت عنّي عندما أخبرتها أنّني سأفسخ زواجي. وبذلك لن يكون هناك أي تحقيق إضافي، مع كل هذه الإثباتات الداعمة لقصة انتحاري".

يفكّر قليلاً ثم يقول: "أين ذهبت تلك الأوراق على أي حال؟ أقصد الأوراق من البنك التي كانت على طاولة السرير".

أضحك ثم أقول: "أنت أذكي من تومي وبراند. عندما وضعنا موظفة البنك على منصة الشهادة لتشهد بأنّها أعطت أمك تلك الوثائق، ظللت أنتظر محامي الادعاء ليسألها هذا السؤال. لقد فُتش المنزل عدة مرات. لكن الأمور كانت تحدث بسرعة كبيرة، وإضافة إلى ذلك، سيبدو من المنطقى بالنسبة لمن فتش الاعتقاد أن باربارا تخلّصت منها".

"لذلك أنت من تخلّص منها، أليس كذلك؟".

"صحيح. مزقتها إلى قطع صغيرة ثم وضعتها في المرحاض وجرفتها بالماء؛ حالما أدركت كل شيء في ذلك اليوم".

"وبالتالي أعدت العدالة".

"وبالتالي، لم تكن شهادتي في المحكمة نموذجاً للصدق. وكان ينبغي أن أقول الكثير مما لم أقله حينئذ، إذا كنت سأخبر الحقيقة الكاملة. ولكن، لا أعتقد أنّنى حنتت بالبعين. وبالتأكيد لم أكن أريد ذلك؛ فكنت سأحوال حياتي المهنية برمتها إلى نكتة. ولكن عندما توفيت أمك، قمت بتدمير الأدلة. لقد ضللت الشرطة. وأعدت العدالة".

"وما هو السبب؟".

"لقد أخبرتك مسبقاً. لم أكن أريدك أن تعرف كيف ماتت أمك، أو الدور الذي لعبه سلوكك الأحمق في ذلك. وحالما قرأت عن الفينيلزين، اعتقدت أن الاحتمالات كانت كبيرة جداً بأن يعتبر طبيب التشريح موتها ناتجاً عن فشل قلبي. وكنت أعرف أن مولتو سيكون العقبة الكبرى، وللهذا السبب كنت لأسعد كثيراً فيما لو تجنبنا الشرطة وطبيب التشريح، لكنك لم تسمح لي".

ينظر نات مطولاً إلى قهوته، ثم يقف ليملاً فجاجه مجدداً. ويضيف

حلبياً ثم يجلس، ويتخذ الوضعية نفسها. إني أعرف بماذا يفكر؛ إذا كان ينبغي أن يصدقني أم لا.

"أنا آسف يا نات. آسف لإخبارك بهذا. وأتمنى لو كانت هناك نتيجة أخرى يمكن استنتاجها. فهذا ما حصل. ولا يمكنك أن تتوقع ما سيحدث حالما تبدأ الأمور بالسير في الاتجاه غير الصحيح".

"لماذا لم تقل كل هذه الأشياء في المحاكمة يا أبي؟".

"إنها قصة لم أكن أرغب أن تسمعها حول أمك، نات. ولكن المشكلة الكبرى هي أن أعترف بأنني ضللت الشرطة ودمرت أوراق أمك. كما يقول القانون: كاذب في شيء واحد، كاذب في كل شيء. لم يكن المحلفون سيعاطفون مع قاض يفعل هذه الأمور. لقد قلت القدر الذي كان باستطاعتي قوله من الحقيقة، يا نات، وأنا لم أكذب".

ينظر إلى مطولاً - السؤال نفسه لا يزال يدور في ذهنه - فأقول له: "وضعت نفسي في ورطة كبيرة يا نات".

"أود أن أقول" - يغمض عينيه ويحرك رقبته قليلاً - "ماذا ست فعل يا بابا مع نفسك؟".

"سأوقع الاتفاques التي أعدّها ساندي من أجلي عصر هذا اليوم".
"كيف حاله؟".

أنقر بظاهر مفصل يدي على الطاولة.

"وما هي الصفة التي نظمها؟".

سأستقيل من القضاء، بسبب ما فعلته مع هارناسون، بشرط أن أحافظ براتبي التقاعدي. تسعون بالمائة من ثلاثة سنوات، لذا سأكون على ما يرام مالياً. لقد تركت أمك إرثاً محترماً لي أيضاً. وهناك حديث منذ الآن حول من سيخلفني في محكمة الاستئناف. وبالمناسبة، هل تريد أن تخمن الاسم الذي غالباً ما يسمعه ساندي؟".

"أهون. ج. كول؟".

"تومي مولتو".

يتسم ثم يقول: "وماذا حصل مع لجنة الانضباط في النقابة؟ وماذا

سيحل بشهادة المحاماة الخاصة بك؟".

"لا شيء. سأحتفظ بها. فالإدانة بإعاقبة العدالة لا تأثير لها. فهي إساءة سلوك قضائي بحثة لا تقع ضمن نطاق صلاحيات لجنة الانضباط التقليدية".

"وماذا ستعمل؟".

"تحدثت مع مكتب المحامين الحكوميين في سكافاجيون. إنهم يحتاجون دائماً إلى يدين إضافيتين. وأعتقد أنه سيكون أمراً ممتعاً بعد العمل كمدع عام وقاض. فلا أعرف ما إذا كنت سأبقى هناك دائماً، أو أحاول العودة في النهاية. سأدع الأمور تهدأ سنة أو سنتين، ثم أعطي الناس وقتاً لينسوا التفاصيل".

ينظر نات إلى وتغزور عيناه بالدموع مجدداً.

"إنني فقط أشعر بالأسى على أمري. أعني، فكر في الأمر يا أبي. إنها تتبع تلك الأقراس عالمه بما تفعله لنفسها. وبدلاً من الذهاب إلى الإسعاف، تأخذ قرصاً منوماً وتخلد إلى النوم بجانبك كي تموت".

"أعرف".

ينظر أنفه مرة أخرى، ثم ينهض ويتوجه إلى الباب الخلفي. فأقف على بعد ثلاث خطوات خلفه، أراقبه وهو يمسك بقبضه الباب.

"آمل ألا تمانع قولي هذا، لكنني ما زلت أعتقد أنك لم تخبرني كل شيء يا أبي".

يلنفت إلى ثم يعود أدراجه ويعانقني.

أقول له بينما نحن متعانقان: "أنا أحبك يا نات".

"وأنا أيضاً".

"بلغ تحياتي لأننا".

يهز رأسه ثم يغادر. أراقبه من نافذة المطبخ وهو يمشي في الشارع الفرعى المؤدى إلى المنزل باتجاه سيارة أنا الصغيرة. لقد ملأناه بمشاكلنا، أنا وباربارا، لكنه سيكون بخير. إنه رجل طيب، وبرفقة امرأة جيدة. وسيكون بخير. ولقد فعلنا ما بوسعنا من أجله، مع

أتنا وجدنا صعوبة في بعض الأوقات؛ مثل الكثير من الآباء في جيلنا. لكنني ارتكبت الكثير من الأخطاء في السياق . ولعل أفحدها كان عدم قبول حتمية التغيير منذ أكثر من عشرين عاماً. فبدلاً من تصور حياة جديدة، أكملت حياتي القديمة مرتديةً قناعاً طوال الوقت. وقد دفعت ثمن هذا الاختيار. عندما يكون مزاجي سيئاً،أشعر أن الثمن كان باهظاً جداً، وأشعر أن القدر فرض انتقاماً ظالماً علي . ولكن ، في معظم الأوقات، عندما أفكرا كم كان من الممكن أن تكون النتيجة أكثر سوءاً، أدرك أنني كنت محظوظاً . فهذا لا يهم على أي حال ، فأنا سأستمر في حياتي . ولا أشك في ذلك أبداً.

الأيام الأولى بعد خروجي من السجن لم تكن سهلة. فلم أكن معتاداً على الأشخاص الآخرين أو معتاداً على الكثير من الإثارة. وكنت متورتاً مع لورنا ، وفي الأسبوع الأول لم أنم في الليل فقط . لكنني عدت إلى نفسي في النهاية . كان الطقس رائعاً . وكنت أصحو من النوم قبلها ، ولكي لا أوقظها كنت أجلس في الخارج مرتديةً ثيابي الصوفية ، أراقب المطر وأشعر بروعة الحياة ، عالماً بأنه لا تزال لدي فرصة لأقوم بشيء أفضل لنفسي .

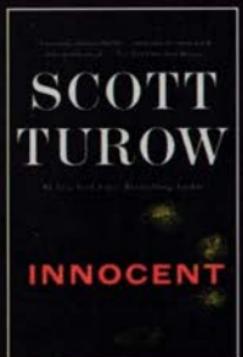
أتجه الآن إلى غرفة المعيشة ، حيث الرفوف مزينة بغاية من صور العائلة؛ صور أبي وأبوي باربارا - كلهم رحلوا - وصورة زفافنا ، وصور باربارا وأنا مع نات في مراحل متنوعة من حياته . حياة كاملة . انظر بشوق إلى صورة لباربارا التقطت في سكافيون ، إنها تقف قبالة الكاميرا مع ابتسامة صغيرة ونظرة صفاء محيرة .

أفكر غالباً في ساعات باربارا الأخيرة ، وبالطريقة نفسها التي يفكر فيها نات الذي كان دائماً سريعاً في الإحساس بألمها . وأنا واثق بأنها أخذت وقتاً كافياً للتتوقع ما سيحدث . وعندما ظهرت تلك الرسالة على الحاسوب خلال المحاكمة ، تساءلت عما إذا كانت قد ماتت وهي تأمل أن يbedo ذلك وكأنني قتلتها؛ فزرعت البطاقة بطريقة ما كنوع من الانتقام . ولكنني الآن واثق بأن نات كان محقاً . فقد كانت لحظات باربارا الأخيرة

بائسة إلى حد بعيد، وخاصة لأنها لم تحصل مني على الحب الكافي. خلال الأشهر التي مرت علىَّ في انتظار المحاكمة، فكرتُ في باربارا أكثر بما لا يقاس من تفكيري في أنا، التي كنت قد نجحت أخيراً في نسيانها. وكانت آتي وأنظر إلى هذه الصور وأحزن على زوجتي، وأشناق إليها في بعض الأحيان. وأتمنى لو كان باستطاعتي القول إنني فعلت كل ما بوسعي من أجلها، لكن هذا ليس صحيحاً. وبعد مرور ما يقرب من أربعة عقود، ما زلت لا أعرف بوضوح ما كنت أريده منها بشدة، بحيث أبقاني ذلك ملتصقاً بها بعكس ما يقتضيه المنطق السليم. ولكن، مهما يكن فذلك أصبح من الماضي الآن.

أقف في غرفة المعيشة، وأربأْت على جيوب قميصي وسرروالي لأتأكَّد من أنني أحمل كل شيء، ومن أنني موجود، بمعنى من المعاني. وبعد دقيقة من الآن، سأتجه إلى مكتب ساندي في مركز المدينة كي أوقع على نهاية عملي في القضاء في تسوية نهائية لكل الأخطاء التي ارتكبها في السنتين الأخيرتين. ولا بأس في هذا. فإنني مستعد لاكتشاف ما سيحدث تالياً.

[انضم إلى مكتبة .. اضغط هنا](https://t.me/t_pdf)



بعد أكثر من 25 عاماً من المواجهة الأولى بين راستي سابيتش وتومي مولتو في جريمة القتل المخطمة، هما يقعان في شرك المواجهة مجدداً. تجاوز سابيتش الآن الستين من عمره، وهو رئيس المحكمة العليا. استيقظ في صباح أحد الأيام ليجد زوجته قد فارقت الحياة في ظروف غامضة. إلا أن مولتو يكون له بالمرصاد ليتهمه للمرة الثانية بالقتل.

من خلال بصيرته الناذنة في كل من حقائق النفس البشرية، وإجحاف نظام العدالة الجنائية، يثبت سكوت تورو مرة أخرى أن بعض الكتب قادر على إجبارنا على متابعة مطالعتها بشغف حتى وقت متاخر من الليل لمعرفة من الجاني.

يهدي سكوت تورو قراء الروايات عملاً هو مثال عن غموض الدورادو. إن غموض جريمة القتل هو في الوقت ذاته كنز أدبي أيضاً، كُتب بلغة متألقة وواضحة، ويرجع بصدق صدى بصيرة الكاتب المميزة. منذ زمن بعيد لم أقرأ عملاً رائعاً على هذا النحو. ضعوا هذا الكتاب في أعلى لائحة الكتب التي تودون قراءتها.

سكوت تورو مؤلف ثمانى روایات الأكثر مبيعاً، منها «البريء المفترض» (صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون) و«عبء الإثبات»، بالإضافة إلى كتابين أدبيين آخرين أحدهما بعنوان «آل وان» ويعرض فيه لتجربته في السنة الأولى في كلية الحقوق. ترجمت كتب وروایات تورو إلى أكثر من خمس وعشرين لغة، وبيع منها أكثر من خمسة وعشرين مليون نسخة عبر العالم. وبعضها كان موضوع أفلام ومسلسلات تلفازية. كما تظهر له بشكل متكرر مقالات رأي في كبرى الصحف العالمية مثل «نيويورك تايمز»، و«واشنطن بوست»، و«ذا نيويوركر»، و«ذا أتلانتك».

t.me/t_pdf



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-614-01-0454-9

9 786140 104549

جميع حقوقها محفوظة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com